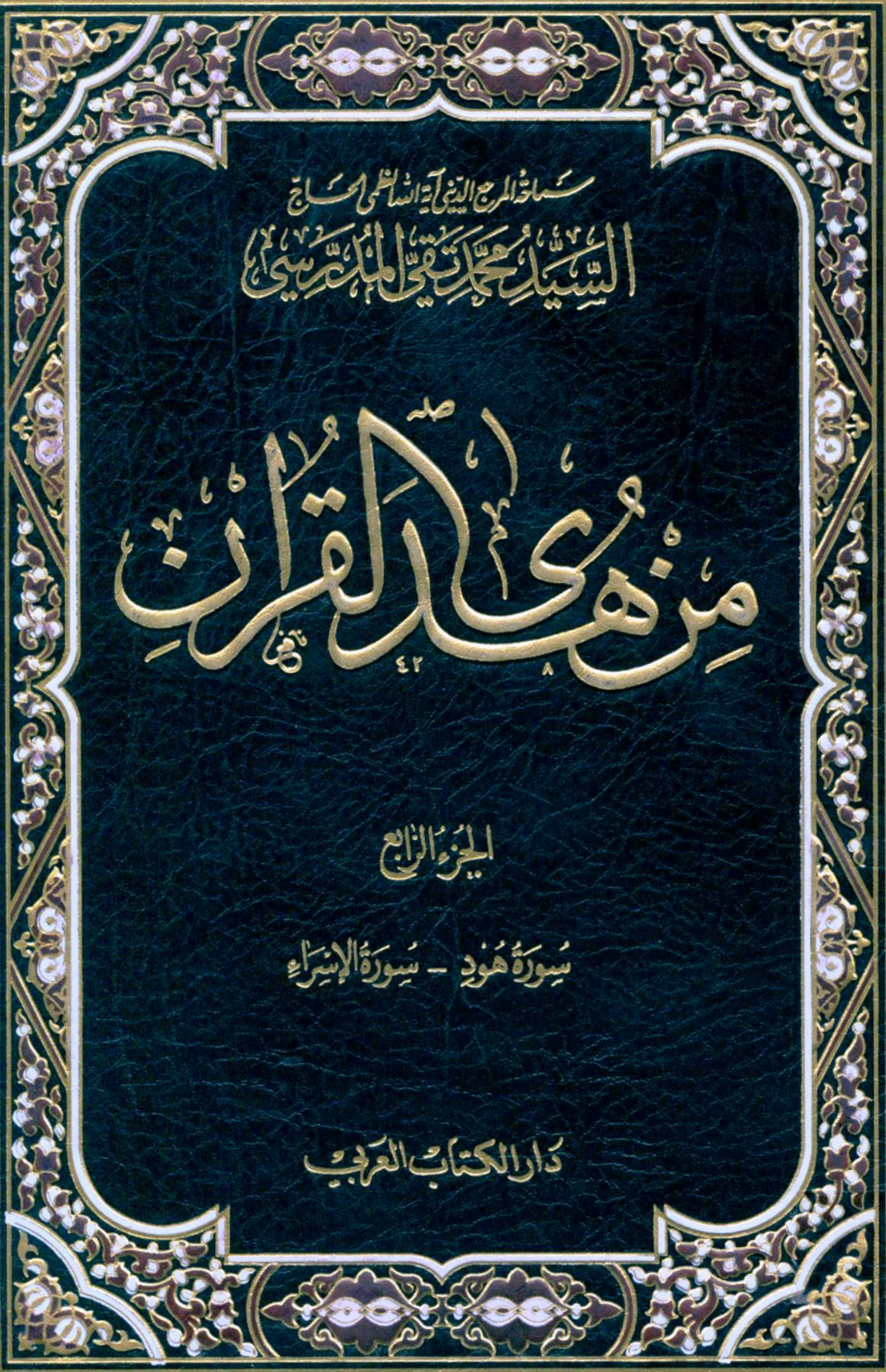

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء الرابع
سورة هود - سورة الإسراء
دار الكتاب العربي


والكاظمين الغيظ


من هدى القرآن
٤

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء الرابع

سورة هود - سورة الإسراء

دار القارئ



الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).

■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين



سُورَةُ هُودٍ

* مكيّة.

* عدد آياتها: ١٢٣.

* ترتيبها النزولي: ٥٢.

* ترتيبها في المصحف: ١١.

* نزلت بعد سورة يونس.

فضل السورة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ عليه السلام أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِنُوحٍ وكَذَّبَ بِهِ وهُودٍ وصَالِحٍ وشُعَيْبٍ ولُوطٍ وإِبْرَاهِيمَ ومُوسَى وكَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ السُّعَدَاءِ».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤١)

***

عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ والْوَاقِعَةُ والمُرْسَلاتُ و﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٧٢)

***

عن الامام الباقر عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي زُمْرَةِ النَّبِيِّينَ وحُوسِبَ حِسَاباً يَسِيراً ولَمْ يُعَرَّفْ لَهُ خَطِيئَةٌ عَمِلَهَا يَوْمَ القِيَامَةِ».

(مستدرك الوسائل: ج ٦ ص ١٠٣)

الإطار العام

الاستقامة طريق الجنة

لعل (الآيات: ١١٢-١٢٠) في نهاية السورة تحدد الإطار العام لها، حيث تأمر الرسول بالاستقامة، والابتعاد عن الظالمين، وإقامة الصلاة، والصبر، والإحسان.

كما تذكّره بدور بقية الله -ممن ينهون عن الفساد- في التاريخ، وكيف أن الله أنجاهم وحدهم، بينما أهلك الظالمين الذين اتبعوا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين.

وتبين أن الله لم يهلك القرى إلا حين انعدم الصلاح بينهم.

وأن الاختلاف سنّة تاريخية بين الناس، وأن الله لم يخلق الناس ليعذبهم -بل ليرحمهم- بيد أنه قد قضى بأن يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين.

وأن القصص التي ذكرها الرب كانت بهدف تثبيت فؤاد الرسول، وبيان الحق، وتوفير الموعظة والذكرى للمؤمنين.

وتكاد تكون آيات سورة هود تفصيلاً لهذه البصائر المحكمة ببيان جوهر رسالات الله التي حملها النبيون عليهم السلام إلى الناس، وتحملوا -من أجلها- ألواناً من العناء، وأنجاهم الرب من بطش قومهم، وأنزل العذاب الأليم على الكافرين برسالاته.

وهكذا؛ أضحت الرسالات هذه محور النجاة والعذاب، فمن اتبعها أنجاه الله، ومن خالفها لحقه العذاب واللعنة في الدنيا، والنار والشقاء في الآخرة.

إنَّ جوهر رسالات الله، وفي طليعتها رسالة القرآن التي أُحكمت آياته ثم فصلت، هي توحيد العبودية لله، والإنذار والبشارة، والأمر بطلب المغفرة من الرب في الدنيا، والتوبة إليه لضمان حياة سعيدة (الآيات: ١-٣).

ثم اتقاء يوم البعث، والخشية من الله الذي يعلم سرهم وإعلانهم ويعلم كل شيء. أو ليس قد خلق السماوات والأرض في ستةأيام؟ والهدف هو ابتلاء الناس.

ولئن تم تأخير العذاب عن هؤلاء الذين كفروا بالله ورسالاته وبيوم الدين، فلأنه يوم يأتيهم لا يؤخر عنهم (الآيات: ٤-٨).

وبعد بيان طبيعة الجزع عند البشر إلا المؤمنين منهم، يثبّت القرآن فؤاد النبي ﷺ بأنه منذر. أما المنتقم فهو الله الوكيل على كل شيء، ثم يأمره بتحديهم بأن يأتوا بمثل القرآن، وإذ يظهرون عجزهم فليعلموا أن القرآن أنزل بعلم الله (الآيات: ٩-١٤).

ثم يذكّر القرآن بأن للعمل جزاءه، فمن عمل للآخرة فإن جزاءه يوفى إليه هناك، وفي الدنيا يُعطى له نصيب منه، ومن عمل للدنيا يُعطى كل جزائه في الدنيا وليس له في الآخرة إلا النار (الآيات: ١٥-١٦).

ثم يبيّن القرآن أن هناك فريقين من الناس؛ المؤمنون الذين هم على طريق هدى، والكافرون الذين تشتتوا أحزاباً مختلفين. وبينما المؤمنون هم على بينة من ربهم ترى الكافرين يفترون على الله الكذب ظلماً لأنفسهم، ولابد أن يكونوا هم الأخسرين يوم القيامة (الآيات: ١٧-٢٢).

ثم يشير إلى أن عاقبة المؤمنين الصالحين الذين أخبتوا إلى ربهم هي الجنة لأنهم أصحاب سمع وأبصار، بينما الكفار كالأعمى ولذلك فهم لا يهتدون سبيلاً (الآيات: ٢٣-٢٤).

وهكذا جاءت رسالات الله على لسان النبي نوح عليه السلام، وكانت فصول الصراع بينه وبين قومه تعكس حالة العناد عند قومه، وقوة الاستقامة عند النبي نوح عليه السلام، وانتهى الصراع بالطوفان، حيث أنجى الله نوحاً والذين آمنوا، وأغرق الظالمين، وبينهم ابن النبي نوح الذي لم يغن عنه أنه كان ابن نوح، لأن محور النجاة هو توحيد الله (الآيات: ٢٥-٤٩).

ومن بعد النبي نوح عليه السلام جاء النبي هود عليه السلام يدعو قومه عادًا بتلك الرسالات، فلم يستجيبوا له، وجرى بينهم صراع مشابه: عاندوا، فتحدّاهم، وأيده الله وأهلكهم بعذاب غليظ (الآيات: ٥٠-٦٠).

وكذلك ثمود حين جاءهم أخوهم صالح عليه السلام، وأمرهم بتوحيد عبادة الرب، وجاءهم بآية هي ناقته التي لم يلبثوا أن عقروها، فجاء أمر الله، ونجى عبده ورسوله صالحاً، وأخذت الذين ظلموا الصيحة (الآيات: ٦١-٦٨).

وهكذا؛ إبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، وبالرغم من أن جوهر رسالات الله واحد، إلا أن هناك بعض التفاصيل المختلفة بسبب اختلاف الظروف نقرؤها في (الآيات: ٦٩-١٠٠).

وبعد بيان كل تلك القصص يبين السياق العبرة منها، ويذكّر بالقيامة، حيث أن عذاب الله في الدنيا، آية عذابه في الآخرة، كما أن رحمته ونجاته هنا آية نعيم الجنة التي وهبها للمؤمنين، وأن تأخير يوم القيامة ليس بلا حدود، بل إن هناك أجلاً معدوداً ينتهي إليه التأخير. فنحن نقترب إليه على قطار الزمن، وحينئذ يظهر سلطان الله، حيث لا تستطيع أي نفس أن تتحدث إلا بإذن الله، وينقسم الناس إلى سعداء وأشقياء (الآيات: ١٠١-١٠٨).

ثم تعالج الآيات فيما بعد قضية تكريس الإيمان بالآخرة في واقع الدنيا، فنهى الرسول من الشك في ضلالة الكافرين فيما يعبدون من آلهة، وأنهم ليسوا أفضل ممن سبق من المشركين، وأن الله سيوفيهم جزاءهم العادل دون نقصان، ومثل هؤلاء إنما هو كمثل الذين اختلفوا في كتاب موسى فأعطاهم الله فرصة الامتحان بكلمة سبقت منه سبحانه، ولولاها لقُضي بينهم بتأييد الصادقين منهم ضد أعدائهم، وذلك بسبب شكهم المريب في صدق الكتاب الذي اختلفوا فيه (الآيات: ١٠٩-١١١).

وبعد ذلك يذكّر القرآن رسول الله صلى الله عليه وآله بضرورة الاستقامة، وهو الأمر الذي شيب الرسول صلى الله عليه وآله كما جاء عنه في حديث مشهور (الآية:١١٢).

كما يبين الله لنا الموقف الإيماني السليم من الكافرين والظالمين، حيث تحرم مودتهم والركون إليهم، ثم الاستعانة بالصلاة والصبر وانتظار الفرج الموعود، وكذلك العمل على تشكيل جبهة الصالحين في إطار مقاومة الفساد المستشري (الآيات: ١١٣-١١٧).

في نهاية سورة هود يجيب القرآن الحكيم على هذا السؤال:لماذا الصراع؟ ألم يكن ربنا قادراً على توحيد الناس؟ فيقول:بلى، ولكن الدنيا دار عمل وانتظار، وسيبقى الناس مختلفين -إلا من رحم الله فهداه الى صراط مستقيم- والتاريخ صورة لهذا الصراع الممتد، والله يقص علينا من انباء الرسل ليثبت بها قلب الرسول وقلوب المؤمنين، وليوضح الحق، وليلقي بالمواعظ، وليذكر المؤمنين، فالله قد أعطى في دار الابتلاء فرصة لكل الناس، ليعملوا، والمؤمنون بدورهم يعملون، ولينتظر الجميع.

والله محيط علما وقدرة بغيب السماوات والأرض وبما في مستقبل الأشياء وبحاضرها أيضا، فعلينا أن نعبد الله، وأن نتوكل عليه فالله ليس بغافل عما يعمله الناس، فعلمه وقدرته

محيطة بما يعملون (الآيات: ١١٨-١٢٣).

وهكذا ينهي القرآن سورة هود ببيان ضرورة التوكل على الله، وقد دارت أكثر آياته حول هذا المحور العام.

كتاب احكمت آياته ثم فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾.

هدى من الآيات:

ما هو الكتاب؟ إنه آيات محكمة قد اتقنتها حكمة الرب، ثم فصلتها وأوضحت الحقائق بها، والذي بعث بالكتاب هو الرب الحكيم الذي يمنع الفساد، ويخلق الصلاح، والخبير العالم بألطاف الأمور سبحانه.

ومن محكمات آيات الكتاب التذكرة بالله، والأمر بأخلاص العبودية له، وأن الرسول نذير وبشير منه، وكلما ابعدت الخطايا والذنوب والغفلات البشر عن رحاب ربهم، فعليهم ان يستغفروه ويتوبوا إليه ابتغاء الحياة السعيدة في عاجل الدنيا حتى يبلغ أجله، وابتغاء فضل الله، وإذا استمر البشر في غيه، وتابع سيرة الضلالة والانحراف، فإنه يخشى عليه من عذاب يوم كبير، وغدا حينما يرجع البشر إلى ربهم، يبعثهم من جديد بقدرته الواسعة.. آنئذ يحاسبون عند الله.

بينات من الآيات:

[١] ماذا تحمل هذه الكلمات الثابتة المكتوبة ﴿الر﴾ في طياتها؟ إنها تحمل آيات تشير إلى

الحقائق، تذكر بها وتهدي العقول إليها.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ فالقرآن ليس أفكارا بل هو آيات تشير مباشرة إلى الحقيقة لكي يراها البشر فور ما تشير إليها، والآية بمعنى العلامة والكلمة مأخوذة من مادة (أوى) بمعنى الذهاب إلى البيت وكأن العلامة تذهب بك إلى رحاب الحقيقة ذاتها، والقرآن هو ذلك الكتاب الذي يبصرك بالحقائق.

وآيات القرآن محكمة ومفصلة، أما الإحكام فهو آتٍ من حكمة الله، التي لا تدع ثغرة في كلماته، ولا سبيلا للباطل إليها، بل يصب الكلمات على مقياس الحقيقة دون زيادة بوصة او نقيصة بوصة، أو فراغ في جزء، فهو يقول كل الحقيقة وبكل أبعادها، وأما التفصيل فهو تحديد تلك البصائر المحكمة ضمن واجبات ومحرمات فرعية، فالقرآن مثله مثل الشجرة راسخة الجذور منتشرة الفروع.

والإحكام بحاجة إلى حكمة، فمن لا يعرف الخطوط العامة لأنظمة الحياة، كيف يتسنى له أن يضع برنامجا متكاملا لها، ويعطي رؤية صادقة، كما أن التفصيل بحاجة إلى خبرة ومعرفة سابقة لدقائق الأمور ولطائفها، والله حكيم خبير ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وتلك الحكمة التي نشاهدها في الاطار العام للكون، وتلك الخبرة التي نراها في أدق الأمور، وألطفها مثل صنع أوجه النملة ومفاصل أرجلها، أو في صنع الخلية الحية، أو صنع الذرة المتناهية في اللطف. إن كل ذلك شاهد على حكمة الله وخبرته، وأن خالق المجرات الحكيم وصانع الذرة الخبير، هو الذي أمر بحكمته إخلاص العبودية له، ووضع بخبرته برنامجا تفصيليا لهذه العبادة.

التوحيد وفروعه

[٢] ومن الآيات المحكمة الموجودة في الكتاب دعوته الصريحة إلى نبذ الشركاء من دونه ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ إذ أن التوحيد بصيرة عامة تتفرع عنها سائر الشرائع الألهية، وبعدها تأتي الرسالة التي هي بدورها فرع من فروع التوحيد ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾.

[٣] واستغفار الله فرع ثان للتوحيد. إذ حينما يعمر قلب الفرد بإيمان صادق بالله، ويعرف عظمته وكبرياءه ونعمه التي لا تحصى، آنئذ يشعر الفرد بالصغار أمام الله، ويستغفره ويتوسل إليه، لذلك جاء في آية اخرى ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد: ١٩] حيث أن الاستغفار جاء بعد الإيمان بالله لأنه فرع متصل به، وبعد حالة الاستغفار تأتي مرحلة التوبة وهي العودة إلى الله وخلوص العبادة له وإخلاص العمل في سبيله، فلا يكفي

الندم على ما مضى من الذنوب، بل لابد من إصلاح المستقبل.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ وبالاستغفار والتوبة يوفر الرب لعباده حياة طبيعية هنيئة، إلى وقت محدود.

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي كلما زاد الفرد من تقربه إلى الله، واستغفاره له وتوبته إليه، كلما منحه الله فضلاً أكثر.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ من نوع عذاب عاد وثمود، حيث أنه في يوم واحد حطم مكاسب دهر طويل. لذلك سُمي باليوم الكبير.

[٤] وبعده يعود الناس إلى الله، حين يبعثون في يوم القيامة إلى الله، وذلك بقدرته البالغة التي لا يقف في طريقها شيء ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويبدو من هذه الآية ومن آيات أخرى أن أهم حاجز نفسي أمام إيمان الناس بالقيامة، هو عدم إيمانهم بقدرة الله على البعث الجديد، لذلك يذكرنا السياق -بعد ذكر القيامة- بقدرة الله.

إحاطة علم الله

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ[1] صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ[2] مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ[3] يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ[4] مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس الأول من سورة هود، بين القرآن بعض الآيات المحكمات واستعرض الخطوط العريضة للرسالة، وفي هذا الدرس يدخل الكتاب في التفاصيـل، بدءاً بواقع كفر وجحود الناس، ويبدو أن أحد الأسباب الأساسية للجحود هو الجهل بإحاطة علم الله بهم، وبالدوافع الأصلية لكفرهم، فتراهم يثنون صدورهم ويعطفونها بهدف إخفاء حقيقتهم بينما الله يعلم أسرارهم حتى في لحظة تسترهم بالثياب.

وكل حي يدب في الأرض رزقه على الله، ويعلم أيام حياته، وميعاد موته. كل ذلك

(١) يثنون: أصل الثني العطف، والمقصود يطوونها على العداوة وعلى ما هم عليه من الكفر.

(٢) ليستخفوا: الاستخفاء طلب إخفاء الشيء.

(٣) يستغشون ثيابهم: يتغطون بثيابهم.

(٤) أمة: حينٌ من الزمان.

مكتوب في الكتاب الواضح، والله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكانت سلطته وقدرته مهيمنة على الماء المخلوق الأول الذي جعل منه كل شيء حي. وحكمة الخلق هي ابتلاء الناس ليعلم من هو الأحسن عملا، فيجازى في الآخرة، بينما لا يؤمن البعض بالآخرة، ويزعمون أنها سحر مبين، الغاية من طرحه تمويه الحقيقة، أما لو أخر الله عنهم عذاب الدنيا الذي هو طريق آخر لتنبههم فستراهم ينكرونه أصلاً، ويقولون: ما الذي يحبس العذاب عنا ما دمنا مستحقين له، ولا يعلمون أن العذاب لو نزل بساحتهم فلا يصرف عنهم، وسوف يحيط بهم ذلك الذي كانوا به يستهزؤون.

بينات من الآيات:

إحاطة علم الله

[٥] الكفار يثنون صدورهم، استخفاء للحقيقة، فتراهم يسرون في قلوبهم وكأنهم يطوون صدورهم فوق الشر، ويعطفونها عليه، أو كأن المرء منهم حين يريد أن يقول سراً ينحني وينثني -تبعا لذلك- صدره، ولكن هل ينفعهم ذلك شيئا. كلا.. لأن الله عليم بسرهم وعلانيتهم، وما يتداخل في صدر البشر من شهوات وأهواء وعوامل مختلفة للرفض والإنكار كالاستكبار والجهل واللامبالاة وحب الدنيا والدعة.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ في اللحظات التي يختلون بأنفسهم تحت غشاء الثياب، حيث يبقى الفرد ووجدانه ويحاكمه وجدانه على إنكاره للرسالة، وكذبه ونفاقه، والله شاهد آنئذ عليه ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

[٦] وعلم الله محيط بكل شيء وكذلك رحمته، فهو الذي يرزق كل دابة في الأرض، فكيف لا يعلم بها ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي يعلم حياتها وموتها.. أو في بيتها وفي رحلتها ﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مكتوب بوضوح وبتحديد.

الكفار بين عذاب عاجل وآجل

[٧] فالله محيط علما ورحمة بما في الأرض من دابة، وقبل ذلك خلق السماوات والأرض في ستة أيام خلقا بعد خلق، فارضاً هيمنته وسلطانه على الكون، وفي ذات الوقت ناشراً رحمته

وبركته في ستة أيام.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ يبدو أن عرش الله هو قدرته وسلطانه، ولأنه لم يكن آنئذ شيئا، غير مادة سائلة كالماء، فان عرش ربنا كان مستويا على الماء والله العالم.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إن حكمة خلق البشر هي امتحان إرادته وعقله، وهذه الحكمة لا تتحقق من دون الإيمان بالآخرة، ولأنهم يكفرون بالآخرة تراهم لا يخضعون للرسالة الإلهية.

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يبدو أن الكفار كانوا يتخذون موقفا سلبيا من الرسالة ومن توجيهاتها، ويعتبرون كل كلماتها تمويها وتضليلا -كما السحر- فلا يفكرون فيها ليعرفوا صحتها، بينما لو تدبروا قليلا في خلق السماوات والأرض لرأوا آيات الحكمة، وأن تطور الكون وتكامله، وتحقيق كل جزء منه لغاية معينة، شاهد على أن البشر خلق أيضا لتحقيق هدف محدد، وأنه لا يكون إلا بالابتلاء، وتمام الابتلاء هو الجزاء في يوم البعث.

[٨] والجزاء آت عاجلا أم آجلا، وإن تأخيره ليس إلا لحكمة مثل الابتلاء، بيد أنهم يتخذون من هذا التأخير مبرراً للكفر والجحود.

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ إن التأخير ليس بلا خطة حكيمة وتقدير رشيد، إنما هو لوقت معين (أمة معدودة) ولكنهم يتساءلون عن سبب تأخيره، وكأن التأخير دليل عدم العذاب، وهذا من أبرز نواقص البشر، أنهم يخشون الجزاء العاجل، ويكفرون بالجزاء الآجل، ولكن عليهم أن يعلموا.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فلقد كانوا يستهزؤون بالعذاب، وها هو محيط بهم، يحاصرهم دون أن يقدروا على رده، بينما استهزؤوا سابقا به.

الإنسان بين اليأس والفخر

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)﴾.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس يذكرنا اللـه بما فطر عليه البشر قبل التربية والتزكية من صفات جاهلية. إنه يتعرض لليأس والكفر بالنعم إذا فقد نعمة.

أما إذا أصاب نعمة بعد شدة، يزعم أن هذه الحالة ستبقى عنده، فينغمس في غمرات الفرح والفخر، أما الصابرون الذين يقيمون الأحداث كلها السابقة والقادمة والحاضرة تقييما سليما فحالتهم مختلفة، فهم ليسوا بحيث تفقدهم النعمة أو الشدة توازنهم ولذلك فلهم مغفرة وأجر كبير.

والرسول ينبغي أن يجسد أعلى الصفات الحسنة ومنها الاستقامة، فلا ينبغي له أن يهتز

للمواقف الجاهلية التي تنبع من هذه النفسية الضيقة الأفق، التي تطالبه بكنز ينزل عليه، أو ملك يساعده، أو ما يقولونه:إن الرسول قد افترى الرسالة، بينما يتحداهم القرآن بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات بمستوى القرآن في علمه وبلاغته، ويقارنوها مع القرآن، ويشهدوا على ذلك بمن شاؤوا ان كانوا صادقين في اتهام القرآن بأنه مفترى.

ولكنهم لا يستجيبون حتما لهذا التحدي ولابد أن نعلم إن الذي أُنزل إنما أُنزل بعلم الله وهو صنيعة ذلك العلم المحيط بكل شيء، وعلينا أن نسلم للقرآن بكل جوانحنا وجوارحنا.

ويبدو أن هذا الدرس تمهيد لبيان حقيقة الرسالة وقصص استقامة الرسول ضد خرافات الجاهلية.

بينات من الآيات:

بين النعماء والضراء

[٩] ما دامت النعمة من الله، فزوالها عن البشر لفترة أو وجودها عنده في وقت آخر ليس دليلا على بقائها أو زوالها إلى الأبد، اذ أن تلك القدرة التي منحت النعمة أو إزالتها إنما لحكمة بالغة، والله قادر على أن يعيدها وفق تلك الحكمة ومع توافر شروطها، لذلك لا ينبغي أن يحيط اليأس بالبشر عند افتقاد النعم، ولا يجوز أن يكفروا بسائر النعم التي اسبغها الله عليهم، ويلبسوا نظارة سوداء يبصرون الحياة من خلالها، فلا يرون شيئا إلا ملبسا بالسواد ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.

[١٠] وعند النعماء وهي حالة هبوط النعمة التي لو جاءت بعد الشدة والضراء لكانت أعمق أثرا في النفس ولذلك قد تفقد توازن الانسان، ويحسب أن الصعاب قد ودعته إلى الأبد، فيستبد به الفرح والسرور البالغ، ولا يرى أي نقص أو عجز في ذاته، بل يظل يركز نظره حول تلك النعمة ويفتخر لها ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

[١١] وسواء الكفر ونكران النعم، أو الفخر والغفلة عن النواقص، فإنها من صفات الإنسان قبل أن تزكيه الرسالات السماوية، التي تبين له أن النعمة إذا جاءت فهي محكومة بشروطها وأهدافها، والحِكَم التي ورائها، وكذلك النقمة، وأن على الانسان ألا ييأس مع زوال النعمة التي هي (رحمة الله) ولم تكن جزءا من ذات البشر. لأن هذه النعمة قد تعود إليه هي أو أحسن منها، ثم لأن هناك نعما أُخرى أعظم منها لا تزال قائمة عنده فباليأس والكفر سوف

تزول -لا سمح الله- تلك النعم أيضا، فلا يخرجك الفرح عن طورك وتفتخر بالنعمة، فإن هناك نواقص كثيرة لا تزال تحيط بك، وعليك أن تعمل من أجل إصلاحها جميعا. وهكذا تجد المؤمنين صابرين يقيمون الأحداث جميعا، فيبصرون في أيام شدتهم أيام رخائهم المنتظرة، ويتذكرون أيامهم الماضية، ويعلمون أن الحياة في تغير دائم، وأن سبب التغير المباشر وغير المباشر هم أنفسهم فعليهم إذن أن يعملوا صالحا في أيام الشدة لكي لا تدوم، وفي أيام الرخاء لكي لا تزول، ولكي يبلغوا درجات أعلى منه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ يغفر الله ذنوبهم فترتفع اسباب الشدة، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بسبب اعمالهم الصالحة فهم في تقدم مستمر.

إنما انت نذير

[١٢] لأن رسالات السماء جاءت لتزكية البشر، فيجب أن يستقيم الرسل في إبلاغها حتى ولو عارضت أهواء الناس، وليس لهم أن يتركوا بعض الرسالة تنازلا لرغبة الناس أو خشية من غضبهم لأنهم آنئذ لا يقدرون على تحقيق هدف الرسالة وهو إصلاح ما فسد من الناس، ولقد رأينا في الآيات السابقة كيف أن الإنسان بطبعه جاهل وعجول لولا التربية الإيمانية، إذ على الرسول الاستقامة في إصلاحه حتى يخرج من هذه النفسية الجاهلية.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ كلا عليك أن تبقى صابراً أمام ضغط أهوائهم ودعاياتهم التي منها: ﴿أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ إنهم لا ينتظرون قليلا حتى يروا أن تطبيق الرسالة كفيل بأن يفتح لهم أبواب الرحمة، وأكثر بكثير من مجرد كنز ينزل على الرسول، وأن انتصارات الرسول ﷺ أكبر من مجرد نزول ملك معه، لأن (روح القدس) -وهو أعظم ملك- يهبط معه، ولكنهم لا يفقهون هذه الحقيقة.

إن عملهم وليس أي شيء آخر يضمن مستقبلهم، وإنما دور الرسول هو التذكرة والتوجيه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ فالله هو الذي يوفر الحياة السعيدة بقدرته لمن يعمل بالرسالة، ويسلبها ممن يكفر بها.

فأتوا بعشر سور مثله

[١٣] ولا يسع الجاهليون إلا إنكار الرسالة واتهام الرسول ﷺ بأنه قد افتراه كذبا على الله تعالى، والقرآن يتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن افتراء على الله كذبا إن كانوا

صادقين ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

[١٤] ولكنهم فاشلون حتما في ذلك لأن القرآن جاء بعلم الله تعالى المحيط بكل شيء، فيه قيم خالصة من شرك الجاهلية ومن عصبياتهم، وقيم إنسانية سامية تتجاوز إطار القبيلة والعشيرة والقوم والأرض واللغة والدم، وسائر ما ابتلي به البشر منذ هبوطه إلى الأرض وحتى اليوم، وكل الكُتّاب والشعراء والمفكرين كانوا خاضعين لهذه القيم إلا الرسل والمخلصون من المؤمنين، كما أن القرآن حمل إلى الناس برامج لكل حقول الحياة مما عجزت ادمغة الفلاسفة وفقهاء القانون والسياسة والاقتصاد عن أن تبلغ جزءاً منه في مطابقتها لأنظمة الحياة، وسنن الطبيعة، وفي تناسقها ومتانة علاقاتها بطبيعة البشر، ودوافعه ودواعيه ونقاط ضعفه و.. و.. فهل يقدر البشر على مثله؟!.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وأن الإله الذي يجب أن يطاع، وتتبع مناهجه ورسالاته هو الله تعالى وعلى البشر أن يسلم نفسه لله ﴿وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

الإنسان بين الدنيا والآخرة

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ(١) ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

من الشبهات التي تحوم حول قلوب الكفار ضد الرسالة، ما يرونه من تقدم ظاهر في معيشتهم في الدنيا، والله يذكرنا في هذا الدرس بأن للعمل جزاءه، فمن عمل للآخرة فان جزاءه يوفر إليه هناك وفي الدنيا يعطى له نصيب منه، ومن عمل للدنيا فإن كل جزائه يعطى له في الدنيا دون أن يبخس منه شيء، ولكن ذلك يعني في المقابل أن جزاءهم في الآخرة هو النار، لأن ما عملوه في الدنيا من خير قد احبط وبطل، فلم يبق إلا أعمالهم السيئة ومسؤولياتهم التي لم يقوموا بها.

بينات من الآيات:

ما له في الآخرة من خلاق

[١٥] كثيراً ما يَخدع البسطاء من الناس ما يرونه من ازدهار وتقدم للكفار والمنافقين سواء لمجتمعاتهم أو لأفرادهم، ويزعمون أنه لو كانت الرسالة صحيحة وأنها على حق، وأعداؤها على باطل إذن لم يتقدم أعداء الرسالة في الدنيا؟ وينسى هذا الفريق الساذج من الناس حقيقتين:

الأولى: إن دار الدنيا دار ابتلاء واختبار، وإن الله لم يقدر الجزاء العاجل فيها لحكمة ابتلاء

(١) لا يبخسون: البخس نقصان الحق.

الناس بما يفعلون، واختبار وعيهم وعقلهم وإرادتهم وحسن أو سوء اختيارهم، ولو عجل ربنا في عقاب الكافرين أو ثواب المؤمنين، لانعدمت فرصة ابتلائهم، وكما جاء في الحديث عن الامام علي عليه السلام في موضوع الأنبياء إنه: **«لَوْ كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لا تُرَامُ، وَعِزَّةٍ لا تُضَامُ، وَمُلْكٍ يُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وَيُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَى الخَلْقِ فِي الاِخْتِبَارِ وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الاِسْتِكْبَارِ، وَلآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً»**[1].

الثانية: إن طبيعة عمل الكفار صلاح ظاهره وفساد باطنه، فهو كشجرة مسوسة أو بناء أنيق يكاد يتهدم بسبب تزلزل قواعده. وكل جزاء يرتبط بظاهر العمل، وصورته الخارجية، فإنه يعجل لهم دون نقيصة، بينما يبقى الجزاء الحقيقي الباقي لأولئك الذين يصلحون واقع عملهم.

فالشجرة المسوسة تعطيك البهجة والظل، ولكنها لا تعطيك الثمر، وهكذا العمل الذي يفقد عنصر الإيمان والصدق مثل الذي يرائي الناس في أعماله، يكسب بعض الشهرة عندهم، ولكن الصلاة التي يقيمها رياء لا تعرج بنفسه في سماء الفضيلة والتقوى، وكذلك المجتمع الكافر الذي يعمل من أجل الرفاه فقط فإن حياته المادية العاجلة سوف تتحسن ظاهراً، ولفترة محدودة اذ أن الذنوب والمعاصي، وظلم بعضهم لبعض، وظلمهم لسائر المجتمعات كل ذلك يصبح كالسوسة التي تنخر في أعماقهم حتى ينهار بناؤهم الأنيق، ويكون مصيرهم مصير عاد وثمود وأصحاب الرس وأصحاب الأيكة، الذين انهارت حضاراتهم التي اغتروا بها، وزعموا أنها خالدة ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾.

[١٦] ولكن مثل هذا الفريق مثل الشاب الذي يستنفذ كل طاقاته في أيام صحته وفراغه وقوته، فاذا حل بساحة الشيب لم يجد شيئا ينفعه.. أمواله صرفت، طاقاته استنفذت، وإمكاناته أنفقت، كذلك المجتمع الذي يفكر في لحظته لا يفكر في القيم ولا في المجتمعات الأخرى، ولا في مستقبله. إنه لا حظ له في الآخرة، بل إن أعماله السابقة تبطل لأنها لم تكن قائمة منذ البدء على أساس ثابت ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ لقد بنوا حضارتهم على قاعدة الاعتداء والظلم والفساد، فهي على شفا جرف هار، تنهار بهم في نار جهنم.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٢.

الخسارة عاقبة الكفار

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ (١) مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ (٢) هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا (٣) وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (١٩) أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ (٤) فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢) ﴾.

هدى من الآيات:

هناك فريقان في الناس لو قارنا بينهما لعرفنا إلى أي واحد منهما ينبغي الانتماء.

أولاً: المؤمنون الذين هم على طريق هدى بَيّنه لهم ربهم، ويقودهم شاهد من الله هو الرسول والإمام، وهم على خط تاريخي ذي تجربة غنية، حيث موسى الشاهد جاء بكتاب بَيِّن

(١) مرية: الشك.

(٢) الأشهاد: جمع شاهد.

(٣) عوجاً: العِوَج العُدول عن طريق الصواب.

(٤) معجزين: الاعجاز هو الامتناع عن المراد بما لا يمكن معه ايقاعه.

إماماً ورحمة.

ثانياً: الكافرون الذين تشتتوا أحزابا مختلفين، والنار موعدهم ومصيرهم فهل يبقى شك في أن الحق هو الذي يؤمن به المؤمنون، بيد أن أكثر الناس لا يؤمنون!.

وبينما المؤمنون هم على بينة من ربهم، ترى الكافرين يفترون على الله الكذب ظلما لأنفسهم، وغدا يعرضون على ربهم ليشهد عليهم الشهداء ويميزوهم، ويقولوا: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، وهؤلاء هم الظالمون، ألا لعنة الله على الظالمين.

ومن صفاتهم أنهم يصدون عن سبيل الله، ويريدونها منحرفة مثل مجتمعهم الزائغ ونفوسهم المعقدة، ويكفرون بالآخرة، ولكن أين يهربون، وهل يقدرون على الخلاص من عذاب الله، وهل هناك من ينصرهم ويمنع عنهم جزاء ربهم؟ كلا.. بل يضاعف لهم العذاب بقدر قدراتهم السمعية والبصرية التي لم يستفيدوا منها للهداية، والواقع أنهم خسروا أنفسهم، وما خولهم ربهم من طاقات وإمكانات، وأما مفترياتهم وأكاذيبهم فقد تبخرت ولابد بالتالي أن يكونوا هم الأخسرين في يوم القيامة لأنهم لا شيء يملكون. اللهم إلا جبالا من الذنوب!.

بينات من الآيات:

ومنهم من يؤمن به ومنهم من يكفر

[١٧] أي الناس أفضل حياة، وأرقى هدى: النموذج الإيماني أم الكافر؟.

قبل أن تختار طريقا انظر إلى مجمل حياة الذين سلكوه، فهناك المؤمن الذي يسير في طريق واضح المعالم بَيِّن الجوانب، أقام الله الحجة عليه، فهو واثق من طريقه، عالم به.. ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، وهناك شاهد قد اكتملت شخصيته الإيمانية بوحي الله وهو الرسول أو الإمام يتبعه، يشهد له بصحة طريقه، ويديره ويوجهه حتى لايضل ولا يغوى، وهذا الشاهد هو من عند الله، مبارك بالله، مؤيد بنصره، مسدد بنوره ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾.

وأكثر من هذا إن هذا الخط قديم قدم الإنسان وقد جربته البشرية عبر العصور، وكان أروع مثال للفلاح. وقد جاء في حديث عن أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ الحَلَّالِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الحَسَنِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ فَقَالَ: أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام: «الشَّاهِدُ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وَرَسُولُ الله صلى الله عليه وآله عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ»[1].

(١) الكافي: ج١ ص١٨١.

﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ﴾ فكتاب موسى كما القرآن كان بينة وطريقا سويا لا عوج فيه لمن أراد ان يسير عليه، وموسى شخصيا كان ذلك الشاهد الإلهي على قومه السائرين على نهج الرسالة، وبالتالي كان كتاب موسى إماما ورحمة، فهو من جهة هدى واستقامة وعلم وعرفان ومن جهة ثانية حياة وسعادة ورفاه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ فأولئك الذين هم على بينة من الله يؤمنون بالله وكتابه، وهذا هو نموذجهم، وهناك نموذج آخر هو نموذج الأحزاب المتفرقين في الدنيا المجتمعين في النار ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾.

فأمامك أحد النموذجين، وعليك أن تتجاوز الشك بعقلك وإرادتك وتؤمن به لأنه الحق ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وعليك ألا تعبأ بهذه الأكثرية الضالة التي لا تؤمن بالله، بل تبعد الشك عن نفسك وتؤمن به وتثق بعقلك.

[١٨] الله هو ذي العرش الذي يبتغي كل الناس السبيل إليه والاتصال بهداه، ولكن بعض الناس يسيرون في الطريق الصحيح فيبلغون مرادهم، والبعض تضلهم الأهواء، فيفترون على الله الكذب، ويدعون كذبا أنهم على سبيل الله، ولكن كم سيكون ذنب هؤلاء كبيرا وظلمهم لأنفسهم وللناس عظيما. إذ أنهم يحرمون الناس وأنفسهم من نور هدى ربهم؟! ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

صفات ادعياء الدين

[١٩] ما هو الأثر السلبي للتشريع البشري الخاطئ وللثقافة المادية الكافرة، أو للافتراء على الله؟. إنه يتلخص في ثلاثة:

أولاً: منع الناس عن السير في سبيل الله الذي يهدي إليه العقل والفطرة، ويذكر به الوحي ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلولا الثقافات المنحرفة، التي ينسبها أدعياء الدين إلى الله زوراً وبهتاناً، إذن لاهتدى الناس بالتذكرة.

ثانياً: طرح سبل منحرفة للناس والادعاء بأنها هي سبيل الله ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾.

ثالثاً: تحديد نظر الإنسان في الدنيا، وقتل طموحه الروحي، وتطلعه الفطري إلى الآخرة

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

ويبدو أن هذه الصفات الثلاث هي أيضا سمات أدعياء الدين الظاهرة التي يعرفون بها، فهؤلاء يمنعون الخير، ويجعلون من أنفسهم حجر عثرة عن تقدم الناس ورفاههم، ويعقدون الأمور، ويبغضون الرسالة إلى الناس، كما أنهم لا يذكرون الناس جديا باليوم الآخر.

[٢٠] ولكن أين يهرب هؤلاء الخونة بدين الله؟ وهل يقدرون الخروج عن سلطان الله؟ وهل هناك من ينصرهم من دون الله؟ كلا.. بل إن عذابهم مضاعف بسبب عملهم وقولهم الفاسد الذي انحرف به الناس.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ علماء السوء وأدعياء الدين يحتالون على الدين وكأنهم يفرون من أحكام الله، ومن فطرتهم وعلمهم، فهل يقدرون على الهرب أيضا من عذاب الله؟!.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ إن هؤلاء يغيرون الدين طمعا في استمالة الناس، وجمع المزيد من الأتباع، ولكن هل ينفعهم هؤلاء شيئا؟ كلا بل إن إغواءهم للناس يسبب تحمل أوزارهم مضافة إلى أوزار الذين أضلوهم.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ لقد فسرت هذه الكلمة الأخيرة على وجهين:

الأول: إنه يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون، وبما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون عنادا، وبتعبير آخر: لأنهم كانوا قادرين على السمع والإبصار بما وهب الله لهم من نعمة العلم والقرب من مصادر الهداية فلم ينتفعوا بهما.

الثاني: إنه لاستثقالهم استماع آيات الله، وكراهتهم تذكرها وتفهمها، جروا مجرى من لا يستطيع السمع والإبصار.

[٢١] وهل ربح هؤلاء شيئا، وهل يسمى الذين يخسرون مستقبلهم ومجمل فرصهم رابحين حتى لو اكتسبوا بضع دراهم أو مجموعة انصار؟!.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من الأراجيف التي جمعوا حولها الناس غرورا، فلا بقيت تلك الأفكار الباطلة التي زُيِّنَت لهم ولا أولئك المغرورين بها.

[٢٢] إنهم لابد أن يكونوا الأخسر من الناس لأنهم لم ينتفعوا بمواهبهم، وعوضا من أن يكونوا في مقام الأنبياء والصديقين بعلمهم وهداهم، ويؤجرون مرتين: مرة بعملهم الصالح، ومرة بما اهتدى الناس بهم، أصبحوا يعذبون عذابا مضاعفا بعملهم الفاسد، وبإضلالهم الناس ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ أصل الجرم القطع، ولا جرم تقديره لا قَطَع قاطع عن ذا، فهذه هي نهايتهم التي اختاروها لأنفسهم.

وكلمة أخيرة: حين نقارن هذه الآيات بالآية الثالثة عشرة نستفيد مقياسا مبينا للتمييز بين صاحب الرسالة الحق الذي لا يتنازل قيد أنملة عن رسالته برغم ضيق صدره، وازدياد الضغوط عليه، وبين الذي يضل الناس عن الحق طمعا في ولائهم أو رغبة في هدايا السلاطين.

انؤمن لك واتبعك الأرذلون

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا (١) بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

يبدو أن السياق القرآني يشرع منذ هذا الدرس في سـرد قصص الرسـل في انذارهم الشديد لقومهم، الذين كانوا يرفضون قبول الرسالة فيأخذهم الله بعذاب شديد، وذلك لعـدة اهداف منها تذكرة الناس بأن هذا القرآن واحد من النذر، وأن من يعـرض عنه يصاب بما أصاب أولئك، (وتشير إلى ذلك الآية الأولى من هذا الدرس).

ومنها تثبيت قلب الرسول والمؤمنين برسالته لكي يستقيموا كما أمروا، ولا يركنوا إلى الظالمين. جاء في الآية العشرين بعد المائة من هذه السورة: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ

(١) أراذلنا: الرذل الخسيس والحقير من كل شيء والجمع أرذل ويجمع على أراذل.

مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

إن عاقبة المؤمنين الصالحين الذين اطمأنوا إلى ربهم هي الجنة خالدين فيها، لأنهم أصحاب سمع وأبصار، بينما الكفار كالأعمى والأصم لا يهتدون سبيلا.

وقصة نوح مع قومه تكشف هذا الفرق بين الفريقين.. المؤمنين والكفار. حين أرسله الله إلى قومه لينذرهم أن لا يعبدوا إلا الله، وحذرهم إنه في غير هذه فسوف ينزل عليهم عذاب يوم أليم، فقال الملأ الذين كفروا من قومه: أنك واحد مثلنا، وإن الذين اتبعوك هـم من الطبقات السفلى من مجتمعنا، وإنه لا فضل لكم بالرسالة بل نظنكم كاذبين، فحذرهم نوح عليه السلام مرة أخرى قائلا: ماذا لو كنت صادقا، وإن عندي بينة من ربي وأنا مهتد بها إلى الصراط السوي، وآتاني رحمة من عنده، بينما أنتم لا ترون الطريق السوي، أو يمكن أن ألزمكم به وأنتم له كارهون؟!

وفي الدروس القادمة يتلو علينا القرآن سائر فصول القصة.

بينات من الآيات:

هل يستوي الفريقان؟

[٢٣] حين يكون الإيمان مستقرا في القلب، مستويا على عرش النفس، فإن المؤمن يشعر بالاطمئنان والسكينة والرضا، فلا يعمل إلا من أجل الله، وبهدف تحقيق مرضاته سبحانه، وجزاءه عند ربه الخلود في جنات الله الواسعة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الإخبات: الطمأنينة، وأصله الاستواء من الخبت، وهو الأرض المستوية الواسعة، فكأن الإخبات خشوع مستمر على استواء فيه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

[٢٤] الفريقان المؤمن المخبت والكافر، نموذجان مختلفان يعرف واقعهما بالمقارنة بينهما فهذا كما البصير السميع الذي يسير وفق عقله وهدى الوحي، بينما يتخبط الثاني كما الأعمى والأصم ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

والمسألة ليست بحاجة إلى المزيد من البحث، بل هي حقيقة واضحة معروفة لمن يلتفت إليها.

شيخ الانبياء وقومه

[٢٥] ويضرب القرآن أمثالا عديدة يقارن فيها بين الفريقين، وعاقبة كل واحد منهما، كما يبين من خلال هذه الأمثال -حقائق أخرى تمت التذكرة بها في بداية السورة-.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ الملاحظ بالتدبر في هذه الآية إن نوحاً عليه السلام أرسل إلى قوم كان منهم، وكان ذلك أبلغ في بيان الرسالة لهم، وأبعد عن العصبية، كما إن أهم بنود دعوته كان الانذار، وهو أبلغ أثرا في النفوس باعتبارها قد فطرت على الدفاع عن الذات، وإبعاد كل مكروه محتمل، والإنسان مفطور على الدفاع عن ذاته أكثر مما هو مفطور على جلب المنفعة لها.

[٢٦] وخلاصة دعوة نوح وهدف رسالته كانت عبادة الله وحده، ونبذ الشركاء، وحين ينبذ الشركاء تسقط السلطة السياسية، والمنهاج الاقتصادي والثقافي والسلطة الاجتماعية وكل ما يقوم على أساس عبادة الأوثان والشركاء.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إن مجرد الخوف من ذلك اليوم الذي ينشر فيه العذاب حتى يصبح اليوم ذاته أليما. حيث أن كل لحظاته تصبح ميعادا للعذاب، أقول: إن مجرد الخوف من ذلك اليوم يكفي البشر دافعا نحو الإيمان بحثا عن الخلاص.

[٢٧] أما جواب قومه فقد كان متوغلا في التحجر والمادية والطبقية.

أولاً: زعموا بأن صاحب الرسالة يجب أن يكون من غير البشر، وكأن البشر هو المخلوق العاجز عن حمل الرسالة، وهذا نوع سخيف من التحجر الجاهلي.

ثانياً: قاسوا الرسالة بمن يحملها أو من يبادر بالإيمان بها. ولم ينظروا إليها ذاتها باعتبارها قيم فاضلة، ودعوة إلى العدالة والهدى، وهذا نوع من المادية وتشييء القيم.

ثالثاً: نظروا إلى تابعي الرسالة من المستضعفين نظرة ازدراء بسبب تكبرهم وطبقيتهم.

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ الملأ هم الأشراف وعلية القوم، ولأنهم كفروا بالرسالة شأنهم شأن أغلب الذين هم من طبقتهم ولأنهم كانوا فاسدين، وكان من الصعب عليهم الخضوع لمن هو مثلهم، مما يدل على انحطاط نفوسهم، وانعدام الثقة فيها، لكل ذلك نعتوا

المؤمنين بأنهم من الطبقة الدنيا، وأنه من ينظر اليهم يعرف منهم هذا النعت ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ غافلين عن أن الرسالة ذاتها فضل كبير.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ وكان هذا الفريق يتبعون الخيال والظنون، ويرمون الأفكار الجديدة التي تخالف مصالحهم بأنها كذب، انطلاقا من عنجهيتهم وتكبرهم.

[٢٨] وأجاب نوح عليه السلام على شبهاتهم:

أولاً: بأنه على بينة من ربه، فهو بالرغم من بشريته فإنه يملك ما لا يملكون وهو الهدى، والحجة من ربه عليه.

ثانياً: إن المال الذي يفقده يعوض بها يؤتيه الله من رحمته الواسعة، التي هي أهم من المال. إذ أن الثروة لا تحل كل المشاكل بعكس رحمة الله التي تقضي على أكثر الصعاب.

ثالثاً: إن ظنهم الفاسد بكذبه عليه السلام، آت من عماهم، وعدم تفكرهم الجدي، وفي هذه الحالة لا يجبرهم نوح على الرسالة، وهذا الكلام قد يكون ردا على قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾.

حيث كانوا يزعمون: إن الرسول كالملك، يجب أن يملك قوة مادية قاهرة تفرض على الناس خطاً معيناً، بينها الرسول جاء من أجل الهداية التي لا تأتي من دون الاختيار والحرية ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي خفيت هذه البينة، وربيا البينة هي الصراط السوي أو الحجة الواضحة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

وما أنا بطارد الذين آمنوا

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ[1] أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

هدى من الآيات:

قوم نوح عليه السلام كما المستكبرين في كل عصر ردوا رسالة الله بسبب الظنون والشبهات، وشرع نوح عليه السلام في هذا الدرس ببيان واقع الرسالة ورد الشبهات والظنون الباطلة، فلقد زعم اولئك الجاهلون بأن نوحا يريد أن يتسلط عليهم، أو يغنى على حسابهم، وأزال نوح عليه السلام تخوفهم وقال:إنه لا يريد منهم مالا، ولكنه في الوقت ذاته لا يجعل المال مقياسا لتقييم الناس، فيطرد المؤمنين لأنهم فقراء، بل يقول:إن حسابهم على الله، وإنهم سيلاقون ربهم، أما قوم نوح فقد كانوا يجهلون، ويتخذون القيم الزائفة مقياسا لتقسيم الناس، وهذا تقسيم باطل لا يرضى به الله، والذي يطرد المؤمنين اعتمادا على مثل هذه القيم، بعيد عن رحمة الله، وغير منصور أيضا.

ثم رد نوح عليه السلام شبهة أخرى حيث بين أنه ليس برجل خارق يملك خزائن الله، أو يعلم الغيب، وأنه خلق من نور كالملائكة.

(١) تزدري: الازدراء الاحتقار، يقال زريت عليه إذا عبته.

ثم عاد وأكد عليه السلام على أنه لن يطرد المؤمنين الذين يقلل من شأنهم قومه

لأن الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا صادقين وافاهم أجلهم وأعطاهم الخير، فكيف يطردهم نوح فيصبح ظالما لهم.

بينات من الآيات:

الرسول وأولياء الرسالة

[٢٩] لأن الملأ من قوم نوح، وكذلك الملأ المستكبرين من كل قوم يستغلون الناس، ويستثمرون طاقاتهم، فلا يسعهم النظر إلى الأحداث إلا من خلال واقعهم الطبقي، لذلك يتهمون الرسل بأنهم إنما يريدون الثروة من وراء دعوتهم، وينفي الرسل بكل قوة هذه التهمة ليفصلوا بين دعوتهم الاصلاحية وبين دعوات الملأ التي تهدف المزيد من استغلال المستضعفين.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فنوح -شأنه شأن كل البشر- يطلب أجرا ويعمل لهدف، ولكنه لا يطلبه من الناس بل من الله، وبذلك أثبت نوح -مرة أخرى- الطابع الغيبي لرسالته.

ولأن نوحا عليه السلام لا يريد الانتفاع بعلمه ليصبح رقما جديدا في قائمة الملأ يتقاسم معهم المكاسب الآتية من ظلم الناس واستغلالهم، كما كان يفعل علماء السوء، لذلك فهو يقف إلى جانب المظلومين ويقول بصراحة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾.

وقد يكون للطبقة السفلى التي تهرع إلى الايمان بعض السلبيات المترسبة فيهم بسبب الجاهلية، أو بسبب تعرضهم للظلم، فرسالة السماء ليست مسؤولة عن سلبياتهم، وعدم طردهم لا يعني أبدا أن رسول الله يزكيهم تماما، بل إن حسابهم عند الله ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ بيد أن الملأ من قوم نوح لم يزالوا على ضلالتهم التي تقسم الناس على أساس المال أو الدم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾.

[٣٠] الطبقة الدنيا التي بادرت بالإيمان دخلت حصن الله، والله يحمي الذين يتحصنون به، ولو أراد أحد طردهم، وأراد الله نصرهم فإن إرادة الله هي الغالبة، ولا يملك من يطردهم قوة يرد بها غضب الله عليه ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ وفي هذه الآية دليل على أن احتفاظ رسول الله بالمؤمنين من الطبقات الدنيا ليست بهدف الانتصار بهم أو تكثير العدد

حول نفسه، بل لأنهم مؤمنون، والله يحب المؤمنين ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فالمسألة بحاجة إلى تذكرة، ولفت نظر حتى يعرف الإنسان أن الأمور بيد الله، وأن ربنا لا ينظر إلى الغنى والجاه بل إلى الإيمان والعمل الصالح.

إني بشر مثلكم

[٣١] وعاد نوح عليه السلام يبين أبعاد رسالته التي هي أيضا أبعاد رسالة كل رسول وكل مصلح يتبع خط الرسل.

أولاً: إن الرسول يدعو الناس إلى الله وإلى الحق الذي تعرفه فطرتهم، وهـذا هو رأسماله، ولا يدعوهم إلى نفسه باعتباره صاحب ثروة طائلة ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ بل خزائن الله موجودة في ذات الإنسان، وفي الأرض التي أعطى الله البشر القدرة على تسخيرها بالإيمان والعمل الصالح.

فالفكرة المتخلفة التي تنتظر من صاحب الرسالة (تفجير الأرض بالينابيع، واستخراج كنوز الحياة، وتقديمها لهم بل عمل) إنها فكرة خاطئة.

ثانياً: إن الرسول لا يدعي الغيب إلا بقدر ما يوحي إليه ربه عبر رسالته، ولذلك فهو لا يعد الناس بالرفاه، وإنه مثلا يأخذ بأيديهم ويدلهم على معادن الذهب والفضة ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾.

ثالثاً: إنه لا يدعي امتلاكه لقوة قاهرة، باعتباره من عنصر الملائكة ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾.

رابعاً: إنه لا يتعالى على الناس ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾. بل إن الخير والشر هما من الإنسان نفسه، من عمله النابع عن نية صالحة، ولا يعرف ذلك إلا الله ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وما أنتم بمعجزين

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ[1] بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

وظل نوح عليه السلام يسعى جاهدا حتى أتعب قومه، و﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا ﴾ وطالبه قومه بإنهاء مرحلة الكلام والبدء بتنفيذ ما يوعدهم به، غافلين عن أن نوح ليس إلا رسولا ومبلغا عن ربه، وحين يشاء الله عذابهم لا يقدرون على الفرار من حكومته وسلطانه، ومهمة التبليغ التي يقوم بها نوح تختلف عن الهداية. فالله هو الهادي المضل، وإذا شاء إبقاء قوم على الضلالة بسبب كفرهم بنعمة الرسالة، فإن الرسول لا يقدر على هدايتهم، وهكذا فإن رسالات الله ليست من صنع الأنبياء وإنما هي من وحي الله، وإذا كان الرسول هو الذي افترى

(١) الابتئاس: حزن في استكانة.

الرسالة كذبا على الله فإنه يتحمل مسؤولية عمله، أما إذا كانت صادقة فهو لا يتحمل مسؤولية كفر قومه به بل هو بريء منهم.

أوحى الله إلى نوح أن مدة تبليغه قد انتهت، إذ أن قومه لن يؤمنوا أكثر من هذا بعد اليوم، فلا يحزن بما يفعلون، وبدأت مرحلة الإعداد ليوم العذاب. إذ أمر الله رسوله بصنع الفلك وأن لا يخاطب ربه حول الظالمين من قومه، فيحاول الشفاعة لهم لأنهم مغرقون لا محالة، وكان نوح عليه السلام يصنع الفلك، ويمر عليه المستكبرون من قومه فيسخرون منه، ولكنه كان يقول لهم:لنا يوم نسخر منكم كما تسخرون بنا اليوم، وفي ذلك اليوم ستعرفون:إن عذاب الخزي سيكون من نصيبكم.

بينات من الآيات:

لن يؤمن من قومك إلا من آمن

[٣٢] من أبرز الصفات الرسالية التي كان الانبياء العظام يتمتعون بها هي الاستقامة والاستمرار في الدعوة دون كلل.

فنوح عليه السلام أتعب قومه من كثرة جداله معهم. حتى طالبوه بها وعدهم من العذاب، وزعموا أن نزول العذاب بهم أفضل من هذه الدعوة التي تلاحقهم في كل وقت وفي كل مكان ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

لقد دعا نوح قومه ليلا ونهارا، سرا وجهارا، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدق مسامعهم بكلماته البليغة، وإنذاره الشديد حتى سئموا منه ولم يسأم، وهكذا ينبغي أن يكون الرساليون على مر العصور، الاستقامة على الدعوة أنى كانت الفترة طويلة.

[٣٣] ولم يترك نوح كلامهم الآخر من دون جواب. بل نبههم مرة أخرى إلى أن الله وليس هو يأتيهم بالعذاب، وأنهم لا يقدرون آنئذ على الفرار ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ وهذه سمة ثانية وهامة في رسالات السماء حيث أن الأنبياء عليهم السلام لا يدعون لأنفسهم شيئا، ويذكرون الناس بأن دورهم فقط دور المبلغ، وأن الأمر بيد الله.

[٣٤] وتأكيدا لهذه الحقيقة ذكَّر نوح قومه بأن النصيحة لا تنفع إلا بإذن الله. إذ الهدى والضلالة إنما هي بأمر الله وإذنه، وإذا كفر أحد بنعمة العقل، فإن ربنا قد يسلبها منه فلا يستفيد من النصيحة ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

في المفردات: الغي: جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أن الجهل قد يكون في الإنسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا ولا فاسدا، وقد يكون في اعتقاد شيء فاسد، وهذا النحو الثاني يقال له:غي، وقد يكون هذا الغي يشير إلى أن الله تعالى قد يسلب من البشر نعمة العقل، فيعتقد بالباطل حقا.

[٣٥] هكذا رسالات الله جميعا، التي أنزلت على نوح والتي أنزلت على محمد ﷺ سبيلها واحد، فهي من الله. والرسول يعلم مدى الخيانة التي يرتكبها من يفتري على الله، ولكن جريمة من لا يهتدي بالرسالة ليست بسيطة هي الأخرى، وليس من السهل أن يسترسل الفرد ولا يستمع لرسول الرسالة بمجرد احتمال كذبه لأنها جريمة كبيرة أيضا.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

جاء في تفسير مجمع البيان: «قيل إنه يعني بذلك محمدا ﷺ. والمراد أيؤمن كفار (قوم) محمد بما أخبرهم به محمد ﷺ من نبأ قوم نوح، أم يقولون: افتراه محمد من تلقاء نفسه، وقيل: يعني نوحا، وإنه يقول على الله الكذب»[1]. بيد أنه يمكن أن يفسر القرآن على أكثر من وجه فيكون المراد ليس فقط رسالة محمد ﷺ وإنما رسالة نوح أيضا.

[٣٦] ولم يترك نوح عليه السلام الجدال مع قومه إلا بعد أن أوحى إليه ربه أنه يستحيل إيمان قومه بعد الآن، وإن عليه ألا يحزن عليهم، وألا يعيش حالة البؤس بسبب أفعالهم ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

إن رسل الله عليهم السلام يتمحورون حول الله، ويصبحون شعلة من الحركة والاندفاع من أجل تبليغ رسالة الله، حتى يكادوا يهلكون أنفسهم حزنا بسبب عدم إيمان الناس، وجاء في القرآن: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١]. وجاء: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]. وهذا نوح عليه السلام يبلغ حالة البؤس والاستكانة بسبب ما يفعله، ولكن الله ينهاه عن ذلك، ويأمره بمتابعة دربه.

إنهم مغرقون

[٣٧] وتبدأ رحلة الجزاء التي بدأت بصنع السفينة ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾.

كان نوح عليه السلام لا يقوم بخطوة إلا حسب المنهاج الذي رسمه له ربه، تحت مظلة واقية

(١) مجمع البيان: ج٥ ص٢٦٩، بتصرف.

من حماية ربه.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ولم تزل في قلب نوح بقية أمل تدعوه إلى التضرع إلى الله ليمنع عن قومه العذاب في آخر لحظة. ولكن على الرسول -بعد أن ييأس من إيمان قومه- ألا يشفق عليهم لأنهم يستحقون العذاب.

[٣٨] وأخذ نوح يصنع الفلك في الفلاة القاحلة استجابة لأمر الله وإيمانا بأن وعد الله حق، وكأن ذلك أبسط دليل على أنه لا يتبع هواه، ولا يقول على الله كذبا. لأنه لو كان كذلك فما الذي دعاه إلى صنع الفلك في الصحراء؟!.

إن أنبياء الله عليهم السلام يقومون بأعمال يحسبها الناس من حولهم نوعاً من الجنون، لأنها لا تتناسب مع معلومات وأفكار العصر، ولا مع ما يجري حولهم من أحداث أو يتوقع من احتمالات. هذا بذاته دليل واضح على أنهم يتبعون الوحي، وقد لا يعرف النبي لماذا يأمر بعمل ما للشهادة على مدى خلوصهم في الله، وتجردهم لرسالته الغيبية.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ إن استهزاء الناس بنوح عليه السلام شاهد على أنه كان رسولا لا يتبع المألوف والشائع في ظروفه، بل كان يتحدى كل ذلك بسبب إيمانه بالغيب ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

[٣٩] وانذرهم نوح بالعاقبة السوأى التي تنتظرهم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويفضحه في الدنيا عبر التاريخ، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم في الآخرة.

بُعدا للقوم الظالمين

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ[1] ٱلتَّنُّورُ[2] قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ[3] ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ[4] إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى[5] مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى[6] وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ[7] ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

بقي نوح ينتظر أمر الله، مستعدا لتنفيذ واجباته حتى إذا جاء أمر الله، وتفجر التنور

---

(١) وفار: الفور الغليان، وأصله الارتفاع.
(٢) التنور: تنور الخبز المعروف.
(٣) مرساها: الإرساء إمساك السفينة بما تقف عليه.
(٤) سآوي: من آوى يأوي إذا اتخذ مأوى ومحلاً، أي سأرجع إلى مأوى.
(٥) يعصمني: يمنعني.
(٦) أقلعي: الإقلاع إذهابُ الشيء من أصله حتى لا يرى له أثر، يقال أقلعت السماء إذا ذهب مطرها حتى لا يبقى شيء منه، وأقلع عن الأمر إذا تركه رأساً.
(٧) الجودي: اسم جبل.

(الذي كان في بيت عجوز حسبما جاء في بعض الأحاديث) أوحى الله إلى نوح أن يركب السفينة، ويحمل فيها معه من كل زوجين اثنين من سائر ما خلق الله، ويحمل معه أيضا أهله إلا الكفار منهم وهما زوجته وابنه اللذان اغرقا أيضا، ويحمل معه كل المؤمنين الذين كان عددهم قليلا، وتوكل نوح على الله مطمئنا بأن حركة السفينة ووقوفها بإذن الله ورعايته، وتلاحقت أمواج الطوفان كأنها جبال، وصاح نوح بابنه الذي جلس في ناحية، ودعاه إلى الركوب معه وان يترك الكفار، ولكنه زعم بأن الطوفان فيضان عادي وأن صعود الجبل ينجيه منه، ولكن نوح حذره من أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم الله، وقبل أن ينتهي الحوار جاء الموج وأغرق ابن نوح.

وجاء صوت غيبي يصدر الأوامر الحاسمة للأرض بأن تبتلع الماء، وللسماء بأن تكف عن المطر. وغاض الماء وانتهت القضية الحاسمة ووقفت السفينة فوق جبل وأبعد القوم الظالمون.

بينات من الآيات:

وما آمن معه إلا قليل

[٤٠] إن تلك اللحظة التي كان أبناء الرسالة يتوعدون بها، وكان الكفار يستهزؤون بها قد حانت اليوم واصبحت الحقيقة التي أنذرت بها الرسالة واقعا لا مهرب منه، فلقد أصدر ربنا أمره، وفار الماء من التنور الذي يبقى عادة بعيدا عن الماء، وأمر الله رسوله نوحا بأن يحمل معه في السفينة من كل حي زوجين اثنين، وأن يحمل أهله الذين لم تسبق عليهم كلمة العذاب بسبب كفرهم كزوجته وابنه، وأن يحمل معه الذين آمنوا وهم قليلون ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾.

في الحديث المأثور عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كَانَ التَّنُّورُ فِي بَيْتِ عَجُوزٍ مُؤْمِنَةٍ فِي دُبُرِ قِبْلَةِ مَيْمَنَةِ المَسْجِدِ فَقُلْتُ لَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مَوْضِعُ زَاوِيَةِ بَابِ الفِيلِ اليَوْمَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ وكَانَ بَدْءُ خُرُوجِ المَاءِ مِنْ ذَلِكَ التَّنُّورِ، فَقَالَ عليه السلام: نَعَمْ إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَحَبَّ أَنْ يُرِيَ قَوْمَ نُوحٍ آيَةً، ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ المَطَرَ يُفِيضُ فَيْضاً وفَاضَ الفُرَاتُ فَيْضاً والعُيُونُ كُلُّهُنَّ فَيْضاً فَغَرَّقَهُمُ اللهُ عَزَّ ذِكْرُهُ وأَنْجَى نُوحاً ومَنْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ، فَقُلْتُ لَهُ كَمْ لَبِثَ نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ حَتَّى نَضَبَ المَاءُ وخَرَجُوا مِنْهَا، فَقَالَ عليه السلام: لَبِثُوا فِيهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ ولَيَالِيَهَا»(١).

---

(١) الكافي: ج٨ ص٢٧٩.

[٤١] وحين ركب نوح عليه السلام وقومه الصالحون السفينة تجلت عندهم روح الإيمان الخالص، وتوكلوا على ربهم متذكرين اسمي الغفران والرحمة -لله- فبمغفرته يحط ذنوبهم وبرحمته ينزل عليهم بركاته وفضله ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ فكل شيء في الكون موجود بالله وقائم بالله، ويتحرك أو ينمو أو ينطق باسم الله. بيد أن هناك حوادث يتجلى فيها التدبير المباشر لله تعالى أكثر، مثل سفينة نوح التي صنعها بأمر الله دون أن يعرف منذ البدء ابعاد العملية، ولا يعرف أين تجري السفينة، وأين تقف وفي أية فترة، إنما توكل على الله فيها، لعلمه أنها في اطار تدبير الله وهيمنته المطلقة على الكون ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بُعدا للقوم الظالمين

[٤٢] وبين لحظة واخرى تحولت الصحاري إلى بحار مواجة، وتلاطمت الأمواج الهائلة وكأنها جبال متحركة، ولاحظ نوح ابنه واقفا في معزل عن الناس فناداه ليركب معه، وربما أخذته شفقة الأبوة أو رحمة النبوة، ولكن الابن السيء الحظ رفض لانعدام توكله على الله، ولاعتماده على المادة الجاهلية، بسبب تعلقه السابق بها، وقال سوف التجئ إلى جبل يحفظني من الطوفان ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

[٤٣] كان ابن نوح ويقال إن اسمه كنعان، من جملة الذين اعتزلوا المعركة الساخنة بين الحق والباطل، وأراد ألا يتدخل في القضايا الرسالية، شأنه شأن الكثير من الجبناء الذين لا يملكون شجاعة الإقدام في سبيل الله. بيد أن مثل هؤلاء سوف يكونون مع الكفار لأن الإيمان وحده هو الذي ينقذ البشر ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

[٤٤] بين عشية وضحاها تبدل وجه الأرض وهلك القوم الظالمون، وإذا بهاتف الحق ينادي: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾، فعادت مياه الأرض التي تفجرت ينابيع إلى مخازنها تحت الأرض، وتقشعت السحب التي كانت تسيل ماء بأمر ربها، فأقلعت عن الانهار وغاض ماء الارض، وتحولت بقية المياه إلى الأنهار والبحار كما جاء في حديث[1]، وانتهت القصة كلها، حيث استقرت السفينة على أرض مرتفعة.. وخلت الأرض من الظالمين الذي لعنوا وطردوا منها بقدرة الجبار.

(١) راجع: بحار الأنوار: ج١١ ص٣١٢.

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ أي توقفي. قال البعض: «إن الماء الذي سال من السماء بقي فوق الأرض لأن الله قال للأرض ابلعي ماءك، ولم يطلق بالقول الماء»، بيد أن هذا القائل ينسى أن كل المياه في الواقع من الأرض ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾ وهبط الماء أو رسب في الأرض ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾ لقد نفذ أمر الله بهلاك الظالمين، ونجاة المؤمنين، وتحقيق الجزاء لكلا الفريقين في عاجل الدنيا ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

إن العاقبة للمتقين

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

وقبل هبوط نوح عليه السلام إلى الأرض تساءل عما انتهى إليه مصير ابنه الغريق وذلك بسبب جاذبية الشفقة التي اودعها الله في قلب كل أب، ولو كان الأب شيخ المرسلين، تلك الجاذبية التي جعلت سيدنا نوحا يدعو ربه في ابنه ولكن الله وعظه وذكره بأن المقياس عنده العمل الصالح وليس الانتساب إلى هذا أو ذاك، وهكذا عرف نوح أن سبب انحراف البشر ليس فقط وجود بيئة فاسدة أو تسلط الظالمين، إذ قد يكون السبب كامنا في نفسه فدعا ربه بأن يغفر له وأن يرحمه فيعصمه من الزيغ ومن دون رحمة الله ومغفرته يكون البشر خاسرا. وهكذا الحال بالنسبة إلى الذين كانوا مع نوح في السفينة، والذين أهبطهم الله الأرض بسلام وبركات، ولكن عوامل الانحراف نزلت معهم أيضا، فبعضهم انجرف مع هذه العوامل وبعضهم صمد أمامها واعتصم بهدى الله.

وفي نهاية قصة نوح يذكرنا القرآن بالعبرة فيها وهي الصبر والتقوى فإن العاقبة للمتقين ولكنها بحاجة إلى الصبر والاستقامة.

بينات من الآيات:

التسليم لقضاء الله

[٤٥] في بعض الأحاديث المروية: إن الشيطان دخل سفينة نوح متسللا[1]، والواقع إن الحكمة في خلق البشر هي ابتلاؤه، ووجود الشيطان جزء من معادلة الامتحان، وانحراف البشر ليس دائما لوجود ضغوط خارجية عليه، بل إن الهوى والشهوة، والانجذاب إلى مظاهر الحياة الذي اودعه الله في كيان كل شخص هو الآخر جزء من معادلة الامتحان وحكمة الحياة.

وهكذا نجد آدم عليه السلام -أبا البشر- أول من ارتكب الخطأ بدافع الملك والخلود، قبل أن تدركه رحمة الله وتعصمه من الزلل.

ونجد نوحا وقد خرج من محنة الصراع منتصرا على الجبت الداخلي والطاغوت الخارجي، ولكنه لا يزال بحاجة الى مغفرة الله ورحمته. يحتاج إلى رحمة الله حتى يعصمه من تكرار الزلل، وهكذا دعا نوح ربه بلباقة أن يفي بوعده بإنقاذ أهله، ولكن الله أجابه بصراحة: إنه ليس من أهلك لأن رابطتك الحقيقية هي مع الذين يعملون الصالحات، وهذا الابن لا يملك مقياس العمل الصالح ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

[٤٦] ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ربما توحي هذه الآية بضرورة الرضا الكامل بالاقدار التي لا يعرف المرء حكمتها، والتسليم المطلق للأوامر التي لا يفهم البشر فلسفتها.

[٤٧] إن درجة تسليم الأنبياء عليهم السلام لله ولأوامره وأقداره تصل إلى القمة، بسبب تأديب ربنا لرسله الكرام، ولذلك نجد نوحا عليه السلام يستعين بعصمة ربه لكي لا يسأل ربه ما ليس له به علم، ولا يقترح عليه ما لا يعلم انه في صالحه وصالح رسالته وأمته.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) عَنْ مُصْعَبِ بْنِ يَزِيدَ عَمَّنْ ذَكَرَهُ عَنْ أَبِي عَبْدِالله عليه السلام قَالَ: «جَاءَ نُوحٌ عليه السلام إِلَى الْحِمَارِ لِيُدْخِلَ السَّفِينَةَ فَامْتَنَعَ عَلَيْهِ، قَالَ: وَكَانَ إِبْلِيسُ بَيْنَ أَرْجُلِ الْحِمَارِ، فَقَالَ: يَا شَيْطَانُ ادْخُلْ، فَدَخَلَ الْحِمَارُ وَدَخَلَ الشَّيْطَانُ......». بحار الأنوار: ج١١، ص٣٢٣.

إن مغفرة الله ضرورة حياتية للبشر لتزيل آثار الذنوب والسقطات التي يتعرض لها الإنسان أبدا.. فمن دونها تتراكم هذه الآثار حتى ترسي على قلبه، وتحجب عقله، كما أن رحمة الله ضرورة أخرى لاستمرار بقاء الإنسان نظيفا، ولكي لا يدعوه الضعف والعجز إلى ارتكاب المعاصي، وقد جاء في الدعاء: «**اللَّهُمَّ أَغْنِنَا بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَبِطَاعَتِكَ عَنْ مَعْصِيَتِكَ، وَبِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ...**»[1]، فرحمة الله هي التي تعصم البشر من الذنوب، لا فرق بين الرسل وغيرهم.

[٤٨] وهبط نوح بأمر الله يحمل معه هديتين إلى الأرض: السلام والبركة، ويعني السلام المحافظة على النعمة القائمة والموجودة فعلا، وبالتالي رفع الضرر الذي يهدد بزوال النعم، بينما تعني البركة زيادة النعم والتقدم في حقول الحياة ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ والسلام والبركة هما من الله بسبب رسالته. لذلك يسلبان عمن لا يعرف قيمة الرسالة فينحرف عنها، لذلك خصص القرآن أمما دون أخرى للسلام والأمن قائلا:

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك بسبب أن هذا النوع الثاني من الأمم ينحرفون عن الرسالة، ويبدلون دين الله.

وربما توحي هذه الآية بأن سنة الحياة الأولية هي السلام والبركة لو لا انحراف البشر فيها.

خلاصة القصة

[٤٩] تلك كانت قصة نوح وقومه، والعبرة التي نستفيدها منها اثنتان.

أولاً: إن هذه الرسالة امتداد لتلك الرسالة حيث لم يكن احد من قوم الرسول محمد عالما بقصة نوح، أو لا أقل بتلك التفاصيل الدقيقة التي تسجل حتى الحالات النفسية، والأسباب الاجتماعية، والعوامل الطبيعية التي ساهمت في صنع وقائع القصة، فجاء ذكرها جميعا شاهدا على صدق رسالة النبي محمد ﷺ.

ثانياً: إن كل رسالة تتعرض لتحديات جاهلية، وعلى حاملها أو حملتها التسلح بالتقوى، والصبر انتظارا للعاقبة.

(١) مصباح الكفعمي: ص١٧٠.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ ﴾ فحتى رسول الله لم يكن محيطا بعلم ما جرى لنوح، مما يدل على أن ما لديه من علم، إنما هو من عند الله، لا من عبقريته وذكائه.

﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والواقع إن صبر نوح عليه السلام كان طويلاً وشاقاً وكان بالتالي ذا أثر حاسم في هلاك أعدائه.

هود: إني توكلت على الله

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١) وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ (٢) بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾.

هدى من الآيات:

وجاء هود مرسلا من عند الله إلى قوم عاد، ودعا قومه بذات النبرة الإيمانية التي وجدناها عند سلفه الصالح نوح عليه السلام.

١ - أمرهم بعبادة الله حيث لا إله ولا معبود سواه، وبيّن أن عبادتهم للطغاة أو الأصنام

---

(١) مدراراً: المدرار الكثير التتابع على قدر الحاجة إليه دون الزائد المفسد المضر.

(٢) اعتراك: من قولهم عراه يعروه إذا أصابه.

افتراء وضلالة.

٢- وبَيَّن لهم إنه لايطالبهم بأجر، وأن أجره على الله الذي فطره أفلا يعقلون فيعرفوا الفرق بين الرسول الصادق، وبين أولئك الطغاة والكهنة المفترين الذين يهدفون السلطة والاستكبار في الأرض!.

٣- وطالبهم بإصلاح أنفسهم، والعودة إلى تعاليم الله لتزداد نعم الله عليهم، وليزدادوا قوة إلى قوتهم الحالية، وفي غير هذه الحالة فهم يصبحون مجرمين مخالفين لله ولرسالته، ويستحقون العذاب.

ولكن قوم هود ردوا دعواته الثلاث، فقالوا: إنك لا تملك بينة كافية على صدق رسالتك، وإننا لن نترك آلهتنا، وإننا لن نعطي أزمة أمورنا بيدك، بالرغم من أنك لا تطالب بأجر، وزعموا أن كلامه نوع من الجنون الذي مسه بسبب غضب الآلهة عليه، فميز هود نفسه عن قومه وتبرأ من شركهم، وأشهد الله على ذلك، وتوكل على ربه، وتحداهم جميعا، وأمرهم بألا يمهلوه بل يكيدون له ليعرف مدى ضعف كيدهم، لأنه يعتمد على الله الذي يملك كل دابة ويدبر أمورها، وهو على صراط مستقيم.. يدعوا إليه ويجريه بقوته، وبَيَّن لهم هود أنه قد أنهى مسؤوليته ببلاغ الرسالة، وأن الله سوف يبدلهم بغيرهم دون أن يضروه شيئا، وأن الله على كل شيء حفيظ.

بينات من الآيات:

رسالة هود وأبعادها

[٥٠] أرسل ربنا إلى عاد واحدا منهم يسميه ربنا بأخيهم لكي يكون أقرب إلى قبول الرسالة، وأوضح بيانا، فأمرهم بعبادة الله ونبذ الشركاء، وفضح منذ اللحظة الأولى كذب ودجل الشركاء من دون الله. شأنه شأن سائر الرسل التي لا تهادن في دين الله أبدا.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي إنكم تفترون على الله الكذب، بادعائكم أن هذه الآلهة تمثل الله في الأرض، وربما تدل هذه الآية على أن انحراف البشر الاساسي يكون عادة في تبديل جوهر الدين لا إطاراته الخارجية، فيفسر ذات النص الديني (الأمر بعبادة الله، ونبذ الشركاء) بمفهوم متناقض ليصبح داعيًا إلى عبادة الشركاء افتراء على الله، مثلا: يفسر قوله سبحانه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، بأن معناه إطاعة كل حاكم ظالم متجبر بمجرد تسلطه على الناس الذي يناقض تماما فكرة التوحيد، وإطاعة الله هكذا حدث عند المسلمين أما عند

عاد فقد حدث شبه ذلك، حيث أطاعوا الشركاء باسم أنهم مستخلفون من قبل الله، وأطاعوا الأصنام باسم أنها شفعاء عند الله.

[٥١] وإذا كانت الكهنة سدنة معابد الأصنام، وعلماء السوء المحيطون ببلاط المستكبرين يبيعون علمهم على من يشتري، ويستطيلون على الضعفاء، فإن هودا عليه السلام لم يطالبهم بأي أجر، وكفى ذلك شاهدا ودليلا على صدق رسالته، فلماذا إذن كان يعرض نفسه لكل تلك الصعاب، إن لم يكن صادقا، وهو لا يطالب الناس بأجر ولا يهدف الوصول إلى غاية خاصة؟! ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[٥٢] وطالب هود قومه أن يصلحوا أنفسهم بطلب المغفرة من الله تعالى، وإظهار الندم من الذنوب السابقة، وبعدئذ العودة إلى تعاليم السماء وتطبيقها ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فإذا فعلوا ذلك فإن الله سوف يفتح لهم أبواب رحمته بإنزال قطر السماء بغزارة، وإعطائهم المزيد من القوة والمنعة ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ وفي غير هذه الحالة يعتبرون مجرمين خارجين عن القانون ويستحقون العذاب ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

[٥٣] ورفض قوم هود رسالة الله، وادعوا أنهم لم يقتنعوا بأدلته وحججه، ولكن كذبا إذ أن دافعهم الأصلي في رفضهم لها كان تمسكهم الأعمى بالتقاليد وعبادتهم للآلهة التي رفضوا تركها اعتمادا على كلام هود، وربما كان هناك سبب آخر لرفضهم للرسالة. هو استنكافهم عن التسليم لهود. ويوحي إلى ذلك تعابيرهم التي كرر فيها (الخطاب) ونسبت الرسالة إلى شخص هود، بينما لم يكن هود سوى رسول حامل للرسالة. تدبروا في الآية: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقد زعموا أن ايمانهم، إنما هو للرسول وفي منفعته، بينما كان الواقع غير ذلك تماما.

[٥٤] ولكي يبرروا جهلهم بواقع الرسالة، ويغطوا على نقاط الضعف في كلامهم نسبوا الرسالة إلى حالة مجهولة غيبية، اعترت الرسول -مما لا يعرف أبعادها- ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ وهكذا اعترفوا ضمنيا بخطأ أقوالهم السابقة، وزعمهم بأن هودا إنما يدعوهم لنفسه. وهنا عرف هود ان العصبية العمياء تحيط بقلوب هؤلاء القوم فيرفضون الحق بلا تفكر لذلك ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وبدأت مرحلة جديدة من الصراع هي مرحلة المواجهة الساخنة حيث أعلن هود براءته من أفكارهم، وانفصاله عن مجتمعهم الفاسد.

المواجهة الساخنة

[٥٥] وأعلن هود عن استعداده للمواجهة الآن ومن دون مهلة، وتحداهم لو عندهم كيد فليكيدوه به ﴿ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ فما دام الكيد من دون الله، وبعيد عن الاستعانة بالله فهو فاشل لا محالة.

[٥٦] هل كان يملك هود قوة يعتمد عليها في مواجهته مع جميع قومه؟ بلى قوة الله الذي آمن به وحمل رسالته، وهذا أكبر شاهد على صدق دعوته.

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ أي ما من حي يدب فوق الأرض إلا وربنا سبحانه يملك توجيهه كمن يأخذ بمقدم رأس أحد يوجهه أنى شاء، ولكن الله لا يُسيِّر الكون عبثا أو لعبا، وإنما يسيره بعدالة وعبر صراط مستقيم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ فكما يُسيِّر الله كل ما في الكون في طريق مستقيم، فإنه سبحانه يُسيِّر الذين يتوكلون عليه عبر ذلك الصراط الأقرب إلى الهدف.

[٥٧] وأنذرهم هود حين لم ينفعهم التبشير وقال:إذا توليتم عن قبول الرسالة، فقد أديت مهمتي وهي إبلاغ الرسالة، وإن الله سوف يهلككم ويأتي بآخرين مكانكم دون أن تقدروا على إلحاق الأذى بي ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ﴾ فهو يحفظ الأشياء بهيمنته عليها وتسلطه، فإذا تركه هلك، لأن بقاءه مستمد من الله سبحانه وتعالى.

ألا بُعدا لعاد

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

وكذب قوم هود برسولهم وجاء أمر الله بنجاة المؤمنين من عذاب غليظ، وإهلاك الباقين ولم يبق منهم سوى العبرة، فها هي عاد جحدوا بآيات ربهم، وعصوا رسله، وأطاعوا أمر الجبارين المتكبرين الجاحدين، فلحقتهم اللعنة والبعد عن رحمة الله في الدنيا والآخرة. كل ذلك بسبب كفرهم بالله وبرسالاته ورسوله.

بينات من الآيات:

ألا بُعدا لعاد قوم هود

[٥٨] وانتظر هود والذين آمنوا أمر ربهم لأنهم منذ البدء توكلوا عليه -سبحان- ولم يعتمدوا في دعوتهم على أنفسهم أو على قبيلتهم أو أية قوة مادية أخرى، وبعد أن أعطيت لعاد فرصة كافية ليهتدي من يهتدي منهم بوعي، ويضل من ضل بحجة. بعدئذ جاء أمر الله تعالى الذي هو فوق العادات والسنن المعروفة للناس، والدليل على أن العذاب الذي أخذ عادا كان خرقا للقوانين الطبيعية المعروفة، إن العذاب لم يشمل المؤمنين والكافرين الذين كانوا متواجدين في مكان واحد، بل أخذ الكفار وحدهم بينما العذاب الطبيعي كالوباء والزلزال والمجاعة لا يميز المؤمن من الكافر ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا

وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ هو ذلك العذاب الثقيل المتراكم الذي أخذ الكفار.

[٥٩] لماذا عذب الله عادا بذلك العذاب الغليظ؟ لأنهم بعد أن عرفوا آيات الله جحدوا بها، وبعد أن عرفوا رسولهم الذي أرسل إليهم للطاعة عصوه، واتبعوا أمر كل جبار عنيد يتصف باستخدام العنف ضد الناس. فهو ظالم مستبد برأيه، لا يحكم بالشورى ولا يتبع الهدى ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾.

[٦٠] ولانحرافهم الفكري ولانحرافهم السياسي والاجتماعي لحقتهم لعنة الأبد، وأبعدوا عن رحمة الله فعذبوا في الدنيا والآخرة. كل ذلك لكفرهم بالله وبرسول الله هود ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

صالح عليه السلام ينذر قومه

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا[1] قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ[2] ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

أهلِكَت عاد، وبنت ثمود مدنيّتها فبعث الله إليهم واحدا منهم ﴿صَٰلِحًا﴾ ودعاهم إلى توحيد الله ونبذ الشركاء من دونه، وبين لهم إن مدنيَّتهم ليست من عمل الشركاء بل من نعم الله، فهو الذي أنشأهم واستعمرهم في الأرض، وإن عليهم أن يستغفروه، ويصلحوا أخطاءهم الماضية، وأن يتوبوا إليه فيعملوا في المستقبل بهداه فإنه قريب يسمع استغفارهم، ومجيب يحقق طلباتهم، ولكنهم رفضوا رسالة صالح لا لأنهم شكوا فيه وفي أمانته وأخلاقه، ولا لأنهم لم يفقهوا أبعاد الرسالة، بل لأنهم تعصبوا لآبائهم، وقال صالح: إنه على بينة واضحة، وإن الله سبحانه قد منح له فضلا منه ورحمة فهو لا يترك ربه ليسمع كلام قومه الذين لا يزيدونه غير خسارة وضرر. وحين طالبه قومه بآية قال لهم: هذه ناقة الله. إنها آية لكم فاتركوها تأكل في

(١) مرجواً: رجى وترجى أي أمّل.
(٢) تخسير: خسران.

أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب.

هكذا كانت رسالة صالح إلى ثمود على نهج رسالات الله إلى قوم نوح وعاد، داعية إلى توحيد الله، وكان جواب الجاهلين واحدا وهو التعصب للآباء ولأفكارهم الباطلة، أما العاقبة فهي واحدة، كما سيأتي في الدرس القادم (إن شاء الله تعالى).

بينات من الآيات:

ركيزة الحضارة

[٦١] من ميزات رسالات الله، إنها تأتي بلغة الذين تهبط لهم، وعلى يد واحد منهم ليكون أبلغ في التأثير، وأبعد عن العصبية.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا﴾ يقال بأن ثمود قوم عرب عاشوا في القرى بين الشام والمدينة.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ونزلت هذه الكلمة على رؤوسهم كالصاعقة لأنها استهدفت تغيير مسار تفكيرهم، ومنهج حياتهم وقيم سلوكهم، ونظام مجتمعهم السياسي والإقتصادي.

عبادة الله يعني القبول بمناهجه وقيمه. عبادة الله تعني نبذ المسلمات الثقافية التي يؤلهها الناس، ويعتبرونها مقدسة لا يحوم حولها ريب، ولا يقترب إليها التفكير، ولا يتناولها النقاش، تلك المقدسات الموجودة في كتب الكهنة، والتي يُحكم على من يخالفها بالخروج عن المجتمع، ويجازى بأشد العقاب.

وعبادة الله تعني بالتالي رفض سلطة رؤساء العشائر ووجهاء البلد، وأصحاب الثروة والقوة، لذلك كانت ردود الفعل الأولية لهذه الدعوة، هي الرفض المطلق خصوصاً وأن المستكبرين والمفسدين يوهمون الناس أبدا بأن التقدم والرفاه والأمن والازدهار وحتى الرزق الطبيعي الذي يوفر لهم كل ذلك جاء نتيجة الكيان الاجتماعي والثقافي، والنظام السياسي والاقتصادي الذي يشرفون على تسييره، فلو تزلزل الكيان وانهدم النظام فإن كل الخيرات مهددة بالزوال هي الأخرى. لذلك ذكرهم رسولهم صالح عليه السلام بأن الخيرات إنما هي من الله الذي أنشأهم، وجعلهم قادرين على عمارة الأرض.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ فالله هو الذي أودع في البشر الطموح وإعطاه

القدرة، وطوع له ما في الأرض، وتلك هي شروط عمارة الأرض وبناء المدنيّة، وليس النظام الفاسد سوى سارق لخيرات الناس، وهاد لهم إلى الهلكة. ولولا رفض الناس للنظام الفاسد، وعودتهم إلى الطريق المستقيم فإن المدنية مهددة بالفناء.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ فمن أسماء الله الحسنى، وكذلك من نعمه الكبرى هي أنه سبحانه وتعالى فتح أمام النـاس باب الاستغفار والتوبة، وأعطى الناس القدرة على تصحيح مسيرتهم الضالة، وتطهير آثار الماضي الفاسد، كما أعطاهم الفرصة لفتح صفحة جديدة مع الله، ومع سنن الله، ولنا في هذه الآية وقفتان للتدبر:

الأولى: إن ما في عالم اليوم من مدنية مزدهرة، ليست بسبب الأنظمة الجاهلية الحاكمة هنا وهناك، وليست بسبب النظام المادي ولا حتى بسبب فصل الدين عن السياسة، أو الانفصال عن الجذور التاريخية، وإنما السبب وراء المدنية والتقدم هو السعي من أجل عمارة الأرض عبر الالتزام بسنن الله الصالحة، كالعمل والاجتهاد والتعاون والتطلع، وما دامت هذه الشعوب ملتزمة بهذه السنن فهي تحافظ على مكاسبها، وحين تنحرف وتعوض عن السعي بالفخر، وعن الاجتهاد بالغرور، وعن التعاون والتطلع بالمفاخرة والاستغلال، فإنها مهددة بفقدان مكاسبها، وهذه الحقيقة تدعونا إلى الاعتقاد بأن الأنظمة المادية، والعادات الجاهلية السائدة على الشعوب المتقدمة سوف تضيع مكاسبها وتفسد مدنيتها، وإن بداية الضياع هو تجيير جهود الناس ومساعيهم لمصلحة فئة الأغنياء المتسلطين في بعض البلاد، أو حزب المستكبرين الحاكم في بلاد أخرى.

الثانية: إن الحضارات البشرية تبدأ بتطبيق سنن الله في تسخير الحياة كالسعي والتعاون ولكنها تنسى دور هذه السنن في تقدمها، وتتوجه إلى الأصنام وتزعم أنها هي واهبة التقدم والرفاه، وهذا الانحراف عادة بشرية تكاد تكون سنن ثابتة لولا حرية البشر التي تتحداها، ولولا رسالة الله التي تذكر البشر بهذه الحرية، ومن هنا لا يعترف الإسلام بحتمية الانهيار في الحضارات، بل يضع لها فرصة الاستمرار عن طريق إصلاح نفسها، والتوبة إلى سنن الله، وهذا ما تشير إليه هذه الآية التي تعطي المزيد من الأمل في الاستمرار في نهايتها وتقول: إن الله قريب مجيب، أي أن إصلاح الفاسد، وتجديد الحضارات (بالاستغفار والتوبة) أيسر مما يزعم البشر.

ضلالة الآباء أم هدى الرسالة

[٦٢] وكان قوم صالح غارقين في الماضي يعتزون بأمجادهم الغابرة، ويقلدون آباءهم، ولذلك عادوا صالحا بالرغم من ثقتهم بشخصه.

﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ولقدسية الماضي في أعينهم ارتابوا في الرسالة سلفا ومن دون تفكر، وقالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ربما تشير الآية إلى أن قوم صالح لم يكتفوا بالشك فيه، بل اتهموه بالباطل ردا على تجهيل آبائهم، ورميهم بالضلالة.

[٦٣] ودافع صالح عن نفسه، وبيّن سبب استقامته على هدى الرسالة رغم ضغوطهم، وضرب لهم مثلا بعمله هذا، لكي يقاوموا ضغط الماضي، ويتحرروا من قيوده، فَبَيَّنَ إنه على سبيل واضح بيّنه له ربه، وقد انتهى به السير في السبيل إلى تحقيق مكاسب عملية من الهدى والطمأنينة و.. و.. وأنه يخشى ربه إن عصاه، وأنهم لا يقدرون على تقديم العون له.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ فلماذا لا تشكون في طريقتكم، وتفكرون بأن هذا الطريق قد يكون صحيحا؟! لا سيما وهناك خوف الضرر.

﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ إن البشر يفكر في تغيير طريقته لو أحس بالخطر وخاف منه، ولذلك ينبه القرآن إلى إحتمال الخطر في حالة عدم التفكير في صدق الرسالة.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ فبالإضافة إلى إحتمال الخطر، هناك إحتمال الضرر والخسارة، وانعدام الربح والكسب.

[٦٤] وكآخر محاولة لهدايتهم، ولقطع حجتهم، وبعد أن طالبوه بالآية الواضحة، أخرج الله لهم ناقة، وقال لهم صالح عليه السلام: ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾.

الا بُعدا لثمود

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

انتهى وضع ثمود بمواجهة الرسالة وعقروا الناقة، وحانت ساعة الجزاء الشديد، حيث أمهلهم الله ثلاثة أيام فأتاهم وعد الله غير مكذوب، ونجى الله صالحا والذين آمنوا معه نجاة نابعة من رحمته، وانقذهم من خزي ذلك اليوم المعيب، وتجلت صفتا القوة والعزة لربنا الجليل، فبقوته قدر على إهلاك الأعداء ونجاة المؤمنين، وبعزته فعل ذلك، وكان نوع العذاب صيحة أخذت الذين ظلموا فأصبحوا كأنهم هامدين في ديارهم، وانتهى كل شيء، ولم يبق من ثمود أي أثر كأنهم لم يكونوا هنا، ولم يتمتعوا بالرفاه وإن ذلك كان جزاء كفرهم الذي سببه إبعادهم عن رحمة الله.

بينات من الآيات:

جزاء السكوت

[٦٥] جاءت نهاية ثمود التي انحدروا إليها شيئا فشيئا بسبب استكبارهم عن الحق، وذلك حينما عقروا الناقة، الآية الآلهية التي طالبوا بها، والتي لم تكن تضرهم شيئا، بل كانت

تنفعهم، ولم يعقر الناقة سوى اشقاهم وهو شخص واحد، إلا أن رضا الجميع بفعله وسكوتهم عنه جعلهم شركاء في الجريمة، ونسبت الخطيئة اليهم جميعا.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ إن السلطة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية الفاسدة هي التي بادرت بعقر الناقة في جو من الاستسلام الساذج، وكانت تلك النتيجة الطبيعية للجمود والتقليد والاعتزاز بالمكاسب، وهكذا كان شأن كل الأنظمة الجائرة والمستبدة عبر التاريخ، إنها تُنوِّم الناس على أنغام المكاسب الظاهرة فتسلب منهم قدرتهم على التفكير السليم بعدئذ تقوم باستغلالهم واستثمار طاقاتهم حسب ما تشاء، وتوردهم المهالك من دون أي خوف من التمرد أو المقاومة.

[٦٦] وهكذا فعلت السلطات المستكبرة بقوم ثمود، ولكن ثمود هي التي فعلت بنفسها هذه الجريمة حين سكتت في أول الأمر عن تلك السلطات. إن الرضا بالأنظمة الجائرة والمستبدة هي الخطوة الأولى إلى المجزرة، لأن هذه الأنظمة تسلب أعز شيء عند الإنسان هو عقله وتفكيره.. فيكون ضررها أكبر من نفعها مهما كان نفعها كبيرا. لذلك جاء الأمر الإلهي الحاسم.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ العزة هي مظهر القوة في الحقل الاجتماعي، والله لا يدع قيم الحق قائمة في النفوس والعقول وبين أضلع الكتب والخطب، بل يجسدها في ضمير الواقع فإذا بالظلم يتحول إلى ظلمات، والجريمة إلى عقاب، والفساد إلى خراب.

[٦٧] وإذا بالسكوت عن الظلم، والرضا بالجريمة، والاستسلام أمام الفساد يتحول كل ذلك إلى صيحة مدمرة. هي صيحة الحق الذي سكتوا عنه، وهي عقاب الجريمة التي رضوا بها، وهي نهاية الفساد الذي استسلموا له.

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ لقد كانت الصيحة في لحظة واحدة بحيث أسكتت حناجر الساكتين عن الظلم، وأخمدت حركة المغرورين بمكاسبهم، وجعلتهم يسقطون على وجوههم (في حالة الجثوم) تلك الوجوه التي استكبرت عن قبول الحق.

[٦٨] أين تلك الديار التي تمتعوا بها وأقاموا دهرا فيها؟! أين الصخب والحركة، وأين العمارة والأثاث؟! لقد شمل التخريب الساحق كل زاوية من زوايا ديارهم، وكأنها كانت خالية من السكان.. ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي لم يقيموا فيها. ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ

أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ لقد كفروا بعبادة الله وبرسالته، وبرسول الله الذي بعث ليطاع بإذنه، ولكن كفرهم هذا كان -في الواقع- متوجها مباشرة إلى ربهم جل جلاله، وهذه هي الحقيقة الكبرى التي ينساها أو يتجاهلها البشر فيفصل بين الله ورسالاته، ويريد أن يكفر بالرسالات كفرا عمليا ويحتفظ بإيمانه بالله، وهذا هو التناقض البعيد والمستحيل.

إن ثمود بَعُدَت عن رحمة الله، وعن الذكر الحسن، وعن ثواب الآخرة بسبب محاولتها الفصل بين الله ورسوله. فهل نكرر التجربة؟!.

اتعجبين من أمر الله؟

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ[١] مِنْهُمْ خِيفَةً[٢] قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي[٣] شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) ﴾.

هدى من الآيات:

يتابع السياق القرآني قصة الرسالة في عهد ابراهيم عليه السلام، ويلخص قصته التي تتصل بقوم لوط. ويبدأ الحديث بجو السلام والبشارة التي يختلط بها الخوف، لقد جاءت رسل الله وملائكته إلى إبراهيم عليه السلام يزفون إليه البشرى بأبنائه -الذين كانوا يشكلون امتدادا لخطه- وهلاكا لأعدائه.

فجاء إليهم إبراهيم بالطعام وكان عجلا مشويا، ولكنهم لم يلمسوه فتوجس منهم خيفة، وأثير عنده سؤال:لماذا لا يأكلون؟! فطمأنوه وقالوا:إننا رسل الله وقد أرسلنا إلى قوم لوط، وبينما كانت امرأته قائمة تصلي او تقوم بخدمة الضيوف ضحكت تعجبا وفرحا بهلاك قوم لوط فبشرها الله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ولم تتمالك من شدة التعجب فصاحت:كيف

(١) أوجس: الإيجاس الاحساس، ويقال أوجس خوفاً أي أضمر.

(٢) خيفةً: خوفاً.

(٣) بعلي: البعل الزوج وأصله القائم بالأمر.

ألد وأنا عجوز وبعلي شيخ طاعن في السن؟! فرد عليها الرسل قائلين: لماذا تعجبين من أمر الله. إن رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت لأن الله يفعل ما يحمد عليه وهو رفيع المقام سبحانه؟!. هكذا مهد الله لقصة أصحاب لوط الذين كانت رسالة إبراهيم عليه السلام نازلة لهم أيضا.

بينات من الآيات:

إبراهيم عليه السلام والبشارات الثلاث

[٦٩] ظل إبراهيم يقاوم ويقاوم. ولم يرق إلى قلبه السامي اليأس أو الشك، وحانت الآن ساعة البشارة المنتظرة. لقد أرسل الله إليه رسله بصورة رجال حسان الوجوه تعظيما له وتكريما لجهاده الطويل، فجاؤوا يبشرونه:

أولاً: بأن الله أذن له بالنصر.

ثانياً: بأن اعداء الرسالة سيهلكون، ألا وهم قوم لوط الذين بعث الله إليهم أول المؤمنين برسالة إبراهيم.

ثالثاً: بأن الله سوف يرزقه -بعد طول المعاناة واليأس- أولاداً يتابعون دربه..

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ تبادل رسل الله -أول ما التقوا مع إبراهيم عليه السلام- السلام والتحية معه، وربما كانوا الوحيدين من ضيوف إبراهيم الذين أخرجوا الشيخ الذي أكلت سنون النضال عمره المبارك من غربته الروحية في رحم الصحراء. لذلك بادر إبراهيم بإحضار الطعام السمين إليهم وهو عجل مشوي.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ العجل: ولد البقرة، والحنيذ: المشوي.

[٧٠] انتظر إبراهيم ضيوفه ليأكلوا أو حتى ليبادروا إلى التهام العجل الحنيذ على عادة الراحلين عبر الصحراء، ولكنهم لم يفعلوا، فأنكرهم كيف لا يأكلون؟! وخاف منهم لأن الضيف الذي لا يأكل يضمر الشر، ولكنهم سرعان ما بددوا خوفه الذي أحس به، وأظهروه على حقيقة الأمر، وأعلنوا أن مهمتهم هي البشارة بهلاك قوم لوط بعد طول عنادهم ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾.

[٧١] وظهرت في الصورة المرأة الصبورة التي رافقت زوجها إبراهيم في جهاده الطويل وهي سارة بنت هاران ابنة عم إبراهيم، وزوجته ورفيقة دربه، فإذا بها تضحك من بشارة

الرسل وهي قائمة تصلي، أو تخدم الضيوف.

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ ﴾ وهنا بادر الرسل بإطلاق البشارة الثانية والأعجب حيث بشروها بإنجاب الأولاد.. ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾

[٧٢] وتعجبت كيف تلد وهي عجوز وزوجها شيخ طاعن في السن ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴾.

[٧٣] وعاد الرسل يبشرونهم بثالثة البشارات وأعظمها وهي مرضاة الله التي تتجسد في الرفاه والخير والرحمة من الله، وفي الانتشار والتقدم والتعامل، وبالتالي البركات من جهة ثانية، لأنهم أهل بيت الجهاد والإيمان ولأن الله حميد مجيد ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ إن ربنا يحمده الناس بكرمه وفضله الواسع.

جعلنا عاليها سافلها

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ (١) وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ (٢) مُّنِيبٌ (٣) ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ (٤) وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (٥) وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٦) ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ (٧) شَدِيدٍ (٨) ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ (٩) مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

---

(١) الروع: الإفزاع، ويقال راعه يروعه إذا أفزعه، وارتاع ارتياعاً إذا خاف.

(٢) أواه: كثير الدعاء.

(٣) منيب: راجع إلى الله سبحانه في جميع أموره.

(٤) سيء بهم: ساءه مجيئهم.

(٥) ذرعاً: طاقةً ووسعاً.

(٦) عصيب: الشديد في الشر، وأصله من الشر يقال عصبتُ الشيء أي شددته.

(٧) ركن: الركن معتمد البناء بعد الأساس.

(٨) شديد: الشدة تجمُّعٌ يصعب معه التفكك.

(٩) بقطع: القطع القطعة العظيمة تمضي من الليل، وقيل نصف الليل كأنه قطع نصفين.

حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ [١] مَّنضُودٍ [٢] (٨٢) مُّسَوَّمَةً [٣] عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾.

هدى من الآيات:

وبعد أن ذهب عن إبراهيم الروع بسبب خوفه من الملائكة المرسلين، وتلقّى منهم البشرى، هنالك أخذ يتضرع إلى الله لنجاة قوم لوط. حقا كان إبراهيم قمة في الحلم. حيث لا يزال يرجو نجاة قومه. وقد اكتسب ذلك بعلاقته بربه العظيم. بيد أن الله أخبره أن أجل قوم لوط قد أتى، وأن لا مرد لعذاب الله.

في الجانب الآخر من الصورة نجد لوطا عليه السلام يضيق ذرعا بالمرسلين لعلمه بفساد قومه الذين أخذوا يهرعون إليه، استمرارا لعاداتهم السيئة. وطلب منهم لوط أن ينكحوا النساء اللاتي هن أطهر لهم من الشذوذ. ورجاهم بألا يتعرضوا لضيفه. وانتخاهم وقال أليس فيكم رجل رشيد؟!

فرفضوا، وعرف لوط ألا ملجأ له إلا الله ذا الركن الشديد. هنالك كشف الرسل عن أنفسهم، وطمأنوه وأمروه بأن يترك المدينة ليلا، لأن ميعاد العذاب قريب عند الصباح. وهكذا جعل الله مدن قوم لوط عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود. سجلت باسمهم. وكانت جزاء الظالمين. وهلكوا وبقيت منهم عبرة للتاريخ.

بينات من الآيات:

إبراهيم عليه السلام ينيب إلى الله

[٧٤] حين سكنت نفس إبراهيم عليه السلام من المفاجآت، وبشر بالنصر، عاد إليه حنانه المتدفق نحو إنقاذ الناس من الجاهلية، وأخذ يجادل ربه في قوم لوط ويتضرع إليه أن يؤتوا فرصة أخرى للهداية ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾.

[٧٥] ويشهد جدل ابراهيم عليه السلام ودفاعه المستميت عن الناس على مدى اهتمام الرسل بالناس، وإن دعوتهم ليست من أجل مصالح ذاتية، بل من أجل حبهم العميق للآخرين.

---

(١) سجيل: الحجارة الشديدة.
(٢) منضود: متتابع في الإرسال أي بعضه يلاحق بعضاً، والمنضود من نضدت الشيء بعضه على بعض.
(٣) مسومة: المسومة من السيماء وهي العلامة.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ فبحلمه العظيم صبر على اذى قومه، على أمل أن يهتدوا في يوم من الأيام، ولا يزال ينتظر هدايتهم لا هلاكهم، ولأنه دائم التضرع إلى الله، وقلبه متصل أبدا بالله عن طريق المناجاة نراه يدعو الله لكي ينقذ قوم لوط، ويعطيهم فرصة أخرى للهداية دون أن يعلم الغيب، وإنه لا أمل فيهم أبدا، ولذلك فهو أواه، بيد أنه يسلم لله الأمر وينيب إلى ربه ولا يجعل الدعاء إذا لم يستجب سببا لعدم رضاه من الله فهو إذا منيب.

[٧٦] ولأن إبراهيم منيب تجده يعود عن قراره بطلب الخلاص لقوم لوط، وذلك حين قال له ربه: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فما دام الأمر لم يصبح جديا ومحتما يجوز أن يسعى الفرد لتغييره، بالعمل أو بـالدعاء، وأما إذا قضى الله أمرا فلا يمكن تغييره.

في ضيافة لوط عليه السلام

[٧٧] وانتقل رسل الله من عند إبراهيم عليه السلام إلى بيت لوط عليه السلام، وحدثت هناك المفاجأة الثانية حيث ضاقت الأزمة لتنفرج، واشتدت لتحل.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ إن لوطا حسب أن هؤلاء الرسل الذين جاؤوا إليه في صورة فتية حسان الوجوه، حسبهم أنهم ضيوفه وكان قومه يفعلون الفاحشة بالضيوف، لذلك استاء منهم وضاق ذرعا بحضورهم، ورأى أن ذلك اليوم شديد عليه، وأنه لا حيلة له في عمل شيء أبدا، لأنه وحيد بين قوم طغاة لا يؤمنون بدين، ولا يدينون بشرف.

[٧٨] ولما رأى قومه الفتية أسرعوا إلى بيت لوط عليه السلام ليفعلوا ما اعتادوا عليه من الفاحشة، ودعاهم لوط عليه السلام إلى ترك الشذوذ الجنسي والعودة إلى سنة الله في الحياة بالزواج من البنات.

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي يسرعون إلى بيته ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قالوا: بأن لوطا عليه السلام طالبهم بزواج البنات من أمته وهن بناته بالأبوة الروحية والرسالية، أو كما قالوا: بأنه عرض عليهم بناته ليتزوجوا منهن، وكان ذلك العرض السخي من أجل نهيهم عن المنكر، بأي وسيلة ممكنة.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وهكذا أمرهم بتقوى الله، وترك العادة السيئة، بعد أن أوضح لهم الطريق السوي لإشباع الشهوة الجنسية، وطالبهم لوط برعاية الشرف ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ﴾، فإن

لم يكن لكم دين فلا أقل من التمسك بالعرف الذي ينكر طبيعيا اغتصاب الضيوف ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

[٧٩] وكان جواب قومه بالغا في الميوعة والرعونة: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي فيما يتصل بقضية البنات، لابد أن نتزوجهن والزواج حق نعمل به ونمشي على هداه، أما الآن فنحن نريد تلك اللذة التي لا توجب علينا تكاليف ومسؤوليات ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

ربما كان قوم لوط قد استصعبوا قوانين الزواج على أنفسهم واستكثروا من أعبائها المالية، مما دفعهم إلى إشباع الغريزة بالشذوذ، وربما كان لوط يدعوهم إلى التخفيف من قيود الزواج مما قد يدل عليه قوله عليه السلام: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ وقولهم: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾.

[٨٠] وقطع لوط أمله منهم، واستبد به اليأس من كل شيء، وقال بكلمات تتفجر أسى ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ تمنى لو كانت لديه قوة قادرة على مواجهتهم، أو كانت لديه عشيرة تمنعه منهم.

أليس الصبح بقريب

[٨١] هكذا اشتدت الأزمة وضاقت عليه المشكلة، وعندها ترجى رحمة الله، وهكذا أظهر الضيوف الذين حاول الجاهليون الاعتداء الخلقي عليهم، أظهروا واقعهم وبينوا أنهم ملائكة الله ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾.

وجاءت الأوامر متلاحقة صارمة:

ألف: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بعد أن يسدل الليل ستاره ويذهب ردح منه وتهجع العيون، وتأوي النفوس إلى مضاجعها.

باء: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ لا ينظر إلى ما وراءه ليعرف كيف سيكون حال قومه، بل يبقى منفصلا عنهم نفسيا لكي لا يشاركهم العذاب، ولذلك أصاب امرأة لوط ما أصابهم من العذاب بسبب انتمائها النفسي والقلبي إليهم.

ثم جاء الأمر الالهي الصارم على لسان الملائكة ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

[٨٢] ماذا صنع الله بقوم لوط؟.

لم يفعل بهم إلا ما فعلوه بأنفسهم. أنهم غيروا سنن الله، وحولوها عن وضعها العادي فإذا بهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء، فقلب الله مدينتهم على رؤوسهم تنكيلا ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وأنهم لم يقبلوا وصايا الله، ومواعظ الأنبياء التي تستمطر الرحمة، فإذا بهم يتعرضون لعذاب الله الشديد يمطر عليهم من السماء بدل البركات ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ ربما يكون معناه الحمم المتلاحقة وكأنها منضودة بما يشبه حجارة البراكين المتفجرة، والله أعلم.

[٨٣] وقد قدر الله تلك الحجارة لمثل هذه الطائفة المنحرفة، وكأنها قد وضعت عليها علائم خاصة تقول هذه لهؤلاء ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

شعيب عليه السلام: أوفوا المكيال والميزان

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الحديث عن الشعوب الضالة، يذكّرنا القرآن الكريم بمصير مدين قوم شعيب الذين ابتلوا بالفساد الاقتصادي، فأخذوا ينقصون المكيال والميزان فنهاهم شعيب عن ذلك بعد أن أمرهم بعبادة الله واتباع مناهجه في الحياة الاقتصادية، وحذرهم من أن الرفاه قد يزول بسبب ظلمهم، ويحيط بهم عذاب الله، كما نهاهم عن الفساد وأمرهم بالقسط، وذكّرهم بأن عليهم الانتفاع بهدى الله ورسالته وذلك خير لهم. وأكد بأنه ليس سوى مبلغ للرسالة، وليس وكيلا عنهم. بيد أنهم رفضوا قبول دعوته بالرغم من قبولهم لشخصه، فبعد أن اعترفوا بأنه صاحب دين والتزام بالشعائر، وأنه حليم رشيد لم يقبلوا بأن يتدخل في شؤونهم ويأمرهم بترك عبادة ما كان يعبده آباؤهم، أو تحديد حريتهم في أمور الاقتصاد.

بينات من الآيات:

لا لنقص المكيال والميزان

[٨٤] في طرف الجزيرة العربية كانت مساكن مدين تلك القبيلة التي وسع عليها الله الرزق فبطروا، وأخذ بعضهم يظلم بعضا، ويحاول البعض الإنقاص من البعض، وأن يفسد ما في الأرض.

فجاء شعيب رسولا من قبل الله إليهم وأمرهم بعبادة الله، وتنفيذ تعاليم السماء، ونهاهم عن عبادة ذواتهم، أو عبادة الثروة الزائلة، كما نهاهم عن الإنقاص في المكيال والميزان لأنه نوع من الظلم والعلاقة الفاسدة بين أبناء البشر والتي سوف تؤدي إلى زوال الخير، وحذرهم من يوم يحيط بهم عذابه فلن يجدوا مفرا منه.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ربما كانت مدين كغيرها من الشعوب الجاهلية، تدعي الإيمان بالله ظاهرا، ولكنهم لا يطبقون واقعا رسالة الله، فلذلك أمرهم شعيب بعبادة الله وتحكيم سيادته التشريعية على واقعهم الاجتماعي، دون أن يكتفوا بترداد اسمه سبحانه، بينما يتخذون آلهة أخرى للعبادة، كالكهنة والطغاة والأشراف وأصحاب المال.

﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ أي إني أجد حياتكم المادية مرفهة، ولكن هذه الحياة قد تزول في أية لحظة بسبب الظلم الاجتماعي الذي تمارسونه ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

عوامل الانهيار

[٨٥] وأمرهم شعيب بأن يوقفوا رحلة الانهيار التي بدأت في حضارتهم المزدهرة عبر ثلاث ثغرات هامة وجدت فيهم وهي:

أولاً: الاستهانة بالمقاييس الاقتصادية التي كانت موضع ثقة الجميع كالمكيال والميزان فإذا بخسوا فيهما فإن النظام الاجتماعي ذاته يصبح مهددا بالزوال. إذ إن النظام يقوم على أساس الثقة والتوافق الاجتماعي عليه، ولا ثقة ولا توافق مع الاحتيال على المقاييس والقيم التي يجب أن تكون ثابتة ومعتمد عليها.

ثانياً: تبديل العلاقة الاجتماعية السابقة التي كانت تعتمد على احترام حقوق الآخرين، والتنافس البناء من أجل الحصول على خيرات الأرض بتعاون الجميع وثقتهم ببعضهم، ولكنهم بدلوا ذلك بعلاقة الصراع ومحاولة كل فرد أو كل جبهة أو جماعة السطو على حقوق الآخرين، مما يهدد محور المجتمع، وأساس المدنية.

ثالثاً: تبديل علاقة الإنسان بالطبيعة من علاقة الإصلاح والتعمير والبناء، والانتفاع المعقول إلى علاقة الإفساد والهدم، والإسراف في الانتفاع أو الشذوذ فيه.

هكذا جاءت رسالة الله لأهل مدين على يد شعيب في لحظة التحول. حيث كانوا أحوج شيء إلى الهداية. فقال لهم شعيب عليه السلام: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ أي احترموا المكيال والميزان، وليكن كيلكم ووزنكم بالعدل التام ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ سواء كانت مادية أو معنوية، وليكن همكم أداء حقوق الآخرين واحترامهم، والاعتراف بمنزلتهم وكرامتهم دون أي نقص في ذلك، ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾.

توجيه المستقبل

[٨٦] وأضاف شعيب عليه السلام في توجيهه لقومه الجاهلين توجيها هاما يعتبر ضمانا لاستمرار الحضارة وحفظا لها من أسباب التدهور والزوال، وهو التسامي عن جاذبية المادة، والتحليق في سماء الإيمان، والاعتقاد العملي بالمستقبل، وبالتالي التسلح برؤية بعيدة فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ ﴾.

ما هي بقيّة الله؟ إنه رضوانه وثوابه.

والسؤال هو: كيف يمكن لقوم مثل قوم شعيب الحصول على الباقيات الصالحات؟ إلا بترك الموبقات التي ذكرت في الآية السابقة، ثم العمل في سبيل الله بإطعام المساكين، وأداء حقوق الفقراء، وبناء المساجد والمرابط، والإنفاق من أجل بناء السدود والقنوات والطرق و.. و..، وكلما هو في سبيل الله. أليس كذلك؟!.

والعمل بكل ذلك يوجب استمرار الحضارة في الازدهار للمستقبل، وعدم الإسراف في استهلاك المكاسب الآن، وكل حضارة تقوم بالازدهار في بداية تكونها ولكنها تتوقف عن الازدهار، ثم تبالغ في الاستهلاك أنها تنتهي وتزول، أما إذا استمرت الحضارة في العمل للمستقبل، وفي إيجاد علاقة إيجابية وبناءة مع الناس ومع الطبيعة، فإنها سوف تبقى وتستمر، لذلك اعتبرنا هذا الأمر الإلهي الذي أظهره شعيب ضمانا لاستمرار الحضارة. وتشير بعض

الآيات القرآنية الأخرى إلى هذه الحقيقة مثل قوله سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثم قال شعيب: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي لا تفتروا: بأن القائد قادر على منع العذاب عنكم من دون أن تفعلوا شيئا صالحا، أو تغيروا ما بأنفسكم، بل عليكم أنتم المسؤولية أولاً وأخيراً، وربما أشارت الآية إلى حالة حضارية اعترت قوم شعيب كتلك التي تعتري الشعوب المتخلفة فيلقون كل المسؤولية على قياداتهم.

[٨٧] ولكن قوم شعيب ظلوا على وضعهم الفاسد وعيروا شعيبا ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ وكأن عبادة الأصنام تحولت عندهم إلى دين مقدس لأنه من عمل الآباء، ولا يجوز أن يعارضها شخص مؤمن كشعيب، وكما عادة الأصنام كذلك سائر الأنظمة كالملكية الفردية المطلقة ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ ونكسب المال بطريقة مشروعة أو غير مشروعة، سواء نظلم الناس أو بالبخس عنهم، وأن نصرف المال في أي وجه نشاء صلاحاً كان أم فساداً.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ولستَ بشاب طائش يخالف تقاليد الآباء أو يعترف بحقوق أصحاب المال ومزاياهم، ويبدو من حديث قوم شعيب أنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا حتى رأوا المعروف منكرا، والمنكر معروفا، وأصبح الفساد دينا مقدسا عندهم وليس فقط سلوكا شاذا، لذلك لم تنفعهم نصيحة شعيب عليه السلام.

شعيب عليه السلام: لا يجرمنكم شقاقي

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ (١) كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ (٢) لَرَجَمْنَاكَ (٣) ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا (٤) ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا (٥) إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾.

---

(١) نفقه: الفقه في اللغة هو: فهم الكلام على ما تضمنه من المعنى.

(٢) رهطك: الرهط عشيرة الرجل وقومه.

(٣) لرجمناك: الرجم الرمي بالحجارة.

(٤) ظهرياً: الظهري جعل الشيء وراء الظهر حتى ينساه، ويقال لكل من لا يعبأ بأمر قد جعل فلان هذا الأمر بظهره.

(٥) وارتقبوا: وانتظروا.

هدى من الآيات:

لقد انتهى الدرس السابق في الوقت الذي كان قوم شعيب يجادلونه في خرافاتهم واصنامهم، أما شعيب فهو لا يزال يقاوم ضلالتهم ويحتج عليهم.

أولاً: بأنه قد هداه الله، وجعله على بينة واضحة.

ثانياً: إن حياته الشخصية على خير وجه.

ثالثاً: إنه أول من يتبع مناهج ربه التي يأمرهم بها.

رابعاً: إن هدفه هو إصلاح الوضع الفاسد بكل ما أوتي من مقدرة.

خامساً: إنه لا يهمه الفشل، كما لا يستبد به اليأس لأنه يرى أن توفيقه من الله، وأن عليه سبحانه لا على نفسه أو على الناس توكله واعتماده ومعاده، وحذرهم من أن عنادهم ضده وتحديهم له قد يوقعهم في ذات المهلكة التي وقعت فيها الشعوب الضالة سابقا، مثل قوم نوح وقوم صالح وقوم لوط القريبين منهم زمانا أو مكانا أو كلاهما.

ثم أمرهم شعيب مرة اخرى بالاستغفار والتوبة إلى الله فإنه رحيم ودود، ولكنهم حين لم يجدوا جوابا قالوا له: لا نفهم كثيرا مما تقول، وإن مقياسنا في تقييم كلامك ليس ذات الكلام بل ذات الشخص المتحدث، وإنّا لنراك ضعيفا فينا، ولولا وجود أصحاب لك وعشيرة. إذن لرجمناك، فقال لهم: هل إن عشيرتي أعز عندكم من الله خالقكم وخالقي المحيط بكم، والذي تركتم مناهجه.

ثم تحداهم وقال لهم: اعملوا ما شئتم أما أنا سأعمل وسوف تعلمون من يأتيه عذاب الخزي، وهل أنا كاذب أم أنتم، وانتظروا إني معكم رقيب وشاهد، وجاء أمر الله فأنجى الله شعيبا والمؤمنين معه برحمة منه بينما أخذتهم الصيحة فأصبحوا جاثمين في ديارهم كما لو لم يقيموا هناك، فأبعدهم الله ولعنهم كما أبعد ثمود من قبلهم.

بينات من الآيات:

شخصية الرسول

[٨٨] يظل الأسلوب الرسالي، هو ذلك الأسلوب الذي ينير القلوب، ويتحدث إلى الوجدان بعد أن يرفع عنه الصدأ، ويكشف عنه الحجب، وهكذا فعل شعيب حيث بدأ من

نفسه ووضع أمام قومه واقعا جديدا هو سلوكه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾.

ماذا لو أكشف سلامة رؤيتي، وصواب طريقي، وإنني على بينة واضحة أعطاها الله لي؟ أفلا يكون من الخطأ عدم التفكر في ذلك أساسا ورده رأسا؟!

﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ فأخلاقه الفاضلة، وسلوكه الحسن، وإرادته الصلبة، وصحته الجسدية، وتكامله المعنوي بالإضافة إلى رسالات الله التي لا يشك أحد في أنها نعمة كبرى. كل أولئك شواهد على أن سبيله مستقيم.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ فأنا أول من يطبق الرسالة كدليل على صدقي، وقناعتي بها، وعدم تكلفي فيها.

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ فبالرغم من اختلاف الناس في مفهوم الصلاح والفساد في بعض الأبعاد التفصيلية، فإن أكثر الناس يعلمون أن تقريب القلوب، وتأليف التقوى، والوفاء بالمكيال والميزان، والإهتمام بالمحرومين والمستضعفين، كل ذلك صلاح، وأن الرسول يقوم شخصيا بفعل الصلاح، ويضرب بذلك مثلا على حقيقة رسالته.

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ إن نسبة نجاح خطط الرسل تفوق كل النسب، مما يكشف عن عامل غيبي غير معروف للنجاح، وهو توفيق الله وسلامة الرؤية الرسالية، وهذا بدوره دليل على صدق الرسالة، كما أن وضع الخطط التي تعتمد على الغيب وتأخذ الغيب كعامل هام في معادلة الخطة، دليل آخر على صدق الرسالة وهذا هو التوكل، والرسول رجل غيبي ليس في تصرفاته وإنما أيضا في إنابته إلى الله، وضراعته الدائمة، وصلاته الكثيرة، ورشده وحلمه، وكأن شعيب عليه السلام من أكثر الأنبياء إنابة إلى الله حتى قالوا: إن كريمته قد ابيضت من كثرة البكاء خشية من الله، وشكرا له.

إرهاصات العذاب

[٨٩] وحذر شعيب قومه من العناد، ومخالفة الرسالة لمجرد تحدي شعيب، وحاول أن يفهمهم بضرورة التفريق بين الفكرة وبين قائلها، فلو كانت سلوكيات الداعية أو أساليبه الإعلامية تثير فيهم الغضب، فلا يجوز أن يظلموا أنفسهم بمخالفة الفكرة الصحيحة، لأن ذلك سوف يسبب لهم متاعب كبيرة.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ أي لا تدعوكم مخالفتي إلى التورط في المشكلة ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾

[٩٠] ثم أمرهم شعيب بإصلاح أنفسهم والاستغفار من ذنوبهم لكي لا تكون الذنوب السابقة سببا لمعاداة الرسالة، ومخالفة اوامر الله ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ إذ قد يسبب تعود البشر على الأفعال القبيحة، وظنه بأن الله قد تركه، وبالتالي يأسه من روح الله، قد يسبب استرساله في ا لكفر تبريرا لأعماله الفاسدة، من هنا دعا شعيب قومه إلى مخالفة العادة، ورجاء رحمة الله.

[٩١] وجاء دور قوم شعيب يردون حجج شعيب فانظر ماذا قالوا؟ وكيف أنهم قد انطلقوا في رفض الرسالة. من قاعدة الجهل والعناد، والتمسك بالماديات، والغرور بما لديهم من قوة! ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ أي لولا عشيرتك لقتلناك شر قتلة ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾.

[٩٢] وسفّه شعيب أولئك الأغبياء الذين يعاندون ربهم ويخشون رهط شعيب ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ فأنى تعملون فلا تخرجون من إطار قدرة الله، وحدود مملكته سبحانه.

[٩٣] وجاءت مرحلة التحدي الفاصلة حيث نابذهم شعيب العداء، وأمرهم بأن يعملوا على حالهم. بينما يعمل هو بما أمره الله والكل ينتظر ما يحمله المستقبل من مفاجآت ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ وهكذا جاء دور انتظار الفرج من قبل شعيب، بعد الجهاد وتوفير عوامل النصر الظاهرة، وانتظار الفرج يعتبر من أفضل الأعمال. ففي الحديث النبوي: «**أَفْضَلُ أَعْمَالِ أُمَّتِي انْتِظَارُ الْفَرَجِ**»[1].

[٩٤] وكل آت قريب، فجاءت العاقبة تكشف الحقيقة المظلومة لتنتقم من المعاندين ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

[٩٥] وكأن أحدا لم يكن في هذه الديار ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾.

---

(١) كمال الدين: ج٢ ص٦٤٤.

وما أمر فرعون برشيد

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ[1] قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ[2] (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ[3] (٩٩) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ[4] (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣)﴾

هدى من الآيات:

لقد أرسل الله موسى بآياته البينات وبسلطان مبين. الآيات كانت تلك القيم التي دعا إليها موسى، وتلك الحقائق التي ذكَّر بها، وتلك الفطرة المنسية التي استثارها في قلوبهم. وتلك المعرفة التي جهلوها، فأعادها إلى ذاكرتهم..

---

(١) يقدم: يقال قدمتَ القوم، إذا مشيتَ أمامهم واتبعوك.

(٢) الورد المورود: ورود الماء الذي يورد، وأصل الورود الإشراف على الدخول وليس بالدخول، أي: بئس الماء الذي يردونه عطاشى لإحياء نفوسهم، تلك النار التي يردونها.

(٣) الرفد المرفود: العطاء المعطى لهم.

(٤) تتبيب: من تبت يده أي خسرت.

وجاء موسى فرعون وملأه بسلطان مبين، إلا أن الملأ لم يتبعوا ذلك السلطان، بل اتبعوا أمر فرعون غير الكامل، وغير البالغ مستوى الرشد، لأنه يقود قومه إلى بئس المقام وهو النار كما أن اللعنة تلاحقهم، في الدنيا والآخرة، بئس العطاء، وبئست الضيافة والقرى.

هل ظلمهم الله؟ كلا.. إنما ظلموا أنفسهم حيث اتبعوا فرعون وسائر الآلهة من دون الله سبحانه، فلم تنصرهم الآلهة حين نزل عليهم عذاب الله، وكان أخذ الله شديدا وأليما.

فمن خاف عذاب الآخرة اعتبر بأبناء القرى، ومن لم يخف يوم القيامة حيث يجمع الناس وتشهده الملائكة فما عسى تنفعه الآيات والعبر؟.

بينات من الآيات:

[٩٦] الأنبياء عليهم السلام يأتون إلى الناس لكي يستأدوهم ميثاق فطرتهم، ويثيروا في انفسهم دفائن العقول. ولا يحتاج الانبياء إلى أن يأتوا إلى الناس بسلطان مبين، أي معجز خارق، ولكنه مع ذلك ترى أن رحمة ربنا سبحانه وتعالى، تأبى إلا أن تتم الحجة على العباد بصورة قاطعة، ولا يعذبهم إلا بعد أن تتم الحجة عليهم كاملة. ولذلك يقول ربنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ذلك السلطان كان الثعبان الذي ابتلع حبال أولئك السحرة، مما دعا السحرة أصحاب الحبال، إلى أن يسجدوا لله رب العالمين، ويؤمنوا بإله موسى وهارون، كما كان السلطان أيضا اليد البيضاء التي كانت لموسى عليه السلام معجزة خارقة.

ولكن فرعون الذي أرسل إليه موسى وإلى ملئه الذين أحاطوا به، رفض الرسالة.

[٩٧] ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ اتبع أولئك القوم أمر فرعون الذي كان يعبد من دون الله ولم يكن أمر فرعون قائما على أساس العقل ولا على أساس التجربة، إنما كان قائما على أسـاس الهوى والشهوات. وكم يكون الإنسان ظالما لنفسه حين يتبع من لا يتبع إلا شهواته. فإذا كانت الشهوات هي مقياس الطاعة، فأولى بك أن تتبع شهواتك من أن تتبع أهواء الآخرين.

المقياس في الطاعة للغير هو أن يكون ذلك الغير أكمل عقلا، وأفضل تجربة. أما إذا كانت أوامره أوامر طائشة، قائمة على أساس الانعكاسات المرحلية الآنية، ولم تكن قائمة على خطة عقلانية إيمانية سليمة، فكيف يمكنك أن تطيعه.

يقول ربنا: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

[٩٨] لماذا؟..

لأن فرعون لم يكن يرى الحياة إلا محدودة بإطار الدنيا، لم يكن يعلم شيئا عن الحياة الآخرة، لذلك فإن كل أفكاره، وكل قراراته كانت خاطئة. لأن فهمه الأساسي للحياة كان فهما خاطئا.

لذلك تراه يقود قومه الضالين إلى النار، وبئس ما يقودهم إليه ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

[٩٩] أوردهم في نار لا رحمة فيها ولا نعمة فيها ولا راحة فيها ولا نهاية لها. نار حرها شديد وقعرها بعيد ونورها ظلام والواردون فيها حطبها ووقودها.

بالإضافة إلى العذاب المادي المباشر الذي كان فرعون سببا له، عرض قومه إلى عذاب آخر هو عذاب السمعة المفقودة، واللعنة التي ظلت تلاحقهم إلى الأبد، وها هو القرآن نقرأه بعد آلاف السنين من هلاك فرعون وقومه، وهو يلعنهم. أفليس في ذلك عبرة..

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ في الحياة الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أيضا اللعنة تلاحقهم، بالإضافة إلى العذاب ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ تلك كانت الآثار المادية ﴿الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ هذه هي الآثار المعنوية ﴿الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ إذن ينبغي أن لا يطيع أحد أمر من لا يرشده بل يغويه ويضله.

[١٠٠] ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ هذه القرى التي لا تزال قائمة، سوف لا تبقى إن كانت ظالمة لنفسها. أما تلك القرى التي حصدت وانتهت، حصدت كما يحصد الحقل فلا يبقى منها شيء، تلك القرى ذهبت لتورثنا عبرتها.

عبرة القرى

[١٠١] عبرة القرى التي حصدت هي ما يقول تعالى في الآية التالية: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ عبرة تلك القرى أن ربنا سبحانه وتعالى، وفر الحياة الكريمة السعيدة لهم. وفر فرصة الهداية، وفي المنعطفات الخطيرة التي كانت تهددهم، أرسل ربنا إليهم المصلحين، وبذل هؤلاء المصلحون كل ما بوسعهم، فبشروا وأنذروا وحذروا وذكروا بالآيات وأثاروا فيهم دفائن العقول.. وكل ما كان بإمكانهم فعلوه إلا إجبارهم على الهداية، فلم يستجب أولئك لفرصة الهداية، فعاندوا وتحدوا واستكبروا وظلموا أنفسهم.

وأساس ظلمهم وانحرافهم هو أنهم اتبعوا الآلهة التي تُعبد من دون الله، وهذه الآلهة لم تغن عنهم في لحظة الحسم وساعة العذاب الشديد شيئا..

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أمر الله لم يكن مدفوعا ولا مرفوعا عنهم بسبب الآلهة. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ إنما زادت الآلهة الطين بلة والعذاب شدة.. هلاكا وتبابا.

[١٠٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وكانت عبرة القصة كلها تتلخص في أمرين:

الأول: إن أخذ الله شديد في قوته، أليم في مدى تأثيره، ولا يجوز لنا أن نستهين بأوامر الله، ونستخف بعقابه.

[١٠٣] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾

الثاني: إن عذاب الدنيا على شدته وعظيم ألمه، دليل المؤمنين إلى عذاب الآخرة، الأشد والآلم.

وإن المؤمن يهتدي بها في الدنيا من ألم إلى يوم الجزاء الأكبر حيث يجمع الناس، كلهم، ويشهده الناس والملائكة وعلينا أن نعيش بوعينا ذلك اليوم الرهيب لنتقيه أشد التقوى.

عاقبة البشر بين شقاء النار وسعادة الجنة

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ [1] ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ [2] ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ [3] مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

انتهى الدرس السابق بالتحذير من يوم القيامة المشهود، وتأكيداً لذلك يبين هذا الدرس بأن تأخير يوم القيامة ليس بلا حدود، بل هنالك أجل محدود ينتهي إليه التأخير، فنحن نقترب إليه على قطار الزمن، وحينئذ يظهر سلطان الله حيث لا تستطيع أي نفس أن تتحدث إلا بإذن الله، وينقسم الناس إلى سعداء وأشقياء، أما الأشقياء فهم بين الموت والحياة في النار لهم شهيق وزفير، بسبب سوء حالهم، ويبقون في النار ما دامت السماوات والأرض، إلا أن يشاء الله، أما السعداء فهم في الجنة خالدون ما بقيت السماوات والأرض إلا أن يشاء الله، وتلك الجنة عطاء لا ينقطع من قبل الله.

---

(١) زفير وشهيق: الزفير إخراج النفس من الصدر، وقيل: الزفير أول صوت الحمار والشهيق آخر صوته، والشهيق رد النفس إلى الصدر.

(٢) غير مجذوذ: غير مقطوع.

(٣) مرية: الشك.

بينات من الآيات:

فمنهم شقي وسعيد

[١٠٤] لماذا يؤخر الله العذاب؟ لأنه سبحانه قد حدد سلفا أجلا معدودا، وأعطى بحكمته ورحمته فرصة الابتلاء للناس ضمن هذا الأجل، فمن آمن وأصلح عمله، نفعه عمله ولم يخش أجله. ومن قَصَّرَ خسر فرصته التي لا تعود، ومتى ما استخرج المرء كل ما عنده من قابليات الخير أو الشر، بسبب تطور الزمان، فإنه ينتهي أجل إمتحانه، ولابد أن يستعد لمغادرة قاعة الامتحان وهي الدنيا إلى حيث جزائه في الآخرة ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي لسبب وجود أجل معدود أخرجه الله للبشر في الدنيا.

[١٠٥] وإذا جاء ذلك اليوم الرهيب يعم الصمت المهيب ويقف الناس أمام ربهم ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله مما يدل على إحاطة سلطان الله عليهم ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾.

وينقسم الناس على أنفسهم فريقين: شقي استنفذ فرص حسناته في الدنيا فلم يبق له حسنة هناك فتمحض في السيئات بأعماله السيئة فأصبح من أهل النار، وسعيد أخلص لله عمله حتى تمحض في الخير فأصبح من أهل الجنة ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾.

[١٠٦] أما جزاء الأشقياء فهم في نار لا يموتون فيها ولا يحيون، بل يكابدون ألوان العذاب، ولذلك تراهم يجرون الآهات الخفية حينا بسبب ضعفهم، والعالية حينا بسبب شدة الألم، فهم بين زفير وهو أول صوت الحمار، وشهيق وهو آخره ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾.

[١٠٧] ويبقى هؤلاء خالدين في النار ما دامت السماوات والأرض التي تحيط بالنار من فوق ومن تحت ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾.

والسؤال الذي وجهه المفسرون إلى أنفسهم هو: لماذا استثنى القرآن بمشيئة الله؟ وتعددت إجاباتهم حولها، وأعتقد أن الجواب الأقرب هو: أن الله يفي بوعده الصادق ولكنه لا يحتم عليه شيء، بسبب ارتباط ذلك كله بمقام الربوبية، فالصلاة لأنها كانت لله فهي ذات ثواب عظيم، وكذلك ترك الصلاة أصبح عملا قبيحا ذا عقاب شديد بسبب ارتباطه بمقام الله العزيز المتعال. لذلك فهو الذي يحدد مداه وقدره، ومتى نهايته، وربما يشير إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

[١٠٨] أما السعداء فهم في الجنة ما دامت الجنة موجودة بأرضها وسمائها. ولكن مشيئة الله فوق كل ذلك، فلربما شاءت إرادته التي لا تحد أن يعطي للجنة استمرارا أكثر ليعطي للمؤمنين فرصة أكبر للبقاء ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ويشير إلى هذا المعنى الذي ذكرناه للمشيئة قوله سبحانه: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي أن عطاء ربك غير مقطوع.

ولعل ذلك إشارة إلى الخلود في الجنة ولكنه لا بمعنى تبدل ذاتي يحصل في الكون، فتتحول طبيعته من طبيعة فانية إلى طبيعة خالدة. كلا. بل بمعنى إن الله شاء أن تبقى الجنة خالدة (والله العالم).

[١٠٩] بسبب إصرار الكفار على باطلهم، وعنادهم في ضلالتهم قد يعتري المؤمن شك في سلامة خطهم، أو وجود نسبة من الحق إلى جانبهم. بيد أن ربنا ينهانا عن هذا الشك، ويأمرنا بعدم الريب في بطلان عبادتهم ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فعبادتهم باطلة لا ريب في ذلك.

وأنهم يقلدون آباءهم الذين كانوا على ضلالة، وكما أن الله أعطى جزاء آبائهم بإنزال العذاب عليهم، فإنه سوف يعذبهم أيضاً ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

فاستقم كما امرت

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

انتهى الدرس السابق موضحاً إن المقياس هو الشقاء أو الفلاح في يوم البعث، أما هذا الدرس فقد جاء ليكرس الإيمان بالآخرة في واقع الدنيا، فنهى الله الرسول من الشك في ضلالة هؤلاء فيما يعبدونه من آلهة، وأنهم ليسوا أفضل ممن سبق من المشركين، وأن الله سيوفيهم جزاءهم العادل دون نقصان.

ومثل هؤلاء إنما هو كمثل الذين اختلفوا في كتاب موسى فأعطاهم الله فرصة الإمتحان بكلمة سبقت منه سبحانه، ولولاها لقضي بينهم بتأييد الصادقين منهم ضد أعدائهم. وذلك بسبب شكهم المريب في صدق الكتاب الذي اختلفوا فيه.

إن هذه الفرصة ليست دائمة بل محدودة بيوم انتهاء فرصتهم ومهلتهم، حيث يعد عليهم الله أعمالهم وهو خبير بها.

وعليك أيها الرسول أن تستقيم كما أمرت، وعليكم أيها المؤمنون أن تستقيموا كما أمرتم، ولا تطغوا فالله بما تعملون بصير.

بينات من الآيات:

فاختلفوا فيه

[١١٠] لقد أنزل الله الكتاب ليختلفوا إليه، ويجعلوه قاضيا بينهم، فاختلفوا فيه، وحملوه

أهواءهم، والسبب أنهم لا يؤمنون حقا بالكتاب بل بأهوائهم، ولولا أن الله جعل الدنيا دار ابتلاء وفتنة. إذن لأيد الفريق المؤمن بالكتاب وخذل المفسرين له بأهوائهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ حيث قضى بتأخير الجزاء يوم البعث، او ليوم انتهاء مهلة الفاسقين ونصرة المؤمنين عليهم.

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بأسلوب آخر غير تنزيل الكتاب الذي لم ينفعهم، ولم يوحدهم على الهدى بسبب طغيانهم واتباع أهوائهم، والإختلاف في الكتاب دليل الشك فيه ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

[١١١] والله لا ينظر إلى التبريرات التي يقدمها البشر لأعماله الضالة، والتخريجات الدينية التي يتعب نفسه في تركيبها على أهوائه، وبالتالي لا يعبأ بالتفسير الباطل للكتاب الذي يخدع نفسه به، إنما ينظر ربنا سبحانه إلى حقيقة أعماله، فيوفيه إياها وهو محيط علما بها وبخلفيتها ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إن التأكيدات المتتالية في هذه الآية لدليل على أن البشر يخدع نفسه بالكتاب كما يخدعها بغيره، وأن الله سبحانه يُذكّره بأن خداعه سراب، وأن عمله هو الباقي وحده.

فاستقم كما أمرت

[١١٢] ولماذا يختلف الإنسان في الحياة أساسا؟.

لأنه لا يرضى بحدوده وحقوقه، بل يطغى ويحاول أن يتجاوز حدوده، ويعتدي على حرمات الآخرين، وحين يطغى الفرد يجرف بطغيانه القيم الإلهية التي وضعت في طريقه، ويحاول أن يفسرها حسب أهوائه لكي يجعل قيم السماء جزءاً من معاملاته الفاسدة.

من هنا كان من الصعب جدا على الناس مقاومة ضغط الأهواء باتجاه تفسير الكتاب حسب أهوائهم، والإستقامة في خط الكتاب، وتكييف أنفسهم حسب مقاييسه، وجاءت كلمة القرآن حاسمة لتؤكد هذه الحقيقة.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وبعصمة الله، وبحسن التوكل عليه استقام الرسول، أما المؤمنون فإن معضلات الفتن ضغطت عليهم، وحرفت مسيرتهم، ولكنهم سرعان ما تابوا إلى الله فاستقاموا ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.

أما سبب الانحراف وتفسير الكتاب حسب الأهواء، وبالتالي الاختلاف فيه فهو

الطغيان ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إن علينا أن نتبع هدى الله دون زيادة أو نقصان.. فإنه طغيان.

وجاء في الحديث عن ابن عباس: ما نزل على رسول الله آية كانت أشد عليه ولا أشق من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: أسرع إليك الشيب يا رسول الله: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالوَاقِعَة**»[1].

(١) وسائل الشيعة: ج٦ ص١٧٢.

لكي نضمن الأستقامة

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ [1] إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ [2] وَزُلَفًا [3] مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ [4] يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ [5] فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

تلك كانت قصص الظالمين من عاد وثمود واصحاب الأيكة و.. و..، وتلك كانت نهايتهم الأليمة بيّنها القرآن في الدروس السابقة، وفي هذا الدرس بالذات يبين لنا الموقف السليم، كما يبين العبرة من الدروس السابقة ومن نظائرهم والذي يتلخص في:

أولاً:حرمة مودة الظالمين وطاعتهم، وبالتالي منع الركون اليهم لكي لا يحترق الراكن اليهم بنارهم، فلا ينصره الله، ولا يكون منتصرا من قبل غير الله.

(١) ولا تركنوا: الركون إلى الشيء هو السكون إليه بالمحبة له، والإنصات إليه، ونقيضه النفور عنه.
(٢) طرفي النهار: صباحاً وعصراً، فإن صلاة الصبح في الطرف الأول وصلاة الظهرين في الطرف الآخر منه.
(٣) وزلفا: الزُّلَف هي الساعات الأولى من الليل.
(٤) أولوا بقية: البقية ما بقي من الشيء بعد ذهابه.
(٥) أترفوا: أي تعودوا الترف بالنعيم واللذة.

ثانياً:الاستعانة بالصلاة والصبر وانتظار الفرج الموعود من الله.

ثالثاً:تشكيل جبهة من الصالحين الذين لم يَفسدوا بالنظام المنحرف، والإعتماد عليها في مقاومة الفساد.

ويبين القرآن: إن ما يقود الظالمين في حياتهم هي النعم الوافرة التي أُترفوا فيها، ويجرمون بحق الناس من أجلها، ويفسدون في الأرض غرورا بها، والله لا يهلك قرية صالحة -حاشا ربنا عن الظلم- إنما يهلكهم لفسادهم.

بينات من الآيات:

ولا تركنوا إلى الذين ظلموا

[١١٣] ليس الظالم وحده مجرم في المجتمع. بل الساكتون عنه أيضا مجرمون، والمتعاونون معه شركاء في الظلم، والله سبحانه ينهانا عن الركون إلى الظالمين بالمودة القلبية، وتقديم المشورة الفكرية لهم، أو طاعتهم ودعمهم ماديا، لأن كل ذلك سوف يسبب في اشتراكنا معهم في الجريمة، وبالتالي نيل نصيبنا من العذاب الذي إذا جاء عم الجميع ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ والركون ضد النفور وهو السكون إلى شيء، والاعتماد عليه عن رضا. لذلك يجوز السكوت عن الظالم ظاهرا، تحينا للفرصة المناسبة للإطاحة به.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ إن المجتمع الذي يسكت عن الظلم، أو يسكن إلى من يمارس الظلم بحقه لا يجد وليا ولا نصيرا لا في الأرض ولا في السماء، فلا الله ينصر هذا المجتمع الراضي بالظلم لأنه يأمره بالتمرد على الظالمين، ولا أولياء الله الذين ينتظرون تحرك المستضعفين ضد الظلمة حتى يتدخلوا إلى جانبهم. أما أن يحاربوا بديلا عنهم فلا ولا كرامة.

واستعينوا بالصبر والصلاة

[١١٤] ولكي نقاوم إغراء السلطة والثروة اللتين يعتمدهما الظلم، ونقاوم ضغوطهما الشديدة، ولكي تبقى نفوسنا صامدة أمام التضليل، ونمتلك ثقة بقدرتنا على التحدي، بل وأيضا لكي نستعيد ثقتنا بأنفسنا، ونُكفِّر عن الذنب العظيم الذي ترتكبه عادة الجموع المستضعفة، وهو يأسهم من روح الله، وتأليههم للطغاة الظالمين، واعتقادهم بأنهم لا يقهرون، لكل ذلك لابد أن نستعين بالصبر والصلاة، كما قال ربنا سبحانه في سورة البقرة ﴿وَٱسْتَعِينُواْ

بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥].

ذلك لأن الصلاة تربط العبد بربه وتعطيه الطمأنينة وتحفظه عن السيئات.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي الصباح قبل طلوع الشمس، وبعد انبلاج الفجر الذي هو أول النهار، وأيضا بعد الظهر حين يصلي المسلم صلاتي الظهر والعصر. ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ﴾ أي بعد ان يمضي وقت من الليل، وهي صلاة المغرب والعشاء اللتين قال عنهما رسول الله ﷺ: «المَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ زُلْفَتَا اللَّيْلِ»(١).

وهكذا يبقى على المؤمن أن يصلي صلاته في الأوقات المحددة لها، كما قال سبحانه في آية اخرى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ [الاسراء: ٧٨].

وهذه الصلوات تذهب بالسيئات، فإذا لم يركن قلبك إلى الظالم، ولا أعنته فإن صلاتك اليومية سوف تعيد إليك إيمانك المفقود وتذهب بالآثار السلبية الباقية في قلبك من تأييدك للظالم.

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ ولكن ليس كل صلاة تذهب بالسيئة، بل الصلاة التي تتخذ ذكرى ومادة لتطهير القلب من الغفلة. أما الصلاة التي أصبحت عادة، أو الصلاة رياء وسمعة فإنها لا تنفع شيئاً. لذلك قال ربنا: ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

وجاء في الحديث عن عليٍّ عليه السلام في معنى الآية قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ الله ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ وَقَرَأَ الآيَةَ كُلَّهَا.

وَقَالَ ﷺ: يَا عَلِيُّ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَقُومُ إِلَى وُضُوئِهِ فَتَسَاقَطُ عَنْ جَوَارِحِهِ الذُّنُوبُ فَإِذَا اسْتَقْبَلَ الله بِوَجْهِهِ وَ قَلْبِهِ لَمْ يَنْفَتِلْ عَنْ صَلَاتِهِ وَعَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ شَيْءٌ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ فَإِنْ أَصَابَ شَيْئاً بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى عَدَّ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: يَا عَلِيُّ إِنَّمَا مَنْزِلَةُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ لِأُمَّتِي كَنَهَرٍ جَارٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ فَمَا ظَنَّ أَحَدُكُمْ لَوْ كَانَ فِي جَسَدِهِ دَرَنٌ ثُمَّ اغْتَسَلَ فِي ذَلِكَ النَّهَرِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ أَكَانَ يَبْقَى فِي جَسَدِهِ دَرَنٌ فَكَذَلِكَ وَالله الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ لِأُمَّتِي»(٢).

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٩، ص٣١٨.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٩ ص٢٢٠.

[١١٥] وكما أن الصلاة تعطي قدرة على المقاومة، وحصانة كافية ضد التأثر بسلبيات النظام الفاسد، فكذلك الصبر وتحمل الصعاب. انتظارا للمستقبل حيث لا يضيع الله أجر المحسنين، وهذا هو جوهر الصبر، حيث أن الثقة بأن العمل الصالح يستتبع الجزاء الحسن عاجلا أم آجلا تسلي النفس عن الشهوات وعلى الصعوبات ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

[١١٦] ومقاومة الفساد تهدف -فيما تهدف- إيجاد مجموعة من المؤمنين يكونون تيارا رافضا للفساد ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لم تبق إلا مجموعة باقية لم تفسد من أبناء المجتمع. لأن عملهم كان هو النهي عن الفساد، ومقاومة الانحراف ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لقد كانت هنالك فعلا مجموعة بسيطة من هؤلاء أنجاهم الله سبحانه، بينما أهلك الله الاخرين.

كيف فسد الظالمون؟.

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ لقد اغتروا بتلك النعمة التي وفرها الله لهم، حتى اتبعوا مسيرة تلك النعمة، وضيعوا أنفسهم، وتوحي هذه الآية بأن فساد الناس بالنعمة إنما يتم بسبب ظلم الناس لبعضهم البعض، وتعديهم على حقوق الآخرين، كما أن نوع الفساد يرتبط بنوع النعمة المتوفرة لديهم، ففساد الثروة غير فساد القوة أو فساد العلم، والفساد يؤدي إلى الجريمة وهي الاعتداء الصارخ على حقوق الناس، والانتهاك العلني للقيم والحرمات.

[١١٧] وحين يعم الفساد يهلك الله القرى، ولكن إذا تحرك أولو بقية من أهل القرى في طريق الصلاح، فإن الله سيرحمهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أما إذا فسدت القرية إلا قليلاً ممن عصمهم الله، فإن الله سوف ينقذ هؤلاء، ثم يهلك الآخرين، كما فعل بعاد وثمود.

وجاءك في هذه الحق

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ(١) وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

في نهاية سورة هود يجيب القرآن الحكيم على هذا السؤال: لماذا الصراع؟ ألم يكن ربنا قادرا على توحيد الناس؟ فيقول: بلى، ولكن الدنيا دار عمل وانتظار، وسيبقى الناس مختلفين -إلا من رحم الله فهداه إلى صراط مستقيم- والتاريخ صورة لهذا الصراع الممتد، والله يقص علينا من أنباء الرسل ليثبت بها قلب الرسول وقلوب المؤمنين، وليوضح الحق، وليلقي بالمواعظ، وليذكر المؤمنين، فالله قد أعطى في دار الإبتلاء فرصة لكل الناس، ليعملوا، والمؤمنون بدورهم يعملون، ولينتظر الجميع.

والله محيط علما وقدرة بغيب السماوات والأرض وبما في مستقبل الأشياء وبحاضرها أيضا، فعلينا أن نعبد الله، وأن نتوكل عليه فالله ليس بغافل عما يعمله الناس، فعلمه وقدرته محيطة بما يعملون.

---

(١) فؤادك: الفؤاد هو القلب.

وهكذا يُنْهي القرآن سورة هود ببيان ضرورة التوكل على الله، وقد دارت أكثر آياته حول هذا المحور العام.

بينات من الآيات:

سُنَّة الصراع

[١١٨] الصراع سنة الحياة التي يجب البحث أبدا عن سبل إنهائه، ولكن لا ينبغي السأم منه، أو الالتفاف حوله خشية مجابهته، فهو كالموت المعلق يمكن تجنبه، كالتخلف والمرض، وكالفقر وككل المشاكل الحضارية للبشرية التي يجب السعي من أجل تخفيف وطأتها أنى استطعنا من دون السأم منها.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فلو شاء الله لخلق الناس مؤمنين منذ البدء كما خلقهم خلقا سويا، فجعل لهم عينين ولسانا وشفتين، ولكنه اركز فيهم قوتين مختلفتين ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. وكلفهم باقتحام العقبة بأنفسهم ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١].

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ دون أن يكون الاختلاف مطلوبا من الله، ولكن ضعف العقل الذي لم يقسم بين العباد أقل منه، وقوة الشهوات التي زينت لهم كل ذلك يكرسان الإختلاف فيهم.

[١١٩] ويبقى الناس مختلفين إلا الذين رحمهم الله بهداه فانتفعوا به، واعتصموا بحبله جميعا، فألف بين قلوبهم بدينه ونوره، لو انفقنا ما في الأرض جميعا ما ألفنا بين قلوبهم.

إذن فالوحدة هدف إنساني سام يسعى من أجله البشر، وهو في ذات الوقت غاية الخليقة، فالله لم يخلق الناس ليعذبهم بل ليرحمهم، ويجعل بعضهم أخوة بعض، ولكنه سبحانه حملهم مسؤولية تحقيق هذا الهدف التشريعي السامي بعد أن هيأ لهم كل أسباب تحقيقه، من رسل وقادة وكتب وشرائع.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ أما إذا استمروا في ضلالتهم، وخالفوا الشريعة فإن الله سوف يعذبهم عذابا شديدا لأنهم لم يتحملوا مسؤوليتهم.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ إذن الصراع طبيعة أولية، والوحدة غاية تشريعية، والاختلاف واقع فاسد يجب إزالته، وإلا فالنار جزاء آت لا ريب فيه.

شهادة التاريخ

[١٢٠] والقصص التي تليت من صراع الحق والباطل عبر تاريخ الأنبياء وقومهم الضالين جاءت لتؤكد هذا الصراع، وتعطينا قدرة على احتمال صعوباته ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ وأنباء الرسل تؤكد أيضا على أن الرسالة حق، وأنها منتصرة فعلى البشر أن يعمل بها، وأن يستثير عقله بذكراها.

﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾ أي جاءك في هذه الأخبار من تاريخ الرسالات كلمات الحق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

خلاصة السورة

[١٢١] والتاريخ يعيد نفسه. ذلك لأن سنن الله واحدة في الماضي والحاضر والمستقبل، ولذلك فإن الزمن يمر في صالح الرسالة ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي اعملوا على طريقتكم ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾.

[١٢٢] ﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فنحن واثقون من إن الحق منتصر، وأن صراع الحياة سوف يختم في صالحنا بإذن الله.

[١٢٣] وفي هذا الصراع الممتد عبر التاريخ يتزود الرساليون بالإيمان الصادق بالله، وبأنه محيط علما ومقدرة بما في غيب السماوات والأرض، وأن إليه مصير الأمور، فهو مالك سره وخبيئته، وهو مالك مصيره ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ من صغائر الأمور وكبائرها، ومن وحي هذا الإيمان يأتي إخلاص العبودية والطاعة لله، وأيضا التوكل عليه والعمل من أجله ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

سُورَةُ يُوسُف

* مكية.

* عدد آياتها: ١١١.

* ترتيبها النزولي: ٥٣.

* ترتيبها في المصحف: ١٢.

* نزلت بعد سورة هود.

فضل السورة

قال النبي محمد ﷺ: «عَلِّمُوا أَرِقَّاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ فَإِنَّهُ أَيُّمَا مُسْلِمٍ تَلَاهَا وعَلَّمَهَا أَهْلَهُ ومَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ هَوَّنَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ سَكَرَاتِ المَوْتِ وأَعْطَاهُ القُوَّةَ أَنْ لَا يَحْسُدَ مُسْلِماً».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤٢)

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَوْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وجَمَالُهُ مِثْلُ جَمَالِ يُوسُفَ عليه السلام ولَا يُصِيبُهُ فَزَعُ يَوْمِ القِيَامَةِ وكَانَ مِنْ خِيَارِ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥١)

***

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لَا تُعَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ ولَا تُقْرِئُوهُنَّ إِيَّاهَا فَإِنَّ فِيهَا الفِتَنَ وعَلِّمُوهُنَّ سُورَةَ النُّورِ فَإِنَّ فِيهَا المَوَاعِظَ».

(الكافي: ج٥ ص٥١٦)

الاطار العام

الحاكمية للّه

تكاد قصة النبي يوسف عليه السلام تعم هذه السورة التي سميت باسمه، بحيث لا تدع مجالاً للسؤال عن سبب التسمية.

إن معاناة الرسل الشديدة في الحياة، وتحديهم للضغوط المختلفة، معراجهم إلى حمل رسالة الله إلى الأرض. وفي قصة النبي يوسف عليه السلام بيان تفصيلي لأنواع من المعاناة التي تمخضت عنها شخصية النبي يوسف الرسالية، التي كانت في الأصل مختارة لهذا المنصب، وذلك بسبب خصاله الذاتية، ولكن بعد المعاناة التي كانت بمثابة التدريب العملي له.

إن الإنسان غافل عما في الرسالة من ذكر وبصائر، حتى ينزل الله استثارة للعقل، بهدف دفع الناس باتجاه التفكير والتعقل، ويستفيد القرآن من القصص التاريخية النافعة والجذابة في هذا المجال لتكون أقرب إلى مدارك البشر، فيذكِّر بها من هو غافل عنها.

وبالتالي؛ فإن العبرة التاريخية ليست مما يفترى، لأنها إشارة إلى حقائق خارجية يمكن لكل إنسان التعرف عليها إن استخدم عقله أو شعوره، فآيات القرآن الكريم إشارات واضحة إلى ما في الكون من حقائق ملموسة (الآيات: ١-٣).

إن هذه السورة المباركة مليئة بالعبر التاريخية (التي نقرؤها في تفاصيل القصة التي تتضمنها الآيات: من ٤ إلى ١٠٢) التي تكشف اللثام عن خبيئة النفس البشرية بما تمتلك من عقل وإرادة وعلم تجلت عند يوسف عليه السلام، أو من حسد وكبر وحيلة تجلت في إخوته، ومن شهوة عارمة وتسلّط وظلم وبطر تجلّت في إمرأة العزيز وزوجها، وإن الله عليم بكل ذلك، وإنه هو الذي يصرّف الأمور لصالح المؤمنين أخيراً، وهو الذي ينقذهم من الموبقات بعد أن أخلصوا أنفسهم لله، فاستخلصهم لنفسه.

إن النبي يوسف عليه السلام كان صدِّيقاً أيقن قلبه أن جماله من الله، وهو الذي أعطاه القوة ومكَّنه في الأرض، وأن من كفر بأنعم الله لايفلح، وبسبب إيمانه الصادق بهذه الحقائق، فقد أدركه في ساعة المحنة إيمانه، وبلورت المعاناة شخصيته التي عجنت بروح الإيمان والتقوى، فظهر له برهان ربه وحجته البالغة في لحظة الصراع الشديدة مع طبيعته ومجتمعه المتمثل في قوة ربة بيته أو محيط السجن أو إغراء الملك أو تعقيدات الإدارة الاقتصادية.

وهكذا المؤمنون يتذكرون ربهم كلما تعرضوا لتجربة صعبة، فيتركون المعصية ويتحدون المصاعب، بينما يغط غيرهم في غفلة وميوعة.

وتنتهي قصة النبي يوسف عليه السلام، وتبقى عبرتها المتمثلة في طبيعة البشر المعاندة للحق، فأكثرهم -رغم حرص الرسول وأصحاب الحق- ليسوا بمؤمنين، ويحسبون الدين خسارة، بينما هو ذكر، وتوجيه للعاملين إلى الحق الذي غفلوا عنه (الآيات: ١٠٣-١٠٤).

وكم هي الآيات المنتشرة في السماوات والأرض يمرون عليها دون أن ينتفعوا بها، بل هم معرضون عنها. إن إيمان أكثرهم مخلوط بالشرك، وبالتالي فهو ليس بإيمان. ولا يُدرى هل هم قد أخذوا صك الأمان من عذاب الله الذي يشملهم إذا جاء، ومن الساعةالتي تأتيهم فجأة في الوقت الذي هم لا يشعرون (الآيات: ١٠٥-١٠٧).

ولكن الرسول يدعوهم إلى سبيل واضحة هي الدعوة إلى الله على بصيرة ورؤية واضحة له ولمن يتبعه، وهي بصيرة توحيد الله وتنزيهه عن أي نوع من أنواع الشرك (الآية: ١٠٨).

وهذه كانت رسالة الله من قبل، التي نزلت على رجال من أهل القرى، فلماذا لا يسيرون في الأرض ليروا ماذا كانت نهاية أولئك السابقين، وليعرفوا أن الدار الآخرة أفضل للمتقين، فلماذا لا يعقلون والحقيقة واضحة (الآية: ١٠٩).

وقد أرسل الله للناس رجالاً، فبلَّغوا رسالات الله، فلم يستجيبوا لهم، حتى إذا بلغوا درجة اليأس، وظنوا أنهم قد كُذبوا فعلاً، جاءالنصر الإلهي، فنجّى ربنا من شاء، بينما لم يستطع أحد ردّ بأسه سبحانه عن المجرمين (الآية: ١١٠).

وإن هذه هي عبرة قصص السابقين التي لم يستوعبها سوى أولي الألباب والعقول، وليس حديثاً يمكن أن يُفترى، إنما هو كلام حق يصدق الأحاديث السابقة، ويفصل كل شيء، ويهدي المؤمنين (الآية: ١١١).

أحسن القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

بينات من الآيات:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كل شيء قائم بالله، وكل شخص حي بالله، وكل تقدم وتكامل يتحقق باسم الله، وبتنفيذ برامج الرسالة التي أوحى بها الله، وتكامل شخصية الرسل يكون باسم الله. ذلك لأنه لولا التوكل على الله لما استطاع الرسل التغلب على مشاكل الحياة..

الهدف من الكتاب

[١-٢] ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ لقد أنزل الله الكتاب الذي يبين أحكام الله، ومناهج الرسالة. (وآيات الكتاب هي هذه -الألف واللام والراء- التي ترمز اليها) أنزله الله ليقرأ على الناس، ويقرؤه الناس بلغتهم العربية، التي تعرب عما في ضمائرهم بوضوح، والهدف من الكتاب أن يكون مساعدا لعقل البشر، مثيرا لدفائنه ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

[٣] والله يلقي الضوء على بعض الأحداث التاريخية، ويقصها علينا باعتبارها أحسن القصص، وأكثرها فائدة للناس، والوسيلة هي الوحي الذي لولاه لبقي البشر في ضلال بعيد، وغفلة شاملة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ أي القصص الحسنة، وبأسلوب حسن أيضا.

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ الرسول -لولا رسالة الله وهدايته- واحد من البشر، وهذا بالذات سر عظمة الرسل، لأنهم متصلون مباشرة بالله سبحانه، ولذلك يبقى الرسول غافلا حتى يأتيه الوحي، كما يبقى البشر غافلا، ناسيا لما عنده من مواهب معنوية ومادية حتى يهديه الله بالرسول.

رؤيا تبشر بالمستقبل

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ[1] رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ[2] لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[3] إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا[4] يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ[5] وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ[6] يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ[7] إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾.

هدى من الآيات:

ما هي أحسن القصص التي تثير العقل، وترفع حجاب الغفلة والتي بشرت بها آيات

(١) يجتبيك: الاجتباء هو الاختيار والاصطفاء لمعالي الأمور.

(٢) آيات: عبر.

(٣) العصبة: الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض ويعين بعضها بعضاً.

(٤) اطرحوه أرضاً: ألقوه في أرض بعيدة.

(٥) يخل لكم وجه أبيكم: تخلص لكم محبة الأب، وتملكون قلبه.

(٦) غيابت الجب: الجب هو البئر وغيابة الجب هو شبه طاق فوق ماء البئر.

(٧) السيارة: الجماعة المسافرون، سمّوا بذلك لأنهم يسيرون في البلاد، وقيل هم مارّةُ الطريق.

الدرس السابق؟.

ها هي قصة يوسف واحدة من أحسن القصص، وهي أطول قصة قرآنية ذكرت جملة واحدة عن قص يوسف رؤياه على والده يعقوب عليه السلام كيف رأى في المنام أحد عشر كوكبا، والشمس والقمر يسجدون له جميعا، ففسره والده رأسا بان الله سوف يصطفي يوسف من بين إخوته ليكون وارثا لرسالة الله التي أتاها الله من قبل ابراهيم وإسحاق عليهما السلام وليكون فاتحا لعهد جديد في حياة الأسرة بفضل نعم الله التامة عليه، وليكون عالما بعواقب الأمور وبالوحي، وَلَكِم حذر يعقوب يوسف عليه السلام من نقل رؤياه لأخوته من قبل أن يفسرها له لأن الشيطان عدو مبين للإنسان، فيدفع إخوته ضده بخطط السوء.

إن حسد إخوة يوسف كان سابقاً لرؤياه. لذلك جلسوا يتآمرون ضد سلامته وقالوا: إن أبانا لفي ضلال مبين حيث يحب أخانا الأصغر يوسف، بينما يتركنا نحن الكبار المتحدين مع بعضنا، فلا بد إذن من التخلص من يوسف بقتله أو نفيه عن هذه الارض ليخلوا لهم وجه أبيهم خالصاً دون منافسة يوسف، وحنَّ قلبُ واحدٍ منهم، ونصحهم بألا يقتلوه بل يرموا به إذا أرادوا به شرا في غيابت الجب لتلتقطه بعض القوافل السيارة في ذلك الطريق.

بينات من الآيات:

الرؤيا بصيرة المستقبل

[٤] كان يوسف الثاني عشر من أبناء يعقوب (إسرائيل) وهو حفيد إبراهيم الخليل، وابن إسحاق، وكان بالرغم من صغر سنه الأكفأ بين أخوته، ولذلك إختاره الله ليكون وريث الرسالة إذ أن: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقام ذات صباح مسرعا إلى أبيه يقص عليه خبر رؤياه العجيبة. وهو آنئذ غلام مراهق مضى من عمره أثنى عشر ربيعا.

ماذا رأى؟ رأى أحد عشر كوكبا كما رأى الشمس والقمر، ثم كانت دهشته كبيرة حين رآهم كأنهم يسجدون له ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

[٥] أول نصيحة قدمها يعقوب لابنه وقبل أن يفسر رؤياه هي التحذر من أخوته ألا يحسدوه ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ أي يدبروا لك سوءاً،

والسبب أن نوازع الشر موجودة لدى البشر، والشيطان يدغدغ هذه النوازع ليثيرها ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ولأن يوسف الأخ الأصغر لأخوته، ولأنه من أم أخرى يقال أن اسمها (راهيل)، وكان يحن عليه أبوه لتعويضه عن الحنان الأمي المفقود فكان الجو مهيئاً لتنامي الحسد فيهم. لذلك حَذَّره، منهم يعقوب عليه السلام.

وجاء في حديث إن تظاهر يعقوب بحب يوسف كان السبب في إثارة أخوته عليه، بينما المفروض أن يخفي الأب شدة حبه لأحد أولاده عن أنظار الآخرين لكي لا يحسدوه، وربما كان السبب في تظاهر يعقوب في حبه لابنه يوسف إحترامه للخصال الكريمة التي كانت عنده، وذلك بهدف تشجيع الأخرين على التحلي بها.

على العموم كان يعقوب يعرف مدى حسد أخوة يوسف تجاه أخيهم النابه ويتحذر من إثارة الحسد.

[٦] ثم فسر يعقوب رؤيا يوسف، وبين أنها تدل:

أولاً: على أن الله سوف يصطفي يوسف، ويرزقه علما بعواقب الأمور التي سماها بتأويل الأحاديث. أي معرفة ما يؤل اليه الأحاديث وكيفية جريانها.

ثانياً: إنه سوف يتم نعمته عليه بنصرته على أعدائه كما فعل بآبائه الصالحين ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

يعلم ما يخفيه الناس وما يظهرونه من نية وعمل. فيؤتيهم بصلاح نياتهم وأعمالهم. لذلك فهو قد اجتبى يوسف بحق، وبقية القصة تدل على ذلك.

[٧] لقد كان في قصص يوسف، وقصص أخوته الذين كادوا له في البدء ثم تابوا وأصلحوا كان للناس فيها آيات تهديهم إلى طبيعة الإنسان في كبوته أمام الشهوات، ثم تعرضه للآلام، وأخيرا توبته وإصلاح نفسه، ولكن هذه العبرة ليست لكل الناس بل للسائلين منهم الذين يبحثون عن الحقيقة لإحساسهم بمدى الحاجة اليها.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ فما هي تلك الآيات؟ سوف نجد نوعين من العبر التاريخية في قصة يوسف وأخوته:

الأولى: إن العاقبة للمتقين، وهذا النوع يتبين لنا في نهاية القصة فقط.

الثانية: آيات تكشف نفسية البشر، وطبيعة القوى المتناقضة في ذاته، وكيف يعين الله عباده في الأوقات الحرجة، وما أشبه من العبر التي تستوحى من اللحظات الحساسة في القصة. لذلك علينا أن نلاحظ في تدبرنا لقصة يوسف هذين النوعين من الآيات المفيدة للسائلين.

المؤامرة

[٨] جلس أخوة يوسف يتآمرون وقالوا:إن يوسف وأخاه من أمه أحب إلى قلب أبينا منا، بينما نحن أكثر عددا منهم، وينبغي أن نكون نحن الوارثين لأمجاد أبينا، فأبونا إذا في ضلال مبين ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ قال بعض المفسرين ما يلي: «أي في ذهاب عن طريق الصواب الذي هو التعديل بيننا في المحبة»، وقيل معناه: «إنه في خطأ من الرأي في أمور الأولاد والتدبير الدنيوي، ونحن أقوم بأمور مواشيه وأمواله وسائر أعماله، ولم يريدوا به الضلال عن الدين لأنهم لو أرادوا ذلك لكانوا كفارا، وذلك خلاف الإجماع»[1].

ويبدو أن الضلال المقصود إنما هو الضلال عن الطريق القويم في معاملة أبنائه.

[٩] وإذا كان الأب في ضلال فلابد أن يعارضوه ويقاطعوه، ولكنهم كادوا ليوسف -أخيهم البريء- وتآمروا على أن يقتلوه، أو ينفوه في أرض بعيدة يموت فيها.

والسبب:أن منطلقهم الفكري كان (العنصرية) التي اوحت اليهم بأنهم ما داموا عصبة فهم أفضل من غيرهم، وهذا هو منطق القوة الذي يتكلم به كل الطغاة، وإذا كان اخوة يوسف يقيمون أنفسهم وفق المقاييس الرسالية لعرفوا بأن صفات يوسف الرسالية أحسن من صفاتهم، فهو أحق بقرب والدهم منهم لذلك قالوا: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ إن إخوة يوسف حاولوا الجمع بين الدين والدنيا، بين الحق والباطل، فمن جهة أثارهم حسدهم ونظرتهم العنصرية إلى أنفسهم نحو قتل أخيهم البريء، ومن جهة ثانية فكروا في أن يصبحوا صالحين في يوم من الأيام.

[١٠] وأدرك أحدهم حنان الأخوة: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ غيابة الجب شبه طاق فوق ماء البئر، ويقال: إن

---

(١) مجمع البيان: ج٥ ص٢٧٣.

قائل هذا القول هو (روبيل)[1] من إخوة يوسف، ويقال: إنه كبيرهم[2] الذي رفض مواجهة أبيه عندما أُخِذَ أخاهم منهم عندما اتهمه يوسف بالسرقة خدعة، وهكذا انصرفوا عن قتل يوسف وأجمعوا على أن يجعلوه في إحدى الفجوات المحيطة بالبئر ليأخذه بعض المارة لقيطاً.

وهؤلاء إخوة يوسف الذين تآمروا عليه حُرِموا النبوة، بالرغم من توبتهم أخيرا، وأنهم الأسباط الذين أنحدرت من نسلهم الأنبياء ذلك لأن النبوة لا تعطى لمثل هؤلاء الذين يقومون بمعاصي كبيرة في حياتهم، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

(١) بحار الأنوار: ج١٢، ص٢١٨.

(٢) وقيل: يهودا، وقيل لاوي. راجع: بحار الأنوار: ج١٢، ص٢٢٠.

مؤامرة الحاسدين

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا[1] عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾.

هدى من الآيات:

أحكَموا الخطة، وجاؤوا إلى أبيهم ليلا طالبين منه أن يبعث معهم يوسف في الصباح ليتمشوا وليلعبوا، وتساءلوا لماذا لا يؤمنهم على يوسف؟ أو ليسوا أخوته وهم له ناصحون؟! فقال يعقوب إن غياب يوسف يثير حزني، كما يثير خوفي من الحاق ضرر به، كأن يأكله الذئب حين تغفلون عنه، ولكنهم أصروا على طلبهم، وتعهدوا بألا يغفلوا عنه. كيف وهم جماعة؟! إن ذلك فقدان لعزهم وكرامتهم ولعصبيتهم، فلما ذهبوا به إلى الصحراء أجمعوا أمرهم على أن يجعلوه في طرف البئر من داخلها وجاءه الوحي يخبره بأنه سوف يتغلب عليهم ويذكرهم بهذا اليوم في الوقت الذي لا يشعرون.

(١) لا تأمنا: لا تثق بنا.

وتأخروا في العودة حتى جن الليل. وتصايحوا بالبكاء وادعوا لأبيهم أنهم راحوا يتسابقون وتركوا يوسف يحرس متاعهم، فلما عادوا وجدوا الذئب قد أكل أخاهم وجاؤوا بقميص يوسف عليه دم كذب، ولكن الدم كشف كذب أحدوثتهم، فقال يعقوب لهم كلا.. إن ذلك أمر سولته لكم شهواتكم فإنني أصبر صبرا لا جزع فيه، ولا خروج عن القيم، واستعين بربيّ في دفع المكاره..

بينات من الآيات:

[١١] جاء اخوة يوسف إلى أبيهم وطرحوا عليه سؤالا محرجا ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾.

يبدو أن يعقوب كان يخفي عنهم علمه بحسدهم ليوسف لكي لا يسبب ذلك إعطاء شرعية لهذا الحسد، ولكن كان يباشر أمور إبنه الصغير بنفسه، ولا يدعها عند إخوته ومن هنا كان السؤال محرجا إذ ادعى أخوة يوسف أن قلوبهم صافية تجاه أخيهم!

وعلى نبي الله الذي جاء رحمة لعباده ألا يقول لمن القى اليه السلام لست مسلما. لهذا رد عليهم يعقوب بلطف، ولم يقل أنه لا يثق بهم -وهو لم يكن يثق بهم فعلا-.

[١٢] ثم بعد أن هيؤوا الجو طالبوا أباهم بأن يثبت لهم عن حسن ظنه بهم، ويبعث بيوسف معهم في اليوم الثاني ليفرجوا عن همهم، ويتمشوا في الصحراء وليلعبوا ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾ ثم أكدوا له أنهم سوف يتولون حراسته وحفظه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

[١٣] فبرر يعقوب عليه السلام ابقاء يوسف عنده لأنه شيخ كبير، يستأنس بيوسف، ويحزن لغيابه عنه، كما قال: بأنه يخشى عليه من الذئب، وبين لهم أنه قد يحدث ذلك وهم عنه غافلون، فلا يمكنهم الوفاء بوعدهم لعدم قدرتهم على ذلك ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَـٰفِلُونَ﴾ جاء في الحديث[1] إن إخوة يوسف لم يخططوا لأبعاد المؤامرة جميعا، بيد أن يعقوب عليه السلام أعطاهم بأقواله تبريرا لفعلهم، فعرفوا أن المنطقة يرتادها الذئاب، وأن بإمكانهم ادعاء الغفلة، مما يدل على ضرورة التحذر في الحديث مع الكاذب.

---

(١) عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ بَنِي يَعْقُوبَ لَمَّا سَأَلُوا أَبَاهُمْ يَعْقُوبَ أَنْ يَأْذَنَ لِيُوسُفَ فِي الْخُرُوجِ مَعَهُمْ قَالَ لَهُمْ إِنِّي أَخَافُ: ﴿أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَـٰفِلُونَ﴾ قَرَّبَ يَعْقُوبُ لَهُمُ الْعِلَّةَ اعْتَلُّوا بِهَا فِي يُوسُفَ عليه السلام». بحار الأنوار: ج١٢، ص٢٨٣.

[١٤] عادوا وأكدوا بشرفهم وبعصبتهم أنهم سوف يحافظون على يوسف، وقالوا كيف نسمح لأنفسنا أن يتلطخ شرفنا بهذا العار، فلا نستطيع أن نحافظ على أخينا الصغير من الذئب إنها خسارة لسمعتنا الغالية ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾.

[١٥] فذهبوا بيوسف وأجمعت إرادتهم وعزائمهم على أمر واحد هو جعله في داخل البئر، دون أن يلقوه في مائها ليغرق، بل ليلتقطه بعض السيارة -كما أوصاهم أخوه روبيل-.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ هناك أدركته رحمة ربه حيث جاءه الوحي يبشره بأنه منصور، وأنه سيأتي يوم بعيد تكون الأيام قد أنست هؤلاء فعلتهم القبيحة، فيخبرهم يوسف بهذا الأمر الفضيع وهم لا يشعرون ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وبالرغم من أن محنة يوسف قد ابتدأت منذ تلك اللحظة إلا أن يد الغيب هرعت إليه لتكون بديلا عن حماية إخوته الخائنين به، وهكذا تشتد الأمور لتتفرج بإذن الله، ويأتي بعد العسر يسر من فضل الله.

جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام قال: «لَمَّا طَرَحَ إِخْوَةُ يُوسُفَ يُوسُفَ فِي الْجُبِّ دَخَلَ عَلَيْهِ جَبْرَئِيلُ وَهُوَ فِي الْجُبِّ فَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ طَرَحَكَ فِي هَذَا الْجُبِّ فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ إِخْوَتِي لِمَنْزِلَتِي مِنْ أَبِي حَسَدُونِي وَلِذَلِكَ فِي الْجُبِّ طَرَحُونِي قَالَ: فَتُحِبُّ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا. فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: ذَاكَ إِلَى إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، قَالَ: فَإِنَّ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ يَقُولُ لَكَ: قُلِ اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْحَنَّانُ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرامِ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ أَمْرِي فَرَجاً وَمَخْرَجاً وَارْزُقْنِي مِنْ حَيْثُ أَحْتَسِبُ وَمِنْ حَيْثُ لَا أَحْتَسِبُ، فَدَعَا رَبَّهُ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ مِنَ الْجُبِّ فَرَجاً وَمِنْ كَيْدِ الْمَرْأَةِ مَخْرَجاً وَ أَعْطَاهُ مُلْكَ مِصْرَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبْ»[1].

[١٦] ولنترك يوسف تحوطه يد الرحمة الإلهية، وتربيه في غيابت الجب، ويأتي أحد إخوته بطعام له، ولنعد إلى البيت حيث نجد يعقوب ينتظر بفارغ الصبر عودة ابنه الحبيب، ويتأخر إخوة يوسف أكثر من العادة، فلما أسدل الليل ستاره جاؤوا إلى أبيهم لعل ظلام الليل يغطي بكاءهم الكاذب ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾.

[١٧] وقبل أن يسألهم يعقوب عن يوسف الذي لم يجده بينهم بادروه بالكلام ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ ولكن بسبب كذبهم وعدم إيمانهم بما يقولون بدرت منهم كلمة أظهرت ما أخفوه فقالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا

(١) تفسير القمي: ج١ ص٣٥٤، بحار الأنوار: ج١٢ ص٢٤٧-٢٤٨.

﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ولو كانوا صادقين فعلا لكانت الشواهد الواقعية هي التي تكشف عن صدق حديثهم، ولم يكونوا بحاجة إلى هذا الكلام.

[١٨] وذبحوا ذبيحة لطخوا قميص يوسف بدمها، ناسين أن دم البشر يختلف عن دم الحيوان حتى بعد تخثره، والخبير يميزه بسهولة، كما أنهم نسوا تمزيق قميص يوسف مما عرف أن العملية كذب باعتبار الذئب لا يخلع ثوب ضحيته ثم يأكله ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وجاء في الحديث: «**إِنَّ يَعْقُوبَ قَالَ حِينَمَا رَأَى القَمِيصَ: لَقَدْ أَكَلَكَ ذِئْبٌ رَحِيمٌ، أَكَلَ لَحْمَكَ وَلَمْ يَشُقَّ قَمِيصَكَ**»[1].

وجاء في حديث آخر: «**تَنَبَّهَ يَعْقُوبُ عَلَى أَنَّ الذِّئْبَ لَوْ أَكَلَهُ لَمَزَّقَ قَمِيصَهُ، لِذَلِكَ لَمَّا ذَكَّرَهُمْ بِذَلِكَ قَالُوا: بَلْ قَتَلَهُ اللصُوصُ، فَقَالَ: فَكَيْفَ قَتَلُوهُ وَتَرَكُوا قَمِيصَهُ وَهُمْ إِلَى قَمِيصِهِ أَحْوَجُ مِنْهُمْ إِلَى قَتْلِهِ**»[2].

من هنا عرف يعقوب أن كيد إخوة يوسف قد أحاط به، فقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي أصبر صبراً جميلاً بالاستعانة بالله فيما أصابني من خيانة أبنائي بي وبأخيهم، وكذبهم علي وتآمرهم ضدي.

---

(١) مجمع البيان: ج٥ ص٢٨١.
(٢) المصدر السابق: ص٢٨٢.

يوسف يتحدى الفساد

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ (١) فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ وَأَسَرُّوهُ (٢) بِضَٰعَةًۚ (٣) وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنِۭ بَخْسٍ (٤) دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى (٥) مَثْوَىٰهُ (٦) عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ (٧) ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣)﴾.

هدى من الآيات:

وبقي يوسف في الجب حتى جاءت قافلة تسير في ذلك الطريق. فبعثوا واحدا منهم يجلب لهم الماء، فأدلى دلوه في البئر، ولما ثقل الدلو بسبب تعلق يوسف به استبشر خيرا به، وزعم

---

(١) واردهم: الوارد الذي يتقدم الرفقة إلى الماء ليستقي.

(٢) وأسروه: أخفوه.

(٣) بضاعة: البضاعة المال الوافر يقتنى للتجارة.

(٤) بخس: البخس النقص من الحق، يقال بخسة في الكيل أو الوزن إذا نقصه من حقه فيهما.

(٥) الإكرام: إعطاء الشيء على جهة الإعظام.

(٦) مثواه: المثوى موضع الاقامة.

(٧) وغلقت: التغليق إطباق الباب بما يعسر فتحه، وإنما عدّد ذلك لتكثير الإغلاق أو المبالغة في الإيثاق.

بأنه بضاعة حباها الله له ولكنه أسر بها لكي لا يكتشف أنه غلام حر والله عليم بعملهم.

ولكي لا يفتضح أمره بادر ببيعه بثمن بخس دراهم معدودة، وكان الجميع يحذرون من شرائه لعدم معرفة واقع أمره، وجاؤوا به إلى مصر حيث اشتراه عزيز مصر الذي قال لزوجته أكرمي مثوى هذا الغلام واحترميه، فلربما ينفعنا في حياتنا الاجتماعية، أو نتخذه ولدا في حياتنا الشخصية، وتلك كانت من إرهاصات يوسف حيث مكنه الله في الأرض ابتداء من بيت ملك مصر بما أعطاه الله من علم بعواقب الأمور، بينما أكثر الناس لا يعلمون.

وبلغ يوسف مرحلة البلوغ، فآتاه الله النبوة والعلم بسبب إحسانه السابق، وحين بلغ مبلغ الرجال طلبت منه صاحبة البيت الفاحشة، وهيأت وسائلها بغلق الأبواب، وتهيئة فرصة الفاحشة ولكنه أبى بشدة واستعاذ بالله من الشيطان، وقال بأن الله الذي رباني وأحسن مثواي لا أعصيه وأن الظالمين لا يفلحون.

بينات من الآيات:

فارسلوا واردهم

[١٩] كم بقي يوسف في الجب؟.

ثلاثة أيام أم أكثر، وماذا كان طعامه؟ هل كان يأتيه أحد إخوته بطعامه أم كان يكتفي بالماء، أم أن جبرائيل كان ينزل عليه الطعام لا ندري بالضبط! إنما المهم أن الله سبحانه هيأ أسباب نجاة يوسف وتأديب إخوته، فجاءت قافلة سيارة ربما كانت تجارية، فأرسلوا واحدا منهم يرد الماء قبل الآخرين على عادة القوافل، خشية مفاجأة غير سارة، فلما أرسل دلوه في البئر تعلق به يوسف، فنظر فاذا هو بغلام ما أجمله فاستبشر به خيرا ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ لقد كان يوسف في غاية الحسن حتى جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**أُعْطِيَ يُوسُفُ شَطْرَ الْحُسْنِ وَالنِّصْفُ الآخَرُ لِسَائِرِ النَّاسِ**»[1].

ولم يبد الوارد للسيارة أنه قد التقطه من البئر لكي لا يجري عليه حكم اللقيط بل اتخذه بضاعة وكتم الحقيقة عن رفاقه، بيد أن الله يعلم أن يوسف ليس عبدا، وهو يحافظ على حريته.. ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

[٢٠] باعوا يوسف بثمن قليل، دراهم معدودة لقلتها، وإنما يعد الشيء القليل، وزهدوا

---

(١) مجمع البيان: ج٥، ص٣٧٨.

فيه بالرغم من حسنه المفرط، وربما السبب محاولة التخلص منه مخافة أن يفضحهم، ويبين أنه ليس بعبد فيخسرون حتى هذا الثمن القليل ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾.

كانت ملامح العبد وصفاته النفسية تختلف عن ملامح يوسف الذي كان كما يقول الرسول فيما روي عنه: «الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيم»[1]. لذلك زهد فيه الناس تهيباً أو مهابة، ولكن لننظر عاقبة هذا الغلام الذي ينبذه إخوته في البئر ويزهد فيه السيارة، كيف يصبح سيدا ورئيسا.

التمكين

[٢١] جاؤوا بيوسف إلى مصر حيث اشتراه سيد مصر ومليكهم ليكون مساعده في شؤونه، أو من ولده وولي عهده ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أي اجعلي مكانته كريمة وسامية عندك، فلا تستخدميه كأي عبد آخر، بل حاولي أن تربيه وتكلفيه الأعمال الهامة ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وهكذا أصبح الغلام الطريد الذي زهدوا فيه إبنا لعزيز مصر، وهكذا مَكَّنه الله في الأرض ماديا، أما معنويا فسوف يُعلِّمه من تأويل الأحاديث حتى يعرف عواقب الأمور، وسنن الحياة وأنظمة الكون ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

يزعم الناس أن حوادث الزمان تجري على غير هدى، ولا يعلمون أن وراء ما يسمى بالصدف إرادة حكيمة، ووراء ما يسمى بالأنظمة والسنن الطبيعية تدبير رشيد من الله سبحانه، وهكذا يشاء تدبير الله ألا يُقتل يوسف بل يوضع في غيابت الجب، وأن تكون أول قافلة تجارية تمر من هناك متجهة إلى مصر، كما يشاء تدبيره أن يزهد فيه القوم فيشتريه عزيز مصر.. وهكذا تتلاحق ما يسمى بالصدف، والاتفاقات حتى يصبح يوسف سيد مصر.

[٢٢] شب يوسف وبلغ سن الرشد، وأتاه الله النبوة والعلم بسبب إحسانه ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ يبدو لي أن بلوغ الأشد هو بلوغه سن الرشد.

﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ الحكم هي السلطة الإلهية التي تتجسد في النبوة، بينما العلم هو فقه الأحكام الشرعية وما يتصل بها من متغيرات الحياة.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٢ ص٢١٨.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلان يوسف أحسن إلى الناس وتحمل الصعاب من أجلهم، فالله بعثه رسولا إليهم لأن أهم صفة يحتاجها الرسول بعد الطهارة والصدق هي حب الناس، والإحسان إليهم.

[٢٣] طلبت امرأة العزيز من يوسف الفاحشة، وهيأت وسائلها بتزيين نفسها، وسد الأبواب، ودعته إلى نفسها صراحة ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ المراودة: المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به.

إن امرأة العزيز لم تكتف بإفساح المجال أمام يوسف كما هو شأن المرأة بالنسبة إلى الرجل، بل طالبته بأنواع الدلال والغنج والخضوع بالقول والزينة، واستخدمت في ذلك سلطتها عليه باعتبارها سيدة البيت الذي يعمل يوسف فيه، لذلك قال ربنا عنها: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي طلبت منه أمرا صادرا عن نفس يوسف، وبتعبير آخر: طلبت منه الانتفاع بنفس يوسف لا بخدمته كما كان المفروض في مثل حاله.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي تعال فالفرصة مهيأة لك. ولكن يوسف رفض بشدة وبلا تردد ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ إن الله هو الذي أكرم على يوسف بالجمال والعافية، وهو الذي هيأ له المكانة في بيت العزيز وليس العزيز أو امرأته. لذلك لا ينبغي له أن يكفر بنعمة الله، ويفعل الفاحشة، كما إنه لا يفلح من يفعل الفاحشة؛ لأنه ظالم لنفسه، منحرف عن الرشاد ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فبالرغم من إغراء الفاحشة في الظاهر فإنها سيئة العاقبة.

إن التحرر من سلطة المالك ذي القوة كان عظيما عند يوسف بقدر التحرر من إغراء جمال زليخا ودعوته إلى نفسها بذلك الإصرار، ولكن الاستعاذة بالله وتذكر نعم الله الواسعة على الفرد، كما إن تذكر العاقبة يعطي القدرة على مقاومة كل إغراء وكل تهديد.

وهذا أفضل عبرة نستفيدها من هذا الدرس.

مراحل التحدي

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ [1] قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ [2] وَأَلْفَيَا [3] سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ [4] فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

انتهى بنا السياق عند رفض يوسف طلب امرأة العزيز، ولكن لماذا رفض بعد أن هيأت له الظروف؟.

لأنه رأى برهان ربه فتذكر نعم الله عليه، وأنه لا يفلح الظالمون، ويد الله أنقذت يوسف من عواقب الزنا المادية والمعنوية لأنه كان قد اخلص لله نفسه، فأخلصه الله لنفسه، وأراد يوسف

---

(١) قدت: القد شق الشيء طولًا.
(٢) من دُبُر: من الخلف.
(٣) ألفيا: وجدا.
(٤) من قبُلٍ: من المقدمة.

الهرب وأرادت زليخا امرأة العزيز منعه، وتعلقت بقميص يوسف من الخلف فانشق القميص، وإذا بزوجها على الباب فافتعلت تهمة، وادعت أن يوسف أراد بها سوءاً، وطالبته بأن يسجنه أو يعذبه، وقال يوسف: إنها هي التي طلبت مني الفاحشة فرفضت، وجاءت الشهادة من داخل بيتها ومن أهلها إن شُق القميص من الخلف فهي التي لحقت به وشقته، وإن كان من الأمام فإنه -أي يوسف- الذي حاول الاعتداء عليها، فشقت قميصه دفاعا عن نفسها، فلما نظر العزيز وجد القميص مشقوقا من الخلف وحكم عليها بالخيانة، وأمر يوسف بأن يبتعد عن السوء، وأمرها بأن تستغفر لذنبها لأنها هي الخاطئة.

وهكذا أنقذ الله يوسف مرة أخرى من السوء، ولو كان يوسف فرضاً ضربها يدفعها عن نفسها ولم يبادر بالهرب، ودخل زوجها عليهما فماذا كان ظن العزيز حينها، أو ليس القتل سيكون مصير يوسف عليه السلام؟!.

بينات من الآيات:

ما هي العصمة؟

[٢٤] هل الأنبياء عليهم السلام معصومون بذاتهم أم بإرادة الله وروح الإرادة؟.

لأن الأنبياء بشر حيث يقول سبحانه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]. ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ..﴾ [الكهف: ١١٠]. فبطبعهم البشري توجد فيهم كل الميول الموجودة في أي بشر آخر، يذوق جسدهم ألم الجوع والإرهاق والضرب والعذاب، كما تتحسس قلوبهم بألم الغربة وبضغط الشهوات، ولكن ما يميزهم عن سائر البشر أنهم موقنون ويعصمهم الله بروحه فإنهم يتجاوزون أنفسهم بسرعة، وآيات القرآن التي تعكس هذه المفارقة في حياة الانبياء كثيرة، ولا يكاد نبي مذكور اسمه في الكتاب يخلو عن حالة صعبة اجتازها بتوفيق الله، ولولا التوفيق الإلهي، ولولا روح الإيمان لكان معرضاً لنفس الحالات التي يتعرَّض لها أي بشر آخر، ويوسف واحد من هؤلاء البشر الكرام، المعصومين بروح الله، فلأنه إنسان مكتمل الشخصية البشرية كاد يهم بها، ولأنه موقن ومعصوم فقد رأى برهان ربه.

ومن هنا نعلم أن هَمَّ يوسف لم يتم عمليا بل كان هَمّا بالقوة، فلولا برهان ربه المانع من هَمِّهِ بالمعصية لكان قد هَمَّ بها، والتعبير القرآني يبين بلطف عجيب هذه المفارقة في آية أخرى حيث يقول ربنا عن النبي محمد صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وهنا يشير التعبير بدقة الى ذلك حيث يقول ربنا: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ فبرهان ربه الذي رآه ببصيرته منعه من إرادة المعصية.

وأساسا الهم: هو العزم على الفعل، كما قال ربنا ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ١١].

وربما يستخدم الهم في الأمر الذي يريده الإنسان ويجد أمامه مانعاً منه، كما قال الشاعر:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني   تركت على عثمان تبكي حلائله

ومنه قوله تعالى﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

ويبقى السؤال: ماذا رأى يوسف حتى تجاوز كل ميوله البشرية وامتنع عن ارتكاب الذنب، أو سلوك مسلكٍ آخر غير الهرب مثل أن يضربها ليدفعها عن نفسه؟، وبتعبير آخر: ما هو برهان ربه؟.

أولاً: البرهان هو السلطان، ويراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزة، قال تعالى﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ﴾ [القصص: ٣٢].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤].

وهو: «الحجة اليقينية التي تجلي الحق ولا تدع ريبا لمرتاب»[1] على حد تعبير تفسير الميزان.

وجاء في الرواية عن أبي الصلت الهروي قال: «لَمَّا جَمَعَ الْمَأْمُونُ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا أَهْلَ الْمَقَالَاتِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَ الدِّيَانَاتِ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسِ وَ الصَّابِئِينَ وَ سَائِرِ أَهْلِ الْمَقَالَاتِ، فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَ قَدْ أُلْزِمَ حُجَّتَهُ كَأَنَّهُ قَدْ أُلْقِمَ حَجَراً، فَقَامَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَهْمِ فَقَالَ لَهُ: يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ أَتَقُولُ بِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ عليه السلام: بَلَى. قَالَ: فَمَا تَعْمَلُ فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، وَقَوْلِهِ فِي يُوسُفَ: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَ جَلَّ فِي دَاوُدَ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾، وَقَوْلِهِ فِي نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ

(١) تفسير الميزان: ج١١ ص١٢٩.

مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ ﴾.

فَقَالَ مَوْلَانَا الرِّضَا عليه السلام: وَيْحَكَ يَا عَلِيُّ اتَّقِ الله وَلَا تَنْسُبْ إِلَى أَنْبِيَاءِ الله الْفَوَاحِشَ وَلَا تَتَأَوَّلْ كِتَابَ الله بِرَأْيِكَ فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾.

أَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي آدَمَ عليه السلام: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ فَإِنَّ الله عَزَّ وَ جَلَّ خَلَقَ آدَمَ حُجَّةً فِي أَرْضِهِ وَ خَلِيفَتَهُ فِي بِلَادِهِ لَمْ يَخْلُقْهُ لِلْجَنَّةِ، وَ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ مِنْ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ لَا فِي الْأَرْضِ لِتَتِمَّ مَقَادِيرُ أَمْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمَّا أُهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ وَجُعِلَ حُجَّةً وَخَلِيفَةً عُصِمَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ إِنَّمَا ظَنَّ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَ الله عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ وَلَوْ ظَنَّ أَنَّ الله لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَكَانَ قَدْ كَفَرَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي يُوسُفَ: ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ فَإِنَّهَا هَمَّتْ بِالْمَعْصِيَةِ وَ هَمَّ يُوسُفُ بِقَتْلِهَا إِنْ أَجْبَرَتْهُ لِعِظَمِ مَا دَاخَلَهُ، فَصَرَفَ اللهُ عَنْهُ قَتْلَهَا وَالْفَاحِشَةَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ يَعْنِي الْقَتْلَ ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ يَعْنِي الزِّنَا»[1].

ثانياً: إن يوسف عليه السلام، كان صديقا أيقن قلبه إن جماله من الله، وهو الذي أعطاه القوة ومكنه في الأرض، وأن من كفر بأنعم الله لا يفلح، وبسبب إيمانه الصادق بهذه الحقائق أدركه في ساعة المحنة إيمانه، وبلورت المعاناة شخصيته التي عجنت بروح الإيمان والتقوى، فظهر له برهان ربه وحجته البالغة في تلك اللحظة الشديدة من صراعه مع طبيعته ومع مجتمعه المتمثل في قوة ربة بيته، فكان كمن قد رأى البرهان واضحا أمامه.

وهكذا المؤمنون الصادقون يتذكرون ربهم كلما مر بهم طائف من الشيطان، وتعرضوا لتجربة صعبة فيتركون المعصية، بينما يغط غيرهم في غفلة شاملة.

إن اللحظات الصعبة في حياة الفرد تستخرج دفائن نفسه، وخبايا ذاته، وسرائر عزيمته، فالمؤمن يزداد إيمانا، بينما غيره يفشل في التجربة.

ومن هنا كان على الفرد أن يعمل عملا صالحا ليزداد ايمانا فينتفع به في ساعات صراعه الحاسم مع الشهوات أو ضغوط المجتمع حيث لا ينفع المرء إلا ذخائر إيمانه.

---

(١) بحارالأنوار: ج ١١، ص ٧٣.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وقد صرف الله عنه الفحشاء حيث أنه عليه السلام لم يسعى لها بل العكس تماماً فاستعصم، ولأنه من عبادنا المخلصين كان ذلك الاعتناء الرباني ليصرف عنه السوء، وليس فقط الفاحشة التي استعصم منها. وقد جاء في الحديث: «إِنَّ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَانَتْ النُّبُوَّة»(١)، كما جاء في حديث آخر: «إِنَّ زَلِيْخَا قَامَتْ وَأَلْقَتْ ثَوْباً عَلَى صَنَمٍ كَانَ فِي الْبَيْتِ اسْتِعْدَاداً لِفِعْلِ الْفَحْشَاءِ، فَقَالَ يُوسُفُ لَهَا: إِنْ كُنْتِ تَسْتَحِينَ مِنَ الصَّنَمِ، فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ أَسْتَحِي مَنَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»(٢).

المفاجأة

[٢٥] وتسابقا نحو الباب، وأخذت زليخا قميص يوسف تمنعه، واشتد يوسف فَشُقَّ قميصه من خلفه، وعند الباب كانت المفاجأة حيث دخل العزيز وهو سيدها المفروض عليها طاعته كزوج، فاختلقت تهمة ونسبتها إليه ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هل جزاء المعتدي على شرف أهلك غير السجن والتعذيب.

[٢٦] ورد يوسف التهمة بقوة ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾ فهي التي طلبت مني الفاحشة فلم استجب، وكان هناك شخص ثالث من أهل المرأة عرف القصة وقضى بأنه لو كان شق القميص من خلف فهي المسؤولة لانها التي أخذت قميصه من الخلف وإلا فهو المسؤول ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

[٢٧] ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي إنها هي الكاذبة وهو الصادق.

[٢٨] ونظر السيد فاذا القميص قد شق من خلف ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي ان الذي حدث إبتدأ من النساء باعتبار أنهن ذوات كيد عظيم.

والكيد هو طلب الشيء بما يكرهه، كما طلبت المرأة يوسف بما يكرهه ويبدو أن في الآية إشارة إلى أن ابتداء الفاحشة من المرأة، إذ أنها فتنة للرجل، وعليها ألا تظهر فتنتها عليه.

[٢٩] ثم وجه العزيز خطابه إلى يوسف عليه السلام وأمره بالسكوت والإعراض عن القضية

(١) بحار الأنوار: ج١٢، ص٣٣٥.
(٢) البرهان: ج٢، ص٤٢١.

وعدم فضح امرأته بما فعلت، واكتفى بدعوتها إلى الاستغفار لخطئها ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾.

ويبدو من هذه الآيات ان الفاحشة كانت شائعة في ذلك البلد، وإنها لم تكن قبيحة إلى تلك الدرجة بسبب سلب الغيرة منهم، وإلا فكيف يسكت الزوج عما رآه من زوجته رأي العين من مراودة فتاها، بل يأمر الفتى بالإعراض عن الأمر وعدم مطالبتها بعقابها.

وكبرت دائرة التحدي

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ [١] لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ [٢] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾.

هدى من الآيات:

كنا مع يوسف وقد افتضح أمر ربة بيته عند زوجها، وها نحن نجد قصة حبها ليوسف قد شاعت في المدينة، وصارت النساء يعاتبن امرأة العزيز على عشقها ليوسف لضلالها، وسمعت بالإشاعات، وبادرت بدعوتهم إلى مائدة، وأعطت كل واحدة منهن سكينا، وأمرت يوسف بالخروج عليهن، فأدهشهن يوسف بجماله وجلاله، فاكبرنه وقطعن أيديهن بالسكاكين، وابعدن يوسف عن الفاحشة، وقلن بأنه ليس بشرا بل هو ملك كريم، وتدخلت في الحديث وأجابت عن عتابهن بقولها: إن ذلكن هو ما لمتنني فيه، وإنني فعلا قد راودته عن نفسه لجماله الخارق ولكنه استعصم وامتنع بالله عن الفاحشة، وليسجن لو لم يفعل وليهان، وعاد يوسف

(١) واعتدت: اعتدى مأخوذ من العتاد، ومثله اعدّت.

(٢) أصب: الصبا رقة القلب.

يرد التهديد بأن السجن أحب إليه من الفاحشة، واعتصم بالله من كيدهن، وبذلك بيّن بوضوح أن البشر ضعيف أمام الفتن، وأنه لا يستطيع مقاومتها من دون عصمة الله ودفع الله عنه كيد الكائدين وهو السميع لدعاء عباده العليم بما يضمرون.

وهكذا اعتصم يوسف عن فتنة نساء أهل مصر في تلك الحقبة التي يبدو أنهن قد تعرضن فيها للفساد الخلقي.

بينات من الآيات:

في مهب الفساد

[٣٠] يبدو أن المجتمع المصري كان قد تعرض آنئذ لموجة فساد عريضة وجاءت قضية يوسف تفضح الحالة المتردية التي بلغها المجتمع، وكانت كالقشة التي قصمت ظهر بعير الفساد المثقل بالذنوب.

لقد كان حديث المجالس عندهم الفساد الخلقي. إذ انتشر نبأ مراودة امرأة العزيز ليوسف فتاها، والعامل في بيتها كالنار في الهشيم.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أي تطلب ممن يعمل عندها الفاحشة ليفجر بها.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي دخل حب يوسف شغاف قلبها، واستولى على فؤادها، وإذا كان المجتمع سليما من الناحية الخلقية؛ إذن لم يرض بإشاعة الفاحشة، ونشر أنباء الفساد؟!.

﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

يبدو أن النسوة كن يرين ضلالة امرأة العزيز لا لأنها تفعل الفاحشة، بل بسبب هبوطها إلى مستوى فعل الفاحشة مع فتاها وهو من عنصر آخر غير عنصرهم.

[٣١] وعرفت امرأة ملك مصر أن النسوة يتآمرن ضدها، ويتخذن من قصة عشقها وسيلة للحط من شأنها، فأرادت أن تورطهن في حب يوسف لتنقذ نفسها من المشكلة، فأرسلت اليهن وهيأت لهن مائدة، واعطت لكل واحدة منهن سكينا، وأمرت يوسف بأن يدخل عليهن ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ المكر لغة: هو التوصّل بالحيلة إلى ما يراد، وإنما سميت الإشاعة التي بثتها النسوة حولها مكرا لأنهن أردن شيئا آخرا من الإشاعة. ربما إسقاط هيبتها أو محاولة الوصول إلى يوسف، ومعرفة سبب ولهها به.

أما المتكأ: فهو الوسادة وهي كناية عن المائدة أو لا أقل المجلس الطويل الذي يستراح إليه، وتدل الآية على وجود شيء يؤكل ويهيأ قبل الأكل بالسكين ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وهكذا خرج يوسف على النسوة في وقت إنشغالهن عنه بالطعام.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي عظمن يوسف أيما تعظيم، بجلاله وجماله ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فأخذن يجرحن أيديهن بسبب الانشغال بجمال يوسف ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي أن يوسف منزه عما ينسب إليه، فلقد تحاشى يوسف الصديق الفاحشة وابتعد عنها تقرباً إلى الله وإخلاصاً له،فكساه نوراً وجلالة ومهابة؛ حتى قالت النسوة: إنه ليس ببشر ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

إذن فالتعيير الذي تعرضت له امرأة العزيز بسبب مراودتها لفتاها حتى قالت عنها النسوة إنها في ضلال مبين،لم يكن في موقعه أبداً. إذ أنه أرفع من مستوى البشر، فكيف يُحسَبُ فتىً عاملاً في بيت العزيز -كما كانوا يزعمون-.

[٣٢] واستفادت امرأة العزيز من الوضع واجابت عن تعييرهن لها ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ إن هذا هو سبب تعييركن لي، فهل يُعَيَّر من يعشق مثل هذا الفتى ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي أنه طلب العصمة من الله حتى لا يفعل ما يؤمر به ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

وهنا أرادت زليخا ان تأخذ الشرعية من النسوة لفعلها، ويبدو أن النسوة قد أعطينها تلك الشرعية مما دل على مدى الفساد المنتشر في ذلك المجتمع الجاهلي، حيث انه يسمح لامرأة تحب الفجور أن تسجن فتى بريئا لمجرد طهارته واستعصامه بالله عن الفحشاء.

السجن أحب إلي

[٣٣] ويبدو أن النسوة اختلين بيوسف الواحدة تلو الأخرى بحجة السعي وراء إقناعه بقبول كلام سيدته، ولكنهن عرضن ليوسف الفجور بهن، والشاهد هو قول يوسف الذي ضاق بهن ذرعا، وتوسل بالله أن ينقذه من أيديهن ولو كان بالسجن ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

وبعد أن كانت المشكلة واحدة فقط أصبحت الآن متعددة، حيث أن الفساد الذي كان شائعا في تلك البيئة قد أحاط بشخص يوسف عليه السلام، ولكن كانت تلك حكمة بالغة لله حيث أن تحدي يوسف عليه السلام وهو فتى اشتري للخدمة، وطالبته سيدات مصر للفاحشة بما فيهن

من جمال وشهرة، إن تحديه للفساد، وللضغوط المختلفة هز المجتمع الجاهلي من الأعماق وأثار فيهم التساؤلات: إذا هناك فوق قيمة المادة قيمة اسمى هي قيمة الإيمان. إذن فنحن على خطأ. إذ كيف يرفض هذا الفتى هذا العرض المغري، أم كيف يتحدى هذه الضغوط الهائلة، فيعرض نفسه للسجن والإهانة؟

لقد كانت الإغراءات كبيرة إلى درجة نرى يوسف عليه السلام ذلك الفتى الصديق يستعين بالله منها ويقول: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: إن لم تدركه رحمة الله وعصمته يكاد يميل اليهن ويصبح جاهلا بذلك، أو يرتكب الذنب.

[٣٤] وأنقذه الله تعالى في الوقت المناسب وأعطاه القوة الكافية لمقاومة جاذبية المادة الثقيلة ومن ثم التحليق في سماء القيم ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهكذا يصرف الله تعالى عن المؤمنين الصادقين كيد شياطين الإنس والجن، ويعطي الفرد عصمة عن الذنوب بعد أن يطلب الفرد ذلك من ربه.

رب السجن أحب إلي

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَىٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَىٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن تحدى يوسف عليه السلام ضلالة المجتمع وفساده العريض لم يسعهم إلا سجنه، ولكن يوسف اتخذ من السجن منطلقا للدعوة، فحين دخل معه فتيان وجدا عنده مظاهر المحسنين، فسألاه عن حلمين تراءى لأحدهما: إنه يعصر العنب ليصنع منه الخمر لمولاه، بينما

ترآى للآخر:إنه وضع على رأسه خبزا تأكل الطير منه ووعدهما يوسف عليه السلام بتأويل ما رأياه قبل أن يأتيهما طعام، ولكنه قبلئذ ذكرهم:بأن معرفته بالتأويل هي مما علمه ربه، وذلك بسبب رفضه لدين المشركين، ومقاومته لكفرهم بالله واليوم الآخر، واتباعه لآبائه المؤمنين إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وهكذا أوضح لهم إنه من سلالة النبيين، وإنه أمر ألا يشرك بالله شيئا، والتوحيد فضل من الله عليهم وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ربهم باتباع الرسالة.

ثم ذكّرهما بأن التوحيد دين الوحدة وأن الأرباب المتفرقين ليسوا سوى أسماء ليس وراءها حجة حقيقية، إنما السيادة والحق لله. وإنه أمر أن تستوي هذه السيادة على عرش الحياة الاجتماعية، وإن هذا هو الدين القيم الذي لا عوج فيه، بينما أكثر الناس لا يعلمون.

وهكذا أعطى يوسف عليه السلام درسا في الرسالة لصاحبيه في السجن قبل أن يفسر لهما الرؤيا.

بينات من الآيات:

قرار السجن

[٣٥] بعد أن عرفوا أن يوسف عليه السلام لن يرضخ لفسادهم، وأنه يتحدى ضغوطهم بقوة إيمانه، وأنه يفضح واقعهم الذي ترديوا إليه دون أن يشعروا. بعدئذ قرروا سجنه لفترة معينة، إيغالا في الظلم والفساد ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

برنامج السجن

[٣٦] وأنقذ الله يوسف عليه السلام من عذاب الإغراء ليمتحنه هذه المرة بالسجن، فلننظر كيف واجه الصديق هذه المحنة؟ لقد دخل معه السجن شخصان آخران يبدو أن كلا منهما كان أيضا مثله من الفتيان العاملين في بيوت الأشراف من الذين عصوا أوامرهم الجائرة، فزُج بهم في السجن، ودار بينهما وبين يوسف حوار رسالي.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ ﴾ أي أرى نفسي وكأني أعصر عنبا ليصبح خمرا.

والسؤال المطروح هو إن الرؤية هذه هل كانت في المنام أم كانت من أحلام اليقظة التي

هي الأخرى دليل على إرهاصات الحقيقة التي يشعر بها الفرد أحيانا، ويسمى عادة بالتفاؤل أو التشاؤم، أو الحس السادس.. أو ما أشبه.

في بعض الأحاديث إن صاحب الخمر كان صادقا وهو الذي نجا، بينما كان صاحب الخبز كاذبا في رؤياه، وسواء صدقا أم لا فإن ما رأياه كان صورة عن الحقيقة التي سوف تقع، رآها أحدهما في المنام وتخيلها الثاني في اليقظة، والقرآن سكت عن كيفية الرؤيا واكتفى بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ الذي ينطبق على حالة الحلم كما في حالة اليقظة.

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ لقد استغل يوسف عليه السلام وجوده في السجن عمليا وقوليا، فهو يبلغ لرسالته بالقول، ولكنه لم يكتف بذلك بل جسد رسالة السماء في سلوكه عمليا شأن كل الدعاة الصادقين. لقد كان يبكي على امتداد الوقت، ويجتهد في الضراعة، ويتبتل إلى ربه بصلواته الخاشعة وفي فترات فراغه كان إذا ضاق على رجل مكانه وسع لـه، وإن احتاج جمع له، وإن مرض قام عليه، لذلك انجذب إليه المعتقلون، واعتقدوا بأنه صاحب فضل عليهم وقالوا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

[٣٧] قال يوسف عليه السلام قبل أن يأتيكما الطعام الذي هو مخصص لكم أما من البيت أو من إدارة السجن سوف أنبئكما بتأويل رؤياكما ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾.

وبعد أن وعدهما بتأويل رؤياهما قريبا. أخذ يبلغهما رسالات ربه. ابتداء من نفسه حيث كان معروفا عندهما بالإحسان والفضل فقال لهما:

أولاً: إنه رسول من الله ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ فلقد علمه الله تأويل الأحاديث.

ثانياً: إنه حنف عن الشرك الذي اتخذه قومه ملة لهم، ورفض طريقة قومه وملتهم، وثار على نظامهم الثقافي والاجتماعي ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ إن طريقة هذه الجماعة ليست المثلى لأنها قائمة على أساس الكفر وإني أرفضهـا رأسا.

[٣٨] ثالثاً: أما الملة المثلى في طريقة آبائي -ابراهيم واسحاق ويعقوب- وهكذا بين يوسف عليه السلام إنه من سلالة النبوة ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ وإن طريقة هؤلاء قائمة على أساس التوحيد، ورفض كل أنواع الشرك، وكل ألوان العبودية والطاعة لغير الله ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فالتوحيد ليس فقط واجب إلهي مقدس، بل وأيضا نعمة كبرى على البشرية.

حيث أنه يعني التحرر من عبودية الطاغوت وعبودية المال والشهوات. ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله في الإيمان بهذه النعمة.

[٣٩] رابعاً: بين يوسف عليه السلام لصاحبيه وزميليه في السجن الذين تقاسما وإياه المعاناة والأذى. إن أكثر الحروب والصراعات الاجتماعية، والخلافات الهدامة إنما هي نتيجة مباشرة للشرك. حيث أن كل فريق يعبد صنما من دون الله، ويطيع ربا مختلفا عن رب الآخرين، فكل يعبد صنم أرضه وإقليمه وقومه وعشيرته وحزبه. فيختلفون ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

[٤٠] خامساً: بين أن الأصنام التي تعبد من دون الله تعالى إن هي إلا انعكاس لأوضاع وحالات إنحرافية فاسدة داخل المجتمع أو النفس، وليست لها قدسية أو واقعية حقة.

إن صنم الإقليمية إنعكاس لضيق الأفق، وشذوذ الفكر، ومحدودية الرؤية، فهو إذن اسم سماه الإنسان وليس حقا أنزله الله، وهكذا صنم الوطنية والعنصرية والشوفينية والقومية.. وكل الأصنام الباطلة. إنها أسماء اخترعها الإنسان انعكاسا لواقعه الفاسد، وليس تعبيرا عن الحقيقة ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ نعم هنالك أسماء ورموز ينزل الله بها سلطانا فتكتسب الشرعية من الله. مثل الرسول وخليفته، وصاحب الفقه والعدالة، وكل القيادات الشرعية التي تطاع بإذن الله وباسم الله. لا بإذن الشعب أو باسم الأصنام.

ذلك لأن الولاية الحق لله، والحاكمية والسيادة والملكوت لله سبحانه، فكل حكم لا يستند إلى الله وإلى حاكميته. بأن لا يكون بإذن الله، ولا يهدف إقامة حكم الله فهو حكم باطل وزائل ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فلأن الولاية الحق لله في الكون، ففي مجال التشريع وفي الواقع السياسي يجب أن يكون هو الحاكم من خلال خليفته ورسالته.

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فلم يأذن للسلطة الا بإذنه. ولم يبح الحكم كما أباح -مثلا- خيرات الأرض، وبتعبير فقهي: الأصل في نعم الله الإباحة والحلية، فالبشر حر في الإنتفاع إلا إذا جاء نص بخلاف ذلك، ولكن الأصل في السلطة هو العكس تماما. أي ليس لبشر أن يطيع بشرا في سلطة إلا بعد التثبت من وجود نص.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي هذا هو النهج السليم للحياة. ألا يطيع أحد أحدا إلا بإذن الله، وليس يدين أبدا بسيادة الطغاة أو السكوت عنهم. وحاكمية الفراعنة والرضا بها. من هنا نعرف مدى دلالة الآية على أن الدين هو السياسة. والسياسة هي الدين.

لذلك تجدهم يفصلون الدين عن السياسة، ويقول فرعونهم: لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، ويقول هامانهم: لا دخل لرجال الدين في السياسة، ويقول قارونهم: إننا نريد رجال دين لا يتدخلون في السياسة.

وجمهور الناس يسعون من أجل فصل الدين عن السياسة تحت تأثير التضليل الإعلامي، وبسبب إنهم يستصعبون مسؤوليات الدين والسياسة، ويريدون الإكتفاء بالطقوس الدينية السهلة.

[٤١] وبعد أن بين هذه الحقائق لهما. فسر رؤياهما قائلا: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ أي يعود إلى سيده، ويصبح ساقيا له فيسقيه الخمر كما وجد في الرؤيا.

﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ أي يقتل وتجلس الطيور الجارحة فوق رأسه لتأكله ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي انتهى القضاء فيما سألتما إلى هذه النهاية ولا عودة فيه.

الكفاءة مقدمة التمكين في الأرض

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ[1] أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[2] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ[3] ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

وخرج الفتيان من السجن. أحدهما الى الحرية، والثاني إلى المشنقة، فاستغل يوسف نجاة أحدهما، فطلب منه العمل من أجل نجاته، بَيْدَ أن الشيطان أنساه ذكر ربه، فبقي في السجن عدة سنين بسبب نسيان الله والتوسل بعبيده وحين قضى الله مدة سجنه قدر الله له النجاة وذلك بأن

---

(١) أضغاثُ: الأضغاث الأحلام المتلبسة.

(٢) دأباً: دأب في عمله يدأب دؤباً إذا اجتهد.

(٣) تحصنون: تحرزون وتدخرون.

رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات هزال، ورأى بجنبها سبع سنبلات خضر وسبع سنبلات يابسات، فجاء إلى كبار أصحابه يستفسرهم عن رؤياه فقالوا: إنها أحلام مختلطة ببعضها ولسنا بعالمين بها، وكان صاحب يوسف حاضرا فتذكر، بعد فترة طويلة، فطلب إرساله إلى يوسف عليه السلام وطلب منه تفسير رؤيا الملك لينقلها إليه فقال يوسف عليه السلام: إن أمامكم سبع مواسم خيرة تعقبها سبع مواسم شحيحة، وهكذا تأكل السنين السبع التالية ما كانت في السنين السابقة من نعمة، أما السنة الأخيرة. فهي سنة الاستغاثة. حيث يعصر الجوع الناس عصرا، وهكذا وفر الله ليوسف أسباب النجاة.

بينات من الآيات:

وصية يوسف

[٤٢] خرج الشخص الذي فسر يوسف رؤياه بالنجاة. واستغل يوسف المناسبة، وطلب منه أن يرفع مظلمته عند الملك، وكان عليه أن يتوسل بالله في ذلك لا بالسجين الناجي أو الملك لأنه رسول الله الذي ينبغي أن يقطع صلاته الشخصية بالناس جميعا، ويمحض الله إخلاصه[١].

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لماذا استخدم القرآن تعبير الظن؟ أو لم يقل ربنا سابقا: إن الله قد علمه تأويل الأحاديث؟.

في الإجابة قال صاحب المجمع: «إن معنى الآية أي للذي علم من طريق الوحي أنه ناج متخلص، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]. هذا قول الأكثرين واختيار الجبائي. وقال قتادة: للذي ظنه ناجيا لأنه لم يحكم بصدقه فيما قصه من الرؤيا والأول أصح»[٢].

ولكن -يبدو لي- أن الظن هنا بمعناه الأصلي وهو التصور والتخيل الذي يوهم بعدم وجود علم ثابت بذلك، والسبب إن يوسف عليه السلام لم يكن يضمن المستقبل لأن الله قد يشاء شيئاً آخر، فلربما مات الشخص أو تغير نظام الملك، أو بدا لله في شأنه وعاد به إلى السجن،

---

(١) روى المحدث النوري في مستدرك الوسائل: ج١١ ص٢٢٣ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِي عَبْدِالله عليه السلام قَالَ: «قَالَ اللهُ لِيُوسُفَ: أَلَسْتُ الَّذِي حَبَّبْتُكَ إِلَى أَبِيكَ وَ فَضَّلْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِالْحُسْنِ، أَوَ لَسْتُ الَّذِي سُقْتُ إِلَيْكَ السَّيَّارَةَ وَ أَنْقَذْتُكَ وَ أَخْرَجْتُكَ مِنَ الْجُبِّ، أَوَ لَسْتُ الَّذِي صَرَفْتُ عَنْكَ كَيْدَ النِّسْوَةِ فَمَا حَمَلَكَ [عَلَى] أَنْ تَرْفَعَ رَغْبَتَكَ أَوْ تَدْعُوَ مَخْلُوقاً دُونِي فَالْبَثْ لِمَا قُلْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ».

(٢) مجمع البيان: ج٢ ص٣٠٣.

أو إلى الاعدام، ومناسبة الظن بيا بعده هي إن يوسف عليه السلام كان موقناً بأن الله سبحانه أرحم الراحمين، وأنه يستجيب له دعاءه بينما كان يظن بنجاة صاحبه ظنا، وكان ينبغي أن يتوسل بالله قبل توسله بذلك الشخص لأن الله أولى باليقين من رؤياه حول الشخص التي لو صدقت لتجاوزت حدود الأقدار، وقضاء الله فوق قدره وإرادته فوق سنته سبحانه وتعالى ﴿فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ليربيه ربه على الإخلاص التام في عبادته سبحانه.

رؤيا الملك

[٤٣] وبعد أن قضى مدة سجنه التي حددها الله له -والتي طالت سبع سنين حسب ما جاء في الأخبار- بعدئذ هيأ الله له وسيلة نجاته بحلم رآه الملك ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ أي هزال، ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ﴾ وأراد من كبار مستشاريه تفسيرا لرؤياه الغامضة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أي إن كنتم تفسرون ما يراه النائم في حلمه.

[٤٤] ولكنهم حين عجزوا عن تفسير رؤياه الغامضة. قالوا بأنها أفكار مختلطة وليست رؤية للحقيقة ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴾ الضغث: الحزمة من كل شيء، وقيل بأنه الخلط، وقالوا:و الحلم بكسر الحاء ضد الطيش وهو الأناة، وكأن أصل حلم النوم عن هذا لأنه حال أناة وسكون.

ويبدو أن الحلم غير الرؤيا، فهو كل ما يراه النائم من آثار نفسه وتخرصاتها.

مفاتيح الرؤيا

[٤٥] وكان في حاشية الملك صاحب يوسف في السجن الذي تذكر الآن رؤياه في السجن، وتعبير يوسف الصادق له ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي تذكر بعد مرور وقت طويل، قالوا: إنها سبع سنين ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أي ابعثوني إلى يوسف لآتيكم بتأويله.

[٤٦] فبعثوه إلى يوسف في السجن، فطلب منه تفسير رؤيا الملك بعد أن نقله له ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ عَبَّرَ عنه بالصديق لما رأى منه من آيات الصلاح في السجن، ولما جربه شخصيا في تعبير رؤياه ونجاته.

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يبدو أن صاحب يوسف عرف أنه يحب خدمة الناس بينما يكره الطغاة، لذلك لم يقل:لعلي أرجع إلى الملك بل قال ﴿إِلَى النَّاسِ﴾.

[٤٧] وعَبَّرَ يوسف رؤيا الملك، بما اهتز له أركان المجتمع، فبين لهم:أن أمامهم سبع سنين من الرفاه والوفرة، ولكن عليهم أن يستعدوا فيها لسبع سنين جدباء، فكلما حصدوا أكثر من حاجتهم من القمح احتفظوا به وهي في السنابل لمجابهة أيام القحط التي تنتهي بسنة صعبة يتوافد عليهم الناس من كل مكان طلبا للقمح.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي تجتهدون سبع سنين في الزراعة، ويبدو أن الشعب المصري كان في عز حضارته في تلك السنين.

﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي اعملوا كثيرا، وكلوا قليلا، وحافظوا على ثرواتكم للمستقبل، وهكذا نصح يوسف قوم مصر بأفضل الحِكَم الحضارية.

[٤٨] ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ أي تأتي سبع سنين شديدة جدباء تأكلون فيها ما جمعتم في سنين الرخاء ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾.

وعبر يوسف عليه السلام بالسنين وكأنها حيوانات تأكل خيرات السنين الماضيات للإشارة إلى الرؤيا، وأن السنة تشبه البقرة التي رآها ملك مصر في نومه.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ فهو الوحيد الباقي لكم.

الحصن هو: الحرز، ويبدو أن يوسف أشار عليهم بضرورة المحافظة على انتاجهم في سنين الرخاء بصورة جيدة.

[٤٩] أما السنة الأخيرة فهي -حسب بعض التفاسير- سنة خصب ورخاء حيث يهطل الغيث وينزل الرب من المعصرات ماءً ثجاجا؛ فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ بهطول الأمطار.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ وفسرت هذه الكلمة بأنهم كانوا يعصرون عادة الدهن لأيام شتائهم وجاء في حديث شريف تفسير العصر بالغيث الهاطل وهذا هو المشهور في تفسير هذه الآية.

وقد ذكرنا[١] تفسيراً آخر تحتمله الآية : أنهم في تلك السنة عاشوا شدة بحاجة إلى الإغاثة

---

(١) في الطبعة الأولى من التفسير.

وعصراً فكان منهم أن توافدوا على مصر طلبا للغيث وشراء الطعام.

قال الشاعر[1]:

صادياً يستغيث غير مغاث ولقد كان عصرة المنجود

والغوث: هو نفع يأتي بعد شدة الحاجة، أو نفع يأتي لدفع ضر شديد، و يبدو أن معناه قريب من رفع ضرر الجوع، ومنه أطلقت كلمة الغيث على المطر.

وحينها ﴿يَعۡصِرُونَ﴾ بمعنى يلتجئون طلبا للطعام.

(١) مجمع البيان للشيخ الطبرسي : ج٥، ص٣٦١.

الملك من بعد

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ (١) إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ (٢) الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ (٣) الْخَائِنِينَ (٥٢) ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ (٤) لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ (٥) أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ (٦) مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)﴾.

---

(١) خطبكن: الخطب الأمر الذي يعظم شأنه فيخاطب الإنسان فيه صاحبه.

(٢) حصحص: أي بانت حصة الحق وجهته من حصة الباطل.

(٣) الكيد: الحيلة.

(٤) استخلصه: الاستخلاص طلب خلوص الشيء من شائب الاشتراك كأنه يريد أن يكون خالصاً به.

(٥) مكين: المكين من المكانة، وأصله التمكن في الأمر.

(٦) يتبوء: التبوء اتخاذ منزل يرجع إليه وأصله من باء يبوء إذا رجع.

هدى من الآيات:

وعاد الرسول إلى الملك، يحمل معه تعبير الرؤيا، فلما سمعه الملك دعا يوسف، فلما جاء الرسول يدعوه أبى يوسف أن يخرج من السجن بعفو بل بإثبات براءته وإدانة الذين اتهموه، وهكذا عاد الرسول إلى الملك الذي أعاد الملف، وسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن هل كان يوسف مذنبا، فكررن كلمتهن الشهيرة ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ ما علمن عليه من سوء، وهنالك اعترفت امرأة العزيز أنها هي التي راودته عن نفسه.

وهكذا أرسل يوسف إلى الملك تلك الرسالة لإثبات براءته، وإنه لم يخنه في غيبته عنه، وإن الله لا يهدي كيد الخائنين، ولكن دون أن يبرئ نفسه من كل زلة تواضعاً، إذ أن النفس أمارة بالسوء، ولكن الله هو الذي يعصم عباده المؤمنين، وإنه غفور رحيم.

وهكذا بعد أن ثبتت براءته التامة. أراد الملك أن يستخلصه لنفسه، ويجعله وزيرا له، وطلب يوسف أن يجعله على أموال الدولة لأنه حفيظ لا يخون، وعليم بالأمور لا يجهل.

وهكذا مكّن الله ليوسف في الأرض برحمته الواسعة لأنه كان من المحسنين، وهذا أجر الدنيا، وأجر الآخرة خير للذين آمنوا والذين يتقون ربهم.

بينات من الآيات:

الآن حصحص الحق

[٥٠] صاحب يوسف في السجن عاد إلى الملك يحمل إليه بشارة حل اللغز الذي أعجز الملأ من قومه بما فيهم من كبار العلماء، فأمر الملك بإحضار يوسف عنده.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ ولكن يوسف أبى الحضور عند الملك، إلا بعد أن يثبت عنده براءته، وبعد إثبات فساد نظامه الذي يلقي بشخص في السجن بضع سنين من دون محاكمة أو إثبات للتهمة. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أي جاء صاحبه إليه ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ واحتج يوسف على الملك بالنسوة اللاتي شهدن له أول يوم بالبراءة والطهر، واستشهد بهن على زوجة العزيز التي اتهمته بالفجور، كما ذكّرهم بربهم العليم بكيدهن ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

يبدو أن كل النسوة اشتركن في المؤامرة ضد يوسف، لذلك اتهمن يوسف، وذكر الملك إن الكيد الشيطاني لا يدوم.

[٥١] وهكذا بقي يوسف في السجن إلى أن يتم التحقيق في سبب سجنه، واستحضر الملك النسوة وسألهن عن سبب تقطيع أيديهم، وهل كان ذلك بسبب فعل يوسف لشيء - حاشاه-، ولم يحرن جوابا، فاعترفن بحقيقة الأمر، وإن يوسف كان نقي الجيب، وإنهن دونه طلبن الفاحشة ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي هل بسبب إنه كان أهلا لهذا ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ لقد كان نظيفا للغاية، واستعذن بالله من اتهام يوسف بسوء، فلما شهدن بالأمر اضطرت امرأة العزيز إلى الاعتراف هي الأخرى ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الآن ظهر الحق وأبان عن الباطل. ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فأنا وليس هو الذي طلب مني الفجور.

[٥٢] وقال يوسف عليه السلام -وهو يؤكد براءته أمام عزيز مصر-: إنما طلب منه التحقيق مجدداً، ليعلم -ليس فقط العزيز، وإنما الملأ وعامة الناس- إني بريء، وأنني لم أخن الملك في بيته وهو غائب عنه ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ إن الخائن كانت امرأته التي لم يوفقها الله، بل أظهر حقيقتها للناس ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ والكيد: الحيلة، والله لا يوفق الخائنين في حيلهم ومكرهم.

[٥٣] ثم أكد يوسف عليه السلام أن كلامه لا يعني أنه من أنصاف الآلهة، وأنه ليس من جنس البشر، وأن الذين يعملون السيئات هم من الشياطين. كلا.. بل إن النفس لأمارة بالسوء، وأن السقوط في أوحال الرذيلة ليس بعيدا عن طبيعة البشر، وإنما يعني أن التمسك برسالات الله والتسلح بقوة الإيمان والتقوى يمنع من هذا السقوط.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ فرحمة الله تعطي الإنسان قدرة كبيرة للتغلب على النفس الأمارة بالسوء ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

المؤمن يدركه الله في الظروف التي يتعرض فيها للضغوط الاجتماعية أو النفسية كما فعل سبحانه بيوسف الذي احاطت به اسباب الرذيلة الاجتماعية. حيث هددته زوجة العزيز بالسجن، وكذلك عواملها النفسية حيث عرضت امرأة شابة جميلة نفسها عليه وهو في عنفوان شبابه، حيث الشهوة الجنسية في اوجها، ولكنه نجا من الرذيلة برحمة الله حيث قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾.

[٥٤] وبعد أن ثبتت براءة يوسف عليه السلام أمام الملك طلبه لكي يصبح من المقربين إليه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي أجعله خالصا لنفسي، أستعين به في أموري، ويبدو أن الكلمة توحي بمفهوم الوزارة عندنا.

وجاء يوسف عليه السلام وتحدث معه الملك، فعرف رشد عقله، واكتمال شخصيته من خلال كلامه.

وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «المَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ»[1].

لذلك خول إليه المناصب الهامة ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي ذا مكانة ثابتة، وإننا نثق بك.

[٥٥] ولكن يوسف عليه السلام لم يكتف بذلك، ولم يفرح بالتحول الفجائي الذي حدث عنده من السجن، إلى الوزارة، بل سعى من أجل الوصول إلى خطته البعيدة المدى.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي طالب بما يسمى اليوم بوزارة المالية، ولأنه عرف أن المشكلة الأساسية في الدولة هي مشكلة القحط الذي سوف يصابون به، وعليه من جهة العمل من أجل حل هذه المشكلة، وأن يسعى من جهة أخرى نحو هداية الناس من خلالها.

وبيّن أنه أفضل فرد تخول إليه شؤون المال وهو صاحب علم وأمانة، فبعلمه يخطط وبأمانته يعمل دون فساد ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

[٥٦] وقبل الملك ذلك، فلما امتلك يوسف عليه السلام سلطة المال في الدولة نشر سلطته إلى سائر المرافق، وتمكن في الأرض بفضل ربه الذي جازاه على إحسانه.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي ينشر سلطته فيها في أي مجال يريد بسبب علمه وأمانته وسلطته المالية ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ ذلك لأن الأمور بيد الله، والله سبحانه أجرى في الدنيا نوعين من الأنظمة:

النوع الأول: الأنظمة الطبيعية، مثل السعي والحكمة والصبر والاستقامة.

النوع الثاني: الأنظمة الغيبية مثل الإيمان والتقوى والإحسان، ويوسف تقدم من خلال تطبيق هذين النوعين من الأنظمة، فمن جهة عمل بحكمة وأناة واستقامة، ومن جهة ثانية قاوم الشهوات، واتقى ربه، وأحسن إلى الناس ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إن الإحسان إلى الناس يتضاعف بإذن الله ليعود إليك في يوم قريب أو بعيد.

[٥٧] وجزاء المؤمن في الدنيا شاهد على جزائه الأوفى في الآخرة، وإن الله سبحانه لا يخلف وعده معه ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وهكذا نستوحي من هذه

(١) مستدرك الوسائل: ج٩ ص٢٢.

الآيات إن أسباب التقدم الغيبية هي التقوى والإيمان والإحسان بَيْدَ أن الأحسان أشد وأسرع أثرا في أمور الدنيا.

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الرضا عليه السلام: «وَأَقْبَلَ يُوسُفُ عَلَى جَمْعِ الطَّعَامِ، فَجَمَعَ فِي السَّبْعِ السِّنِينَ الْمُخْصِبَةِ، فَكَبَسَهُ فِي الْخَزَائِنِ. فَلَمَّا مَضَتْ تِلْكَ السُّنُونَ، وَأَقْبَلَتِ الْمُجْدِبَةُ، أَقْبَلَ يُوسُفُ عَلَى بَيْعِ الطَّعَامِ، فَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الأُولَى بِالدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ بِالْحُلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا حِلِيٌّ وَلَا جَوْهَرٌ، إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ بِالدَّوَابِ وَالْمَوَاشِي، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا دَابَّةٌ، وَلَا مَاشِيَةٌ، إِلَّا صَارَتْ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ بِالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ عَبْدٌ وَلَا أَمَةٌ إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَتِهِ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ بِالدُّورِ وَالْعَقَارِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا دار ولا عقار، إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَتِهِ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ بِالْمَزَارِعِ وَالْأَنْهَارِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا نَهْرٌ وَلَا مَزْرَعَةٍ، إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَتِهِ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ بِرِقَابِهِمْ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا، عَبْدٌ وَلَا حُرٌّ، إِلَّا صَارَ عَبْدَ يُوسُفَ. فَمَلَكَ أَحْرَارَهُمْ، وَعَبِيدِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ.

وَقَالَ النَّاسُ: مَا رَأَيْنَا، وَلَا سَمِعْنَا بِمَلِكٍ، أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْمُلْكِ، مَا أَعْطَى هَذَا الْمَلِكَ، حُكْماً وَعِلْماً وَتَدْبِيراً.

ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ لِلْمَلِكِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ! مَا تَرَى فِيمَا خَوَّلَنِي رَبِّي مِنْ مُلْكِ مِصْرَ وَأَهْلِهَا، أَشِرْ عَلَيْنَا بِرَأْيِكَ، فَإِنِّي لَمْ أُصْلِحْهُمْ لِأُفْسِدَهُمْ، وَلَمْ أُنْجِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ لِأَكُونَ بَلَاءً عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْجَاهُمْ عَلَى يَدَيَّ. قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: الرَّأْيُ رَأْيُكَ. قَالَ يُوسُفُ: إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَأُشْهِدُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنِّي قَدْ أَعْتَقْتُ أَهْلَ مِصْرَ كُلَّهُمْ، وَرَدَدْتُ عَلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ، وَرَدَدْتُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ خَاتَمَكَ وَسَرِيرَكَ وَتَاجَكَ، عَلَى أَنْ لَا تَسِيرَ إِلَّا بِسِيرَتِي، وَلَا تَحْكُمَ إِلَّا بِحُكْمِي.

قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: إِنَّ ذَلِكَ لَزَيْنِي وَفَخْرِي أَلَّا أَسِيرُ إِلَّا بِسِيرَتِكَ، وَلَا أَحْكُمَ إِلَّا بِحُكْمِكَ، وَلَوْلَاكَ مَا قَوِيتُ عَلَيْهِ، وَلَا اهْتَدَيْتُ لَهُ، وَلَقَدْ جُعِلْتَ سُلْطَاناً عَزِيزاً لَا يُرَامُ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُولَهُ، فَأَقِمْ عَلَى مَا وَلَّيْتُكَ، فَإِنَّكَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ»[1].

وجاء في خبر: «إِنَّ يُوسُفَ عليه السلام كَانَ لَا يَمْتَلِئُ شَبَعاً مِنَ الطَّعَامِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْمُجْدِبَةِ!، فَقِيلَ لَهُ: تَجُوعُ وَبِيَدِكَ خَزَائِنُ الْأَرْضِ؟ فَقَالَ عليه السلام: أَخَافُ أَنْ أَشْبَعَ، فَأَنْسَى الْجِيَاعَ»[2].

---

(١) مجمع البيان: ج٥ ص٤٢٠.
(٢) نفس المصدر: ص ٤٢١.

فتنة إخوة يوسف عليه السلام

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ[1] قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ[2] وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ[3] فِي رِحَالِهِمْ[4] لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ[5] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ[6] عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ[7] أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا[8] مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

---

(١) جهزهم بجهازهم: أي هَيّأ لهم لوازم سفرهم.
(٢) سنراود عنه أباه: نصرفه عن رأيه.
(٣) بضاعتهم: ثمن ما اشتروه من الطعام.
(٤) رحالهم: الرحال جمع وهي الأوعية.
(٥) نكتل: يقال كلتُ فلاناً أي أعطيته الشيء كيلًا واكتلت عليه أخذت منه.
(٦) آمنكم: الأمن اطمئنان القلب إلى سلامة الأمر.
(٧) ونميرُ: الميرة الأطعمة التي تحمل من بلد إلى بلد.
(٨) موثقاً: عهداً مؤكداً باليمين.

هدى من الآيات:

ومضت السنون الاربعة عشر السمان فالعجاف، وجاء عام الإغاثة، وضاقت الحياة بأهل فلسطين وسعى إخوة يوسف إلى مصر -فيمن سعى- للحصول على نصيبهم من المؤونة لقاء ما عندهم من سلع أو نقود.

فلما وردوا مصر دخلوا على أخيهم، فعرفهم يوسف دون أن يعرفوه، وأمر بأن يهيأ لهم نصيبهم ثم قال لهم ائتوني بأخ لكم من أبيكم، أفلا تجدوني إني أوفي الكيل وأحسن الضيافة، وإلا فلا أعطيكم نصيبه ولا أقربكم إلى نفسي، قالوا سنحاول ذلك مع أبيه، وقبل أن يرحلوا أمر يوسف بأن يجعل السلعة التي جاؤوا بها في رحالهم لعلهم يعرفونها، فيعودون إلى مصر دون أن يمنعهم قلة الزاد أو خشية الجفاف، فلما عاد إخوة يوسف قالوا لأبيهم إن الكيل قد منع منا حتى تبعث معنا أخانا نكتل له، وإنا له لحافظون، وعاد يعقوب يذكرهم بمصير أخيهم يوسف بعد أربعين عاما، وقال هل آمنكم عليه كما آمنتكم على أخيه يوسف من قبل؟! ثم قرر أن يتوكل على الله بعد أن عرف من أبنائه التوبة والصدق، فقال:الله خير من يحفظ وهو أرحم الراحمين.

ثم حين فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم، فقالوا لأبيهم ماذا نطلب لقد ردت إلينا بضاعتنا، وإنا نسعى من أجل الحصول على الطعام لأهلنا، بالإضافة إلى كيل نأخذه لأخينا وهو كيل يسير بالنسبة لحاجتنا الماسة، قال أبوهم:كلا.. لن أرسله معكم حتى تأتوني بوثيقة وعهد من الله بإعادته إلي إلا إذا لم تقدروا على ذلك، فلما أعطوه الموثق قال يعقوب:الله على ما نقول وكيل.

وهكذا بعد اليمين المكرر أذن الشيخ لابنه العزيز بالرحيل مع إخوته طلبا للميرة.

بينات من الآيات:

بعد أربعين عاما مرت على قصة الجب

[٥٨] أربعون عاما مر على قصة الجب، ويوسف ذلك الغلام المتوهج جمالا وأناقة قد أصبح اليوم رجلا عركته المآسي والويلات، وجلس على أريكة الملك بملابسه الزاهية. كل ذلك مع هيبة السلطنة منعت إخوته من معرفته، أما يوسف فقد عرفهم بسرعة لأنهم كانوا رجالا حين تركهم ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ قبل أعوام

مديدة نبذ هؤلاء أخاهم يوسف منكرين له، فقطعوا رحمهم، بينما هو وصل رحمه، وكانت عاقبة الأمر هو أن يجازيه الله بالملك والمعرفة ويجازيهم بالحاجة والجهل.

[٥٩] وبعد أن أعد لهم ما جاؤوا من أجله من طعام، استدرجهم يوسف بحديثه حتى اعترفوا له أن لهم أخا من أبيهم، ومن زوجة ثانية لأبيهم لا يصاحبهم، فطلب منهم أن يأتوا به، وقال: إني لا أريد ظلمه أو ظلمكم، ولكني أريد الخير لكم. أفلا ترون أني أوفي الكيل وأحسن الضيافة؟!.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ويبدو من هذه الآية إن يوسف أعطى لأخوته مقدارا من الطعام ومنع عنهم مقدارا.

[٦٠] وبعد أن رغبهم في عطائه الجزيل. هددهم أنه لو لم يأتوا بأخيهم فانه سوف يمنع عنهم الكيل ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي في المستقبل.

[٦١] إخوة يوسف الذين أذهلتهم المفاجأة وعدوه بتنفيذ أمره، ومحاولة إقناع والده بالإذن له بالمجيء ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

[٦٢] ولكن يوسف لم يرض بأن يأخذ منهم أموالهم التي جاؤوا بها لأخذ الميرة، بل أمر غلمانه بأن يجعلوا بضاعتهم في أمتعتهم لكي يعرفوا أنها لهم، ولكي يكون لديهم دافع للمجيء إلى مصر مرة اخرى ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا عرفوا بضاعتهم عرفوا أن الملك رحيم بهم، فلا يخشون ظلمه فيعودون إليه.

[٦٣] وقطعوا تلك المسافة الطويلة قافلين إلى أبيهم، فلما تلقاهم أبوهم قالوا له إن ملك مصر منع عنا الكيل فلم يعطنا كل حصتنا من الطعام، وطالبنا بإحضار أخينا من أبينا، فأرسله معنا لكي نأخذ نصيبنا وإنا سوف نحفظه ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾

[٦٤] وأعاد يعقوب عليهم قصتهم مع يوسف، وكيف فرطوا فيه ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ فأنتم لا تحفظون عهدكم، ولكن لا آمنكم عليه، بل أترك الأمر إلى الله، وأجعله حافظا له فهو أفضل حافظ، وخير راحم لعباده ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

[٦٥] وكانت المفاجأة عندما فتحوا أمتعتهم ليجدوا فيها بضاعتهم التي اشتروا بها الطعام، فآنئذ ازدادوا إلحاحا على أبيهم بالسماح لأخيهم بالسفر معهم.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي ماذا ننتظر أكثر من هذا، لقد أوفى الكيل، وردت البضاعة إلينا ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، ثم شرعوا في تشجيع أبيهم على الإذن لأخيهم بالسفر معهم ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نأتي بالطعام لهم، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ حيث أن كل واحد كان يكال له بقدر حمل بعير ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي ميسور الحصول. حيث باستطاعتنا جلبه بسهولة.

[٦٦] ولان قلب يعقوب، لكنه طلب منهم تعهدا أكيدا بإعادة أخيهم إليه ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي تتعهدون لي بذلك تعهدا دينيا.. ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ تردونه علي إلا حين تغلبون على أمركم، فلا تقدرون على ذلك ففعلوا، فأذن يعقوب لهم باصطحاب ابنه الذي تسلى به عن يوسف.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فالله وكيل بيني وبينكم على هذا الأمر.

إن الله ابتلى يعقوب مرة بغياب يوسف فصبر، وابتلاه هذه المرة بغياب ابنه بنيامين شقيق يوسف فصبر أيضا رغم التجربة السابقة التي كانت عنده عن إخوة يوسف الذين رموا به في غيابت الجب، وهكذا تجاوز يعقوب حساسيته النفسية لما رأى ضرورة عقلانية لبعث ابنه العزيز عليه مع إخوته، وهكذا جعل الله ذلك وسيلة لإنهاء محنته الطويلة.

ومن جهة أخرى يبتلي الله إخوة يوسف مرة ثانية بذات المشكلة السابقة تقريبا ليجرب مدى صدقهم في إدعاء التوبة، ولكي يجزيهم بسوء أعمالهم السابقة.

إني أنا أخوك

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۢ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ[1] إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ[2] بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ[3] فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ[4] إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ[5] ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

---

(١) آوى: يقال آوى منزله، يأوي أوياً إذا صار إليه.

(٢) تبتئس: الابتئاس الاغتمام واجتلاب البؤس والحزن.

(٣) السقاية: الاناء التي يسقى منها وهو من السقي، وقيل السقاية والصواع واحد.

(٤) العير: القافلة.

(٥) زعيم: كفيل والزعيم أيضاً القائم بأمر القوم وهو الرئيس.

هدى من الآيات:

وبعد أن أخذ يعقوب موثقه من أبنائه بعث معهم أخاهم، وأوصاهم بألا يدخلوا في مصر من باب واحد ليمنع عنهم الشر لو كان قد خطط ضدهم به، وأكد أن هذا الإجراء لا يقاوم قضاء الله، وأن الحكم لله، وينبغي أن يتوكل عليه المتوكلون، فذهبوا ولما وصلوا مصر دخلوا حسبما أمرهم أبوهم -أي من أبواب شتى- ولكن البلاء قد قدر لهم. نعم استطاع يعقوب بذلك أن يمتحن عمليا مدى طاعتهم بالغيب له.

فلما دخلوا عليه اقترب يوسف عليه السلام إلى أخيه من أمه وكشف له السر، وأمره بألا يحزن بما كانوا يعملون من الأذى به، ولما جهزهم جعل الكيل في أمتعة أخيه من أمه، ثم نادى منادي الدولة: أيتها العير إنكم لسارقون، وكانت تلك مفاجأة ثانية بالنسبة إليهم. حيث أسرعوا إلى المنادي، وقالوا له: ماذا تفقدون؟ قالوا نفقد كيل الملك وحددوا جائزة لمن كشف عن السارق وهي حِمْلُ بعير، وأكد يوسف عليه السلام على أنه كفيل بإعطاء ذلك الكيل لأهميته عند الناس في سني المجاعة. قال إخوة يوسف وهم يحلفون بالله لم نأت لكي نفسد في الأرض أو نسرق، فسألهم: ماذا لو وجد الكيل عند واحد منكم، وما هو جزاؤه؟ قالوا إن السارق سوف يكون شخصيا جزاء جريمته، وبإمكان السلطة أن تأخذه عبدا لما اقترفه، وهكذا تأمرنا قوانين بلادنا، وهكذا تم ليوسف ما أراد حيث وجد مبرراً لإبقاء أخيه عنده.

بينات من الآيات:

قاعدة امنية

[٦٧] قبل أن يرحل أبناؤه عنه أوصاهم يعقوب بألا يدخلوا مصر من باب واحد بل من أبواب شتى ﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ والسؤال لماذا؟.

هل خشي عليهم من العين الحاسدة. حيث إنهم كانوا ذوي هيئة وجمال، وكانوا مجموعة إخوة من أب واحد متحدين، أم أراد أن يجرب مدى طاعتهم له وهم بعيدون عنه، أم إنه خشي عليهم من السلطة التي طلبتهم باصطحاب أخيهم؟.

يبدو من السياق أن الاحتمال الأخير أقرب إلى ذلك لأن يعقوب أكد لهم أن مثل هذا الإجراء لا يحفظهم عن الله، وأن قدرة الله محيطة بهم، وبسلطات مصر، وعلى الإنسان أن يتحذر من مكر أعدائه، ولكن دون أن يترك التوكل على الله الذي يعطيه الشجاعة والتواضع والسعي

الدائم الأفضل قال يعقوب: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ أي أن تدبير الأمور في الحياة بيد الله سبحانه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي ليس من الصحيح أن يعتمد أحد على ذكائه أو حذره وخططه بل على الله.

[٦٨] وهكذا انفصل إخوة يوسف عن بلدهم، ودخلوا مصر من أبواب متفرقة مثلما أمرهم أبوهم، وكانت خطة ملك مصر أسبق من خطة والدهم، فلقد خطط يوسف للإبقاء على واحد منهم من أجل استدراجهم إلى مصر، وهكذا غلب التوكل الحذر ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ تلك الحاجة هي امتحانهم، أو دفع الحسد عنهم، أو المحافظة عليهم والاطمئنان على سلامتهم.

وبالرغم من أن التوكل يغلب الحذر، فإن على البشر ألا يترك الحذر، وهكذا يمدح الله يعقوب على الانتفاع بعلمه ووصيته لأبنائه بأخذ الحيطة بالرغم من أن ذلك لم ينفعهم شيئا بعد أن هيئت أسباب بقائهم بمصر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقد كان يعقوب عالما استفاد من علمه الذي علمه ربه، ولكن أكثر الناس لا يستفيدون من علم الله، فلا يعلمون شيئا.

لقاء الأخوين

[٦٩] ودخلوا على يوسف فقرب أخاه بنيامين، وأسر إليه بأنه هو يوسف صاحب الجب، لكي لا يحزن للخطة التي سوف يطبقها عليه ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لقد كانت آثار الحزن بادية على بنيامين ليس فقط لما فعلوا بشقيقه يوسف من قبل، إنما أيضا بما كانوا يعملون به من التمييز، فطمأنه يوسف ودعاه إلى ترك الحزن.

[٧٠] ولأجل الإبقاء على أخيه جعل الكيل الذي يكتال به والذي سماه القرآن مرة بالسقاية لأنه كان يسقى به، ومرة بالصواع لأن الكيل كان بقدر صاع، جعله في أمتعة أخيه ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أي أيتها القافلة إنكم لسارقون.

[٧١] وكانت دهشتهم بالغة من هذه التهمة الكبيرة، لذلك اجتمعوا إليه وهم يسألون

عما فقد ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾.

[٧٢] ﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ فبكفالتي سيحصل الذي يدلنا على مكان الكيل على حمل بعير من الطعام.

[٧٣] فتبرأ أخوة يوسف من هذه التهمة، وحلفوا بالله: أنهم لم يهدفوا الفساد في الأرض والسرقة حين جاؤوا إلى مصر. إنما جاؤوا لطلب الميرة كما تدل على ذلك شواهد حالهم، أما أحوالهم السابقة فلم تكن لهم سوابق السرقة.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يقال: إن إخوة يوسف أعادوا إليه ما وجدوه في رحالهم، زعماً منهم بأنه قد وضع خطأ، وأنهم حينما دخلوا مصر سدوا أفواه دوابهم لكي لا تأكل من زرع الناس احتياطا على دينهم وكل ذلك دفعهم إلى الاعتقاد بأن ملك مصر وملئه على يقين بصلاحهم، وبراءتهم عن تهمة السرقة.

عقاب السرقة

[٧٤] وقبل أن يستخرج يوسف الصاع من رحل أخيه بنيامين. سأل إخوته عن جزاء السارق في دينهم، وكان هذا أسلوبا جديدا في الحكم أن يعترف المجرم بحكم الجريمة لو ثبتت عليه: ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾.

[٧٥] كان ولا يزال جزاء السرقة مختلفا عند الشعوب باختلاف الظروف المعيشية، ولأن السرقة خرق للنظام الاقتصادي القائم وللقوانين الاجتماعية الحاكمة، فلابد أن يكون عقابها متناسبا مع ذلك النظام وتلك القوانين، وفي مصر حيث الرخاء كانت السرقة خروجا على العرف الاجتماعي وجزاؤها الضرب والسجن، بينما في فلسطين ذلك اليوم حيث القحط كانوا يستعبدون السارق بقدر سرقته لأن السرقة كانت بهدف أخذ حقوق الناس ولدوافع اقتصادية.

لذلك تجدهم يحددون جزاء السارق حسب بلدهم ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أي فإن السارق بذاته سوف يصبح جزاء سرقته ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وتمت ليوسف خطته التي استهدفت الإبقاء على أخيه عنده.

يوسف عليه السلام خطة حكيمة

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ
أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ
عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ
فَأَسَرَّهَا [1] يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ
مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ
أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ
إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ [2] قَالَ
كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ [3] ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ
أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ
يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا
لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا
فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

---

(١) فأسرها: كتمها.
(٢) خلصوا نجياً: انفردوا للتناجي والتشاور.
(٣) فلن أبرح: لن أفارق.

هدى من الآيات:

فلما اعترفوا بجزاء السارق، أمر بتفتيش امتعتهم، ولكن بدأ برحالهم، ثم فتح أمتعة أخيه واستخرج الصاع منها، وحق له أن يحتفظ بأخيه عنده جزاء سرقته، بينما لم يكن بإمكانه حسب أنظمة الملك أن يفعل ذلك إلا ان الله علمه خطة حكيمة، وهكذا يتفاضل الناس في العلم بما يعلمهم الله سبحانه.

ولكي يبرئوا ساحتهم قالوا بأنه ليس شقيقنا، وأن شقيقه يوسف كان قد سرق هو الآخر، فكتم يوسف الحادثة في نفسه، واكتفى بأن قاله لهم:كلا.. أنتم شر مكانا بما تتهمون شخصا غير حاضر، كما توافقون على تهمة غير ثابتة بحق أخيكم، والله أعلم بما تقولون!!.

ولكنهم لم يقدروا على فصل مصيرهم عن مصير أخيهم بعد أن أخذ منهم أبوهم الميثاق، فتوسلوا بالعزيز للعفو عنه لمكان والده العجوز، وطلبوا منه أن يأخذ أحدهم مكانه، ولكنه رفض وقال:إنه ظلم أن نستعبد غير السارق، أما هم فتنكبوا جانبا وتناجوا بينهم، فذكَّرهم كبيرهم بعهده الإلهي مع أبيهم، وبما فعلوا سابقا بيوسف، وقال:إني سأبقى هنا حتى يسمح لي أبي، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين، وأمرهم بأن يعودوا إلى أبيهم، ويقولوا له إن ابنك سرق، ولكنا لا نشهد ضده إلا بقدر ما علمنا من ظواهر الأمور دون أن نعلم الغيب، وبإمكانك أن تسأل أهل مصر، أو تسأل القوافل المسافرة. وإنا لصادقون.

بينات من الآيات:

استخراج السقاية

[٧٦] بدأ يوسف يفتش أوعية إخوته من أبيه التي كانت مليئة بالحنطة بتهمة وجود الكيل داخلها، ولم يفتش متاع أخيه إلا أخيرا، فوجدوا الصاع فيه ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ اي استخرج السقاية من امتعة أخيه من أمه بنيامين، وإنما فعل كل ذلك مبالغة في السرية، وإحكاما للخطة.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي هكذا عَلَّمنا يوسف الخطة. والكيد:كل فعل لا يعرف الآخرون هدفك منه الذي قد يكون الإضرار بهم أو الانتفاع منهم دون معرفتهم بوجهه.

ولم يكن باستطاعة يوسف وهو عزيز مصر أن ينفذ قانوناً اجتماعيا لا يتفق مع قوانين ملك مصر، مثل أن يستعبد الذين جاؤوا لشراء الطعام إلا بالكيد الذي علمه الله ﴿مَا كَانَ

لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾.

ولقد شاء الله أن يأتي بعائلة يوسف إلى مصر، فعَلَّمَ يوسف هذه الخطة، وأجرى مشيئته على يد وليه الصالح يوسف عليه السلام وهكذا نعلم أن محتوى الأحكام الشرعية وهو الحِكَم البالغة التي هي وراء سن الأحكام، وتشريع الأنظمة وأن الله كلف الأنبياء بقدر عقولهم، فمنهم من فرض عليه التقيد بحرفية الأنظمة الشرعية كسائر الناس، ومنهم من أوجب عليه العمل وفق الغايات السامية التي يوحي بها إليهم الله، ليحققوا مشيئة الله كالأنبياء والأئمة والعلماء الذين بدورهم يختلفون في درجاتهم، وعلى الأقل علما منهم أن يهتدي بنور الأكثر علما، والله يرفع من يشاء بحكمته وعلمه ممن هم أصلح من غيرهم ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

خبث التهمة

[٧٧] فور ما تراءى لهم أن أخاهم قد سرق نسوا عهدهم مع والدهم يعقوب بإعادة أخيهم بنيامين إليه سالما، ونسوا ما فعلوه بأخيهم يوسف، فإذا بهم يؤكدون تهمة أخيهم، ويتبرؤون منه، ويعودون إلى اتهام يوسف بالسرقة أيضا ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ وبذلك أخطأوا مرتين: عندما أكدوا تهمة بنيامين، وعندما اتهموا أخاه يوسف بالسرقة من دون أي سبب[١] سوى إنقاذ أنفسهم من المشكلة، ويبدو أن شبح الجريمة التي

---

(١) عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْقَاسِمِ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ سُئِلَ أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ وَالسَّائِلُ رَجُلٌ مِنْ قُمْ، وَأَنَا حَاضِرٌ، فَقَالَ عليه السلام: «مَا سَرَقَ يُوسُفُ إِنَّمَا كَانَ لِيَعْقُوبَ مِنْطَقَةٌ وَرِثَهَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَتْ تِلْكَ الْمِنْطَقَةُ لَا يَسْرِقُهَا أَحَدٌ إِلَّا اسْتُعْبِدَ فَكَانَ إِذَا سَرَقَهَا إِنْسَانٌ نَزَلَ جَبْرَائِيلُ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ فَأَخَذَ [فَأُخِذَتْ] مِنْهُ وَأُخِذَ عَبْداً وَإِنَّ الْمِنْطَقَةَ كَانَتْ عِنْدَ سَارَةَ بِنْتِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَتْ سُمِّيَتْ أُمَّ إِسْحَاقَ وَإِنَّ سَارَةَ أَحَبَّتْ يُوسُفَ وَأَرَادَتْ أَنْ تَتَّخِذَهُ وَلَداً لَهَا وَإِنَّهَا أَخَذَتِ الْمِنْطَقَةَ فَرَبَطَتْهَا عَلَى وَسَطِهِ ثُمَّ سَدَلَتْ عَلَيْهِ سِرْبَالَهُ وَقَالَتْ لِيَعْقُوبَ: إِنَّ الْمِنْطَقَةَ سُرِقَتْ فَأَتَاهُ جَبْرَائِيلُ فَقَالَ: يَا يَعْقُوبُ إِنَّ الْمِنْطَقَةَ مَعَ يُوسُفَ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِخَبَرِ مَا صَنَعَتْ سَارَةُ لِمَا أَرَادَ اللَّهُ فَقَامَ يَعْقُوبُ إِلَى يُوسُفَ فَفَتَّشَهُ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ يَافِعٌ وَاسْتَخْرَجَ الْمِنْطَقَةَ فَقَالَتْ سَارَةُ بِنْتُ إِسْحَاقَ: مَتَى [مِنِّي] سَرَقَهَا يُوسُفُ فَأَنَا أَحَقُّ بِهِ. فَقَالَ لَهَا يَعْقُوبُ: فَإِنَّهُ عَبْدُكِ عَلَى أَنْ لَا تَبِيعِيهِ وَلَا تَهَبِيهِ، قَالَتْ: فَأَنَا أَقْبَلُهُ عَلَى أَنْ لَا تَأْخُذَهُ مِنِّي وَأَنَا أُعْتِقُهُ السَّاعَةَ، فَأَعْطَاهَا فَأَعْتَقَتْهُ، فَلِذَلِكَ قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾.

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ فَجَعَلْتُ أُجِيلُ هَذَا فِي نَفْسِي أُفَكِّرُ وَأَتَعَجَّبُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَعَ قُرْبِ يَعْقُوبَ مِنْ يُوسُفَ وَحُزْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ حَتَّى ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ وَهُوَ كَظِيمٌ، وَالْمَسَافَةُ قَرِيبَةٌ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ أَبُو مُحَمَّدٍ فَقَالَ: يَا أَبَا هَاشِمٍ نَعُوذُ بِاللهِ مِمَّا جَرَى فِي نَفْسِكَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ لَوْ شَاءَ أَنْ يَرْفَعَ السَّنَامَ الْأَعْلَى بَيْنَ يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ حَتَّى كَانَا يَتَرَاءَانِ فَعَلَ وَلَكِنْ لَهُ أَجَلٌ هُوَ بَالِغُهُ وَمَعْلُومٌ يَنْتَهِي إِلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ فَالْخِيَارُ مِنَ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ..». بحار الأنوار: ج١٢، ص٢٩٨.

قاموا بها بحق أخيهم يوسف ظل يلاحقهم، فاذا بهم حساسون من إلصاق أية تهمة بهم خشية أن يفضح أمرهم، وإذا بهم لا يزالون يبررون بيعهم لأخيهم الحر بأنه كان قد سرق، فاستعبد وبيع جزاء سرقته، وكانت التهمة شديدة الوقع على قلب يوسف ولكنه ملك نفسه، ولم تظهر على ملامحه آثار الغضب ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ولكنه اكتفى بتأنيبهم على ذكر أخيهم بسوء ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ويطرح المفسرون هذا السؤال: ماذا كان التبرير الظاهر ليوسف حينها قال لهم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؟ فأجاب بعضهم: إن هذا القول أسره يوسف في نفسه دون أن يبديه لهم، وبعضهم قال:بل ظهر للناس الشقاق القائم بينهم وبين أخيهم بنيامين مما كان يكفي لتأنيبهم، وربما كان يوسف يذكرهم بأن جفاءهم لأخيهم هو السبب في سرقته لو أنه فعلا ارتكبها، ولكنه هز ضميرهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وإنه هل هو فعلا صحيح أم لا؟ وبالتالي هل قد سرق أخوه أم أن ذلك ليس سوى تهمة؟، فلماذا يتسرعون في التأكيد والتعريض بيوسف ويتبرأون من أخيهم؟.

[٧٨] وتذكروا موقفهم مع أبيهم يعقوب، واكتشفوا أن مصيرهم بالتالي مرتبط بمصير أخيهم، فأخذوا يتضرعون إلى عزيز مصر بأن يعفو عن أخيهم او أن يأخذ أحدهم مكانه.

﴿ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهكذا يتردد البشر بين حالتين متناقضتين، فبين أن يتهم الأبرياء بالسرقة وبين أن يفدي بنفسه في سبيل الوفاء بعهده.

[٧٩] أما يوسف عليه السلام الذي رتب كل تلك الخطة للإبقاء على أخيه عنده، فرفض العرض ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ وذكّرهم بذلك أن الإحسان يجب الا يمنع تنفيذ القوانين السائدة. وألا ينقلب إلى ظلم، فالإنسان يحسن في إعطاء ماله وما هو أولى به، ولا يحسن في أموال النـاس وحقوقهم، ولذلك جاء في الإسلام: «وَلَا شَفَاعَةَ فِي حَدٍّ»(١).

الموقف المسؤول

[٨٠] ألحوا على يوسف -عبثا- بترك أخيهم بأية وسيلة ممكنة، فلما بلغوا حد اليأس اجتمعوا إلى بعضهم يتناجون فقال كبيرهم واسمه روبيل كما يقال، وهو ابن خالة يوسف وهو الذي نهاهم من قتله من قبل قال لهم: إننا قد عاهدنا الله عند أبينا ألا نفرط في أخينا، وقد كنا

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام قال: «يا عَلِيُّ لَيْسَ عَلَى زَانٍ عُقْرٌ ولاَ حَدَّ فِي التَّعْرِيضِ ولاَ شَفَاعَةَ فِي حَدٍّ». وسائل الشيعة: ج٢٨ ص٢٠٥.

فعلنا مثله مع يوسف فتعهدنا وأخلفنا، ولا يمكن أن نكرر الأمر، وإني سأبقى هنا وأنتظر أمر الله، فإما يأذن لي أبي أو يأذن لي ربي. ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ قيل: «ويئس واستيأس بمعنى واحد، مثل سخر واستسخر وعجب واستعجب»[1]. ولكن يبدو أن اليأس هو: العلم الصادق بعدم فائدة المحاولة بينما الاستيآس هو الظن بذلك الذي يداخله الضعف النفسي للبشر، وإذا كان هذا المعنى صحيحا فإن ذلك يعني أن إخوة يوسف كانوا غير مستقيمين نفسيا بسبب الجريمة السابقة التي ارتكبوها بحق أخيهم، ولذلك فهم يأسوا سريعا..

﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ أي انفردوا عن الناس حتى أصبحوا خالصين من دون غريب يشاركهم الأمر، وهدف خلوصهم وانفرادهم كان النجوى، وهنا من أبلغ ما نفهمه من آيات القرآن في أناقة الظاهر وعمق الباطن، وتنوع المعنى.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي بعد أن أخذ أبوكم منكم موثقا أيضا.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي حتى يأذن لي صاحب الحق أو صاحب التشريع، وهكذا تجلت في أخيهم الأكبر روح المسؤولية، وظهر أنه تاب إلى ربه توبة نصوحا.

[٨١] وأمرهم روبين وهو أكبر الأخوة بالعودة إلى أبيهم، وبيان كل الحقيقة له ومن دون إضافة آرائهم إليها، قال لهم: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ ولكن دون أن تؤكدوا التهمة، بل قولوا لأبيكم أيضاً.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ إذ رأينا أنهم أخرجوا السقاية من وعائه، ولم نشهد بأكثر من هذا ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ لم نكن حافظين لما يجري في الواقع، ولذلك لا نعرف هل سرق أخونا أم لا، ولعله تهمة، يبدو أن ههنا اعتراف بالتفريط الحاصل منهم بشأن أخيهم حيث قبلوا من دون تردد تهمة السلطات ضد أخيهم وذلك بسبب سوء ظنهم به وبأخيهم يوسف من قبل.

[٨٢] وبإمكانك أن تسأل المجتمعين ببلد مصر، أو تسأل العائدين من هناك ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ أي أهل القرية، ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: أي مسافر قادم مع قافلتنا ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

---

(١) مجمع البيان: ج٥، ص٤٣٧.

ولا تيأسوا من روح الله

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ (١) لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى (٢) عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٣) (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا (٤) تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا (٥) أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي (٦) وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا (٧) مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ (٨) إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)

---

(١) سولت: زينت وسهلت.
(٢) يا أسفي: يا حزني.
(٣) كظيم: الكظم اجتراع الحزن وهو أن يمسكه في قلبه ولا يبثه في غيره.
(٤) تالله تفتؤا: لا تزال.
(٥) حرضاً: الحرض المشرف على الهلاك.
(٦) البث: الهم الذي لا يقدر صاحبه على كتمانه فيبثه.
(٧) فتحسسوا: التحسس طلب الشيء بالحاسة.
(٨) روح الله: الروح الراحة، والروح الرحمة، وأصل الباب من الريح التي تأتي بالرحمة.

قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

وعاد إخوة يوسف عليه السلام إلى أبيهم وبغم جديد، وخرق للميثاق، فلم يصدقهم يعقوب بأن أخاهم سرق، واتهمهم بتدبير حيلة جديدة، ولكنه تذرع بالصبر الجميل، ووضع كل أمله على الله العليم الحكيم، وترك ابناءه وأعاد نوحه على ابنه يوسف عليه السلام وأسفه عليه حتى مشى البياض في سواد عينه، وكادت تعمى، وحتى بدا للناظر في مظهره المليء، بالهموم. الكاظم نفسه عنها. أما هم فقد أشفقوا عليه وقالوا: إنك لا تزال تذكر يوسف حتى تشرف على الهلاك أو تهلك فعلا، ولكن يعقوب تمسك بهدى إيمانه فلم ييأس وقال: إني أشكو همومي وأحزاني إلى الله الذي أعلم أنه أرحم الراحمين، وأنه يفي بوعده باستخلاف يوسف وسجود اخوته أمامه وأمرهم بتكرار المحاولة لعلهم يعثرون على يوسف، ونهاهم عن اليأس الذي هو بضاعة الكفار الذين لا يؤمنون بالله وبرحمته الواسعة، واستجاب إخوة يوسف لأمر والدهم الذي أشفقوا عليه، وبلغ ندمهم على فعلهم السابق مبلغ التوبة النصوح.

فذهبوا إلى مصر ودخلوا على العزيز وقالوا له بلهجة المتضرع: إننا قوم قد أحاط بنا البلاء حتى تحسسنا بألم الفقر، ولا نملك إلا بضاعة رديئة. ونسألك أن تعتبرها جيدة فتوفي لنا الكيل بقدر البضاعة الجيدة، وتصدق علينا بإطلاق أخينا فالله يجزي المتصدقين الذين يحسنون إلى الناس ابتغاء مرضاته، ورأى يوسف أن الوقت قد حان للكشف عن نفسه فقال: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف في أيام جهلكم تحسبون أن باستطاعتكم سلب حب أبيه عنه؟ وكان أبوهم قد أعطاهم الأمل في البحث عن يوسف، وجاء سؤال العزيز عن يوسف غريبا فقالوا:أئنك لأنت يوسف. قال:أنا يوسف وهذا أخي. انظروا كيف منَّ الله علينا بسبب التقوى والصبر والإحسان، وبالرغم من إنفة إخوة يوسف الشديدة من الإعتراف بفضل يوسف سابقا. إلا أنهم حلفوا الآن بالله بأن الله قد فضله عليهم، وأنهم هم الخاطئون، فعفا عنهم يوسف، واستغفر الله لهم وأملهم من رحمة ربهم الذي هو أرحم الراحمين وطلب منهم العودة إلى أبيهم مع قميصه ليستعيد بصره الذي فقده لحزنه، وليأتوا بأهله جميعا ليشهدوا نعم الله عليه.

بينات من الآيات:

نفحات الأمل

[٨٣] لماذا اتهم يعقوب أبناءه بالكذب بعدما أخبروه بواقع ما جرى عليهم من احتجاز السلطات لأخيهم بتهمة سرقة صواع الملك، وقال لهم بعدما اخبروه: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أي أن أهواءكم زينت لكم فكرة آمنتم بها انطلاقا من الهوى لا العقل لماذا؟.

أولاً: إن إخوة يوسف عليه السلام كذبوا أول مرة وكانت تهمة الكذب أقرب إليهم لسوء سابقتهم في الخيانة.

ثانياً: إن اتهام السرقة إلى أخيهم بمجرد وجود السقاية في وعائه، كان نابعا من استصغارهم له، وعدائهم الدفين له ولأخيهم يوسف.

ثالثاً: إن تذليل أخيهم والتعصب لأنفسهم في مواجهته كان هو السبب لسرقته لو أنه ارتكبها.

ولكن يعقوب عليه السلام تسلح بالصبر الجميل لمعالجة سوء أخلاق أبنائه، وعنصريتهم المقيتة حتى ضد أخيهم الأصغر سنا منهم.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي عندي صبر جميل استعيض به عن مكركم، وما تسوله لكم أنفسكم، فلا أجزع لشدة البلاء، فافقد رشدي وقوة احتمالي، ولا أتردد في أن البلاء سيزول بإذن الله، ولا انطوي على نفسي بسبب المصيبة واترك العمل انتظارا لزوال المصيبة بذاتها أو بطريقة غيبية، وبالتالي أضيف عامل الزمن (الصبر) إلى سائر عوامل النجاح حسن التدبير - السعي - التوكل حتى ينصرني ربي، ويدل على معنى الجمال في الصبر السياق القادم. يقول ربنا على لسان يعقوب: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

[٨٤] وترك ابناءه موقتا، ولكنه اثار فيهم عواطف الأبناء لوالدهم العجوز وقد انهكته المصائب فابيضت عيناه حزنا.. ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ يبدو أن استمرار الكآبة أفقد يعقوب قدرته على الرؤية. فتحول سواد عينه إلى بياض شأنه شأن كبار السن، ولا يجب أن يكون ذلك بسبب البكاء وحده. إذ أن الحزن المكبوت الذي يكظمه صاحبه قد يكون أشد أثرا على البشر من البكاء لذلك قال ربنا: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي يحفظ نفسه من آثار الحزن التي تظهر عليه رغم صبره الجميل.

تأثير البكاء على القلب القاسي

[٨٥] يبدو أن قلب أبنائه القاسي بدأ الآن يلين لوالدهم الحزين فجاؤوا إليه يواسونه ويطلبون منه التقليل من الحزن للإبقاء على صحته لكي لا يكون فاسد الجسم أو هالكا.

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي إننا نقسم عليك بالله ألا تستمر على ذكر يوسف فتعجل مرضك أو موتك ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ الحرض المشرف على الهلاك.

[٨٦] ولكنه قال: كلا إن عاقبتي ليست الهلاك أو المرض بل سوف أبلغ هدفي لأن اعتمادي على الله، ولأني أعلم عن تعبير رؤيا ولدي يوسف. أني سوف أراه ذا شأن كبير. وهذا الأمل يحدوني إلى الضراعة إلى الله لتعجيل الفرج عليّ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ البث هو ما ظهر من الحزن ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

بث روح الأمل

[٨٧] ثم دعاهم إلى السعي بلا يأس، وأمرهم بالتحرك والتفتيش عن يوسف وأخيه لمعرفته إن البلاء يرفع عند شدته ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾ أي استفيدوا من إحساسكم ولا تعتمدوا على نظرياتكم التي قد يداخلها اليأس فتبدوا لكم الحقائق أساطير، ولا تعتمدوا على أقوال الناس التي قد لا تكون صحيحة، وهذا أمر صريح منه بضرورة الإعتهاد على العلم خصوصا الحاصل من التجربة الحسية.

﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ إن آفة التحسس والتفتيش عن الحقيقة هي اليأس والاعتقاد بقصر عقل الإنسان عن المعرفة وروح الله. ذلك الإلهام المفاجئ الذي يغمر قلب الباحث فيهتدي إلى الحق.

إن العلم نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء، وهو روح الله في هذا المجال ولكن لا يقذفه إلا بعد أن يكون الفرد صالحا والذي لا يتحسس ولا يفتش بإحساسه عن الحقيقة لا يقذف الله نورها في قلبه.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فالذين يكفرون بالله ويسترون نعمه عليهم. هم الذين ييأسون من روح الله.

بين يدي يوسف

[٨٨] وقام إخوة يوسف عليه السلام بشد الرحال إلى مصر يحدوهم أمل جديد لإنهاء مشكلة والدهم، وقد بلغت الضراء بالنسبة إليهم حدا لا يطاق، فدخلوا على يوسف في حالة يرثى لها إذ جاؤوا ببضاعة قليلة رديئة لا تساوي قدرا يذكر من الطعام، وطلبوا منه أن يتقبلها منهم على أساس أنها كاملة صالحة فيعطيهم من الطعام ما يعوض ضرهم. كما طلبوا منه أن يتصدق عليهم بإطلاق سراح أخيهم. طلبا لجزاء الله الذي أعده للمتصدقين ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أصل الكلمة الدفع قليلاً قليلاً. وسميت البضاعة اليسيرة والناقصة بالمزجاة لأن التجار يدفعونها عنهم ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ الصدقة أصلها من تصديق وعد الله.

[٨٩] لقد تحطم غرور إخوة يوسف عليه السلام على صخرة الواقع فهاهم يجأرون إلى عزيز مصر لكي يرحمهم، ويطلبون منه التصدق عليهم. والجوع، ومشكلة والدهم، وهاجس الذنب يقض مضاجعهم، وكان الوقت إذن مناسبا ليكشف يوسف عن لغز القصة. فبادرهم بسؤال مفاجئ.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ففي أيام جهلكم وصغر سنكم وكبر غروركم. ألقيتم يوسف أخاكم البرئ في غيابت الجب. واستصغرتم أخاكم الثاني، ثم تركتموه عبدا عند الغرباء بعد أن أثبتم عليه تهمة السرقة واتهمتم أخاه يوسف بها، والآن تطالبونني بالتصدق وتزعمون أن الله يجزي المتصدقين؟ الآن عرفتم هذه الحقيقة. أم لأنها في مصلحتكم توسلتم بها؟.

وحل اللغز

[٩٠] كان واضحا أن تقريع العزيز لم يكن عبثا، وإنما كان يتناسب مع شعورهم الداخلي لأن مشاكلهم إنما هي بسبب ما فعلوه بأخيهم يوسف.. وهنا ادركهم روح الله الذي طلبوه بإرشاد والدهم يعقوب، فعرفوا بلغته الذكية إن الذي يخاطبهم هو يوسف ذاته.

﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قالوا بلحن السؤال المليء بالتعجب والشوق إلى الجواب ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ولم ينسَ يوسف أن يذكرهم بعبرة الحياة ويقول: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أن من يقاوم ضغوط الشهوات، ويقاوم الحسد والحقد، ويبقَ مستقيما على تقواه. صابرا على

المكاره التي تصيبه بسبب التقوى.. فإن الله يجزه بقدر إحسانه إلى الآخرين، والقرآن يؤكد في سورة يوسف على قيمة الإحسان لأهميتها في الملك، وفي الحصول على مغانم الدنيا.

لحظات الاعتراف

[٩١] فاعترفوا بذنبهم، وبأن الله حين فضله عليهم فإنما بعلمه وحكمته البالغة ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ إن خطأهم الأساسي كان في مقاومة سنة الله التي لايزيدها رفض الناس لها إلا عجلة.

[٩٢] أما يوسف عليه السلام الذي عرف عاقبة الغرور بالقوة، وكيف أن إخوته قد أسكرهم خمر العصبية فقاموا بجريمة منكرة وحطموا مستقبلهم، أما يوسف عرف أن زكاة النصر هي العفو فقد تسلح بقيمة الإحسان التي رفعته إلى هذا المقام بإذن الله. وعفا عنهم بل وأعطاهم الأمل بأن يعفو عنهم الله لكي لا يلاحقهم شبح الجريمة فتتعقد أنفسهم، وتسوء أخلاقهم فيقوموا بجرائم أخرى.. ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي لا توبيخ ولا تقريع ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

[٩٣] ثم أمرهم بأخذ قميصه إلى والده يعقوب. وهو ذلك القميص الذي تضوع بعبق جسده ذا النكهة الخاصة التي لابد لأبيه الواله من معرفته بسبب تركز أحاسيسه في لحظة المصاب وتذكره كل شيء من يوسف وبسبب استمرار حضور يوسف في مخيلته رغم مرور أربعين سنة على فراقه ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إن الحزن البالغ الذي ذهب بنور عين الشيخ الواله.. يتبدل فجأة إلى سرور بالغ فتنشط خلايا جسده جميعا، ويعود بصيرا بإذن الله.

من الرؤيا الى الحقيقة

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ[١] ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ[٢] (٩٤) قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ[٣] ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠) ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾.

(١) فصلت: الفصل أصله القطع، وفصلت العير بمعنى انفصلت من المدينة نحو الشام.

(٢) تفندون: التفنيد تضعيف الرأي والفند ضعف الرأي.

(٣) نزغ: أفسد وحرش.

هدى من الآيات:

وتحركت من مصر قافلة البِشْر تحمل قميص يوسف عليه السلام. فقال يعقوب عليه السلام وهو جالس بين بعض أبنائه إني لأشم ريح يوسف. بالرغم من أنكم تضعفون رأيي. فأنكروا عليه ذلك ونسبوه إلى الابتعاد عن الحقيقة بسبب حبه العميق لولده. بيد أن البشير ما لبث حتى وصل وألقى قميص يوسف على وجهه فأعاد الله عليه به عينيه. وقال لهم ألم أقل لكم إني أعلم من الله نهاية مشكلتي، وتعبير رؤيا إبني وأنتم لا تعلمون فسقط في أيديهم وطلبوا أباهم أن يستغفر لهم الله من ذنوبهم واعترفوا بخطئهم، فقال يعقوب:سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم. وارتحلوا جميعا إلى مصر فدخلوا على يوسف عزيز مصر حيث استقبلهم بحفاوة، وقال لهم ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين وجعل أبويه فوق العرش بينما خر الناس سجدا لله أمام عرشه، وقال يوسف:هذا تأويل رؤياي من قبل، لقد جعلها الله واقعا حقا، ثم فصل قصته لهم وكيف أنه سجن فأحسن الله به وأخرجه من السجن، وكيف بالتالي جاء بأهله من الصحراء بعد أن فرق الشيطان بكيده بينه وبين إخوته.

وكيف أن الله لطيف يجري سننه برفق. وبحسن تدبير وهو عليم حكيم. ثم استغل المناسبة لكي يدعو الله ويحدد موقفه من المُلك الذي أنعم به الله عليه. فقال إن الله أتاه المُلك وعلمه من تأويل الأحاديث لذلك فهو يطلب منه مزيدا من الفضل -وهو فاطر السماوات والأرض وهو الولي في الدنيا- ذلك الفضل هو إبقاؤه في الدنيا على الإسلام وإلحاقه بالصالحين في الآخرة.

كل ذلك كانت قصة يوسف عليه السلام التي أوحى بها ربنا إلى قلب الرسول، وكيف احتوت على أدق التفاصيل الهامة مثل مباحثاتهم وهم يجمعون أمرهم ويخططون لإلقائه في غيابت الجب.

بينات من الآيات:

نسائم البشرى

[٩٤] حينما تحركت القافلة التي تحمل قميص يوسف عليه السلام تجدد الأمل في قلب يعقوب برؤية ابنه المختطف بعد طول المعاناة، فقال لمن حوله إني أجد ريح يوسف ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ بيد أن من حوله لم يكونوا يصدقوه.

أولاً: لأنهم إعتقدوا أن أمل يعقوب نابع من حبه العميق لأبنه يوسف.

ثانياً: لأنه لم يكن معقولا عندهم أن يجد أحد ريح ابنه من بعيد خصوصا من مسافة عشرة أيام سيرا لذلك قال يعقوب: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي تضعفون رأيي. وتحاولون إبطاله.. ويبقى هذا السؤال: هل أن الحاسة السادسة.. التي هي قد تكون تركيزا لمجمل القوى العلمية عند البشر هي التي كشفت ليعقوب تحرك العير بقميص يوسف. أم إنه كان إعجازا غيبيا؟!

[٩٥] وبالرغم من أن يعقوب أكد لهم أن تفنيدهم لرأيه لا يضطره إلى تغييره، وهو متشبث برأيه بالرغم من مخالفتهم وبالرغم من ذلك نجدهم يؤكدون له معارضتهم ويحلفون بالله أنه في ذات الضلالة القديمة التي كانت عنده.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ حيث أنه لا يزال ينتظر ابنه الذي ضاع في دنيا المآسي، وفي عالمٍ بُعد الإنسان فيه أقل قيمة من أي شيء آخر.

فارتدَّ بصيراً

[٩٦] ما لبث أن وصل البشير يحمل قميص يوسف. وربما بعد عشرة أيام من السير الحثيث لقطع المسافة بين فلسطين ومصر.. فأخذ القميص وألقاه على وجه يعقوب فعاد إليه بصره ربما بسبب الفرح الذي طرأ بصورة مفاجئة أو بسبب غيبي إلهي ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حيث علم يعقوب بتفسير رؤيا يوسف إنه يبقى حتى يصبح ملكا تخضع له أعناق إخوته كما علم بالغيب أن يوسف لم يمت ولقد وعده الله بإعادته إليه.

[٩٧] وهنالك فقط اعترف إخوة يوسف -ويبدو أنهم الباقون منهم عند أبيهم يعقوب- اعترفوا بذنبهم، وطلبوا من أبيهم أن يشترك في الاستغفار لهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾.

[٩٨] ووعدهم يعقوب الاستغفار مستقبلا وأملهم في مغفرة ربهم كما فعل يوسف بسائر إخوته! وكما يفعل الصالحون بالمذنبين، والسبب أن اليأس من جنود الشيطان ومن عوامل الانحراف ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

ويبقى سؤال لماذا أخر الاستغفار؟.

والجواب: إن للاستغفار شروطا:إصلاح ما فسد والعزم على عدم التكرار، وتزكية

النفس وتطهيرها من رواسب الذنب، ثم الاستغفار في أوقات خاصة، مثلاً: بعد صلاة خاشعة. وهكذا لذلك جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ يعقُوبَ أخرَ أبناءَهُ الى وقتِ السَّحَر لأنَّهُ أقربُ إلى إجابةِ الدُّعاءِ»[1].

ثم إن الذنب لا يكفيه مجرد طلب المغفرة مرة واحدة بل لابد من الاستمرار على الاستغفار المرة بعد الأخرى، وهذا لا يحصل إلا عبر أيام متطاولة، ولذلك قال يعقوب لهم سوف... وقالوا: إن يعقوب كان يصف أولاده عشرين سنة يدعو ويؤمنون على دعائه وإستغفاره لهم.

وتحققت الرؤيا

[٩٩] جمع يعقوب أبناءه وامتعته وساروا إلى مصر حيث الملك العادل، فاستقبل يوسف عند بوابة المدينة أبويه: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ إن أعظم نعم الله على أصحاب المدن هو الأمان، والابتعاد عن الحر والبرد والحيوانات الضارية والغزو والنهب وما أشبه.

[١٠٠] أما أبواه فقد استقرا عند يوسف على عرش الملك. بينما سجد الجميع لله شكرا لهذه النعمة.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ قال بعضهم إن السجود كان باتجاه يوسف فعلا ولكنه لم يكن بمعنى الوقوع إلى الأرض، إنما الانحناء التام احتراما لمقام الملك. وإكراماً له، وهذا أمر يجوز. فيما تحرم العبادة، إذ أن الحرام هو تقديس أحد ورفعه إلى مستوى الألوهية، سواء كان ذلك عن طريق السجود له او الطاعة المطلقة له أو حتى رفع اليد، فحتى رفع اليد إذا كان إشارة إلى أن صاحبه إله، فهو حرام وشرك.. وأما لو كان الاحترام بهدف الإكرام لا التقديس، وإذا كانت الطاعة بهدف عبادة الله والخضوع لأمره بطاعة ولي الأمر، فان السجود أمامه لا يكون حراماً، إلا إذا كان السجود بذاته رمزا للألوهية كما الحال بيننا نحن المسلمين.

وإن كثيرا من الشعوب ينحنون إلى حد الركوع أو أكثر تحية للقاء بينهم. ولا يعني ذلك أبدا معنى الاعتقاد بألوهية من يفعلون أمامه ذلك.. وبالتالي لا يحرم عليهم ذلك بينما يحرم علينا لأن الركوع قد تحول بذاته إلى رمز للعبادة، واختص به الله. وحين فعل أخوة يوسف أمامه ما فعلوه التفت يوسف إلى أبيه.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ فالشمس والقمر هما والداه، والأحد عشر

(١) نور الثقلين: ج ٢ ص ٤٦٦.

كوكبا هم أخوته الذين سجدوا أمامه جميعا.

وهكذا جعل ربنا تلك الرؤيا حقيقة. بينما كان من الممكن لو لم يوفر يوسف شروط تحقيقها في نفسه وبسعيه وحسن إختياره أن تبقى حلما وأماني.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ركز حديثه على مرحلة السجن لأهميتها ولبعد المسافة بين السجين المتهم بجريمة شرف وبين الملك العزيز الذي بيده كل شيء.

﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي من حياة الصحراء إلى العيش بمصر، حيث المدينة؛ ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي أفسد العلاقة بيني وبين إخوتي. ثم أكد أن أمر الله ينفذ برفق بين ثنايا الحياة كما الماء في مسارب الرمال، بحيث لا يعرف أحد كيف تم التحول.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ حيث أن تدبيره يوغل برفق ومن دون صخب أو صعوبة بين صخور الحياة دون أن يقدر أحد على الوقوف أمامه. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ فبعلمه سبحانه أحاط بسبل الحياة. وبحكمته أجرى تدبيره عبرها حتى النهاية.

[١٠١] في عزة قدرته وملكه لم يغفل يوسف عليه السلام ربه. ولم ينس أنه هو الذي آتاه الملك، وأن ما عنده جزء من الملك الأكبر الذي يملكه الله سبحانه فخوله إياه. كما أن علمه جزء مما عند الله.. وبالتالي فإنه بحاجة إلى ربه ليأتيه المزيد من الملك. ويعلمه المزيد من تأويل الأحاديث ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

إن نشوة الانتصار لم تدع يوسف إلى الانتقام لأيام الذلة والعذاب. حيث ألقي في الجب، وحيث وجد نفسه عبدا يتبادله الناس بثمن بخس دراهم معدودة، وحيث تسجنه امرأة العزيز زورا، ويعاني في السجن الأمرين، ذلك لأن قلبه كان عامرا أبدا بنور الله فلم يصب بعقدة النقص والانهيار والسلبية. كما لم يصب بالغرور والفخر لأنه كان يعلم أن الشر والخير فتنة، وأن البلاء رحم العظمة وقد تكون النعمة سبيل الهاوية.

كما كان يؤمن بأن الحياة الدنيا بما فيها من خير وشر، قنطرة إلى الآخرة التي هي الحيوان، لذلك لم ينس تفاهة الدنيا بخيرها وشرها، بسجنها وملك مصرها، لذلك قال -وهو يدعو ربه-: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ إن الهدف الأسمى للإنسان ينبغي أن يكون الاستمرار على خط الإسلام حتى

الموت. ومن ثم أن يحشر مع الصالحين.

[١٠٢] وهكذا انتهت قصة يوسف يوحيها ربنا على قلب الرسول، ويعلمنا بأدق التفاصيل فيها وبعدها، وكيف إن المكر لا ينفع صاحبه، وإنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

وفي الدروس القادمة نجد المزيد من عبرة هذه القصة الحكيمة.

في قصصهم عبرة

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ[1] بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ[2] مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً[3] وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ[4] أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ[5] ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا[6] عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ[7] ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

---

(١) حرصت: الحرص طلب الشيء باجتهاد في اصابته.

(٢) غاشية: الغاشية المجللة للشيء بانبساطها عليه، والغشاء الغطاء.

(٣) بغتةً: البغتة الفجأة وهو مجيء الشيء من غير توقع.

(٤) سبيلي: طريقي.

(٥) استيأس: استيأس بمعنى يئس.

(٦) بأسنا: البأس الشدة وهو شدة الأمر على النفس، ومنه البؤس الفقر.

(٧) الألباب: العقول.

هدى من الآيات:

انتهت قصة يوسف عليه السلام، وبقيت عبرتها المتمثلة في طبيعة البشر المعاندة للحق، فأكثر الناس رغم حرص الرسول وأصحاب الحق ليسوا بمؤمنين، ويحسبون أن الرسالة خسارة بينما هي ذكر. وتوجيه للعاملين إلى الحق الذي غفلوا عنه، وكم هي الآيات المنتشرة في السماوات والأرض يمرون عليها، دون أن ينتفعوا بها بل هم معرضون عنها. إن إيمان أكثرهم مخلوط بالشرك. وبالتالي فهو ليس بإيمان. ولا يدري هل هم قد أخذوا صك الأمان من عذاب الله الذي يشملهم إذا جاء ومن الساعة التي تأتيهم فجأة في الوقت الذي هم لا يشعرون.

ولكن الرسول يدعوهم إلى سبيل واضحة هي الدعوة إلى الله على بصيرة ورؤية واضحة له ولمن يتبعه، وهي بصيرة التوحيد وتنزيه الله عن أي نوع من انواع الشرك. وهذه كانت رسالة الله من قبل التي نزلت على رجال من أهل القرى، فلماذا لا يسيرون في الأرض ليروا ماذا كانت نهاية أولئك السابقين وليعرفوا أن الدار الآخرة أفضل للمتقين؟ فلماذا لا يعقلون والحقيقة واضحة؟.

لقد أرسل إليهم رجالا فبلغوا رسالات الله فلم يستجيبوا لهم حتى إذا بلغوا درجة اليأس، وظنوا أنهم قد كذبوا فعلا جاءهم نصر الله، فنجى ربنا من شاء بينما لم يقدر أحد على رد بأسه سبحانه عن المجرمين. إن هذه هي عبرة قصص السابقين التي يستوعبها أولوا الألباب والعقول، وليس حديثا يمكن أن يفترى إنما هو كلام حق يصدق الأحاديث السابقة ويفصل كل شيء ويهدي المؤمنين، ويفلح به المؤمنون.

بينات من الآيات:

البشر وطبيعته

[١٠٣] مبدئيًّا يجب على كل إنسان أن يكون مؤمنا. إذ أن الله أودع فيه العقل وأنزل له الهدى. أما عمليا فإن قليلا من الناس يرتفعون إلى مستوى الإيمان، كما أن قليلا منهم يستفيد من طاقة العلم ومن كنوز الإرادة التي استفاد منها كبار العباقرة من أبناء آدم. من هنا لا يجوز لصاحب الرسالة أن يصطدم بسبب عدم إيمان أكثر الناس. بل عليه أن يشكر الله كثيرا لإيمان من آمن منهم لأنه قد وفق أن يكون سببا لصعود طائفة من أبناء البشر إلى هذه القمة السامقة برغم الصعاب ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾.

[١٠٤] ولا يدل عدم إيمان الناس بالرسالة أن مصالحهم تُضرب بالرسالة، أو أن الرسول يطالبهم بأجر، أو أن الرسالة قد هبطت لطائفة خاصة فقط. كلا.. ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

[١٠٥] كما لا يعني عدم إيمانهم قلة الآيات. لأن الآيات كثيرة ومبثوثة في السماوات والأرض ولكنهم يعرضون عنها إلى شهواتهم وإلى الضغوط القريبة ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

[١٠٦] نعم إن الناس يتعرفون بفطرتهم على الله، ولا ينكرون وجوده سبحانه وتعالى بصورة أو بأخرى. إنما القضية التي جاءت رسالات السماء من أجل اصلاحها هي أن إيمانهم مشوب بالشرك. فهم يؤمنون بالله وبالهوى وبالطاغوت، وبالتالي لا يخضعون كاملا لله سبحانه، وهذا يساوي الكفر تماما. إذ ما فائدة الإيمان الذي لا يعطيك القدرة على مقاومة الضغوط ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

[١٠٧] يبقى أن نعرف عدم إيمانهم بالله إيمانا حقيقيا إنما هو بسبب زعمهم بأن الله لا يعاقبهم. لقد فرحوا بنعم الله عليهم. فلم يخشوا العذاب الذي يشملهم ويغشاهم. كما لم يخافوا الموت وما وراءه من ساعة القيامة التي تأتيهم فجأة في الوقت الذي هم غافلون عنها ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

مهمة الرسول

[١٠٨] الدعوة الإلهية واضحة ويؤمن بها أصحابها على يقين. وهي ليست مادية أو شخصية أو مصلحية بل خالصة لله وحده.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ هذه الآيات القرآنية تشكل سبيل الله.

﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى نفسي أو وطني أو أرضي أو عشيرتي أو.. أو إلخ.

﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فنحن نرى بوضوح طريقنا ونمشي عليه. لا نشك فيه ولا نتردد قيد أنملة ولا نختار طريقنا على الهوى أو التقليد أو استجابة للضغوط ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

منطق السماء

[١٠٩] إن المؤمنين على طريق معبد بسيرة السابقين، فلقد بعث الله رجالا من الناس أنفسهم فأوحى إليهم كما أوحى إلى النبي محمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي من أهل المدن التي بعثوا إليهم

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ عليهم -لكي يفهموا الحقيقة- ألّا يكتفوا بالجلوس في بيوتهم والاكتفاء بأفكار السابقين أو ثقافة الوسط الإجتماعي بل عليهم أن يتحركوا، وأن يسيروا في الأرض وليكن سيرهم وبحثهم بهدف الوصول إلى الحقيقة لينظروا نهاية المجتمعات الهالكة ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فقد كانت عاقبتهم الدمار بسبب تكذيبهم بالرسالات أما الآخرة فإنها -بالطبع- ليست من نصيب الكافرين ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[١١٠] وهلاك الكفار والمكذبين لم يكن من دون سابقة إنذار، بل لقد استنفذ الرسل كلما كان بوسعهم في سبيل دعوتهم، وصبروا على أذاهم، وبلغ بهم الأذى درجة اليأس ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ جاء في التفاسير: أي تيقن الرسل أن قومهم كذبوهم تكذيبا عاما حتى أنه لا يصلح واحد منهم.. وقال بعضهم: معناه ظن الأمم إن الرسل كذبوهم فيما أخبروهم من نصر الله إياهم وإهلاك اعدائهم.. وروي عن ابن عباس قال: «كانوا بشرا فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم قد أخلفوا ثم تلا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾.. قال الطبرسي: وهذا بعيد وقد بينا ما فيه»[1].

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

[١١١] إن المقتطفات من تاريخ الرسل وقومهم يمكن أن تأخذنا إلى ما وراءها من أنظمة اجتماعية وتكشف عن طبيعة التحولات التاريخية، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون الإنسان عاقلاً، ويهتم بجوهر القضايا ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وبالتالي ليس العبرة التاريخية مما يمكن ان يفترى، لأنها إشارة إلى حقائق خارجية يمكن لكل إنسان أن يعرفها لو استخدم عقله أو حتى شعوره. مثلا لو أشار أحد إلى الشمس أو إلى الجبال والبحار، وقال أفلا ترونها كيف أنها جميلة ومنظمة. فهل يمكن أن يقال له بأنك كذاب؟!. الشمس يراها الفرد بذاته، ويشعر بجمالها، ويعقل نظامها بمجرد التفكير فيها، وليس بما يقوله الآخرون، وهكذا آيات القرآن إشارات واضحة إلى ما في الكون ذاته من حقائق.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إنما القرآن يفصل الحقائق التي يراها الفرد بإبهام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعرفهم بحقيقة الأشياء ويوفر لهم النعم بهذه المعرفة.

وهكذا تنتهي سورة يوسف المليئة بالعبر التاريخية والتي كشفت خبيئة النفس البشرية بما تمتلك من عقل وإرادة وعلم تجلت عند يوسف، أو من حسد وكبر وحيلة تجلت عند اخوته.

---

(١) مجمع البيان: ج ٢ ص ٢٧١.

سُورَةُ الرَّعدِ

* مدنية.

* عدد آياتها: ٤٣ .

* ترتيبها النزولي: ٩٦.

* ترتيبها في المصحف: ١٣ .

* نزلت بعد سورة محمد.

فضل السورة

عن الرسول الأكرم ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرَّعْدِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ سَحَابٍ مَضَى وكُلِّ سَحَابٍ يَكُونُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وكَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُوفِينَ بِعَهْدِ الله تَعَالَى».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤٣)

***

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ سُورَةِ الرَّعْدِ لَمْ يُصِبْهُ اللهُ بِصَاعِقَةٍ أَبَداً ولَوْ كَانَ نَاصِباً وإِذَا كَانَ مُؤْمِناً أُدْخِلَ الجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ ويُشَفَّعُ فِي جَمِيعِ مَنْ يَعْرِفُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وإِخْوَانِهِ».

(ثواب الأعمال: ص١٠٦)

الإطار العام

آيات الطبيعة سبيل الإيمان

سميت السورة بسورة الرعد لوجود آية محورية فيها تنبئ عن الخط العام للسورة التي توصلنا إلى الإيمان والهداية عبر آياته الكونية، فالرعد حالة طبيعية، له مسبباته وأهدافه، على أن الرعد ليس آية كونية فقط، وإنما من الممكن أن يكون آية لنا يدلنا على الله وقوته ورزقه للعباد.

وبالرغم من أن الرعد يخيفنا صوته عند سماعه، إلا أن الله ينبهنا إلى قضية مهمة وهي: أن الرعد آية من آياته، كما أن السماوات والأرض آيات له، فليست الطبيعة هي المعبود الذي يجب أن نخشاه وأن نعبده، بل هي خلق من خلق الله، سخرها لنا لنستفيد منها، فليست الطبيعة هي الحاكمة، بل إن الرعد والسماوات والأرض تسبح الله من خيفته.

لقد أصبحت الطبيعة -منذ القدم- رباً مزيفاً يعبدها بعض الناس لما رأوا عظمتها؛ فهناك من عبد الشمس وهناك من عبد القمرأو النجم أو.. أو.. ولا زال الحاضر يشهد على مخلفات الماضي، فكلمة أطلس -مثلاً- تدل على إله الأرض، وكذلك ابولّو على إله السماء.

فإذا عبدت الله فإنه يعبِّد لك كل شيء. وقد جاء في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ حَتَّى أَجْعَلَكَ حَيّاً لَا تَمُوتُ، يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ»[1]. أما إذا لم تعبد الله فإنك لن تكون سيداً على الطبيعة، بل ستكون الطبيعة سيدة عليك، يسلطها الله عليك متى جحدت وكذبت.

إذاً؛ فالهدف من آيات ذكر الله سبحانه في الطبيعة ليس ذاتها، وإنما الهدف من ذلك هو تعميق روح الإيمان بالله في قلب الإنسان، وزرع اليقين في قلبه، فمسيرة الطبيعة هي تلخيص لحياة الإنسان؛ فمثلا يقول العلماء إن الطبيعة إلى زوال، وإنها في تناقص مستمر، أفلا يدل ذلك

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٥٨.

على أن أعمارنا كذلك؟ وإذا لم نصدق بأن أعمارنا ستنتهي عند حد معين لوجود موانع نفسية تمنع هذا التصديق، ألا يعني ذلك أنه لا بد أن تنتهي أعمارنا عند أفول الشمس والأرض والقمر إلى الأبد؟ هذا إذا تصورنا أن أعمارنا بقدرعمر الشمس والقمر (الآيات: ١-٢).

إن السياق القرآني العام يذكرنا بطبيعة النظام الموجود في الكون، وأن في هذا النظام دلالة واضحة على قدرة ربنا سبحانه.

وكما أن في كلية الحياة عبرة، فإن في تفاصيل الحياة عبر أخرى.

وتفاصيل الآيات الربانية كفيلة بتنبيه الغافلين، ذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد. ولكن رغم كثرة الآيات وانتشارها في أرجاءالكون، يبقى الإنسان يرتاب في قدرة ربه على إحيائه بعد مماته.

ومهما يكن؛ فإن المشكلة العتيدة لدى الإنسان هي منهجية التفكير الحاكمة على عقله، وإذا صحت هذه المنهجية، استطاع أن يفكر تفكيراً سليماً لا يمنعه حجاب عن الوصول إلى المعرفة التي تزوده بالحكمة. والقرآن الكريم عبر آياته في هذه السورة المباركة يهدف إلى إصلاح منهجية الإنسان في التفكير بعد أن يبصره بالقوى الضاغطة عليه، كما أنه يصوّر لنا الطبيعة من جديد، حتى يلفتنا إليها وكأننا لم نرها من قبل (الآيات: ٣-٧).

ثم تذكّر السورة ببعض صفات الله، فهو يعلم ما تحمل الإناث في بطونهن، ويعلم تفاصيل حياة الجنين وصفاته، كما يعلم كل مكنون من القول وكل ظاهر منه، ويعلم كل من سار بالليل أو سرب بالنهار، وهو يحيط علماً بالغيب والشهود (الآيات: ٨-١٠).

ومن آياته أن جعل مع كل نفس ملائكة تحفظها من الأخطار، فإذا جاء أجلها خلّوا بينها وبين الأجل. وأن الإنسان لا يستطيع أن يرد عن نفسه ضراً أو يجلب لها نفعاً من دون إرادة الله (الآية: ١١).

ومن آيات الله أن يرافق السحب الثقال البروق والرعود خوفاً من عقابه ورجاءً لرحمته. فالرعد الذي يسبح بحمده يهز ضمائرنا ويذكرنا بعظمة الجبار، والملائكة تسبح كذلك خشية منه. أبعد هذه الآيات يكفر الإنسان بالله ويشرك به غيره؟ (الآيات:١٢-١٤).

كما تكشف هذه السورة أن الفرق بين من يؤمن بالله، وبين من لا يؤمن به، كالفرق بين البصير والأعمى، والنور والظلمات. وأن المؤمن عندما يتصل بالله يتحول من لا شيءٍ إلى شيءٍ يشار إليه، ولأن الله مهيمن على كل شيء وبه تقوم الأشياء، فإنه كلما كان الإيمان أعمق، كلما

كان الإنسان أكبر (الآيات: ١٥-١٨).

وضمن سياق السورة، يذكرنا الله تعالى بصفات المؤمنين السلوكية والنفسية، ومن أبرزها الوفاء بعهد الله سبحانه وتعالى، والإنتماءإلى جبهة الرسالة ومعاداة غيرها، وخشية الله في كل حال، والخوف من سوء الحساب، والصبر عند الشدائد، وإقامة الصلاة والإنفاق في السر والعلن، والخلق الرفيع (الآيات: ١٩-٢٤).

ثم ينتقل السياق إلى استعراض صفات الكفار التي هي نقيض صفات المؤمنين، وأولها نقض العهد، كما يشير السياق إلى أن الرزق من الله، كما أن منعه بيد الله، وأن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله، ولذلك فلهم الحياة الطيبة في الدنيا، وحسن المآب في الآخرة (الآيات: ٢٥-٢٩).

ثم يذكرنا القرآن فيما بعد بحقيقة أن الرسالة المحمدية امتداد طبيعي لرسالات الأنبياء، ومكملة لها، ومهيمنة عليهاجميعاً، وأن سنن الله واحدة تطبق على سائر الأمم في سائر الأجيال، وما على الرسل إذا جحد الكافرون بالرحمن، إلا أن يتوكلوا على ربهم.

ويذكرنا السياق بأن أساس كفر الكفار ليس برسالة الرسول، بل بالرحمن نفسه، ولو أن الله استجاب لهم بطلبهم المزيد من الآيات لما زادهم ذلك إلا عناداً واستكباراً. ثم هل هناك آية أكبر من هذا القرآن الذي لو كان من المقدر أن يُسير به الجبال ويُكَلّم به الموتى لكان ذلك؟ وإن كثيراً من القوارع نزلت على من قبلهم فلم يتعظوا، ولو أنهم كانوا يريدون الهداية بالآيات لاهتدوا بتلك القوارع واتعظوا بها.

وبعد ذلك يسأل: هل إن الله هو القائم على كل نفس بما كسبت من خير أو شر أم الشركاء؟ وهل الشركاء هم الذين ينبؤون الله ويوحون إليه؟.

إن مكرهم السيّئ، وتزيين ذلك في نفوسهم، والصدّ عن سبيل الله كان السبب الرئيسي في إضلال الله لهم. ومن يضلل الله فلن تجد له هادياً مرشداً، وأما نهاية هؤلاء فأما عذاب الدنيا والآخرة، أو عذاب في الآخرة، وأما نهاية المؤمنين فأحسن منهم مقاماً وأفضل نديّاً (الآيات: ٣٠-٣٥).

كما تؤكد الآيات أن مواقف الناس من الكتاب ثلاثة؛ فإما مؤمن به كله، أو مؤمن به في حدود مصلحته، أو كافر به. وبمناسبة الحديث عن أصناف الناس واتجاهاتهم من الكتاب يحدثنا الله عن أن القرآن عربي، وعروبة القرآن ليس تعصباً جاهلياً للعربية، فالقرآن عربي ولكنه

يخالف كل السخافات العربية، والقرآن أيضاً لا يتنازل عن قيمة مجاراةً للثقافة الجاهلية الشائعة آنذاك (الآيات: ٣٦-٣٨).

أما الآيات الأخيرة من السورة فتذكرنا بأن الأمور بيد الله تعالى، وأن إرادته مطلقة تتجاوز التقدير والسنن، وأنه يمحو ما يشاء ويثبت، وأنه ليس على الرسول إلا البلاغ، لأن على الله الحساب، فله أن يعذب وإن شاء أخّر العقوبة (الآيات: ٣٩-٤٣).

أسماء الله وتجلياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (١) ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ[1] تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ (٢)﴾.

هدى من الآيات:

المر؛ تلك الحروف التي حمّلها الرب سبحانه آيات الكتاب و الكتاب الذي أنزله الله إليك يا رسول الله هو الحق و كله لا ريب فيه.

و لا ضير في هذا الحق إن لم يؤمن به أكثر الناس (لخلل فيهم) فلا يصدنك عدم إيمانهم عن هذا الحق والكتاب المحفوظ في ثنايا حروف يعكس حقائق ذلك الكتاب المنبسط في السماوات. ألا ترى آيات الرب فيها كيف وضعها بغير عمد ترونها. و قدر فيها ما قدر، ثم استوى على العرش يدبر الأمر ويجري فيها سننه وأقداره. ألا ترى كيف سخر الشمس والقمر وكل قد قدر له أجلا مسمى.

والذي يدبر أمر السماوات والأرض لحظة بلحظة هو الذي فصل الآيات لتتوفر للناس فرصة اليقين بلقاء الله، فانه لم يخلق كل هذه باطلا، ولن يترك الناس سدى سبحانه، إنما يؤخرهم ليوم الجزاء الكبير.

---

(١) عمد: جمع عماد وهي الدعائم.

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لماذا تتكرر البسملة في كل سورة؟.

تتكرر البسملة في كل سورة؟، لتعطي معنى جديداً ينسجم مع الإطار العام للسورة، فبسملة الحمد يختلف تأويلها عنها في سورة الشورى، ويختلف عنهما في سورة الذاريات وهكذا.

وهكذا فإن بسملة هذه السورة تنسجم مع السورة حيث أن السورة تتحدث عن الهدى عن طريق آيات الله في الطبيعة، والرعد هو نموذج عن آيات الله في الطبيعة، وهي جميعا تجل لأسماء الله التي تدل على القدرة والسلطان والعظمة فبإسم الله ذي الهيمنة والعظمة والملكوت والقدرة، والرحمة الشاملة والرحمة الدائمة نبدأ.

آفاق القرآن

[١] ﴿الٓمٓرٰ﴾ الرموز في بداية السورة تشير إلى أحد معنيين:

- إنها رموز بين الله وبين عباده المخلصين.

- إنها إشارة إلى القرآن ذاته أو كلاهما.

فنحن قد نقول كلاما نقصد به معنى واحدا ولكن الأديب قد يقول كلاما يقصد به معنيين، ولكن رب العزة قد يوحي بكلام يقصد به سبعين معنى، وكذلك جاء في الحديث: «**كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ عَلَى العِبَارَةِ وَالإِشَارَةِ وَاللَّطَائِفِ وَالحَقَائِقِ فَالعِبَارَةُ لِلْعَوَامِّ وَالإِشَارَةُ لِلْخَوَاصِّ وَاللَّطَائِفُ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالحَقَائِقُ لِلْأَنْبِيَاءِ**»[1].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ لابد أن تعرف إن الذي أنزل إليك هو الحق -كل الحق-، لم يقل الله «والذي أنزل اليك من ربك حق» بل قال: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ -فالألف واللام تعطي معنى الاستغراق- أي لا يوجد حق في غير القرآن.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يكرر الله سبحانه في كثير من الآيات هذا المعنى: إن

(١) بحار الأنوار: ج٨٩ ص١٠٣.

القليل من العباد الشكور، والقليل من العباد المؤمنون، وإن تتبع أكثر من في الأرض يضلوك وهكذا.. لماذا؟.

يتكرر هذا المعنى كثيرا في القرآن لأن الإنسان بطبيعته الضعيفة، وانعدام ثقته بنفسه لا يتبع عقله دائما، بل يتبع الناس ويقول: حشر مع الناس عيد، فلكي يجعلنا القرآن ننظر إلى آفاق السماوات والأرض بلا حجاب يبعدنا عن الضغوط الاجتماعية التي تكبل عقل الإنسان، إذن في البدء اقطع العلاقة التبعية لكي تكون شخصية مستقلة ثم فكر في ذلك لأن مفتاح العقل التحرر.

حقائق كونية

[٢] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ جاء في الحديث في تفسير علي بن إبراهيم القمي في حديث طويل عن الإمام الرضا عليه السلام عن هذه الآية: قال: «فَثَمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا»[1] والله أعلم ما هذه العمد.

كل تصورنا حتى الآن عن هذه العمد، أنها ربما تكون تعادل قوى الطرد والجذب بين الكواكب والنجوم فمثلاً: إن قوة الطرد الناشئة من دوران الأرض حول الشمس تساوي بالضبط قوة الجذب للشمس، فعلى ذلك تبقى الأرض ملايين السنين في مدار واحد، أما لو تغيرت إحدى هاتين القوتين لحدث ما لم يكن في الحسبان، فلو زادت قوة الطرد لانفلتت الأرض على المجهول في خط مستقيم، ولو زادت قوة جذب الشمس للأرض لالتصقت الأرض بالشمس لأنها ستضطر في النهاية لأن تسير في مسار حلزوني، ولنشبه هذا المثال بما يلي:

أنت تمسك بطرف حبل في يدك والطرف الآخر للحبل مشدود به قطعة حجر.. حاول أن تدير الحجر، ماذا يحدث إن الحجر يريد الانفلات، فلا الحجر ينفلت، ولا هو يلتصق بيدك، لأن كلا القوتين متساويتين، ولكن هب أنك تركت طرف الحبل الذي بيدك، إنك تجد الحجر ينفلت، وهب إنك أثناء تدويرك للحجر تلف الحبل بيدك ستجد بعد قليل إن الحجر قد التصق بيدك.

ربما هذا التفسير يكون تفسيرا للعمد، والله أعلم.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إن الله سبحانه لم يخلق الحياة كساعة ذاتية الحركة تجري لحالها،

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ٣٢٨ .

بل أنه خلقها، ثم استوى على العرش يدبر أمرها، فحتى حركتك أنت إنما هي بإرادة الله، فكيف بالسموات والأرض، فالله وراء كل شيء يجري في الكون ومدبره.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إن الله سخر الشمس والقمر لأهداف معلومة وإلى وقت معلوم، لذلك لا تتطرق إلى هذه الأهداف، ولكن الذي يهمنا هو أن الشمس والقمر لفظان يدلان على العموم مما كان من جنسهما، وهذا يعني حتى الأرض، وربما أن الله سبحانه ذكر هذين الاثنين للإشارة إلى أبناء الارض.

ثم إن الآية تشير إلى أن الشمس والقمر يجريان إلى نهاية محدودة ومعلومة لعمرها، ولكننا لا يمكننا تحديد ذلك الوقت بالدقة إلا أن عمر الشمس والقمر يقدر بأعمار الكواكب والنجوم، وعلى كل حال، إن شمسنا هذه أصبحت كهلة بالنسبة إلى بعض الشموس الأخرى.

يقول أحد العلماء أن (النجم) يمر من مرحلة إلى أخرى عملا بقوانين التطور الطبيعي، ولأنه كان يتطور فإنه يهرم، وقد يستغرب القارئ قولنا: إن النجم يهرم، فمنذ أن كانت البشرية لم يسمع أحد بأن النجم القطبي ينازع، أو أن الكوكب الفلاني يلفظ أنفاسه! ومع ذلك فإن هذا ما يحدث في الواقع، فكل نجم إذ يلمع يشع طاقة، كأي كائن حي خلال حياته، وإذا أفلح بطريقة ما في تجديد طاقته فإن هذه الطاقة تنضب أخيراً، ويكون هذا النضوب سريعا بقدر ما يفرط به، ويأتي وقت لا محالة تنفذ فيه جميع وسائله.

فإذا نظرنا إلى الشمس نلاحظ إنها شتتت في الفضاء بشكل إشعاعات كهرومغناطيسية مختلفة طاقة تبلغ (١٨٠,٠٠٠) مليار مليار كيلو واط، وهذا ما يكفي لحمل مياه المحيطات كلها على الغليان في ثانية واحدة، وتعجز مخيلتنا عن تصور أرقام بهذا المقدار، ولكنها تحملنا على الاعتقاد بأن هذا التبذير لن يمكن الشمس من أن تعمر طويلا، ولو كانت مؤلفة من الفحم الصافي لكانت قد تحولت منذ زمن طويل إلى رماد، ولكن ما يغذي الشمس بالطاقة ليس وقودا كيميائيا عاديا، وهي تدين بإشعاعها لتفاعل زخمي حراري دائم، كما هو معلوم.

بقيت كلمة وهي إن هذه الآية تشير إلى أن الزمن جزء من الطبيعة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ إن الله يفصل الآيات لنا، ويقصها علينا، ولكن ما هو الهدف؟.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ اليقين هو أعلى درجات الإيمان.

عظمة الله تتجلى في الطبيعة

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ(1) وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ(2) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٤) ۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ(3) فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥) وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ(4) مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ(5) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ (٧)﴾.

هدى من الآيات:

السياق القرآني يذكرنا بطبيعة الإختلاف الموجود في الكون، وأن في هذا الاختلاف

(١) رواسي: جبال ثوابت.

(٢) يغشي الليل النهار: يلبس ظلمة الليل ضياء النهار.

(٣) الأغلال: الغِلّ طوق تشد به اليد إلى العنق.

(٤) خلت: مضت.

(٥) المثلات: العقوبات ومفردها مثلة.

دلالة واضحة على قدرة ربنا سبحانه.

إن ما في هذه الحياة يدل على أن الله رب كل شيء، وما من إله غيره، كما أن توحيد الله يتجلى في الاختلاف الموجود في الكون.

لقد مد الله الأرض وجعل فيها رواسي شامخات لتحفظها من الميلان والتحرك، وخلق فيها من كل شيء زوجين اثنين، وأولج النهار في الليل، والليل في النهار. ألا يدعونا ذلك إلى البحث عمن ينظم هذا الكون، وألا يدلنا ذلك على وحدة المنظم، فلو كان المنظم أكثر من واحد هل حدث مثل هذا التناسق العجيب في الكون؟!.

وكما أن في كلية الحياة عبرة، فإن في تفاصيل الحياة عبرة أخرى، فمثلا طبيعة الأرض الواحدة، واختلافها برغم تجاورها ألا تقودنا إلى رحاب الإيمان بالله؟ فهذه الأشجار تتفاضل على بعضها في الأكل، بعضها مفردة وبعضها أزواج.. علما بأن هذه الأشجار تشرب من ماء واحد وتنمو في أرض واحدة.

إن هذه الآيات كفيلة بتنبيه الغافلين، ذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد، ولكن بالرغم من كثرة هذه الآيات وانتشارها في أرجاء الكون، يبقى الإنسان يرتاب في قدرة ربه على إحيائه بعد مماته.

إن خلق الأشياء وابتداعها من العدم أصعب من إعادة بنائها، ومن جهة ثانية إنهم إنما أنكروا البعث لأنهم كفروا بربهم، فلم يعرفوه حق معرفته.

إن هؤلاء وضعوا غل الشهوات على أفئدتهم فلم يستطيعوا أن يفكروا بحرية، ولذلك تراهم يوم القيامة، نزلاء النار خالدين فيها أبدا، وهؤلاء الذين كفروا بربهم لم تكن الحياة في صالحهم لأنهم كانوا ولا زالوا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، ولولا أن رحمة الله سبقت غضبه بأن يمهل الإنسان، إذن لأخذهم بعذاب بئيس.

وهم عندما يطالبون الرسول بالآيات لا يعلمون بأن الرسول ليس سوى منذر لا يملك أن يأتي بآية إلا بإذن الله، ثم إنهم حين كفروا بما عندهم من الآيات، فمن يضمن إيمانهم بآيات جديدة لو جاءتهم، أليس هناك احتمال كبير بأن يكفروا بها كما كفروا بما قبلها؟!.

إذن فالمشكلة عند الإنسان هي المنهجية في التفكير، ولو صحت هذه المنهجية لاستطاع أن يفكر تفكيرا سليما من دون حجاب يمنعه من الوصول إلى المعرفة، والمعرفة تعطيه الحكمة التي قال عنها الله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩]، والقرآن

الكريم عبر آياته يهدف إصلاح منهجية الإنسان في التفكير بعد أن يبصره بالقوى الضاغطة عليه، كما أنه يصور لنا الطبيعة من جديد حتى يلفتنا إليها وكأننا لم نرها من قبل.

بينات من الآيات:

آيات لقوم يتفكرون

[٣] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ لابد من ربط جزئيات الحياة بمحور واحد لكي لا تستقطب جزئيات الحياة كل اهتمامنا، وتصرفنا عن الهدف، وعندما لا نربط هذه الجزئيات بالمحور الأساسي نرى الفروق والاختلاف، بينما حين ننظر إليها معا نهتدي إلى المدبر الواحد وهو الله الذي يدبر هذه الجزئيات ويوجهها.

ما الذي نرى حولنا ضمن هذا الإطار العام.

نرى الأرض وهي كتلة كبيرة تسبح في الكون مدها الله سبحانه على طول البصر، ولم يجعل استدارتها شديدة لتسهيل البناء عليها والزرع، ولا منافاة بين استدارة الأرض وامتدادها، فالأرض مستديرة، ولكنك مهما نظرت إليها من أي جهة فستجدها ممدودة والامتداد هذا دليل آخر على الاستدارة، فانت مهما سرت في خط مستقيم تجد الارض ممدودة إلى أن تعود إلى مكانك.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا﴾ لم يترك الله سبحانه الارض تميد بمن فيها، بل ثبتها بالجبال، أليست الجبال تدل على المدبر؟!، وعندما نذكر الجبال لابد أن نذكر الأنهار لأن الأنهار صنيعة الجبال، كما جاء في توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام: **«انْظُرْ يَا مُفَضَّلُ إِلَى هَذِهِ الجِبَالِ المَرْكُومَةِ مِنَ الطِّينِ وَ الحِجَارَةِ الَّتِي يَحْسُبُهَا الغَافِلُونَ فَضْلًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا وَالمَنَافِعُ فِيهَا كَثِيرَةٌ فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهَا الثُّلُوجُ فَيَبْقَى فِي قِلَالِهَا لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَ يَذُوبَ مَا ذَابَ مِنْهُ فَتَجْرِيَ مِنْهُ العُيُونُ الغَزِيرَةُ الَّتِي تَجْتَمِعُ مِنْهَا الأَنْهَارُ العِظَامُ»**[1].

يقول علماء طبقات الأرض: إن الأرض تعتمد على شبكة قوية ومنظمة من الصخور المتصلة مع بعضها داخل القشرة الأرضية والتي تكون نتوءات أو مرتفعات بعض الأحيان، ولولا هذه الشبكة داخل وخارج الأرض لتناثرت الأرض يمينا وشمالا مع دوران الأرض، ولما صار للأرض شكلا معينا، فالجبال والشبكة الداخلية لها كالهيكل العظمي للأرض يحفظ شكلها.

---

(١) بحار الانوار: ج ٣ ص١٢٧.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ما علاقة الأرض بالجبال، وما علاقة الأنهار بالجبال، وما علاقة النبات بالأنهار. هذه أشياء مختلفة لكن كل واحد يخدم الآخر، ألا يدل ذلك على وحدة الصانع، وأن الأشياء مهما اختلفت فهناك رابط دقيق يربط بين عناصر الكون. فالنبات له دلالة كبيرة إذ لم يخلق من النبات جنساً واحداً، بل من كل نوع من النبات جنسين ذكر وأنثى ليتم التناسل والتكاثر، ألا تكمن حكمة الله في ذلك؟!.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ وهذا الاختلاف دليل آخر على وحدانية الله سبحانه، وأما لماذا قال بأن الليل هو الذي يغشي النهار، فلأن الأصل في الحياة هو الليل، فتأتي الشمس لتبدد هذا الظلام بعضا من الوقت، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان الليل والنهار لهما فوائد جمة لا يدركها إلا العاقلون، والإمام الصادق عليه السلام يفصل ذلك للمفضل بقوله: «فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي مَقَادِيرِ النَّهَارِ وَ اللَّيْلِ كَيْفَ وَقَعَتْ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ هَذَا الْخَلْقِ فَصَارَ مُنْتَهَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِذَا امْتَدَّ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً لَا يُجَاوِزُ ذَلِكَ أَ فَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ النَّهَارُ يَكُونُ مِقْدَارُهُ مِائَةَ سَاعَةٍ أَوْ مِائَتَيْ سَاعَةٍ أَ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ بَوَارُ كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَيَوَانٍ وَ نَبَاتٍ أَمَّا الْحَيَوَانُ فَكَانَ لَا يَهْدَأُ وَ لَا يَقِرُّ طُولَ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَ لَا الْبَهَائِمُ كَانَتْ تُمْسِكُ عَنِ الرَّعْيِ لَوْ دَامَ لَهَا ضَوْءُ النَّهَارِ وَ لَا الْإِنْسَانُ كَانَ يَفْتُرُ عَنِ الْعَمَلِ وَ الْحَرَكَةِ وَ كَانَ ذَلِكَ سَيُهْلِكُهَا أَجْمَعَ وَ يُؤَدِّيهَا إِلَى التَّلَفِ وَ أَمَّا النَّبَاتُ فَكَانَ يَطُولُ عَلَيْهِ حَرُّ النَّهَارِ وَ وَهَجُ الشَّمْسِ حَتَّى يَجِفَّ وَ يَحْتَرِقَ وَ كَذَلِكَ اللَّيْلُ لَوِ امْتَدَّ مِقْدَارُ هَذِهِ الْمُدَّةِ كَانَ يَعُوقُ أَصْنَافَ الْحَيَوَانِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَ التَّصَرُّفِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ حَتَّى تَمُوتَ جُوعاً وَ تَخْمُدُ الْحَرَارَةُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ النَّبَاتِ حَتَّى يَعْفَنَ وَ يَفْسُدَ كَالَّذِي تَرَاهُ يَحْدُثُ عَلَى النَّبَاتِ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ لَا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن آيات الله في الكون مبثوثة، وروحك عطشى إلى معرفة الحقيقة، ولكن الحقيقة لن تأتي إليك إلا حين تذهب إليها أنت، فأنت بحاجة إلى إعمال ذهنك وتفكيرك كي تفهم وتتعض من هذه الآيات، والتفكير يعتمد على تحريك العقل واثارة دفائنه، وربط الأشياء ببعضها، وربطها كلها بخالقها ومدبرها.

آيات لقوم يعقلون

[٤] ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ إن الأرض تحتوي على قطع متجاورة يختلف بعضها عن بعض، فبعضها أرض سبخة، وبعضها أرض زراعية، وبعضها صخرية.. وهكذا.. وقد جاء في الحديث عن العياشي: «يَعْنِي هَذِهِ الْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ يُجَاوِرُهَا هَذِهِ الْمَالِحَةُ وَ لَيْسَتْ مِنْهَا،

(١) بحار الانوار: ج ٣ ص ١١٨.

كَمَا يُجَاوِرُ الْقَوْمُ الْقَوْمَ وَ لَيْسُوا مِنْهُمْ»[1].

﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ كما إن اختلاف الأرض المتجاورة آية لله تدل عليه، فالجنان والخمائل الغناء من الأعناب والزروع المختلفة والنخيل آيات أخرى، والعجيب أن بعض هذه النخيل اثنتين تخرج من أصل واحد، والأعجب هو اختلاف ثمار الأشجار علما بأنها تستقي من ماء واحد، وتستمد الغذاء من أرض واحدة، وإن الشجرة تنبت نوعا واحدا مهما وضعتها في تربة مختلفة أو في جو مختلف.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ لم يقل: «إنها تتفاضل على بعضها» وإنما قال: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ أي أن الله هو الذي أعطى لكل ثمرة خاصية في الطعم واللون والشكل والمنفعة، وما اختلاف الطعم إلا دلالة على اختلاف المواد والفوائد، وما اختلاف المواد والفوائد إلا دليل على حكمة ربانية، فجسمك يحتاج إلى نسبة معينة من الحديد، لذلك تجدها في بعض الخضروات، وكذلك بالنسبة إلى أنواع الفيتامين والسكريات وغيرها.. علما بأن مقدار ما يحتاجه جسمك موجود في فاكهة معينة أو ليس هذا دليل على وجود تدبير موحد بين حاجة الجسم ونسبة هذه الحاجة في هذه الثمرة، ثم أليس يدل على أن رب الثمرة وخالقها هو خالقك؟

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ العقل هو الاستيعاب، وقد أكد عليه هنا بينما في المرة السابقة قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فهاتان الآيتان تقودنا إلى فكرة وهي: أن التفكير بداية العقل والعقل هو طريق الهداية.

لماذا الكفر بالبعث؟

[٥] ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إذا كنت تعجب من شيء فهناك شيء أعجب وهو قول الكفار بإنكار البعث بعد الموت، ولكن هل أن الموت نهاية كل شيء؟.

في الحقيقة إن العقل يقضي بأن يكون هناك يوم يحاسب فيه كل إنسان، ويرجع ليقف أمام ظالم فينتصف منه، أو ينتصف هو منه إذا كان ظالما له، والإنسان الذي يرى عظمة الكون كيف ينكر البعث، أليس ذلك دليل على عدم استيعابه لحقائق الكون؟ أو ليس من العبث أن يعيش الإنسان ضالا مضلا ويترك؟ ولكن هل من المستحيل على خالق هذا الكون أن يعيده كما كان؟! إن إنكار البعث في الحقيقة هو إنكار للمسؤولية، وجحد للأمر المفترض اتباعه، ومن هنا فإن إنكار الحقيقة الواضحة يسمى كفرا.

---

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٠٣.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ قد يقول البعض: إننا نؤمن بالله ولكن لا نؤمن بالبعث، والحقيقة أن الكفر بالبعث ينسحب على سائر الأشياء، فالكفر بالبعث كفر بالله بدرجة أولى، لأنه إنكار لقدرة الله وعدله، وهل يكون المنكر لصفات الله كلا أو بعضا إلا كافرا؟.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ يظهر من النصوص أن: «الجزاء من جنس العمل» فلأنهم غلوا أعناقهم في الدنيا بأغلال المصلحية والأفكار البعيدة وأوصدوا أبواب فكرهم كان جزاؤهم في الآخرة أن يغلو كما غلوا أنفسهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذه هي النهاية المثلى لمن يكفر بالآخرة، وما جزاء من يتهرب من المسؤولية في الدنيا إلا أن يسجن في الآخرة، وما جزاء من يرفض الأمر الواقع، إلا أن يقع في واقع النار!!.

وقد سماهم الله أصحاب النار. أي بينهم وبين النار صداقة لا يفترقان، وقد سماهم الله أصحاب النار في الدنيا، لأن النار نتيجة حتمية لهم، والنار وفية لأصحابها.

سنة الله وموقف الكفار

[٦] ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أليس من الحمق أن يفضل الإنسان السيئة على الحسنة؟ هل لأن الحسنة لا تعجبه فيتمنى العذاب؟، ولكنهم في الحقيقة نسوا ما حل بمن قبلهم: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الرس.. وغيرهم.

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ إن رحمة الله سبقت غضبه، فهذه بشارة الله للمذنبين بأن يتوب عليهم إن هم تابوا إذ أن مشكلة أغلب الناس أنهم عندما يرون أنفسهم في الفساد ييأسون من رحمة الله، ويجزمون بأن الله لا يغفر لهم فيبقون على ما هم عليه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إن الله رحيم بعباده ويقبل التوبة عنهم، ولكنه شديد العقاب لمن استمر في ظلمه، مغفرته تقف في حدود الحياة اليومية، ولكن إذا عتى الإنسان في الظلم فإن جهنم هي المثوى والمصير.

في مجمع البيان: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: **«لَوْلَا عَفْوُ الله وَتَجَاوُزُهُ مَا هَنَأَ أَحَدٌ العَيْشَ، وَلَوْلَا وَعِيْدُ اللهِ وَعِقَابُهُ لَاتَّكَلَ كُلُّ أَحَدٍ»**[1].

---

(١) مجمع البيان: ج٦ ص١٤.

الاستخلاف

[٧] ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ هؤلاء لا يكفيهم ما عندهم من الآيات، بل يريدون المزيد، ولكن الله يصف الرسول بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ هذه حدودك أيها الرسول، فليس من مسؤوليتك أن تأتي بالآيات.. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

هذه الآية نزلت في رسول الله وعلي بن أبي طالب عليه السلام إذ هو الهادي لأمة محمد صلى الله عليه وآله بعده، وقد بلغت الروايات في هذا المجال حد الاستفاضة ومنها ما جاء في دعاء الندبة في حق علي عليه السلام: «إِذْ كَانَ هُوَ الْمُنْذِرَ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هاد»[1]. وقد جاء في تفسير العياشي قال أمير المؤمنين: «فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَنَا الْمُنْذِرُ وَأَنْتَ الْهَادِي يَا عَلِيُّ، فَمِنَّا الهَادِي وَالنَّجَاةُ وَالسَّعَادَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2].

(١) بحار الأنوار: ج٩٩، ص١٠٦. من دعاء الندبة.

(٢) تفسير العياشي: ج٢ ص٢٠٣.

ينابيع الايمان وعوامل الشرك

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ(١) الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ(٢) بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ(٣) مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ(٤) فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ(٥) (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) ﴾.

هدى من الآيات:

يذكرنا السياق القرآني في سورة الرعد بآيات الله في الكون، ويوجهنا الى النظر (العبري)

---

(١) تغيض: الغيض ذهاب المائع في جهة العمق.

(٢) سارب: السارب الساري الجاري بسرعة.

(٣) معقبات: المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلاً منه.

(٤) الصواعق: جمع صاعق وهي نار تسقط من السماء.

(٥) المحال: العقاب.

اليها لكي نصل من خلالها الى معرفة الله سبحانه، لأن الغاية التي خلق الله من أجلها هذا الكون هي معرفته في الدرجة الأولى، وآيات الله في الطبيعة أقرب ما تكون الى الانسان وتصوره، لأن الإنسان تراب ويحن إلى أصله، وكل شيء في الكون تجسيد لأسمائه سبحانه، وينحرف الإنسان إذا ما اتبع عقله في كشف حقائق الكون.

وهذا الدرس يذكر ببعض صفات الله، ويذكر الإنسان بهذه الحقائق التي يغفل عنها وينساها دائما فالله سبحانه يعلم ما تحمل الإناث في بطونهن من ذكر أو أنثى -ليس ذلك فحسب- بل يعلم تفاصيل حياة الجنين وما يحمل من صفات وراثية وغيرها، وعلم الأجنة هو أحد العلوم الخمسة التي لا يعلمها غيره، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وعلم الله لا يقف عند حدود الأجنة، بل هو يعلم كل مكنون من القول وكل ظاهر منه، وكل من سار بالليل أو سرب في النهار، وعلم الله ليس الشهود وحده أو الغيب وحده، بل علمه محيط بهما معا، فعلمه بالغيب كعلمه بالشهادة، وكيف لا وهو مع كل شيء، وأقرب إلى كل شيء من أي شيء، وهو معنا أينما كنا، وأقرب إلينا من حبل الوتين، فسبحان الله الكبير المتعال:أكبر من التصور، متعال عن مجانسة الخلق.

ومن آياته أن جعل مع كل نفس ملائكة تحفظها من الأخطار، فإذا جاء أجلها خلوا بينها وبين الأجل.. ألا يدل ذلك على رحمة ربنا، وأنه أرحم بنا منا، وأنه كيف نحفظ أنفسنا ونحن لا نستطيع أن ندفع عنها ضرا أو نجلب لها نفعا، ولو قلنا بأننا نستطيع أن ندفع عن أنفسنا حال غفلتنا وانشغالنا، إذن فالإنسان ليس سيد نفسه، بل الله سيده على نفسه، وإن له الولاية المطلقة، ولكن الله سبحانه مع حفظه للإنسان يسمح بمرور العذاب والبلاء بمقدار ما تستحق كل نفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾.

ومن آيات الله أن يرافق السحب الثقال البروق والرعود خوفا من عقابه ورجاء لرحمته، فهذا الرعد الذي يسبح بحمده يهز ضمائرنا، ويذكرنا بعظمة الجبار، وسر عظمة الرعد أنه خاضع لله، مسبح بحمده، وليس الرعد وحده هو الذي يسبح بحمده، بل إن الملائكة التي تقوم بأمر الرعد والسحاب تسبح كذلك خشية منه..لأنه شديد المحال.

أبعد هذه الآيات يكفر الإنسان بالله ويشرك به غيره؟! إن هو آمن بالله وفقه للخيرات، وإن أشرك به لم يوفق للخيرات ولن يصل إلى غاية حميدة فسوف يبقى في عطش، ولن ترويه

الآلهة الأخرى، ودلالة اخرى على علم الله ومقدرته أنه يستجيب لمن يؤمن به، لأنه في موقع العلم بالمسألة وموقع القدرة على الإجابة، أما الآلهة الأخرى فهم أعجز من أن يحيطوا علما بما تكن نفس البشر، وأعجز من أن يستطيعوا تلبية مطالبه.

بينات من الآيات:

علم الله

[٨] لو عرف الإنسان أن ربه محيط به علما لاطمأن إلى رحمته، ولخشي عذابه لأنه آنئذ يشعر بأن الله يحيط بسكناته وحركاته.. سره وجهره، ولاستقامت سيرته وسلوكه، والآيات القرانية تذكرنا بهذه البصيرة المرة بعد الأخرى، وذلك بسبب غيابها عنا، وعدم حضورها في تصورنا، وغيابها عنا كان السبب المباشر لانحرافاتنا وعلم الله بالإنسان شامل فمنذ أن كان جنينا يعلم تفاصيل حياته.

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ ﴾ إن علم الله أحاط بالجنين هل هو ذكر أم أنثى، وهل سيعيش شقيا أم سعيدا، ويعلم اثناء الحمل وعند الولادة ما سيحمله الجنين من صفات كما إنه دبر أمر الإنسان جنينا فأطعمه وسقاه.

جاء في توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام: **«اعْتَبِرْ يَا مُفَضَّلُ فِيمَا يُدَبَّرُ بِهِ الإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ هَلْ تَرَى يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِالإِهْمَالِ أَ فَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ يَجْرِ إِلَيْهِ ذَلِكَ الدَّمُ وَ هُوَ فِي الرَّحِمِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَذْوِي وَ يَجِفُّ كَمَا يَجِفُّ النَّبَاتُ إِذَا فَقَدَ الْمَاءَ»**[1].

وفي موضع آخر قال المفضل:فقلت:صف نشوء الأبدان ونموها حالا بعد حال حتى تبلغ التمام والكمال، قال عليه السلام: **«أَوَّلُ ذَلِكَ تَصْوِيرُ الْجَنِينِ فِي الرَّحِمِ حَيْثُ لَا تَرَاهُ عَيْنٌ وَ لَا تَنَالُهُ يَدٌ وَ يُدَبِّرُهُ حَتَّى يَخْرُجَ سَوِيّاً مُسْتَوْفِياً جَمِيعَ مَا فِيهِ قِوَامُهُ وَ صَلَاحُهُ مِنَ الْأَحْشَاءِ وَ الْجَوَارِحِ وَ الْعَوَامِلِ إِلَى مَا فِي تَرْكِيبِ أَعْضَائِهِ مِنَ الْعِظَامِ وَ اللَّحْمِ وَ الشَّحْمِ وَ الْمُخِّ وَ الْعَصَبِ وَ الْعُرُوقِ وَ الْغَضَارِيفِ فَإِذَا خَرَجَ إِلَى الْعَالَمِ تَرَاهُ كَيْفَ يَنْمِي بِجَمِيعِ أَعْضَائِهِ وَ هُوَ ثَابِتٌ عَلَى شَكْلٍ وَ هَيْئَةٍ لَا تَتَزَايَدُ وَ لَا تَنْقُصُ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»**[2].

وعلم الله محيط بما تحمل الاناث من الأجنة﴿وَمَا تَغِيضُ﴾أي ما تفيض وتسقط مما لم يكتمل خلقه﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾سواء كانت الزيادة في العدد أو الزيادة في الأعضاء.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٦٣.

(٢) المصدر السابق: ص٦٧.

جاء في تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ قَالَ الذَّكَرَ وَ الأُنْثَى، ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ قَالَ عليه السلام: مَا كَانَ دُونَ التِّسْعَةِ فَهُوَ غَيْضٌ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قَالَ عليه السلام: مَا رَأَتِ الدَّمَ فِي أَيَّامِ حَمْلِهَا ازْدَادَ بِهِ عَلَى التِّسْعَةِ الأَشْهُرِ إِنْ كَانَتْ رَأَتِ الدَّمَ خَمْسَةَ أَيَّامٍ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ زَادَ ذَلِكَ عَلَى التِّسْعَةِ الأَشْهُرِ»[1].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ لكل شيء في هذا الكون حد محدود، وقدر مكتوب فنحن لا نعرف هذه الأقدار لذلك ننسب الأشياء الى الكبر والصغر، والطول والقصر، ولكن لو تعمقنا لعلمنا إن الحرارة في جسم الإنسان بقدر معين، وان للجبال قدرا وأوزانا معينة، بل لكل معدن قدر معين في الكثافة والكتلة والوزن، وحتى الهواء والضياء له وزن ومقدار.

مظاهر علم الله

[٩] ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ الغيب عنده كما الشهود، كلاهما يتساوى عنده في الظهور ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ إنه أكبر من أن يوصف، وإنما يتفاضل الأشياء بالكبر ويقاس بعضها إذا كانت من جنس واحد، وليس الله من جنس الأشياء بل إنه الخالق وهي مخلوقات، لذلك جاء في الحديث: عن الإمام الصادق عليه السلام أنه: «قَالَ رَجُلٌ عِنْدَهُ: اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ عليه السلام: اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: حَدَّدْتَهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: كَيْفَ أَقُولُ؟ قَالَ عليه السلام: قُلْ اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ»[2].

والمتعال: مهيمن على كل شيء ومتعال عليه، وأنه لا يماثل شيئاً ولا شيء يماثله.

[١٠] ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ كما الغيب والشهادة عنده سواء كذلك المكتوم من القول والمجهور به، وكذلك هو محيط علما بمن يكمن في الليل ساريا بظلامه، ومن يتحرك نهارا ساربا في ضوئه.

حتى يغيروا ما بأنفسهم

[١١] ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي ملائكة يتعاقبون بعضهم بعد بعض ليحفظوا الإنسان من الوقوع في الأخطار، ولكن إذا كانت الملائكة تحفظنا من الوقوع في الأخطار فلماذا نموت، ولماذا تصيبنا المخاطر كل لحظة؟.

---

(١) تفسير العياشي: ج٢ ص٢٠٥.

(٢) الكافي: ج١، ص١١٧.

أما لماذا نموت فان أجل الإنسان إذا جاء لا تمنع الملائكة منه، بل إنها سوف تخلي بين الإنسان وبين حتفه، أما لماذا نتعرض للمشاكل كل لحظة، فهذا ما ستجيب عليه نهاية الآية، ولنا أن نتساءل: ما علاقة الإنسان بالملائكة حتى يحفظوه؟.

أولاً: الملائكة عباد مكرمون لله، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ثانياً: إن لكل شيء في الحياة ملكا موكلا به، فللسحاب ملك موكل به، وللرعد ملك موكل به، وللبحر ملك موكل به، وهكذا.. يكون للإنسان ملك موكل به، لأنه جزء من الطبيعة.

ثالثاً: إن الله عندما أسجد ملائكته لآدم فإن ذلك دلالة على سجود الطبيعة وتسخيرها له وهكذا سخر الله الملائكة لخدمة الإنسان.

إذا لنرجع إلى نهاية الآية ونقول: إن الإنسان هو الذي يصنع واقعه بنفسه، ولا نشك إن للتصرفات والسلوك الإنساني دخلا في صنع الظروف المؤثرة فيه، فباستطاعتك أن تغير نفسك، وإذا غيرت نفسك فانك آنئذ تغير ما حولك.

وهكذا الظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية، وما مرت به بالأمس إنما كان بسبب نفسي، فإذن لا يجب أن نلقي اللوم على الحكام وحدهم، بل يجب أن نراجع حساباتنا، ونمارس النقد الذاتي الصريح بحق أنفسنا.. وهذا هو العلاج الأمثل، لذلك قال ربنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾.

إن الله هو المهيمن الواحد إن شاء أعطى، وإن شاء محق النعم، ولكن الله سبحانه لن يصيب قرية بالسوء وأهلها مصلحون، فإذا دبر الله لأي قوم سوءاً، فإنما ذلك بما كسبت أيديهم، وحين يصب الله السوء على قوم فليس هناك من يحول بينه وبين إرادته.

آيات القدرة والهيمنة في السماء

[١٢] ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفا من الصواعق، وطمعا لما تنبئ به من المطر والخيرات، ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ السحاب المثقل بالأمطار.

جاء في حديث طويل في جدال للإمام الصادق عليه السلام مع ملحد في التوحيد يشتهر باسم (توحيد الاهليلجة): «ثُمَّ نَظَرَتِ العَيْنُ إِلَى العَظِيمِ مِنَ الآيَاتِ مِنَ السَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ

وَالأَرْضِ بِمَنْزِلَةِ الدُّخَانِ لَا جَسَدَ لَهُ يُلْمَسُ بِشَيْءٍ مِنَ الأَرْضِ وَالجِبَالِ يَتَخَلَّلُ الشَّجَرَةَ فَلَا يُحَرِّكُ مِنْهَا شَيْئاً وَلَا يَهْصِرُ مِنْهَا غُصْناً وَلَا يَعْلَقُ مِنْهَا بِشَيْءٍ يَعْتَرِضُ الرُّكْبَانُ فَيَحُولُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ ظُلْمَتِهِ وَكَثَافَتِهِ وَيَحْتَمِلُ مِنْ ثِقْلِ المَاءِ وَكَثْرَتِهِ مَا لَا يُقْدَرُ عَلَى صِفَتِهِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الصَّوَاعِقِ الصَّادِعَةِ وَالبُرُوقِ اللَّامِعَةِ وَ الرَّعْدِ وَ الثَّلْجِ وَالبَرَدِ وَالجَلِيدِ مَا لَا تَبْلُغُ الأَوْهَامُ صِفَتَهُ وَلَا تَهْتَدِي القُلُوبُ إِلَى كُنْهِ عَجَائِبِهِ فَيَخْرُجُ مُسْتَقِلًّا فِي الهَوَاءِ يَجْتَمِعُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ وَيَلْتَحِمُ بَعْدَ تَزَايُلِهِ تُفَرِّقُهُ الرِّيَاحُ مِنَ الجِهَاتِ كُلِّهَا إِلَى حَيْثُ تَسُوقُهُ بِإِذْنِ الله رَبِّهَا يَسْفُلُ مَرَّةً وَيَعْلُو أُخْرَى مُتَمَسِّكٌ بِمَا فِيهِ مِنَ المَاءِ الكَثِيرِ الَّذِي إِذَا أَزْجَاهُ صَارَتْ مِنْهُ البُحُورُ يَمُرُّ عَلَى الأَرَاضِي الكَثِيرَةِ وَ البُلْدَانِ المُتَنَائِيَةِ لَا تَنْقُصُ مِنْهُ نُقْطَةٌ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى مَا لَا يُحْصَى مِنَ الفَرَاسِخِ فَيُرْسِلَ مَا فِيهِ قَطْرَةً بَعْدَ قَطْرَةٍ وَ سَيْلًا بَعْدَ سَيْلٍ مُتَتَابِعٌ عَلَى رِسْلِهِ حَتَّى يَنْقَعَ البِرَكُ وَ تَمْتَلِيَ الفِجَاجُ وَتَعْتَلِيَ الأَوْدِيَةُ بِالسُّيُولِ كَأَمْثَالِ الجِبَالِ غَاصَّةً بِسُيُولِهَا مصمخة الآذَانِ لِدَوِيِّهَا وَهَدِيرِهَا فَتُحْيَا بِهَا الأَرْضُ المَيْتَةُ فَتُصْبِحُ مُخْضَرَّةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُغْبَرَّةً وَمُعْشِبَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُجْدِبَةً قَدْ كُسِيَتْ أَلْوَاناً مِنْ نَبَاتٍ عُشْبٍ نَاضِرَةٍ زَاهِرَةٍ مُزَيِّنَةٍ مَعَاشاً لِلنَّاسِ وَالأَنْعَامِ فَإِذَا أَفْرَغَ الغَمَامُ مَاءَهُ أَقْلَعَ وَ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ حَيْثُ لَا يُعَايَنُ وَلَا يُدْرَى أَيْنَ تَوَارَى»[1].

[١٣] ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ التسبيح هو التنزيه، فهذا الرعد بقوته يخضع إلى الله سبحانه، ومن تخضع له القوة أليس بقوي؟!.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ هذه الملائكة هي المهيمنة على الطبيعة، آية سلطان هيمنة الله علينا تسبح بحمد الله خوفا منه لبعض المعرفة بالله وقد ورد في الدعاء في الصحيفة السجادية عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام في دعائه للملائكة والسلام لهم: «وَعَلَى المَلَائِكَةِ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِمْ مِنْ سُكَّانِ سَمَاوَاتِكَ، وأَهْلِ الأَمَانَةِ عَلَى رِسَالَاتِكَ، والَّذِينَ لَا تَدْخُلُهُمْ سَأْمَةٌ مِنْ دُءُوبٍ، ولَا إِعْيَاءٌ مِنْ لُغُوبٍ ولَا فُتُورٌ، ولَا تَشْغَلُهُمْ عَنْ تَسْبِيحِكَ الشَّهَوَاتُ، ولَا يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَعْظِيمِكَ سَهْوُ الغَفَلَاتِ، الخُشَّعُ الأَبْصَارِ فَلَا يَرُومُونَ النَّظَرَ إِلَيْكَ، النَّوَاكِسُ الأَذْقَانِ، الَّذِينَ قَدْ طَالَتْ رَغْبَتُهُمْ فِيمَا لَدَيْكَ، المُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ آلَائِكَ، والمُتَوَاضِعُونَ دُونَ عَظَمَتِكَ وجَلَالِ كِبْرِيَائِكَ، والَّذِينَ يَقُولُونَ إِذَا نَظَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ تَزْفِرُ عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِكَ سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، فَصَلِّ عَلَيْهِمْ»[2].

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الصاعقة آية من آيات القدرة يرسلها الله على من يشاء من عبيده العاصين ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أبعد هذه القدرة والهيمنة يجادلون في الله؟ بل إن الله شديد القوة والمكر، سيصيبهم بما كسبوا قارعة أو

---

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص١٦٣.

(٢) الصحيفة السجادية: من دعائه عليه السلام في الصلاة على حملة العرش..

يحل قريباً من دارهم البوار.

الإيمان بالله ومتاهات الشرك

[١٤] ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ أي إليه ترجع دعوة الحق، فالعبادة الصحيحة ترفع إلى الله سبحانه ويستجيب لها ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ هذا هو حال من يعبد غيره، إنه لن يصل إلى نتيجة ما، فهو يعبد غيره لعله يصل إلى مراده، ولكنه لن يصل، وسيبقى عطشانا أبدا، لأنه رام الارتواء من غيره وقد جاء في تفسير (علي بن إبراهيم) «في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ قال الإمام الباقر عليه السلام: فَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْآلِهَةَ مِنْ دُونِ الله ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ لِيَتَنَاوَلَهُ مِنْ بَعِيدٍ وَ لَا يَنَالُهُ»[١]. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾.

(١) تفسير القمي: ج١ ص٣٦١ ،بحار الأنوار: ج٩ ص٢١٥

هل يستوي الأعمى والبصير

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم (١) بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ (٢) بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾.

هدى من الآيات:

في سياق سورة الرعد التي تدلنا على الله من خلال كائناته، يذكرنا هذا الدرس بأن كل شيء خاضع لله من ملائكته وسائر خلقه طوعا أو كرها، وليست الأشياء وحدها خاضعة لله، بل حتى ظلالها وإنعكاسها خاضع له سبحانه، وإذا تساءلت من الذي يدبر أمر السماوات والأرض؟ لجاءك الجواب:بأنه الله سبحانه، إذن فلماذا يتخذ الإنسان وليا من دونه؟! وهل هناك إله يملك النفع والضر سواه؟ كلا..

---

(١) وظلالهم: الظلال جمع الظل وهو ستر الشخص ما بإزائه.

(٢) أودية: الوادي سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر.

إن الفرق بين من يؤمن بالله وبين من لا يؤمن به كالفرق بين البصير والأعمى، والنور والظلمات، والمؤمن عندما يتصل بالله يتحول من لا شيء إلى شيء، ولأن الله مهيمن على كل شيء وخالق كل شيء وبه تقوم الأشياء فإنه كلما كان الإيمان أعمق كلما كان الإنسان أكبر.

إن الله سبحانه رازق كل شيء، فمثل رسالته كمثل غيث ممطر من السماء على الأرض فتستقبله الأودية ليروي الزرع والضرع، ويجعل الأرض مخضرة، ويزيل شوائب الحياة «الزبد» ولكن الإنسان بدل أن يهتم بالماء نجده يهتم بهذا الزبد الطافح عليه، ألا يدل ذلك على قصر النظر؟! فليس النفع في الزبد ولكن النفع في الماء، والزبد هو الشيء الظاهر، والإنسان يبحث غالبا عن الظاهر، وهو عادة يحب المظاهر، فالزبد يمثل متع الحياة الدنيا وليست الحياة الدنيا بأفضل من الزبد، بل هي والزبد سواء.

بينات من الآيات:

الخضوع بين الطوع والإكراه

[١٥] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

﴿مَن﴾ اسم موصول للعاقل، ويبدو أن المراد منه هنا مطلق الأشياء. وذلك لأن ما نسب إليه هو فعل العقلاء فلله يسجد من في السماوات والأرض من الكائنات كالحيوان والإنسان، وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، إنما تسجد لله خاضعة له بإرادتها فإن لم تسجد لله طوعا أسجدها الله له كرها، والسجود بالنسبة للمكرهين تعبير عن الخضوع لأمره، فهذا الإنسان محكوم بقوانين وضعها الله له في كل جوانب حياته، وبعد مماته.

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ الغدو صباحا مع شروق الشمس، والآصال مساء عند غروب الشمس، وهذا تعبير عن حركة الأرض حول الشمس، والغدو والآصال هو بداية ونهاية نشوء الظل، فالظل يبتدئ طويلا فيأخذ بالقصر حتى منتصف النهار، حيث ينعدم ويبدأ في الطول، حتى ينعدم نور الشمس، فهو يبتدئ طويلا، وينتهي طويلا، وينعدم فيما بينهما. وهكذا تخضع الظلال لحركة الشمس المسخرة بدورها لله سبحانه. أفلا يدلنا ذلك على سجود الطبيعة لله.

[١٦] ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ ليس العجب في الظل بل في منشأ الظل، فكما قلنا: إن منشأ الظل هو دوران الأرض حول الشمس، إذن فالعجب كل العجب في هذين الخلقين السماوات والأرض، من ربهما ومسيرهما؟ بالطبع هو الله وحده.

﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إذا كان الله بهذه القوة والهيمنة، إذا فلماذا نتخذ غيره وليًّا لا يملك من هذه القوة والهيمنة شيئا، بل لا يملك قوة ذاته، ولا هيمنة على قواه.

﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ هذه الأصنام الحجرية أو البشر لا تملك النفع لنفسها، ولا دفع الضر عنها، فهل هي قادرة على إعطائك النفع أو دفع الضر عنك؟!.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ المشكلة ليست في الحقائق من حولك، إنما المشكلة في أعيننا، فالعين مدخولة، أما الحقائق فموجودة، والعمى والبصر الحقيقيان ليسا في العين، بل في القلب كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ الظلمات كما جاء في الخبر هي الكفر، والنور هو الإيمان ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يستطيع أي إنسان مهما كان أن يدعي أن هناك خالقا غير الله لهذا الكون، فإذا لم يعترف بالله مثلا فلن يقول: إن الكون خلق نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ قد يكون الواحد قهاراً وقد لا يكون، ولكن الله واحد وقهار.. ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ تدل على ذلك آياته، و﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ غالب على كل شيء بقدرته وإرادته وكل ما سواه مقهور له فوحدانيته مطلقه، أما عصيان البشر له فليس انحسارا لقهره، بل لأنه يمهل الكافرين ليزدادوا إثما مع إثمهم، وإنما عجلة الله وإنتقامه السريع هو الإنحسار الحقيقي لقهر الله فكما ورد في الدعاء: «إِنَّمَا يَعْجَلُ مَنْ يَخَافُ الفَوْتَ وَ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ»[1].

فأما الزبد فيذهب جفاء

[١٧] ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي أن الأودية تسيل بقدر قطر المطر، وهذه الآية تلمح إلى أن المطر له مقادير معينة يقدرها الله حسب طاعة أو معصية العباد، كما في قصة أصحاب الأحقاف (قوم هود) لما كفروا قطع الله عنهم المطر سبع سنوات، وبعد أن جاءهم أهلكهم، وقد قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠-١١].

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ يقال: حمل للحامل بإرادته أو كان راضيا، أما احتمل أي

(١) تهذيب الأحكام: ج١، ص٤٩٠.

حمل قسرا، كما يقال للضيف الثقيل:احتملتُ الضيف، أو كما يقال:احتمل الأذى، فالسيل يحتمل الزبد، وكأن الزبد غير مرغوب فيه، والزبد هو المخلفات والأوساخ يجرفها السيل معه، وقال صاحب المجمع: «الاحتمال رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له، ويقال: علا صوته على فلان فاحتمله ولم يغضب، والزبد وَضَر الغليان، وهو خبث الغليان، ومنه زبد القدر وزبد السيل»(١) ورابيا: مرتفعا يتزايد باستمرار تدفق السيول عليه.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ كما أن ما يجرفه السيل زبد، فكذلك المعادن التي تصهر بالنار لتصنع منها الحلي هي زبد أيضا، وهذه إشارة إلى أن صناعة الحلي تعتمد على الصهر بدرجات حرارية كبيرة، وسبب أن متع الحياة زبد أنها تشغل الانسان بالظاهر، وتدعه ينسى هدفية الحياة، ويتصور أن هدفية الحياة هو ما يحصل من هذه المتع.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ إذا فمتع الحياة مثل الزبد، وهذا هو الباطل، أما الحق فعادة ما يُغفل عنه، ذلك لأن الحق ليس الذي يستهويك، انما الحق هو الذي يكمن خلف المباهج، فلا تغرنك المباهج بل إبحث خلفها عن الحقيقة الناصعة.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي أن الزبد يتلاشى ويضيع هدرا، قال الراغب في مفرداته: «جفاء:و هو ما يرمي به الوادي أو القدر من الغثاء الى جوانبه، يقال: أجفأت القدر زبدها:ألقتـه إجفاء، وأجفأت الأرض:صارت كالجفاء في ذهاب خيرها»(٢).

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ إذا زال الزبد بقي الجوهر، والباطل لا يستطيع أن يغطي الحق أبد الابدين، فالباطل سريع الزوال، لأنه ضد الطبيعة، وهو لا يمتلك مؤهلات الوجود ليستمر.

[١٨] ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾
هذه العبرة من الأمثال: فالذين استجابوا لرسالة ربهم المتمثلة في المطر، وسالت أودية قلوبهم، وإستجابوا بالإيمان فان لهم الحسنى جنات تجري من تحتها الأنهار، والذين لم يستجيبوا لرسالة الله لو أن عندهم ما في الأرض ومثله معهم من الزبد لما منع عنهم سوء الحساب وجهنم. نعوذ بالله منها.

(١) راجع مجمع البيان: ج٦ ص٢٨.
(٢) مفردات الراغب القرآن: ص ١٩٧.

المؤمنون.. صفات وتقييم

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

ضمن سياق سورة الرعد التي تسوقنا إلى الإيمان بالله من خلال آياته، يذكرنا الرب بصفات المؤمنين السلوكية، وصفاتهم النفسية، ومن أبرز صفات المؤمنين الملتزمين:

الوفاء بعهد الله سبحانه الذي عاهد الله به الإنسان في عالم الذر، والانتماء الى جبهة الرسالة، ومعاداة غيرها، وخشية الله في كل حال، والخوف من سوء الحساب، والصبر عند الشدائد احتسابا لوجه الله، وإقامة الصلاة، والإنفاق في السر والعلن، والخلق الرفيع، ومواجهة الانحراف والفساد في المجتمع.

وأخيرا فمن تجسدت فيه هذه الصفات هل هناك جزاء له أحسن من الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، والملائكة يدخلون عليه من كل باب يرحبون به؟.

بينات من الآيات:

أولو الألباب

[١٩] ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾

هناك موقفان من القرآن:

الموقف الأول: هو الموقف المعترف بالحق الكامل المتجسد في القرآن.

الموقف الثاني: هو المتعامي عن القرآن الحق، فالقرآن حق به يبصر قوم ويعمى آخرون، والقرآن لا يتأثر بعمى قوم وإبصار آخرين، لأن القرآن حق ثابت، ونحن الذين نتطور بالقرآن، والسؤال من الذي يهديه الله الى القرآن؟.

الجواب: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ لماذا خص من يستفيد من القرآن بأصحاب العقول؟ لأنه لا يعرف القرآن ولا يستفيد منه إلا من نمى عقله وأخضع سلوكه لعقله، وتجاوز هواه وشهواته، وجدير بالقرآن أن يفهمه مثل هؤلاء الرجال وهم أولوا العقول.

ما هي صفات أولى الالباب واصحاب العقول الذين ضبطوا أنفسهم ضمن إطار العقل؟.

الصفة الأولى الوفاء بالعهد

[٢٠] ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ عهد الله على الانسان في عالم الذر عندما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الاعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

وجاء في القرآن قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠ - ٦١].

عهد الله هو طاعته وتجنب معصيته، فبعد الإلتزام بعهد الله سبحانه على الإنسان بالطاعة، تأتي بقية الصفات.

الصفة الثانية الالتزام بميثاق الله

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ الوثاق هو الرباط، والميثاق: عقد مؤكد بيمين أو عهد، وموثق الله هو ما أخذه على جميع البشر أن يعبدوه ويوحدوه، وقد جاء في الروايات إن موثق الله هو موالاة أوليائه، وقد أخذ الله على كل الناس موثقا فقد أخذ موثقا عاما كما قال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ٧].

وأخذ على بني اسرائيل موثقا آخر كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقد أخذ الله على النبيين ميثاقا أيضا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ولموثق الله معنيان:

أولاً: طاعة الله كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كما سبق.

ثانياً: تجنب معصية الله والافتراء عليه: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الاعراف: ١٦٩].

الصفة الثالثة صلة أهل البيت عليهم السلام

[٢١] ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ما أمر الله به أن يوصل هو الرحم، وقد جاء في الحديث عن زين العابدين عليه السلام أنه قال لإبنه الباقر عليه السلام: «إِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ وإِيَّاكَ ومُصَاحَبَةَ القَاطِعِ لِرَحِمِهِ فَإِنِّي وَجَدْتُهُ مَلْعُوناً فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]

وقَالَ فِي البَقَرَةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن

يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾» [البقرة: ٢٧][1].

وقد تظافرت النصوص بحيث لا تقبل الشك لكثرتها وتواترها لنؤكد على: أن ما أمر الله به أن يوصل هم أهل البيت، ولكن لا يعني أن الآيات لا تنطبق على كل رحم كما جاء في الحديث عن عمر بن يزيد قال:قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ فقال: «نَزَلَتْ فِي رَحِمِ آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وآلِهِ السَّلَامُ وقَدْ تَكُونُ فِي قَرَابَتِكَ ثُمَّ قَالَ: فَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ يَقُولُ لِلشَّيْءِ إِنَّهُ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ»[2].

الصفة الرابعة خشية الله

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خشية الله هي الضمان الحقيقي من الانحراف كما قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]. والخشية من الله هي الخوف من أن يصب علينا عذابه، ويأخذنا على حين غرة، وقبل أن نبادر بالأعمال.

الصفة الخامسة الخوف من سوء الحساب

﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ يبدو أن الفرق بين الخشية والخوف، أن الخوف أقل من الخشية كما قال العلامة الطباطبائي: «والظاهر أن الفرق بين الخشية والخوف، أن الخشية تأثر القلب من إقبال الشر أو ما في حكمه، والخوف هو التأثر عملا بمعنى الإقدام على تهيئة ما يتقى به المحذور وإن لم يتأثر به القلب، ولذا قال سبحانه في أنبيائه: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. فنفى عنهم الخشية عن غيره، وقد أثبت الخوف لهم عن غيره في مواضع من كلامه كقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧]. وقوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]»[3].

وسوء الحساب هو:أن لا تقبل حسناتهم، بل يؤخذون بسيئاتهم، وقد جاء في معنى سوء الحساب أنه: هو الاستقصاء والمداقة، وسمي سوء الحساب لهوله وشدته كما جاء في الحديث: «فَإِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أُنْصِبُهُ لِلْحِسَابِ إِلَّا هَلَكَ»[4].

إن المؤمن يخاف من احصاء سيئاته فلا تغفر، وأن تُعد حسناته فلا تقبل.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣٧٦.
(٢) الكافي: ج٢ ص١٥٦.
(٣) تفسير الميزان: ج١١ ص٣٤٣.
(٤) الكافي: ج٢ ص٣١٤.

الصفة السادسة الصبر

[٢٢] ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فإذا أنت أوكلت أمرك لله سبحانه فستجد أن الله يعينك على ما صبرت عليه، وما أجمل الصبر إذا كان الله وراءه، ولكن لماذا الصبر ابتغاء وجه الله؟.

لأن الله سبحانه هو الذي يبتلي الإنسان. إما ليختبره كما قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. أو يبتليهم بما كسبت أيديهم لينقيهم ويصفيهم من الذنوب، فإذا صبرت واحتسبت فأجرك على الله، فهذا يدل على صدق الإيمان، كما يدل على رضى الإنسان بقضاء الله وقدره.

الصفة السابعة إقامة الصلاة

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ القيام بالصلاة غير إداء الصلاة، وإقامة الصلاة مشروطة بالعزم والاهتمام بسائر شروط ومواصفات الصلاة.

الصفة الثامنة الإنفاق

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الإنفاق بالسر ضد الرياء، والإنفاق في العلن تحد لمن لا يريد منك الإنفاق، أو تشجيعٌ للإنفاق.

الصفة التاسعة الخلق الرفيع

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ معاملتهم مع الناس ليس معاملة البغض والعداوة، بل معاملة العطاء، فهم لا يُصعِّدون الصراع مع الناس، بل يحاولون احتواء البغضاء بالحلول الهادئة، والدرء هو التحصين أي يتحصنون بالحسنة من مضاعفات السيئة وهذا معنى آخر تحمله الآية، وقد ورد في الحديث: إن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر الغفاري: «**وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً تَمْحُوهَا**»[1].

ومثلها ما جاء في وصية عنه ﷺ للإمام علي عليه السلام: «**إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا بِحَسَنَةٍ تَمْحُهَا سَرِيعا..**»[2].

(١) وسائل الشيعة: ج١٦ ص١٠٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٣٥٧.

لهم عقبى الدار

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ ما هي عقبى الدار؟.

[٢٣-٢٤] ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ إيمانهم يتعدى حدود إنقاذهم لأنفسهم وحدهم إلى الآباء والأزواج والأبناء، فإيمان المرء نجاة لذويه، وهذا أفضل جزاء لهم، فمع فرحهم بالجنة تقر أعينهم برؤية ذويهم يلتحقون بهم.

وقد ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لَا تَسْتَخِفُّوا بِفُقَرَاءِ شِيعَةِ عَلِيٍّ عليه السلام فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يُشَفَّعُ فِي مِثْلِ رَبِيعَةَ ومُضَرَ**»[1].

هذا من أفضل الجزاء الذي ساقه الله للصابرين على البأساء والضراء، والصابرين على الطاعة لوجه الله، والصابرين عن ممارسة الباطل.

(١) مستدرك الوسائل: ج٩ ص١٠٦.

الكافرون.. صفات وتقييم

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ [1] (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)﴾.

هدى من الآيات:

حدثنا الدرس السابق في سورة الرعد عن صفات المؤمنين، أما في هذا الدرس فيحدثنا عن نقيضهم (الكفار)، وصفاتهم بعكس صفات المؤمنين.

عندما يسود المجتمع.. أي مجتمع ثقة متبادلة بين أبنائه فان تفاعل هذا المجتمع مع بعضه يجري كمجرى الدم في العروق السليمة، وكلما ازداد التفاعل والتكامل بين أعضاء المجتمع كلما كان أقرب الى الحضارة، والحضارة هي:حضور الإنسان عند الإنسان، وسيادة العدالة والثقة المتبادلة، أما إذا انعدمت هذه الشروط في الحضارة فانها ستضمحل ويحل محلها التخلف حتى وإن ظهرت على السطح صور حضارية، فليست الحضارة هي التقدم التكنولوجي، ولكن الحضارة ما سبق ذكره.

وكلما كانت الصلة بين ابناء المجتمع أمتن، كلما كانت رحمة الله اليهم أقرب. وأما إذا

(١) أناب: الإنابة الرجوع إلى الحق بالتوبة.

قطعوا الصلة التي أمر الله بها، فإن لعنة الله المتمثلة في الحرمان والعذاب تنزل بهم. ولهم سوء الدار.

والرزق من الله. كما أن منعه بيد الله، وأكبر من رزق الدنيا، هو نعيم الآخرة بينما الكفار يفرحون بها في الدنيا وما في الدنيا غير متاع.

ويطالب الكفار أبدا بآية، وكأن النقص في الآيات. كلا. إنما النقص في أنفسهم إذ الله يضل من يشاء، بسبب سوء اختياره ويهدي إليه من أناب إليه.

ومن هم المنيبون؟ إنهم المؤمنون حقا، وهم الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله. بلى إن ذكر الله فعلا يعطي سكينة النفس واطمئنان القلب.

إن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم حياة طيبة في الدنيا، ولهم حسن مآب في الآخرة.

بينات من الآيات:

صفات الكفار

١ - نقض العهد:

[٢٥] ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من أبرز صفات الكفار نقض عهد الله، ومن ينقض عهد الله فهو لا يحترم نفسه، ومن لا يحترم نفسه لا يحترم الآخرين، وأخيرا فهو يتحدى الله ويخالف أمره، وعندما ينقض الانسان عهده فإن ذلك لا يجعل حياته مرسومة ضمن خطة بعيدة المدى، بل تكون أعماله مجرد ردود أفعال لا أكثر، أو بمعنى آخر انعكاس لظروف متغيرة، والعهد عهدان:

١ - عهد مع الله، أخذه الله على الانسان في عالم الذر،

٢ - عهد مع الآخرين أشهد الله عليه، فنقضك عهدك مع الله كفر، ونقضك عهدك مع الناس لؤم.

٢ - قطع الرحم:

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يقطعون أرحامهم أو رحم أهل بيت الوحي كما سبق ذكره.

٣- الفساد في الأرض:

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بنشر الفساد، وهناك معنى آخر نستوحيه: إنهم يفسدون بيئة الأرض، وهذه حالة الكفار فهم ينتقمون من الطبيعة، وما الأسلحة الاستراتيجية والجرثومية إلا دليل على نشر الدمار كما إن تلويث البيئة الطبيعية دليل نشر الفساد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ اللعنة الطرد والإبعاد عن رحمة الله في الدنيا ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ بالإضافة إلى طردهم من رحمة الله في الدنيا، إذ يعيشون القلق، فلهم سوء الدار.

ملاحظتان:

الملاحظة الأولى: إن الصفات الحسنة كما الصفات السيئة أخوات، فالصفة الحسنة تجر وراءها صفات أخرى حسنة مثلها، كما قال الإمام علي عليه السلام: **«إِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ خَلَّةٌ رَائِقَةٌ فَانْتَظِرُوا أَخَوَاتِهَا»**(1).

وهكذا الصفات السيئة. أما لماذا ذلك؟ فلأن الصفة الحسنة مصدرها نفسية حسنة وهذه النفسية الحسنة تعطي بدورها صفات حسنة أخرى، والعكس صحيح، فلذلك فإن الله يسوق الصفات الحسنة مع بعضها، والصفات السيئة مع بعضها.

الملاحظة الثانية: إن للإنسان أربع علاقات:

١- علاقته مع ربه.

٢- علاقته مع نفسه.

٣- علاقته مع الناس.

٤- علاقته مع الطبيعة.

وعلاقة الكافر بهذه الأصناف مقطوعة أو هي علاقات سلبية، فعلاقته مع ربه مقطوعة، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧]. وعلاقته مع نفسه مقطوعة إذ أنه لا يحترمها، وعلاقته مع الناس كذلك كما قال سبحانه: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]، وعلاقته مع الطبيعة سلبية كما قال: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧].

---

(1) نهج البلاغة: حكمة: ٤٤٥.

وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع

[٢٦] ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إن الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده برحمته ويضيق عمن يشاء بحكمته.

وقد يشاء الإنسان الدنيا فيبسط الله الرزق له، كما قال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقد يبسط الله الرزق للإنسان بعد ابتلائه ليأخذه على حين غرة كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الانعام: ٤٢-٤٤].

أما نعم الله على الانسان فبالإضافة الى ما سبق ربما تكون عذابا كما جاء في الحديث النبوي: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»[1].

وربما يكون إمتحانا. وأخيرا إذا قتر عليك الرزق فلا تيأس من روح الله، كما لا تعجب بما أتاك الله فقد يسلبه منك.

وإن من حكمة الله سبحانه أيضا أنه يهيء الدنيا للكافر ليلهو عن الحق، ويبتعد عن الرسالة، وكما جاء في وصية النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَ جَنَّةُ الكَافِرِ»[2].

﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الفرح هو حالة الإشباع النفسي، مثل الطفل تشبع نفسه بمجرد حصوله على لعبة يريدها فبعض الناس تكون نفوسهم ضيقة تشبع بمجرد أن تواتيها الدنيا، فالإنسان الذي تشبع نفسه يغفل عن مسؤوليته، ولا يجد للالتزام داعيا.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ المتاع هي الكماليات مما ليس ضروريا، حيث يمكن الاستغناء عنها أو الاستعاضة بغيرها إذا اهترأت.. بل إن الحياة مزرعة الآخرة، هنا عمل بلا حساب، وهناك حساب بلا عمل.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٥، ص١٧٨.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٦، ص١٧.

كيف يطمئن القلب

[٢٧] ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ الإنسان الذي يريد النظر يكفيه البصيص من النور، أما الذي لا يريد أن يبصر فضوء الشمس لا يكفيه ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ يريد الإنسان الهداية فيهديه الله، ويريد الضلالة فيمد الله له في ضلالته وهذا واضح من الاسم الموصول من الذي يطلق للعاقل.

[٢٨] ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الاطمئنان: السكون والاستقرار. والقلب المطمئن هو نفسه النفس المطمئنة كما قال سبحانه في آخر سورة الفجر: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩) وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٦-٣٠]. وذكر الله هو مطلق توجه الإنسان لله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ في زحمة الحياة ومع تراكم الأعمال، ومع جو الإرهاق والعمل، واثناء القلق النفسي الذي يعصف بالكثيرين تركن النفس وتطمئن لذكر الله، وحري بنا أن نعالج مشاكلنا النفسية بذكر الله لأنه أنجع علاج يمكن أن يستفيد منه الإنسان وخاصة في هذا الزمن، زمن التيارات والصراعات التي يغذيها الاستعمار شرقه وغربه.

[٢٩] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ في الدرس السابق بعد ذكر صفات المؤمنين ذكر مصيرهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٤]. أما الآن فيذكر مصيرهم بأن لهم طوبى وحسن مآب. ولعل المراد من الطوبى الحياة الأعظم طيباً. وهذا يدلل لنا بأن للمؤمنين في الجنة في كل يوم صنف جديد من النعيم، فلا هم يملون، ولا الله يقتر عليهم.

لله الأمر جميعا

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ [1] (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ [2] بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ [3] بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ [4] لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥)﴾.

---

(١) متاب: المتاب التوبة.

(٢) سيرت: التسيير تصيير الشيء بحيث يسير.

(٣) قطعت: التقطيع تكثير القطع، والقطع تفصيل المتصل.

(٤) فأمليت: الإملاء التأخير.

هدى من الآيات:

ضمن آيات هذا الدرس يذكرنا القرآن الحكيم بأن الهدى والضلالة من عنده إذا أرادها الإنسان لنفسه، وأن الرسالة المحمدية هي امتداد طبيعي لرسالات الأنبياء السابقين ومكملة لها ومهيمنة عليها جميعا، وأن سنن الله واحدة تطبق على سائر الأمم في سائر الأجيال، فكما انطبقت على تلك الأمم هذه السنن كذلك تنطبق على هذه الأمة.

ويذكرنا السياق بأن أساس كفر الكفار ليس برسالة الرسول، بل بالرحمن، ثم بما يتفرع منه من رسالات الرحمن، فعلى الرسول أن يتوكل على الله لو كذبوه، ولو أن الله استجاب لهم بطلبهم المزيد من الآيات لما زادهم ذلك إلا عنادا واستكبارا، ثم هل هناك آية أكبر من هذا القرآن الذي لو كان من المقدر أن يُسيِّر الجبال ويُكلِّم الموتى لكان به وأكبر دليل على ذلك إن كثيرا من القوارع نزلت على من قبلهم أو قريبا منهم فلم يتعظوا، ولو أنهم يريدون الهداية بالآيات لاهتدوا بتلك القوارع واتعظوا بها، فهذه الأمم أعطيت مهلة كما أعطوا هم مثلها، فعاجلهم الله بالعقاب لما اختاروا الكفر على الإيمان.

وبعد ذلك يسأل: هل إن الله هو القائم على كل نفس بما كسبت من خير أو شر أم الشركاء؟! وهل الشركاء هم الذين ينبؤون الله ويوحون إليه؟!.

إن مكرهم السيئات، وتزيين ذلك في نفوسهم، والصد عن سبيل الله كان السبب الرئيسي في إضلال الله لهم، ومن يُضلل الله فلن تجد له هاديا مرشدا، وأما نهاية هؤلاء فاما عذاب الدنيا والآخرة، أو عذاب في الآخرة، وأما نهاية المؤمنين فأحسن منهم مقاما وأفضل نديا.

بينات من الآيات:

وهم يكفرون بالرحمن

[٣٠] ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ إن الله أرسل الرسول إلى أمة سبقتها أمم جرت عليها السنن الإلهية كما ستجري على أمة الرسول ﷺ أيضا، وهذه الآية توضح الامتداد الطبيعي للبشرية، وأن في البشرية خطا متكاملا، وإن الأمم مهما اختلف زمانها ومكانها عن أمة الرسول فهناك جامع مشترك بين سائر الأمم، وهي كما سبق ذكره محكومة بسنن واحدة تجري على الكل.

﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الهدف من رسالة الرسول أن يكون معبرا عن

حقيقة الرسالة، وأن الرسول مهما تحمل من الجهد فهو مجرد تال لما نزل عليه، أي أن الرسول ليس صانعا للوحي، وإنما يؤدي دور المرآة إذ يعكس الرسالة إلى أمته.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ جذر كفرهم إنما هو بالرحمن وليس بك، وقد جاء في الدر المنثور عن ابن جريج في قوله: «﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ قال: لما كاتب الرسول ﷺ قريشا في الحديبية كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم..» قالوا: لا نكتب الرحمن، وما ندري ما الرحمن؟! وما نكتب الا باسمك اللهم!، فأنزل الله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾»[1].

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا هو الرحمن الذي يكفرون به، لا إله غيره، رب الأرباب، لا ند له ولا نظير ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في دعوتي إليكم مع تكذيبكم بي. ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ إليه بخوعي وإنابتي.

حقيقة القرآن

[٣١] ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ لما واجههم الرسول بعد طلبهم الآيات بالقرآن، وأكد على أنه المعجزة الكبرى تعللوا بأن هذا القرآن المعجزة لو سيرت به الجبال من حولنا (حول مكة) حتى نستطيع أن نزرع، أو قطعت به الأرض كما كان سليمان يرسل الرياح فيقطع بها الارض، أو كلم به الموتى، كما كان موسى وعيسى لكانوا يؤمنون به، ولكن لو أنزل الله مثل هذه الآيات، اكانوا يؤمنون بها؟! ولكن قصدهم التعجيز وتحدي الرسالة، فلن يرسل الله مثل هذه الآيات، وهذا القرآن له القدرة على هذه الأشياء لو عرف الإنسان كيف يستغله، وقد قال الله سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ إن الله يستطيع أن ينزل هذا القرآن، وقد أنزله فعلا.

جواب ﴿وَلَوْ﴾ في الآية ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ﴾ محذوف وتقديره أحد هذين المعنيين:

أولاً: لما أفادهم.

ثانياً: لكان هذا القرآن.

وحسب نظري إن كلا الجوابين صحيحان، فلو كان القرآن كذلك لم ينفعهم كون القرآن تسير به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى، وثانيا: إن القرآن كذلك، وقد استطاع (كما أسلفنا) المؤمنون حقا الذين استوعبوا حقائق القرآن أن يستفيدوا منه هذه الفوائد.

---

(١) الدر المنثور: ج٤ ص٦٢.

اليأس من الإصلاح

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ منع الله الآيات عنهم ليس سببا لضلالتهم، بل لأن الله لم يهدهم، فإن الله لا يهدي إلا من ينيب.

واليأس هنا له معاني، فمن معانيه العلم، أي (أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً)، وهي: «لغة هوازن»[1]، وقال بعضهم: «إن اليأس معناه القنوط»[2] وشُرِبَ معنى العلم فيكون المعنى: «افلم يعلم الذين آمنوا ان الله لم يشأ هدايتهم ولو يشاء لهدى الناس جميعا»، وقال بعضهم: «إن هناك باء محذوفة في (أن) و(اليأس) على معناه المعروف، فيكون تقدير الكلام: «أفلم ييأس الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً».

وفي الحقيقة فإن هناك جامعا مشتركا لهذه الحقائق الثلاث، فمن جهة يجب أن ييأسوا من اهتداء هؤلاء، ويعلموا بأن هؤلاء لن يهتدوا، وبالتالي يجب أن يعلموا بأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعا، فالمعنى واحد.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ تفيد الاستمرارية، وربما تعبر هذه الكلمة عن أمرين:

أولاً: تضمين معنى السنة الدائمة.

ثانياً: إن الإنسان هو الذي يصنع مصيره بنفسه، فالعذاب هو نتيجة ما اقترفت اليدان من الذنوب، والقارعة هي الكارثة.

فهذه الكوارث الإلهية تصب ولا تزال تصب على رؤوس الكافرين ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾. فمكة مثلاً لم تكن تصاب بالحروب أو بالزلازل، بل تنزل هذه المصائب فيما حولها، ولكن لم يتعظ الكافرون.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ هذه القوارع ما هي إلا إرهاصات يصبها الله عاجلا على الكافرين، أما القارعة الحقيقية فهي في الآخرة: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١-٥].

---

(١) تفسير الثعالبي: ج٣ ص٣٧٠، التبيان: ج٦ ص٢٥٤.

(٢) التبيان: ج٦ ص٢٥٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ إن الله لن يخلف موعده مع الكفار بأن يأخذهم في ذلك اليوم حيث لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

فأمليتُ للذين كفروا

[٣٢] يسترسل القرآن في الفكرة التي بدأها في بداية هذا الدرس بتكذيب الأمم رسلها، وأن موقف الأمم عبرة لمن ألقى السمع، وموقف الرسل عبرة للرسول، فيقول الله سبحانه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.

كما أن إرسال الرسل سنة، فكذلك تكذيب الأمم سنة أيضا، وليس التكذيب هو الأسلوب الوحيد للمواجهة، بل هناك أسلوب آخر يعتمده الكفار ضد الرسل وهو أشد أثرا بنفسية الرسل إلا وهو أسلوب الاستهزاء، وأسلوب الاستهزاء مجموع نوعين من أساليب الكفار، فلا يكون الاستهزاء إلا بالتكذيب، ومن ثم بالسخرية والاستخفاف، وهناك في زماننا الكثير ممن تركوا رسالتهم لأن الناس واجهوهم.

والإمهال والإملاء هو من حكمة الله الماضية على عبيده العاصين.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ ومَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ومَفْتُونٍ بِحُسْنِ القَوْلِ فِيهِ ومَا ابْتَلَى اللهُ أَحَداً بِمِثْلِ الإِمْلَاءِ لَهُ**»[1].

وقد قال الله ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الاعراف: ١٨٣].

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي كيف كان عقابي لهم؟! وهذا تعبير عن الشدة في الأخذ، وهذه النتيجة السيئة لمن يكذب بالرسل ويستصغر شأنهم.

[٣٣] ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ ﴾ القائم على كل نفس: الحافظ لها، وقيل معناه:إنه قائم على كل نفس بالرزق، وربما ما بعدها يحددها.

﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ بما عملت، فحكم نفسك ليس بيدك، ولا تستطيع نفسك أن تفلت من زمام التقدير، فإن الله لو تركها لحظة لانتهت، ولما بقي لها من الوجود شيء، والله لا يعصى عن غلبة، وأنت إن أعطيت التخيير في الطاعة أو المعصية، فأنت مسير من قبل الله، وأكبر دليل على ذلك روحك وقلبك وسائر اعضاء جسمك التي تعمل ولوحدها ولا تدخل لك في إيقافها أو عملها.

---

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٦٠.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أبعد أن أراهم الله الآيات في القيمومة على انفسهم يشركون بالله سبحانه؟! وكيف يشركون به وقد أراهم من عظيم الخلقة، ودقيق الصنعة.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي اذكروهم، ولعل ذكر الاسم هنا ليس ذكر الاسم الذي يتسمون به، بل يعني اذكروا صفاتهم، ومعلوم إن كل شيء يعكس إسما من أسماء الله. فالسماء تجل لاسم العلو والعظمة، والشمس تجل لاسم الحكمة والقدرة، فقد يكون قصد الله: اخبروني عن تجليات أسمائهم في مصنوعاتهم.

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بما لا يعلم له من شركاء، وعدم العلم هنا ليس معناه ان الله غير عالم، بل عالم ولكن لا يعلم أن له شريكا، فليس له شريكا أبدا.

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ الشركاء هي مجرد الفاظ تسمى من غير واقع، فكلمة جلالة الملك ليس معنى ذلك إن الملك صار جليلا، بل رضاه بهذا الاسم يعكس ذلته.

تغيير المقاييس الفطرية

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ المكر هنا اقتراف العمل السيء والمكر هو الفساد، قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ [الانعام: ١٢٣].

ولكن من الذي زين المكر لهم؟.

إن الشيطان هو الذي يزين لهم مكرهم كما قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الانعام: ٤٣]. وفي آية أخرى ينسب الله لنفسه التزيين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤]. ولا منافاة فعندما يغضب الله على إنسان يكله إلى الشيطان أو إلى قرناء السوء فيكون تزيين الله لهم بأن يجعل لهم مزينين كما قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

إذن فليحذر الإنسان أن يزين له سوء عمله فيراه حسنا، وعندما يخضع للمزينين كالطواغيت مثلا فإن مقاييسه الفطرية تتبدل وتصبح مقاييس عكسية فالسوء عنده حسن، والحسن عنده سيء.

﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ليسوا هم الذين صدوا أنفسهم عن السبيل، كما أنهم ليسوا هم الذين زينوا لأنفسهم المكر إنما الشيطان ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

ابتلوا هؤلاء بثلاث:

١- زين لهم مكرهم.

٢- صدوا عن السبيل.

٣- اضلال الله لهم.

نهايتان

[٣٤] ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ على الإنسان أن يستدل بعذاب الدنيا على عذاب الآخرة مع ضرب هذا الرقم بالملايين، وأن عذاب الدنيا يختلف شكلا عن عذاب الآخرة، فقد يكون عذابهم في الدنيا نفسيا أو عذابا جسديا، وقد يكون كلاهما.

[٣٥] ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ هذه صفتها.. ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ أهل الجنة يأكلون أبدا، ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ هذه نتيجة تقواهم ﴿وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ هذه معادلة، فالكفر والتقوى يساويان تماما النار والجنة.

حكما عربيا

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

مواقف الناس من الكتاب ثلاثة. فأما مؤمن به كله، أو مؤمن به في حدود مصلحته، أو كافر به، وبمناسبة الحديث عن أصناف الناس واتجاهاتهم من الكتاب يحدثنا الله عن: أن القرآن عربي، وعروبة القرآن ليست تعصبا تعصباً همجاً عنصريًا للعربية، فالقرآن عربي إلا أنه يخالف كل السخافات العربية، والقرآن أيضا لا يتنازل عن قيمه مجاراة للثقافة العربية الشائعة آنذاك.

بينات من الآيات:

الايمان المصلحي

سبق الحديث في الدرس السابق، إن سبب الكفر بالرسالة هو الكفر بالرحمن، فيعني ذلك أن المؤمنين الصادقين بالقرآن يؤمنون بالرحمن وبالتالي فهم يطبقونه لأنه يجسد إرادة الله وهداه.

[٣٦] ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ تجسد هذه الآية الحالة

النفسية التي تعتري المؤمنين من أهل الكتاب لدى نزول القرآن، لأن نزول القرآن انتصار لهم، وتجسيد لإرادتهم، ويقول الله عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ والأحزاب هم اليهود والمشركون ممن تحزبوا على رسول الله ﷺ وقد قال الله سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

الأحزاب هو جمع حزب، ولا يسمي الله المؤمنين مهما كانوا أو اختلفوا إلا حزباً واحداً لأنهم تجمعهم الأهداف والمنطلقات فهم متحدون في كل شيء، أما الأحزاب (الجمع) فتطلق للأحزاب التي تعادي الرسالة التي تختلف فيما بينها في كل شيء إلا معاداة الرسالة، وعندما يقول الله: ﴿إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة: ١٩]، فقد ذكر الله الصفة البارزة التي تجمع أحزاب الشيطان بأنها على اختلاف مشاربها تتفق على قاسم مشترك وهو اتباع الشيطان، مثل الشرق والغرب يختلفون في كل شيء إلا في استغلال العالم ونهب ثرواته.

هذه الأحزاب تحاول احتواء الرسالة، تفضل الحل الوسط بعد معرفتها بصدق الرسالة، وهي تأخذ من القرآن ما يحفظ لها مصالحها، ويدعم امتيازاتهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ إنما يؤمن بالكتاب حقا من يؤمن بالله، فهناك تلازم بين الإيمان بالكتاب والإيمان بالتوحيد.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ إليه دعوتي إن ضاقت بي المسالك، وإليه مآبي ورجوعي في جميع أموري ومعادي.

الحقائق القرآنية في مواجهة الأهواء

[٣٧] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ الحكم هو القضاء، والعربي: بمعنى الإعراب، والإعراب هو الإفصاح، وليس معنى قولنا: إن القرآن عربي أنه يوافق العرب الجاهليين في اعتقاداتهم.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ اللغة عربية ولكن المحتوى إلهي، والعربية لغة وليست مشرعة، أما التشريع الإلهي فهو علم، والعلم هو معرفة الحقائق وكشفها، والأهواء شهوة عاجلة.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ الله ولي الذين آمنوا كما قال وأن الكافرين لا مولى لهم، فلئن اتبع الرسول أهواء قومه سيفقد ولاية الله ومن ثم لا ينصره، وعندما يتخلى الرسول عن العلم إلى الهوى. آنئذ يعذبه الله ولا يجد له من دونه واقيا، فإذا خالفك الناس سينصرك الله، وإذا خالفت الله متبعا أهواء الناس سيخذلك الله ولا تجد من دونه نصيرا.

حياة الرسل وقدراتهم

[٣٨] ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ إن الأنبياء بشر، تطرأ عليهم نفس العوامل التي تطرأ على البشر، فهم يتزوجون وينجبون، فليس الأنبياء ممن يتعالون على جنسهم.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ إن الرسول لا يملك بذاته أمر الآيات، بل إن الله يظهرها متى شاء على يد نبيه من دون أن يؤثر فيها ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ كل شيء محدود بأجل.

يمحو الله ما يشاء

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ (١) لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس الأخير من سورة الرعد يذكرنا السياق القرآني بأن الأمور بيد الله وإن إرادته مطلقة تتجاوز التقدير والسنن وإنه يمحو ما يشاء ويثبت، وثانيا: إنه ليس على الرسول إلا البلاغ وإن على الله الحساب، فإن شاء نزل العذاب على أولئك الكافرين وإن شاء أخره.

الله مهيمن على الكون فهو الذي ينقص الأرض من أطرافها، وحكمه حكم حتم لا ينقضه أحد، وهو سريع الحساب، وإن الله لم يعص عن غلبة، والذين مكروا السيئات يمكر الله بهم وهو خير الماكرين، وغدا حين ينحشر الكفار سيعلمون لمن عقبى الدار، أما الذين يقولون بأن الرسول ليس مرسلا فإن الله يرد عليهم عن لسان نبيه ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

---

(١) معقّب: التعقيب رد الشيء بعد فصله، ومنه عقب العقاب على صيده إذا رد الكرور عليه بعد فصله عنه.

بينات من الآيات:

[٣٩] جوهر رسالات الله يتلخص في ربوبية الله، وهذه السورة تعمق هذه الفكرة، وهذه الفكرة تشكل الفرق بين رسل الله وفلاسفة البشر، فرسل الله بشروا بهذه الفكرة، أما ما توصل إليه عقل هذا الإنسان العاجز، إن لهذا الكون خالقا خلقه ثم تركه يسير بالسنن، كمن يخلق ساعة الكترونية ويتركها تسير ضمن قوانين محددة، وقد صاغ أحد فلاسفة البشر الملحدين هذه الفكرة!!.

وعموما فإن فلاسفة البشر ينبؤننا عن إله ميت لا ولاية له ولا دعوة، بينما رسالات الله تنبؤنا عن إله حي قديم لم يزل ولا يزال، وتوجد هناك صلتان نستطيع أن نتصل مع الله بهما.

أولاً: الدعاء

باستطاعتك أن تتصل بالله عبر الدعاء، وإن باستطاعتك أن تغير ما كتب عليك بسببه، فبالدعاء أنت قادر على تغيير الطبيعة، وتغيير القضاء المحتوم عليك.

ثانياً: صلة العمل الصالح

فلسفة البشر تقول إن الله قد كتب على الكون مقدراته، وإنه لا ينفع شيء أمام هذا التقدير، وهذه فلسفة القدرية الذين آمنوا بالحتميات، فصار عندهم كل شيء محتوم.. إذا عملك الصالح لن ينفع أمام التقدير المحتم، أما نحن فلا نؤمن بالحتميات (السياسية والاقتصادية والثقافية والتربوية) نرى أن من الممكن تغيير كل حتمية، فصحيح أن هناك قوانين وسننا، ولكن الانسان يعلو بإيمانه وعمله الصالح على هذه الأنظمة والسنن إن الله اكبر من القوانين والسنن أنه هو صاحب المشيئة المطلقة، ولا شيء محتم عليه، فهو يمحو ما يشاء ويثبت، والإنسان الذي يتصل بالله يتصل بهذه المشيئة المطلقة التي لا حتمية عندها، أما إذا قلنا بأن القلم قد جف، وأن الأجل قد انتهى وأن القدر قد كتب في الكتاب إذن فلا معنى للدعاء والعمل الصالح. قال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

إذا كنت في قائمة الأشقياء فباستطاعتك أن تكون من السعداء إذا اتصل قلبك بالله ذي الطول، قال الله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] . وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فهو الذي أمرنا بالدعاء وضمن لنا الإجابة.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الكتاب لفظ يؤدي إلى معنيين: المعنى الأول: هو اللوح المحفوظ، والمعنى الثاني:هو الكتاب، فأم الكتاب انعكاس لعلم الله بما كان وبما يكون، فالله عالم محيط علما بكل شيء، قبل وبعد أن يكون، وعلم الله ليس علم الكشف، بل إنه يتعدى إلى المسببات والمؤثرات، لأنه صانعها، فعلم الله بالمسبب لا ينفي علمه بالسبب فأنا أعلم أن الصخرة تسقط من علٍ، فعلمي بالسقوط يسمى كشفا، ولكن لا يعني ذلك أني أنا المؤثر في السقوط، فالمؤثر في السقوط هي الجاذبية.

تكشف هذه الآية فكرة البداء، وتعتبر هذه الفكرة قطب الرحى في الحكمة الاسلامية وهي أكثر الأفكار تقدمية وحضارية، وأكثر الافكار تربية للبشر، فالذي يعلم أن الأقدار بيد الله يكون أكثر تحركا، جاء في الأحاديث:

١- عن ابن مردوية وابن عساكرعن علي بن ابي طالب عليه السلام أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الآية، فقال له: «**لَأُقِرَّنَّ عَيْنَيْكَ فِي تَفْسِيرِهَا وَلَأُقِرَّنَّ عَيْنَ أُمَّتِي بَعْدِي بِتَفْسِيرِهَا: الصَّدَقَةُ عَلَى وَجْهِهَا وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَاصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ يُحَوِّلُ الشَّقَاءَ سَعَادَةً وَيَزِيْدُ فِي الْعُمْرِ وَيَقِي مَصَارِعَ السُّوْءِ**»[١].

٢- في قول الله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ﴾ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**وَهَلْ يُمْحَى إِلَّا مَا كَانَ ثَابِتاً وَهَلْ يُثْبَتُ إِلَّا مَا لَمْ يَكُنْ**»[٢].

من هذا الحديث نرى أنه لا حتمية في الحياة، وأن الحياة في حالة تطور، وهي ليست جامدة قائمة على نظم لا تتغير.. كلا.

٣- عن ابي جعفر الباقر عن فضيل بن يسار، قال:سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «**مِنَ الْأُمُورِ أُمُورٌ مَحْتُومَةٌ جَائِيَةٌ لَا مَحَالَةَ، وَمِنَ الْأُمُورِ أُمُورٌ مَوْقُوفَةٌ عِنْدَ اللهِ يُقَدِّمُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَمْحُو مِنْهَا مَا يَشَاءُ، يُثْبِتُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ، لَمْ يُطْلِعْ عَلَى ذَلِكَ أَحَداً يَعْنِي الْمَوْقُوفَةَ، فَأَمَّا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فَهِيَ كَائِنَةٌ لَا يُكَذِّبُ نَفْسَهُ وَ لَا نَبِيَّهُ وَ لَا مَلَائِكَتَه**»[٣].

٤- عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: «**لَوْ لَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللهِ لَأَخْبَرْتُكُمْ بِمَا كَانَ وَ بِمَا يَكُونُ وَ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ هِيَ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَمۡحُواْ**

(١) تفسير الدر المنثور: ج٤ ص٦٦.
(٢) الكافي: ج١ ص١٤٦.
(٣) تفسير العياشي: ج٢ ص٢١٧، بحار الأنوار: ج٤ ص١١٩.

اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[(١)].

[٤٠] ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ من العذاب في حياتك أو بعد موتك، وعلى ذلك فليحذر الكافرون وأعداء الرسالة أن يصيبهم الله بعذاب من عنده إن هم تمادوا في غيهم، فأما يدركهم سراعا فينتقم الله لرسوله، أو يؤخرهم فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ لا يد للرسول على قومه سوى تبليغ رسالة الله، وعلى الله الحساب في أن يأخذهم متى شاء، ولا يعني ذلك أنه لا يستطيع ان يدعو عليهم بالعذاب، أو أن الله لا يستجيب له، وأن الله إذا أراد أن يصب العذاب على قوم فلن يستطيع الأنبياء رده، كما لم يستطع نوح أن يرد العذاب عن ابنه.

[٤١] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فقد يكون نقص الارض من اطرافها باهلاك البشر المكذبين كما قال تعالى﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الانبياء: ٤٤]. وقد يكون بذهاب العلماء فإذا نقصوا أو قلوا رزأت الرحمة (أي ولت) عنهم، فالعلماء هم بمثابة الجبال الراسيات في الأرض.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ إن الله هو الحاكم الفعلي في الحياة، وإذا أراد شيئا، فلن يتوانى ذلك الشيء عن الاستجابة له، وإذا حكم بشيء، فلن يستطيع أحد أن يغير حكمه سبحانه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

[٤٢] ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ قد يحسب الإنسان أنه قادر على شيء، فيجيبه الله: إن كنت تحاول المكر فأنا أشد منك مكرا لأن مكري الإملاء والإمهال.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير أو شر. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ سيعلمون حين لا ينفع العلم إن المؤمنين هم أصحاب الجنة.

كفى بالله شهيدا

[٤٣] ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يلخص الله مواقف الكفار من الرسالة، وما يجب أن يكون عليه موقف الرسول، فالكفار يتهمون الرسول بأنه غير مرسل من

(١) تفسير العياشي: ج٢ ص٢١٥، بحار الأنوار: ج٤ ص١١٨.

الله، فما الرد الأفضل للرسول؟.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ولأن الله هو الحق وقد شهد على الرسالة، فلا يهم بعدها إن شهد الكفار أو لم يشهدوا أليس الله هو الشاهد الأكبر.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لكي يقرب الله فكرة صدق الرسول للكفار فإنه يعطيهم مقاييس يؤمنون بها، فما داموا هم بشر فإنهم سوف يؤمنون بالمقاييس البشرية، فهم إن كذبوا الرسالة، فإن هناك آخرين يحملون العلم يصدقون الرسول، ومن ظاهر هذه الآية يبدو أن المراد من ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم بعض علماء أهل الكتاب الذين كانوا يقرون برسالة النبي محمد ﷺ إستناداً إلى ما يجدونه من تأييد للرسالة المحمدية في كتبهم السماوية، وقد وردت الروايات الكثيرة من المعصومين عليهم السلام التي تؤكد أن المعني بهذه العبارة هو أمير المؤمنين عليه السلام، والأئمة المعصومين من ذريته عليهم السلام، ولا ريب في أن أئمة الهدى هم أبرز مصاديق ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، فقد سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن هذه الآية، فقال: « **إِيَّانَا عَنَى، وَعَلِيٌّ أَوَّلُنَا وَأَفْضَلُنَا وَخَيْرُنَا بَعْدَ النَّبِي ﷺ** »[1].

(١) الكافي، ج١، ص٢٢٩.

سورة إبراهيم

* مكية.

* عدد آياتها: ٥٢.

* ترتيبها النزولي: ٧٢.

* ترتيبها في المصحف: ١٤.

* نزلت بعد سورة نوح.

فضل السورة

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ والحِجْرِ فِي رَكْعَتَيْنِ جَمِيعاً فِي كُلِّ جُمُعَةٍ لَمْ يُصِبْهُ فَقْرٌ أَبَداً ولَا جُنُونٌ ولَا بَلْوَى».

(وسائل الشيعة: ج٧ ص٣٧١)

***

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَالحِجْرِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ عَبَدَ الأَصْنَامِ وَبِعَدَدِ مَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا».

(مجمع البيان: ج٦ ص٣٠١)

الإطار العام

النبي إبراهيم عليه السلام رمز وأسوة

سميت هذه السورة باسم النبي إبراهيم عليه السلام رمز التوحيد، ومحطم الأصنام، لأنها تدور حول رسالة التوحيد التي يحملها الأنبياء عليهم السلام ويخلصون من أجلها.

وفيما يبدو من سياق دروس السورة أنها تذكرنا بالجانب الإلهي من رسالة الأنبياء، وكيف أنهم يذكرون بالله تعالى، بل يجسدون بدعوتهم أعلى مثل للتوحيد، إذ لا يخشون أحداً إلا الله، وهدفهم فقط نجاة البشرية من ظلمات التقليد والجهل والتبعية إلى نور العقل والإيمان.

ويبدو أن سياق السورة يثير فينا الإحساس الفطري بالشكر للمنعم، والتذكرة بأن أبرز علائم الشكر هو معرفة المنعم والتسليم له، والعمل بأهداف النعم النبيلة.

كما تشير السورة إلى الجبت والطاغوت باعتبارهما ركائز الكفر المقيت، وكيف سيتبرآن من الكفار في يوم القيامة. وفي مقابل ذلك تحدثت السورة المباركة عن السعادة المطلقة التي تنتظر المؤمنين بالله وأنبيائه ورسله عليهم السلام.

لقد كان النبي إبراهيم عليه السلام رمزاً وأسوة في الشكر والدعوة الصالحة، فزاده الله من فضله، وجعل الأنبياء عليهم السلام من ذريته الصالحة.

ويشير مقطع من السورة إلى أن الصراط الذي يدعو إليه الرسل، هو صراط العزيز الحكيم. ولكن الصراع قد تطور، وتجسد عناد الكفار في إرهاب أهوج، فهددوا رسلهم بالإخراج إذا لم يخضعوا لباطلهم. غير أن الله أوحى لهم بأن الفريق الظالم هو الهالك، لأنه تجبر في الأرض وعلا فيها بغير الحق، فذهبت أعماله أدراج الرياح. كما يبين النص القرآني ما يعاكسه من ثبات عمل المؤمنين.

وتصور الآيات الشريفة حالة تبرؤ الكافرين من بعضهم في يوم القيامة.

وكما أن ربنا يثبت الذين آمنوا بها آمنوا، فإن ضلالة الظالمين تبدو منهم، إذ يبدلون نعمة التوحيد والرسالة وغيرها إلى نقمة بسبب كفرهم بها وترك شكرها.

ثم إن الذين يشكرون الله، فيستخدمون نعمه في سبيل خيرهم، يكون مصيرهم الفلاح مثل النبي إبراهيم عليه السلام بينما الذين يتخذون من النعم وسيلة للبطش والظلم، فإن الأجل الذي حدد لاختبارهم سوف ينقضي، والله ليس بغافل عنهم ولا عن أعمالهم، وإنما يؤخرهم ليوم القيامة، حيث يتمنى الكافرون لو يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب ليستجيبوا لدعوة الحق ويتبعوا الرسل، ولكن هيهات هيهات!.

وكما يهلك الله الظالمين، كذلك يورث الرسل أرضهم بوعده، فلا تظن أن ربك يخلف وعده، لأنه عزيز ذو انتقام.

وفي يوم القيامة تتجسد المسؤولية، حيث تلقى كل نفس جزاء أعمالها التي اكتسبتها؛ والتي ضبطها الله بسرعة في الحساب، هذا نذير بليغ للناس لكي يعلموا أنما الله إله واحد، ولكي يتذكر أولو الألباب.

من الظلمات إلى النور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ[1] الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ[2] شَكُورٍ (٥)﴾.

هدى من الآيات:

من حروف (معدودة) أنزل الله كتاباً إلى الرسول لتتوفر لهم فرصة الهداية؛ فالرسالة والرسول مشفوعان بإذن الله، وتتكامل بها شروط الخروج من الظلمات (الجهل والجهالة، الكفر والفسوق، البغي والعدوان والتخلف والفقر...) إلى نور الهدى (وفيه كل الخير).

والنور يدل المؤمنين إلى صراط القوي الحميد -ذلك الصراط الذي يحمل السائرين

(١) يستحبون: الاستحباب طلب المحبة بالتعرض لها، والمحبة إرادة منافع المحبوب، وقد يستعمل بمعنى ميل الطباع.

(٢) صبار: الصبار كثير الصبر.

إلى حياة العزة والحمد- صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض- إنه هو العزيز بملكوته والحميد برحمته-، أما الكافرون والمتمردون على سلطان الرب فلهم الويل وينذرون بعذاب شديد حقا إنهم معذبون لأنهم كفروا بالآخرة؛ وهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة -والتي هي الحيوان- وهم يصدون عن سبيل الله (تارة جهراً وكفراً وتارة سراً ونفاقاً)، فهم يبغون سبيل الله عوجا، وهكذا يتيهون في ضلال بعيد. وهذا الكتاب أنزل على سنة الله في خلقه - فما أرسل ربنا من رسول إلّا بلسان قومه (لكي لا تحجبهم اللغة عن فقه الهدى) فيضل الله من يشاء -بعد إتمام الحجة عليه-، ويهدي من يشاء (برحمته الواسعة). وهو العزيز (بقدرته) الحكيم (بمشيئته).

ورسالة الله التي أنزلت على موسى عليه السلام كانت تحقيقاً لكل تلك السنن؛ فلقد أرسل الله موسى بآياته -القاطعة للشك- و(أمره) أن اخرج قومك من الظلمات إلى النور -ولعل سلطة فرعون كانت من مفردات الظلمات-، و(أمرهم بأن) يذكرهم بأيام الله مثل ذلك اليوم نجاهم الله فيه من طغيان فرعون و بغيه. وهكذا كانت قصة موسى آية لكل صبار شكور؛ حيث يؤمن بأنه ما من نعمة فمن الله فإذا فقدها صبر وإن أوتيها شكر.

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

باسم الله كانت دعوة الأنبياء عليهم السلام.. بها ابتدأت وبها صبغت، فاسم الله هو صفاته الحسنى التي تتجلى في الجلال والجمال، في القوة والروعة، في الرحمة الواسعة المستمرة، واسم الله الرحمن الرحيم، هو النقطة المركزية للإشعاع في القلب والعقل والسلوك.

[١] والهدف من الرسالات ومن كتاب الله الأخير (القرآن) إخراج الناس من الظلمات التي هم فيها إلى النور النازل عليهم ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

أولاً: الكتاب الذي يرمز إليه الألف واللام والراء، أنزل من السماء، وانتقل إلى الرسول دون أن يكون فيه أثر من شخصه.

ثانياً: إنه لجميع الناس، وهذا دليل إنه جاء من أعلى، دون أن يخضع لحدود الزمان والمكان، ومحددات المادة.

ثالثاً: الظلمات هي الحالة الأولى التي كان البشر فيها على حالة من العجز والنقص، وغلظة الروح، وانغلاق النفس والجهل، وغلبة الشهوات، وبتعبير آخر: إنها حالة العدمية المحيطة بالخلق من قبل أن يرش عليها ربنا من نوره، خلقا وإنشاء وقوة وعلما.

والرب الحميد الذي نفخ في هذا الإنسان من نور الإيجاد ما أخرجه به من ظلمات العدم إلى نور الخلق. هو الذي بعث بنور الرسالة ليخرجه به من ظلام الجهل إلى نور العقل والعلم، ومن ظلام الجهالة والجاهلية والفوضى إلى نور التزكية والتسليم والنظام.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ فليس الله باعث النور فقط، بل هو الذي يرعاه أيضا لحظة بلحظة، وخطوة بخطوة، فلولا تأييده لرسله لم يقدروا على إنقاذ البشر من الظلام، وإشاعة النور في حياتهم.

والنور الإلهي هو الهداية إلى السبيل المؤدي إلى الله العزيز، الذي قهر بقوته كل شيء، والحميد الذي وسعت رحمته كل شيء، فلم يأخذ أحدا بقوته إلا بعد أن أتم عليه حجته وأسبغ عليه من نعمه ظاهرة وباطنة.

وويل للكافرين من عذاب شديد

[٢] السماوات والأرض لله، فمن أعز منه جانبا، ومن هو أحق بالخوف منه وهو الذي لا يرحم الكافرين، بل يهددهم بعذاب شديد، وويل وثبور ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هذا صراط العزيز الذي أحاط بملكوته ما في السماوات والأرض، وينتقم بشدة ممن يكفر به، أو يتنكب عن صراطه.

[٣] لا يجوز لنا نحن البشر أن نتكئ على رحمة الله وننسى عقابه، ونأمن من انتقامه، لأن تجربتنا في الحياة كشفت لنا عن وجود الآلام والمآسي إلى جانب البركات والرحمات، ولكن بالرغم من ذلك نجد البعض يغترون بالجانب المخملي من الدنيا، لأنهم يفضلون العاجلة على الآخرة.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فهم كالطفل لا ينظر أبعد من واقعه الحاضر، ولا يؤمنون إلا باللحظة التي هم فيها. أما المستقبل والعاقبة، فهم يكفرون بهما، شأنهم شأن الأنعام.

وهذه الجاهلية هي التي تدفعهم إلى الكفر بما وراء حاضرهم المشهود من غيب معلوم.

وتراهم يصدون الآخرين عن سبيل الله، ولا يدعون الناس يؤمنون باليوم الآخر، ربما من أجل إبتزازهم وإستغلالهم، بل أكثر من هذا فهم يحتالون على فكر الناس ويضلونهم بغير علم، من أجل تحكيم سيطرتهم على المستضعفين.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن الكافر الذي حليت الدنيا بعينه، لا يردعه عن الشهوات ومصالح الدين، فإذا علم أن مصالحه تتعارض وتعاليم الدين سوف يعارضها، وإن وجد مقاومة من قبل الملتزمين بالدين، فسرها حسبما شاء كما تفعل الصحف اليوم، وقديما الأنظمة الفاسدة التي تمنع إنتشار الوعي الديني إلا أنها كانت تنشر الضلالة باسم الدين.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يريدون دينا يدعم مصالحهم، ويؤيد استغلالهم للناس.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فهم يحسبون الدنيا خالدة، ويزعمون أن اللذات العاجلة كل شيء بالنسبة إليهم! كلا.. إنها سبيلهم إلى عذاب شديد.

إتمام الحجة

[٤] كون ربنا عزيزا فإنه حكيم أيضا، لا يعذب الناس إلا بعد أن يتم حجته عليهم. ولكن كيف؟ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ بكل وضوح وبعبارات مفهومة وأمثلة وقصص، لتذكر من أراد الآخرة، وسعى لها سعيها فان الله يهديه إليها، ومن أعرض عنها واستحب الدنيا، فإن الله يضله ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا يضل أحدا أو يهديه إلا بحكمته البالغة.

[٥] والتاريخ يشهد على هذه الحقيقة، فعندما أرسل ربنا موسى بآياته التي تستجلي الفطرة، وتبهر العقل بعصاته ويده البيضاء، وأمر الله بأن يذكرهم بأيام الله حين ينتصر المظلوم على الظالم في الدنيا والآخرة، لعله يخرجهم بهذه التذكرة من ظلمات الإرهاب والعذاب وعبادة الطاغوت إلى نور الحرية والرفاه وعبادة الرحمن.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ فجاء ذلك اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وقومه سريعا، وأورث بني اسرائيل أرضهم وديارهم، ولكن لم يتم ذلك ولم يكن ليتم إلا بالصبر والشكر، والمزيد من تحمل الصعاب، والمزيد من العمل الذي يفتح العقل ويهدي به الله السبيل ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

طاعة الرسل.. هداية ونجاة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ[1] (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾.

(١) مريب: الريب أخبث الشك.

هدى من الآيات:

الصراط الذي يدعو إليه الرسل، هو صراط العزيز الحميد كما قال موسى عليه السلام لقومه: بأن يحمدوا ربهم بذكر نعمة النجاة من فرعون الذي كان يذيقهم سوء العذاب، فيقتل أبناءهم ويبقي نساءهم لخدمته، فكان ذلك امتحانا عسيرا من ربهم، وقد أعلن الله لهم ان لو شكروا لأكثر نعمه عليهم، وهذا مظهر اسم الحميد لله، بينما لو كفروا لساقهم بعذاب شديد، وهذا مظهر اسم الله (العزيز).

ولأن ربنا عزيز، فلو أن أهل الأرض جميعا كفروا به لم ينقصه شيء، لأنه الغني الحميد.

فكما قال موسى، قال الرسل لأقوامهم فكفروا فأخذهم الله بعزته بعد أن أتم حجته عليهم، ونبأ ذلك أن الذين كانوا من قبل قوم موسى مثل قوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم أولئك قد نسيهم التاريخ فلا يعلم قصصهم إلا الله، حيث جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحة فردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا: إنا كفرنا بما ارسلتم به، وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب، فقالت رسلهم: فيم تشكون أفي الله؟! وهو الذي لا شك فيه، وقد فطر السماوات والأرض، يدعوكم ليغفر لكم بعض ذنوبكم، ويمنع عنكم الآثار السلبية للذنوب على حياتكم حتى ينتهي أجلكم الذي حدده الله لكم.

ولكنهم عاندوا، وقالوا: نعم لا شك في الله، ولكنكم بشر مثلنا، ثم أنتم تدعوننا لمخالفة سيرة آبائنا، ولا تملكون سلطانا مبينا، وحجة واضحة بما فيه الكفاية.

قالت رسلهم: أجل نحن بشر مثلكم ولكن الله من علينا برسالاته كما يفضل بعض الناس بمنه على بعض، ولذلك فنحن لا نملك من دون الله ميزة عليكم، وإذا كنا نملك سلطانا فمن الله وبإذنه.

وقوة الرسل هي بتوكلهم على الله، وبسلامة ووضوح رؤيتهم، وإن على الله يتوكل المتوكلون.

بينات من الآيات:

اذكروا نعمة الله عليكم

[٦] للعادة سلبيات سلوكية، والركون إلى النعم عادة سلبية إذ ينسى البشر أسبابها، وعلينا مقاومة حالة الاطمئنان الساذج بهذه النعم عن طريق تذكر الأوضاع السابقة، وتذكر

الذي غيرها بأحسن منها وهو الله، ونتساءل أبدا كيف كنا، ولماذا أنجانا الله؟!.

وهكذا أمر موسى قومه بتذكر أيام استضعاف فرعون لهم، وكيف أنجاهم الله من عذابه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يسومونكم: أي يذيقونكم، ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي أعظم امتحان لكم، وأصل البلاء هو إظهار الخفي، وفي الظروف الصعبة يستخرج البشر كنوز طاقاته، ويفجر مواهبه الفكرية والجسدية.

لئن شكرتم ولئن كفرتم

[٧] وتذكر النعمة ومن أنعم بها، أحد ابرز انواع الشكر، ومن عرف أن واهب النعمة هو الله، فسعى في مرضاته لكي لا يسلبها عنه زاده، وهكذا أعلن ربنا إن الشكر يزيد النعمة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ الزمان سيجري لمصلحة الشاكرين، لأنهم يحتفظون بالعوامل التي أدت بهم إلى النعمة من التوكل على الله، والسعي السليم والوحدة، وإدخار الثروة، والاقتصاد في الاستهلاك، والعدالة في التوزيع.

وإن هذا هو الشكر العملي الواجب بعد الإنتصار كما جاء في آية كريمة: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. وبالطبع سيكون تناسي النعمة، وترك الخصائص الفكرية والسلوكية التي رافقتها أو استوهبتها، هو الكفر بالنعمة الذي يسبب في زوالها ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

[٨] وقد يمن العاملون على ربهم إنهم يسعون في مرضاته، وقد يزعمون أنهم لو تركوا ربهم لضاروه سبحانه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ كفراً نظريًا أو عمليًا بترك الشكر، أو العودة الى جاهليتكم السوداء، فلن تضروا الله شيئا.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وغنى ربنا ليس بسرقة، أو بابتزاز حق، أو لأجل الفساد - سبحانه- كما هو غنى بعض الأغنياء، بل غناه حميد لأنه منه ومن أجل خير العالمين، وهكذا ينبغي أن يكون الأغنياء.

وهكذا سعى موسى من أجل إخراج قومه من الظلمات إلى النور قبل الانتصار على فرعون وبعده، أما قبله فعن طريق قيادة نضال قومه، وأما بعده فبرفع معنوياتهم، وتزكية نفوسهم لكي لا يفسدوا أو يبطروا بالنصر فيعود إليهم الظلام، أو يبتلوا بظلام جديد.

لقد كان في قصصهم عبرة

[٩] وهكذا سعى الأنبياء السابقون على موسى.. كم كان عددهم.. لا يعلمهم إلا الله، ولكن قصصهم واحدة، وقد جرت ضمن الفصول التالية:

ألف: جاؤوا بالبينات الواضحة ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لقد وفر الله للبشر نور العقل وهو يكفيه حجة بأدنى تذكرة. بيد أن ربنا أتم حجته عليهم بالحجج الواضحة التي لا ينكرها إلا المعاندون.

بـاء: أما الناس فقد ردوا أيديهم ووضعوها في أفواههم إشارة إلى ضرورة السكوت، كما يفعل من لا يريد الكلام فيجعل يده على فمه ليقول للآخر: افعل هكذا واسكت، وهؤلاء لم يكتفوا بطلب السكوت من الأنبياء بل أشاروا إلى ذلك بأيديهم أيضا توغلا في العناد، وليبقى عملهم شاهدا على أنهم أساسا لم يستمعوا إلى القول فكيف بقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾.

قال بعضهم: إن الناس ردوا أيدي الرسل إلى أفواه الرسل لإسكاتهم أو ردوا أيديهم هم إلى أفواه الرسل لاسكاتهم.

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ وكفرهم سبق شكهم. لأنهم قرروا الكفر عنادا، ثم ارتابوا بعدئذ، كما جاء في الحديث: «**لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا ويَقِينَكُمْ شَكّاً إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا وإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا**»[1].

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

[١٠] جيم: أما الرسل فقد ربطوا بين رسالتهم وبين الذي أوحى بها وهو الله، وبدأوا من نقطة البداية قائلين: أفي الله شك؟! فمن إذا خالق السماوات والأرض وفاتقهما بعد أن كانتا رتقا؟!.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإذا انتفى الشك في الله، فإن كل شك وريب آخر في الرسالة سيكون باطلا، لأنه هو الذي بعث بالرسل، وأظهر على أيديهم المعاجز.

---

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٧٤.

دال: وبعد أن عالجوا المشكلة العقلية عندهم بتذكرتهم بفاطر السماوات والأرض وبأنه لا شك فيه لأنه وجداني. بعدئذ أخذوا يعالجون السبب الحقيقي لكفرهم وهو مشكلتهم النفسية، وأثاروا فيهم حبهم لأنفسهم فقالوا: ربكم يدعوكم برسالاته لمصلحتكم ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

ولنا أن نتساءل: لماذا لا يغفر ربنا كل الذنوب؟.

أولاً: إن بعض الذنوب يأتي بها العبد تكبرا وعنادا، ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام:
«...إِذَا هَمَمْتَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تَفْعَلْهَا فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رُبَّمَا اطَّلَعَ عَلَى العَبْدِ وَ هُوَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِيهِ فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَ جَلَالِي لَا أَغْفِرُ لَكَ أَبَداً»[1].

ثانياً: إن بقاء بعض الذنوب سيف مسلط على غرور البشر، وأمنه من كيد الله، وعجبه بذاته لكي يبقيه أبدا بين الخوف والرجاء ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ذلك لأن دعوة الأنبياء ليست من أجل إخلاد البشر في نعم الدنيا التي لا تبقى، وهم لا يبقون لها، بل من أجل توفير الفرصة له ليستمر إلى آخر أجله المحدد له سلفا، وإلا تنزل عليه الكوارث فتبيده قبل حلول أجله.

﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وكيف نقبل بولايتكم علينا أم كيف يخصكم الله بالرسالة من دوننا، وكان من ضعف ثقتهم بأنفسهم كبشر أنهم لم يصدقوا أنفسهم أن يبعث الله إليهم بشرا رسولا.

هاء: ثم قالوا إن تعاليمكم مخالفة لتقاليدنا التي ورثناها من آبائنا وتعودنا عليها ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

واو: فطالبوهم بحجة أقوى من مجرد التذكرة، بحجة مادية مثل إحياء الموتى وتفجير ينابيع الأرض ذهبا، والعروج إلى السماء، ليضطروا إلى الإيمان، ولم يكتفوا بهدى عقولهم، ولم يقاوموا ضغط التقاليد بإرادة التحرر منها لذلك قالوا: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

[١١] زاء: و اعترف الرسل بأنهم بشر، لا يتميزون عن غيرهم سوى بالوحي الذي هو مضاف إلى شخصياتهم، وليس جزء منها ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهذا التأكيد القرآني جزء من دعوة الرسل، ودليل صدق على أنهم لم يجعلوا الافتراء على الله وسيلة للمكاسب المادية، ولا يريدون ذلك ولا يسمح لهم ربهم بذلك أبدا.

(١) بحار الأنوار: ج ٦٨ ص٢١٧.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالرسالة، وبقدر ما يمن الله يصبح الرسول عظيما، لذلك لا يملك الرسول قدرة الإيتاء بالآيات الجديدة حسب رغباته.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والأهم من ذلك إننا نعتمد على الله في تبليغ الرسالة وحتى دعوتنا لكم ليست بقوانا الذاتيـة، ولا بحسب قدراتنا الخاصة عندما نقوم على أمر، بل بقوة الله وقدرته المطلقة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

[١٢] التوكل على الله عند الأنبياء والمؤمنين بهم أصدق شاهد على أنهم من قبل الله لماذا؟ لما يلي:

أولاً: حب الذات والحفاظ على المصالح، فطرة بشرية راسخة في أعماق ذات كل إنسان، ولا يمكن لأحد إلا لمجنون أن يعرض نفسه للخطر، لمجموعة أوهام وخرافات لا تؤمن بها يمكن أن تكذب لتحصل على مصلحة أما أن تكذب لتحصل على صفعة، فمستحيل إلا إذا كنت مجنونا.

ثانياً: يختلف الفرد الذي يتحرك في الناس بقدراته الذاتية عمن هو مدعوم من قبل قوة أخرى. فسلوك الموظف أو الشرطي أو الجاسوس أو المنتمي إلى حزب قوي يختلف كثيرا عن سلوك الفرد العادي. والرسل عليهم السلام كانوا يقدمون بلا حساب على المخاطر وهم واثقون بالنصر. أو ليس هذا دليل على أنهم قد بلغوا الحقيقة. ولذلك ربطوا بين التوكل الظاهر في أبعاد حياتهم، وبين الهدى الذي رزقهم الله إياه، فهم عرفوا الحق ولذلك ضحوا من أجله.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ وكانوا يتحملون الصعاب في طريق رسالتهم كدليل على أنهم واثقون من طريقهم.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ من شاء أن يعتمد على شيء فليعتمد على الله الذي لا يخيب أمل من توكل عليه، فهو إذن حقيق بأن يتوكل عليه المتوكلون.

وخاب كل جبار عنيد

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ[1] وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ[2] ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ[3] وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ[4] وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ[5] بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ[6] لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

تطور الصراع، وتجسد عناد الكفار في إرهاب أهوج، وهددوا رسلهم بالإخراج، إذا لم يخضعوا لباطلهم، وأعلمهم ربهم أن الفريق الظالم هو الهالك، وأن الفريق الآخر سوف يسكن

(١) واستفتحوا: الاستفتاح طلب الفتح بالنصر.
(٢) صديد: الصديد القيح يسيل من الجرح.
(٣) يتجرعه: التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار.
(٤) يسيغه: الاساغة إجراء الشراب في الحلق، يقال ساغ الشيء واسغته أنا.
(٥) اشتدت: الاشتداد الإسراع بالحركة على عظم القوة.
(٦) عاصف: شديد الريح، والعصف شدة الريح.

الأرض موعدا بنصر الله له بسبب خوفه من الله ومن وعيده.

وكانت محاولات الكفار للفتح تبوء بالفشل، لأنهم تجبروا في الأرض، وعلوا فيها بغير حق، كما وقفوا ضد الحق.

وفي الآخرة تنتظرهم جهنم التي تسقي نازلها بماء هو القيح، يشربه جرعة جرعة دون أن يقدر على إساغته وابتلاعه بينما تحيط به أسباب الموت، لو كان في تلك الدار شيء إسمه الموت، بل يستمر معه عذاب غليظ متكاثف موجة بعد موجة.

أما أعمالهم فهي كالرماد حين تهب عليها ريح شديدة العصف، أنهم لا يقدرون على الحصول مما كسبوا على شيء.. أو ليس هذا ضلالا بعيدا؟!.

نعم.. لأن خلقة السماوات والأرض قائمة على أساس الحق، والضلالة باطلة ولذلك فهي لا مكان لها في الكون.

ثم أن الله هو المهيمن على السماوات والأرض، فإن يشأ يذهب بهم ويأت بخلق جديد، دون أن يكون ذلك عليه عزيزا. ولذلك لا معنى للتجبر والعناد.

بينات من الآيات:

لنهلكن الظالمين

[١٣] تطور الصراع إلى التهديد المباشر للرسل ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ أي في ديننا الذي نميل إليه، وهكذا أظهروا طبيعتهم الإرهابية، وعبادتهم للقوة مقام الحق.

وحين لا ينفع القول الحق ويعاند الكافر، يستخدم أصحاب الحق القوة لردع الباطل، ولأن الرسل لا يعتمدون على قواهم الذاتية في مواجهة عناد الكفار، بعد أن صبروا على أذاهم بل على ربهم. لذلك لم يتركهم ربهم طويلا. بل أوحى إليهم بكل وضوح أنه سيهلك بالتأكيد الظالمين ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وهذه سنة الله مع الرسل والرساليين جميعا، أنه يتركهم يواجهون عدوهم بصبرهم وإرادتهم حتى يجر بهم، ولكن إذا حانت ساعة المواجهة الجدية، فإن نصره يهبط عليهم بردا وسلاما.

[١٤] ويبشرهم الله بأنه مع هلاك الظالمين ينزل الرفاه والرحمة لهم ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ

﴿ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، ولكن ليس جميع الناس يثقون بالكلام الذي فيه إنذار وبشارة، بل فقط الذين يخشون ربهم، ويتذكرون مقامه.

ولا يستمر النصر إلا باستمرار أسبابه، وهو الخوف من مقام الله وسمو جلاله، والخشية من وعيده وإنذاره ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

[١٥] وبثمن الخضوع التام لله، دفع الله اليهم هدية النصر، كما أن أعداءهم خابت ظنونهم وآمالهم وذهبت جهودهم سدى بسبب عنادهم، وكلما طلبوا الفتح أملا وعملا ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ التجبر طلب علو المنزلة بما ليس له غاية في الوصف، وإذا وصف العبد بأنه جبار كان ذما، لأنه طلب للعلو لا لهدف بل للتعالي، ولإشباع نهم الاستعلاء بحق أو بغير حق، وهذا هو معنى العنيد، وهو الامتناع عن الحق باستمرار.

[١٦] والله يقابل عناد هؤلاء بجهنم تلهب أكبادهم عطشا، ولا يسقون إلا بماء كالقيح الذي يصدر من الجروح المتعفنة ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾، وقد يكون هذا القيح هو لعاب ألسنتهم المعاندة، التي لا تنطق إلا بالباطل.

[١٧] وهم يشربون الجرعة بعد الجرعة دون أن يجري ذلك في مريئهم بسهولة، ولكنهم يحاولون ذلك بسبب عطشهم الملتهب ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ذلك أن الموت ينعدم في الدار الآخرة. ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي أمامه عذاب كثيف.

المنهج الالهي حصن الحضارة

[١٨] وأعمال هؤلاء تذهب عبثا، لأنها لا تجري مع سنن الله في الأرض، كمثل الذي يحث الخطى بعد أن ضل الطريق وتاه في الصحراء، فهل يبلغ هدفه؟!.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾ أي يوم اشتدت الرياح فيه عصفا، منذ بدايته إلى نهايته، إن الرماد ينبث في الفضاء، بسبب عدم استقراره على أساس ثابت، وعدم وجوده في حصن منيع، كذلك العمل الذي لا ينبعث من أرض الإيمان الصادق، ولا يحصنه المنهاج السماوي ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾ بالرغم من أن أساس الكون قائم على أن للإنسان ما سعى، ولكن السعي الذي يتبع الهوى، ويخضع لضغط الطبيعة، ولشهوات الناس يكون كالرماد الذي تشتد به الريح لتجد كل جزء منه في اتجاه بينما السعي الذي يستقيم في الخط الصاعد، يستمر.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ الذي لا ينفعه الكسب، وهو أفضل ثمرات العمر.

[١٩] والسؤال: لماذا لا تقدر عدالة الله، مكاسب هذا الفريق من البشر؟ ذلك لأن الله قد بنى السماء والأرض على أساس سنن وأنظمة ومناهج وسبل سماها جميعا بالحق، فمن عرفها وسخرها قدر على ما اكتسب، ومن تحداها بهواه وبضلالته لم يقدر على شيء مما كسب.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ كل شيء خاضع لِسُنَّة ونظام لا يمكن تجاوزه ولا تسخيره إلا عبر ذلك النظام، ومن الأنظمة ما هو واضح كالجاذبية وقوانين الفيزياء والكيمياء والاجتماع، ومن الحق ما هو غامض ويذكر به الشرع مثل آثار الصلاة والزكاة والإرث وما أشبه.

وأنك لابد أن تخضع لهذه الأنظمة، وتأتي الحياة من بابها لتسخرها.. أليس كذلك، فإنك لا تسخر الحياة بالتجبر والعناد، وباتباع أهوائك المتغيرة، وبالخضوع لضغوط الشهوات.

إنك محكوم في هذا الكون، وليس بحاكم ولابد أن تعترف بهذه الحقيقة، وأبرز شواهد حاكمية الله عليك أنه إذا شاء أذهبك وجاء بخلق جديد. أي حاكم أنت الذي لا تملك نفسك؟! فلماذا العناد ولماذا التجبر؟! ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾.

[٢٠] ويفعل ذلك كله دون أن تقدر على شيء ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ ليس بصعب.. فأنت لو تجبرت سوف تصبح أهون هالك لا يسأل عنك أحد، ولا تتعب من يهلكك بشيء سبحانه.

لا تلوموني ولوموا أنفسكم

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا (١) أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢) ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ (٣) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ (٤) مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ

---

(١) اجزعنا: الجزع انزعاج النفس بورود ما يغم ونقيضه الصبر.

(٢) محيص: منجى ومهرب.

(٣) بمصرخكم: الإصراخ الإغاثة بإجابة الصارخ، ويقال استصرخني فلان فأصرخته أي استغاث بي فأغثته.

(٤) اجتثت: الاجتثاث اقتلاع الشيء من أصله.

ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾.

هدى من الآيات:

ذكرنا الدرس الذي مضى بأن أعمال الكفار كالرماد تذروه الريح العاصفة، ولا يحصلون مما كسبوا على شيء، وفي هذا الدرس يذكرنا بسبب ذلك، كما يبين ما يعاكسه من ثبات عمل المؤمنين. ونتساءل كيف ولماذا؟.

إن الكفار يعتمـدون على الطاغوت والجبت، وهما غير مهتدين ولا واثقين من أنفسهما، فالطاغوت المتمثل في المستكبرين يتبرأون يوم القيامة عمن اتبعهم، وإذا سألوهم إنا كنا تبعا لكم فهل أنتم تحملون عنا شيئا من العذاب؟ أجابوا: كلا.. لأننا ضالون مثلكم، وثانيا.. لأننا بدورنا لا ندفع العذاب عن أنفسنا، أما الجبت المتجسد في الشيطان فإنه يأتي يوم القيامة، ويشمت بمن أتبعه ويقول لهم:إن الله وعدكم حقا ووعدتكم باطلا، ولم أكن أستطيع إجباركم على اتباعي إنما أنتم استجبتم لي بحريتكم، فاللوم عليكم وليس علي، ثم يقول لهم:لا أنتم تنقذوني من العذاب ولا أنا أنقذكم، وإني الآن أتبرأ من شرككم، وأعلن أن الظالمين لهم عذاب أليم بعكس وعودي السابقة.

هكذا خابت ظنونهم.. أما المؤمنون فإنهم أدخلوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن الله، وهم يسلمون على بعضهم بعكس ما يجري في جهنم من صراع، فسبب ثبات أعمال المؤمنين إن الله يثبتها، ومثلها مثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وأكلها دائم، بينما الكلمة الخبيثة والعقيدة الفاسدة مثلها مثل شجرة خبيثة ليس لها أصل ولا قرار، وهكذا يحصن الله أعمال المؤمنين بالعقيدة الصالحة والثواب، بينما يضل الظالمين، وهو قاهر فوق عباده يفعل ما يشاء دون أن يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

بينات من الآيات:

حوار الضعفاء مع الذين استكبروا

[٢١] حين يتبع الإنسان الحق يكون الله ضامنا لعمله، أما حين يتبع إنسانا مستكبرا تجبر عليه زورا وبهتانا، فما الذي يضمن عمله، يوم يأتي المستكبر هو والمستضعف ليقفان أمام الله في صف واحد.

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أي للأقوياء ممن استكبروا، واعتبروا أنفسهم أكبر من الناس ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ فهل هم ضامنون لعملهم؟ وهنا ليس فقط يعترف المستكبرون بضلالتهم، بل وبأن استكبارهم كان غلطة العمر بالنسبة إليهم ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ فلا مجال للزحزحة عن عذاب الله.

[٢٢] أما الشيطان الذي هو النداء الداخلي الذي يوسوس للقلب، فيتبعه الإنسان، وهو الذي دلى أبانا آدم بغرور فأخرجه من الجنة، وهو بالتالي إبليس الذي تمرد على الله واستكبر، وعزم على خداع البشر، إنه هو الآخر أخلف وعده، وكان من قبل يزعم أنه قوي، وأنه سوف يغيث الذين يتبعونه، فها هو يشمت بمن يتبعه ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الذي له من العقل والعلم على صدقه شواهد وحجج.

﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ ووعود الشيطان أماني وأحلام تتناسب وشهوات الفرد، وهي تشبه التبريرات الثقافية التي ترتاح إليها النفوس الكسولة والأمم المتخلفة مثل انتظار المستقبل بلا سعي يصنعه، وإلقاء المسؤولية على عاتق الزمن، أو لا أقل على كاهل الآخرين أموات أو أحياء.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ إن جذر التبريرات التي يلقيها الشيطان الرجيم في فؤاد الإنسان هو إشعاره بأنه مكره على أفعاله، وأن قضاءً حتميا يفرض عليه هذا العمل أو ذاك وذلك بتهويل الأشياء والأحداث والأشخاص عنده، وتصغير نفسه أمامها وتحجيم دور الإرادة عنده، مثلا يقول له، إن تغيير سيرة الآباء مستحيل، أو إن تغيير الأوضاع السياسية أو الاقتصادية أمر لا نقدر عليه، أو إن مخالفة هذا الحاكم وذلك المستكبر غير ممكنة، أو يقول له: كيف تقوم الخطبة وقد عملت فيها السنون ما عملت، وكيف تغير الزمان وقد أفسده السلطان، وما أنت وماذا عسى أن تفعل.

وفي يوم القيامة يعترف الشيطان، بأنه كان خادعا في قوله هذا، وأن إرادة الإنسان هي التي تصنع واقعه، وأنه لا حول ولا قوة له، فلا يغيث ولا يغاث ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ فلا أنا أغيثكم ولا أنتم ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ وحقيقة الإشراك هو أن تعتقد أن أحدا أو شيئا غير الله إله لا يغلب. كلا.. بل كل شيء خاضع لله، ولمن يتوكل.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إذا كان جذر التبريرات سلب إرادة البشر، وتهويل ما دونه في عينه، فإن العنوان الظاهر لكل التبريرات هو سلب مسؤولية الفرد عن جرائمه، لذلك أكد الشيطان في يوم القيامة أن للظالمين عذابا أليما، فهم لا يستطيعون أن يهربوا من مسؤولياتهم أبدا.

وادخل الذين آمنوا الجنات

[٢٣] أما المؤمنون فإن ربهم ضمن لهم جزاء أعمالهم الصالحة، وقد صدقوا وعد بعضهم، فتراهم يحبون بعضهم بسلام بعكس أولئك الذين تنابزوا بالألقاب وتبرؤوا من بعضهم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فخلودهم لا يجعلهم آلهة، لأنه خلود قائم على إذن ربهم، والله وعد بذلك فلن يخلف الميعاد، ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

كلمة طيبة وكلمة خبيثة

[٢٤] لماذا تشتد الريح بما كسبه الكافرون؟.

لأنه لا يعتمد على أساس راسخ الجذور.

حين تكون عقيدة الفرد قائمة على أساس العلم، وتكون إرادته ضمانة لتلك العقيدة ضد ضغوط الهوى والمجتمع، حينها يكون قول الفتى ثابتا على الحق، لا يغيره إرهاب أو ترغيب أو عسر أو حرج، فإنه يكون مثل الشجرة المفيدة التي ضربت بجذورها في تخوم الأرض، وانتشرت فروعها في عرض السماء ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

[٢٥] ولأن العقيدة الثابتة، قوية الجذور، ويتعهدها الفرد بكل طاقاته، فهي ستكون كثيرة الثمار من أعمال صالحة، وأقوال طيبة، وسلوك حسن ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ كل وقت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بالتوكل على الله.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فعن طريق تشبيه الشؤون البشرية بالطبيعة المخلوقة قد يصل العقل إلى كنه الحقائق.

وسواء كانت هذه الشجرة نخلة أو شجرة وهمية أو شجرة مجهولة أو حتى كان المراد بها

الشجرة الطيبة للنبي ﷺ، وأهل بيته الطاهرين كما جاء في روايات كثيرة، فإن الهدف معرفة الأمر الحاسم لثبات العقيدة الصادقة في طيب عطاء الفرد وكثرته.

[٢٦] أم الكلمة الخبيثة التي تعني تلك النفس التي لا تعتمد على أصل العقيدة الراسخة، فإن مثلها كمثل شجرة خبيثة ليس لها قرار في الأرض، ولا ثمر.

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ الكلمة في القرآن تشير إلى محتواها وليس لفظها، كما كلمة الله ﴿كُن فَيَكُونُ ﴾ إشارة إلى إرادته العليا، وعيسى كان تجسيدا لكلمة ﴿كُن فَيَكُونُ ﴾ لذلك سمي بكلمة الله.

فالكلمة الخبيثة هي الفكرة الخبيثة الباطلة، التي تعبر عنها الكلمة وهي كما يشير إليه السياق القادم أن يجعل لله أندادا ليضلوا عن سبيل الله.

﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ وتشبه هذه الشجرة التجمعات القبلية أو الحزبية الضالة، كبني أمية في التاريخ ومثل حزب البعث اليوم.

القول الثابت

[٢٧] الكلمة الطيبة هي: كلمة التوحيد التي يثبت الله عليها المؤمنين ويجعلهم في حصنه حتى لا تزلزلهم عواطف الشهوات، ولا تزيلهم عواصف الضغوط، فلا ترغيب الأغنياء المترفهين، ولا إرهاب المستكبرين قادر على أن يزحزحهم عن مواقفهم الثابتة في الدفاع عن حقوقهم وعن كرامتهم ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾

لذلك جاء في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام (المعروف بحديث السلسلة الذهبية): «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حِصْنِي مَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ عَذَابِي»[1]. وجاء في الدعاء: «بِسْمِ الله كَلِمَةِ الْمُعْتَصِمِينَ وَ مَقَالَةِ الْمُتَحَرِّزِين»[2]. إن النفس البشرية خلقت من ضعف، وإن الشيطان، ودواعي الهوى، ومشاكل الحياة قد تتراكم ضغوطها عليها، ولولا الإيمان بالله، وتذكر أنه الرقيب الشاهد عليها، والثقة بوعده وبنصره، والتوكل على قوته في مواجهة بطش الطغاة، وكيد الماكرين إذن لانهارت النفس. لذلك يكرر المؤمنون هذا الدعاء: «وَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِي بِمَا تُعِينُ بِهِ الصَّالِحِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»[3].

---

(١) عيون الأخبار: ج٢، ص١٣٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٨٧، ص١٥٢.
(٣) الكافي: ج٢، ص٥٨٥.

أما الظالم الذي يعتدي على حقوق الآخرين، ويبني ضرورات حياته وعيشه على البغي فإن بقايا النور في قلبه تسلبه منه وكلما توغل في سبيل السعي كلما كانت توبته عنه أبعد، وكانت نفسه أميل إلى الفساد ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

الشكر بين الصلاة والزكاة

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ[1] وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾.

هدى من الآيات:

وكما أن ربنا، يثبت الذين آمنوا بما آمنوا، فإن ضلالة الظالمين تبدو منهم، ألا ترى كيف أنهم يبدلون نعمة التوحيد ونعمة الرسالة وسائر النعم الإلهية المعنوية والمادية إلى نقمة بسبب كفرهم بها، وترك شكرها، وهم يقودون قومهم إلى دار الهلاك في جهنم حين يحترقون بنارها، ويستقرون منها مكانا سيئا وهم يبدلون النعمة كفرا حين يفتشون عن انداد لهم من سلطات جور وعلماء سوء، فيضلون بهم الناس عن الله، وأن مصيرهم إلى النار.

---

(١) دائبين: الدؤوب استمرار الشيء في العمل على عادة جارية فيه.

إن شكر نعمة التوحيد هو الصلاة لله لتوثيق عرى الإيمان، والإنفاق على المحرومين في السر والعلانية، والخوف من الحساب في يوم القيامة حيث لا بيع فيه ولا خلال.

ولماذا لا نشكر ربنا وهو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به هذه الثمرات المتنوعة رزقا مباركا لنا، كما سخر الرياح لتحمل الفلك في البحر، وسخر الأنهار، وأكثر من هذا سخر الشمس والقمر يعملان باستمرار، وسخر النور والظلام، وآلاف بل ملايين النعم التي لا نحصيها لو أنا أردنا تعدادها، كل ذلك من أجل رفاهنا وتكاملنا، وأن الإنسان لظلوم يطغى في الأرض، ويكفر بنعم الله، ولذلك يكون مثله.. مثل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، كما جاء في الدرس السابق.

بينات من الآيات:

واحلوا قومهم دار البوار

[٢٨] الغاية من نعم الله على البشر أن تنعكس في حياتهم المادية شكرا في صورة الوصول بها إلى أهدافها، وفي حياتهم المعنوية تكاملا وهدى وخلقا رفيعا، بينما ترى بعض كبراء الكفر يسعون في الأرض فسادا، فبدل أن يطعموا الطعام يتلفونه، وبدل أن يطعموا منه البائس والفقير يتخذونه وسيلة لاستعباد الناس وتذليلهم، وبدل أن تبعث النعمة في أنفسهم الرضا والسكينة يزدادون بها طغيانا وحرصا وإسرافا، وبالتالي قلقا وتوترا، وهكذا يبدلون نعمة الله إلى كفر.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أظهر أمثلة نعمة الله هي نعمة الرسالة التي كفروا بها، ولا يزال الكبراء وأشياعهم من خدمة الكفر يكفرون بهذه النعمة ولا يشكرون.

ولكن هذه النعمة ليست الوحيدة التي لا يشكرونها بل هناك نعم أخرى كذلك يتخذونها وسيلة للكفر، مثل نعمة السلطة والرفاه والسلامة والأمن.

وهؤلاء يجعلون قومهم في منزل الهلاك بسبب كفرهم بالنعم، فيقودون الضعفاء في حرب ضد أصحاب الرسالة.

﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ إن الهزيمة ستكون من نصيب كبراء الكفار، ولكنهم يسحبون وراءهم جيشا من المستضعفين، ويذيقونهم مرارة الهزيمة.

[٢٩] هذا في الدنيا أما في الآخرة، فإن مصيرهم جميعا.. ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

[٣٠] ولكي يدعموا سلطاتهم الطاغوتية على الناس، ولكي يواجهوا منطق الحق بباطل مزخرف، فإنهم يدعون الناس إلى الأصنام الباطلة، مرة يرفعون راية العنصرية والعصبية العشائرية، ومرة ينعقون باسم آبائهم الأولين، وقد يهتفون باسم الأرض أو اللغة أو الوطن، أو باسم الأمن والرفاه، كل ذلك ليصرفوا الناس عن التوحيد الذي هو أسمى قيمة معنوية للإنسان.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ وهدفهم من كل ذلك التمتع الساذج بلذائذ هذه الدنيا الدنية، ولكن إلى متى تدوم لهم النعم، إنها لا تدوم إلا إلى أجل قريب ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾.

الشكر الحقيقي

[٣١] أما المؤمنون بالرسالة فإنهم يشكرون هذه النعمة.

أولاً: بإقامة الصلاة وتنمية روح الإيمان بالله، لكي يزدادوا ثباتا واستقامة.

ثانياً: بالإنفاق الذي هو بدوره يزيد النعم ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ فإنفاق العلم بتعليمه، وإنفاق الجاه ببذله، وإنفاق القوة بالتعاون مع البؤساء، كل ذلك يزيد النعم، وليكن الإنفاق سرا لضمان الإخلاص، وعلانية لتحدي الكفار ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾، وليكن لإنفاق بإخلاص تام، وخشية من النار ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ فلا تستطيع أن تبدل بما عندك شيئا، كما لا تنفعك الشفاعة من قبل الأخلاء والأصدقاء.

توالي النعم

[٣٢] لماذا تكفر بالنعم؟ ولماذا لا نؤمن بالله، ونشكره؟ وهل كنا في غنى عن رحمته؟!.

إن أعظم النعم هي نعمة الخلقة الأولى، ثم نعمة تسخير السماوات والأرض لنا بحيث نقدر على الاستفادة منها، ولو كانت ممتنعتان عنا، أو كنا عاجزين عن الانتفاع منهما بجهل أو بضعف فمن الذي كان يسخرهما لنا؟.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ انظر إلى الطبيعة المخلوقة نظرا جديدا وعبريا، فهل ترى غير نعم الله تحيط بك..

لماذا لا يهز ضميرك منظر المطر يهبط لك من السماء نعماء ورحمة، من الذي رفع ملايين الأطنان من مياه البحر بعد تصفيتها بالتبخير، ومزجها بأكسجين الفضاء، وبنتروجين الرعود،

ونشره في كل جهة، من الذي جعل في الأرض الأملاح والخصوبة والبذور لتتحول الأمطار فيها إلى ثمرات مختلفة؟!

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أو تزعم أن السفن تبحر في البحار بأمرك، فلو أن الرياح ركدت أو أن الأمواج تصاعدت، فهل جرت السفن حيث تشتهي ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾.

[٣٣] والشمس التي هي أكبر من أرضنا بكثير، والقمر الذي هو أصغر من أرضنا كل يجري في فلك ونظام بحيث تنتفع الحياة فوق كوكبنا بضوئهما وبجاذبيتهما وطريقة دورانهما، من الذي سخرهما أفلا نشكره؟!

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فعندما يعم الظلام الأرجاء تخلد إلى النوم براحة نفسية، وعندما ينبعث ضياء النهار، تنبعث حيوية وهمة.

[٣٤] وبالرغم من أن طموحات البشر لا تتحقق عادة جميعها، ولكن هناك تناسب بين هذه الطموحات وبين عطاء الله سبحانه، فبقدر أملك في الله، وسؤالك منه ينشر عليك نعمه.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ففي ضيق الشدائد، وعند المدلهمات تجد فرج الله وروحه ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وعندما تتعب سفينة أمالك ترسو على شاطئ رحمة الله الذي يقول لك: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وهناك تجد تحقيق امالك وتخاطب ربك قائلا: **«إِلَهِي طُمُوحُ الآمَالِ قَدْ خَابَتْ إِلَّا لَدَيْكَ ومَعَاكِفُ الهِمَمِ قَدْ تَقَطَّعَتْ (تعطلت) إِلَّا عَلَيْكَ ومَذَاهِبُ العُقُولِ قَدْ سَمَتْ إِلَّا إِلَيْكَ فَإِلَيْكَ الرَّجَاءُ وإِلَيْكَ المُلْتَجَأُ»**[1].

وأي نعمة تحصيها عددا، أجل لو كانت الأشجار اقلاما، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ إن كل خلية في بلايين الخلايا التي تشكل جسمي نعمة كبرى يعجز القلم عن الإحاطة بها، فأي نعمة تحصيها وكيف، ولكن أنت ترى الإنسان كيف يظلم نفسه بالكفر بنعم الله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فأكثر الناس يظلمون أنفسهم والآخرين بالنعم فيتخذون من نعمة اللسان وسيلة التشهير والبهتان، ومن نعمة اليد أداة البطش والاعتداء، ومن نعمة المال البخل والترف والاستعلاء، ومن نعمة القوة القهر والظلم، وهكذا يكفرون بنعم الله، ولا يحققون بها أهدافها النبيلة ولو فعلوا لكان ذلك شكرا عمليا منهم.

---

(١) مصباح الكفعمي: ص٥٣، من أدعية ليلة الجمعة.

إبراهيم عليه السلام أسوة في الشكر والدعوة الصالحة

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي (١) وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ (٢) غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لقد أعلن ربنا أن من يشكره يزيده عطاء، ومن يكفر به فإن عذابه لشديد، وفي هذا الدرس يضرب مثلا للإنسان الشاكر الذي لا يشوبه غبار وهو إبراهيم عليه السلام بينما الدرس التالي يذكر بمصير الكافرين.

وقد وعد ربنا أن ينصر رسله بسبب خوفهم من ربهم، وهذا إبراهيم يرفع إلى الله يد الضراعة ليجعل مكة بلدا آمنا، ظاهرا بحرمته، وباطنا بنظافته عن الأصنام التي أضللن كثيرا

(١) اجنبني: ابعدني.

(٢) بواد: الوادي سفح الجبل العظيم.

من الناس حتى فقدت الكثرة العددية شرعيتها، وبقي المقياس هو الحق، واتباع الرسل، فمن تبع إبراهيم عليه السلام فهو منه، أما من عصاه فإن رحمة الله فقط وليس انتماؤه النسبي إلى إبراهيم سوف ينقذه بإذن الله.

وبعد أن استعرض إبراهيم عليه السلام طاعته لله، حين اسكن بعض ذريته في صحراء الحجاز حيث لا زرع ولا ضرع، دعا ربه بأن يوفقهم لأداء الصلاة على وجهها، وأن يجعلهم قبلة القلوب، وأن يرزقهم من الثمرات، كل ذلك بهدف أن يشكروا ربهم، فيستخدموا النعم لراحة الجسد، وأمواج الروح، وأن يجعلوا لله الشاهد عليهم لأنه يعلم ما يخفون وما يظهرون، ولا يخفى عليه شيء لا في الأرض ولا في السماء.

وقد استجاب له ذلك، أو ليس هو الذي رزقه على الكبر إسماعيل وإسحاق، فإنه إذن سميع الدعاء، ولكي يكون شاكرا فعليه أن يقيم الصلاة، وأن يدعو لأولاده بذلك، وأن يستغفر الله لنفسه ولوالديه وللمؤمنين، حتى تكون آصرته الإيمانية وليس الأسرية أقوى شيء، وأن يخشى الحساب.

هذا إبراهيم قدوة الشاكرين، أفلا نكون مثله؟.

بينات من الآيات:

الاستقلال الفكري

[٣٥] طيلة حوالي أربع وستين قرنا من الزمان -حسب بعض التقادير- كانت مكة بلدا آمنا بدعاء ذلك الشيخ الذي تجرد عن ذاته، وعن علاقاته النسبية، وترك فلذة كبده إسماعيل وأمه في تلك الأرض القاحلة بهدف إقامة بيت الله، يظلله السلام أمام هجمات الشياطين المادية والثقافية.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

إن أسوأ أنواع العبودية لا ريب هي السيطرة العسكرية وهي ما دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يأمن أهل مكة منها، وقد استجاب له ربه دعاءه، وأبرز مظاهره ذلك هلاك أصحاب الفيل، حيث حمى ربنا البلد الحرام من الاحتلال العسكري، وهو ما يسميه بالطاغوت.

ولكن أصنام العبودية الثقافية، أو التبعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أخفى خطرا، ولم يستجب فيها ربنا دعاء إبراهيم عليه السلام، إذ يتنافى وما قدر الله من حرية البشر في الدنيا.

[٣٦] ولأن أقوى أسلحة الجبت، وعبادة الأصنام هو الإحساس القوي عند الفرد بضرورة التوافق الاجتماعي، فإن إبراهيم عليه السلام أكد أن الأصنام قد أضللن كثيراً من الناس، لكي يعرف الإنسان أن اتباع الناس يعني الضلالة في الأغلب فيتحصن ضد غرور الكثرة.

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ إن الأصنام تتجسد في قوى اجتماعية ثقافية، أو اجتماعية وسياسية، وربما لذلك نسب الضلالة إليهن، وجاءت بصيغة الجمع فلم يقل أضلت بينما كان ذلك الأنسب إلى غير ذوي العقول، لو كانت الأصنام هذه الأحجار والأخشاب المعبودة.

. ومن جهة ثانية: لأن قريشا خدعوا ضمائرهم حين استسلموا لضغوط الأصنام، وبرروا موقفهم المتخاذل من التوحيد بأنهم أولاد إبراهيم عليه السلام فلا ضير عليهم، كما فعلت بنوا إسرائيل مثل ذلك، لذلك أكد إبراهيم عليه السلام براءته منهم.

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ربما لم يقل إبراهيم عليه السلام ومن عصاني فإن عذابك شديد لكي يتجنب الذاتية في تعبيره فلا يضمن تعبيره أنه هو سبب العذاب.

دعوة إبراهيم لأبنائه

[٣٧] إبراهيم عليه السلام رجل الرسالة، الذي قضى عمره يجاهد من أجل التوحيد، فلم يستجب له إلا قليل، فرزقه الله أولياء يرثون دعوته، بعد أن بلغ من الكبر عتيا، وها هو يؤمر أن يسكن بعض ذريته في صحراء قاحلة فيستجيب لربه شاكرا، وهدفه من الذرية لم يكن سوى أن يحملوا مشعل التوحيد من بعده، ولذلك يطلب من ربه بالنسبة إلى ذريته أمرين:

أولاً: إن تهوي إليهم أفئدة من الناس، وبسبب حب الناس هم يستمعون إلى تعاليم ربهم.

ثانياً: إن يكفيهم الله أمور الدنيا، فيرزقهم من الثمرات حتى لا ينشغلوا بطلب الدنيا عن تبليغ الرسالة.

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وترك بأمر الله هاجر وابنها الرضيع إسماعيل في أرض مكة، وكانت قفرا ذلك اليوم بسبب جدبها.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ وهذا يدل على أن

هدف الحج إلى الكعبة ليس فقط الطواف حول الأحجار المرصوصة إلى بعضها تخشعا لله، بل وأيضا التمحور حول أوليائها، الذين هم ورثة إبراهيم عليه السلام، وحملة مشعل الرسالة، وهم أئمة الهدى، والعلماء بالله، والأمناء على حلاله وحرامه، وهم بالتالي القيادة الرسالية التي هي امتداد لقيادة الرسل عليهم صلوات الله.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يشكرون حج الناس، ورزق الله بخدمة الحاج، وتوجيههم وعدم التسليم لضغوط الغزاة الثقافيين.

كيف نشكر الله؟

[٣٨] وينبغي أن يكون الشكر مخلصا لله، فلا تتجرد خدمة الحجاج عن دعوتهم إلى الله، ولا يجعل سقاية الحاج وعمارة المسجد وسيلة المفاخرة والتعالي، وبالتالي لا تصبح طقوس الحج قشورا فارغة، بل وسيلة للزلفى إلى الله والإنابة إليه سبحانه ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

[٣٩] وعاد إبراهيم عليه السلام يذكر نعمة الذرية، ربما لأن أهل مكة في عهد النبي صلى الله عليه وآله كلهم من ذرية إسماعيل الذي هو استجابة دعاء إبراهيم عليه السلام، فلماذا يكفرون بنعمة الله؟ ولماذا ينسون أصولهم؟.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فلو شكرنا ربنا ودعوناه لاستجاب دعاءنا كما استجاب لأبينا إبراهيم عليه السلام.

[٤٠] وإبراهيم عليه السلام ذاته كان مقيم الصلاة، ومجده كان بالصلاة فلا نجعل نحن أبناءه انتماءنا إليه نسبيا مجدا من دون اتباع تعاليم السماء، وهو يريد أن نكون مثله ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾.

[٤١] وإبراهيم عليه السلام كان منتميا بذاته إلى تجمع إيماني أكبر، ولابد أن نتخذ ذلك التجمع محورا لتحركنا لا الانتماء إلى نسبه، ودعاءه للمؤمنين جميعاً ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

وهكذا ضرب الله لنا مثلاً من واقع إبراهيم عليه السلام، كيف شكر الله على نعمائه، ودعاءه بتحقيق طلباته، فشكره الله واستجاب له، وكذلك يستجيب للمؤمنين.

وبرزوا لله الواحد القهار

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ [1] ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ [2] ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ [3] ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ [4] فِى ٱلْأَصْفَادِ [5] ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم [6] مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ

---

(١) وأفئدتهم هواء: متجوفة لا تعي شيئاً للخوف والفزع شبهها بهواء الجو.

(٢) ما لكم من زوال: ليس لكم من انتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

(٣) برزوا لله: البروز الظهور.

(٤) مقرنين: مجتمعين.

(٥) الأصفاد: جمع الصفد وهو الغل الذي يقرن به اليد إلى العنق.

(٦) سرابيلهم: السربال تفسير القميص.

وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

الذين يشكرون الله، فيستخدمون نعمه في سبيل خيرهم، يكون مصيرهم الفلاح مثل إبراهيم عليه السلام بينما الذين يتخذون من النعم وسيلة للبطش والظلم فإن الأجل الذي حدد لاختبارهم سوف ينقضي والله ليس بغافل عنهم ولا عن أعمالهم، إنما يؤخرهم ليوم القيامة حيث تشخص فيه الأبصار، وتتركز إلى موضع الخطر لشدته، يسرعون إلى الداعي ويرفعون رؤوسهم هلعا، لا يملكون التحكم بأعينهم، بينما تذهب قلوبهم إلى حيث شاءت دون أن يتحكموا في أفكارهم، وسيتمنى الظالمون يوم العذاب لو يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب حتى يستجيبوا دعوة الحق، ويتبعوا الرسل، ويتساءل القرآن:أو لم تكونوا قد حلفتم إنه لا زوال لكم، وقد سكنتم في منازل الهالكين من أسلافكم الظالمين. وقد رأيتم ماذا فعل الله بهم من عذاب، وقد نبهكم الله إلى هذا المصير عن طريق بيان القصص الرشيدة، وبالرغم من أن الظالمين يخططون لأنفسهم لكي يحصنوها ضد الهلاك، إلا أن الله يحيط بمكرهم وأن كانت محكمة بحيث تستطيع إرادته إزالة الجبال.

وكما يهلك الله الظالمين كذلك يورث الرسل أرضهم بوعده، فلا تظن إن ربك يخلف وعده لأنه عزيز ذو انتقام، وفي يوم القيامة تتحول الأرض غير الأرض حتى تحسبها غير هذه الأرض، كما تتغير السماوات، ووقفوا جميعا أمام الله الواحد الذي يقهر عباده بسلطانه، وهنالك ترى المجرمين مقرنين في الأغلال، يلبسون ثيابا من القطران التي يطلى بها جسم الإبل، بينما تشوي وجوههم النار، وهنالك تتجسد المسؤولية حيث تلقي كل نفس جزاء أعمالها التي اكتسبتها والتي ضبطها الله بسرعة في الحساب، هذا نذير بليغ للناس لكي يعلموا إنما الله إله واحد، ولكي يتذكر أولوا الألباب.

بينات من الآيات:

انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار

[٤٢] قد يرقى إلى قلب البشر الشك في هلاك الظالمين بعد أن يزداد ظلمهم وتعديهم، فيظن المظلومون إن الله غافل عنهم، ولا يدري أن بعض الظالمين يؤجل حسابهم إلى يوم القيامة، فلا يظنوا أو لا يظن المظلوم أن التأخير علامة الإهمال ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي يوم القيامة حيث العذاب الشديد.

[٤٣] وترى الظالمين يسرعون للفرار من الخطر وحيث يأمرهم الزاجر، وهم رافعوا رؤوسهم خوفا وهلعا، ولا يتحكمون في حركة اعينهم، كما أن قلوبهم فارغة من التفكير في أي شيء سوى في مصدر الخطر ﴿مُهْطِعِينَ﴾ الإهطاع: الإسراع ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ الإقناع طأطأة الرأس ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾

أقسام الظالمين في العذاب

[٤٤] يبدو أنه ينقسم الظالمون إلى قسمين:من يؤخذ فقط في الآخرة، وهم الذين لا يقاومهم المظلومون، ومنهم من يعذبهم الله في الدنيا وفي الآخرة، وهم الذين تنذرهم هذه الآية ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ ودور الرسول هو قطع هذه الحجة، فلا ضير لو لم ينتفعوا من الإنذار ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾.

[٤٥].ولكن كيف اطمأنت نفوسكم إلى الدنيا، وأنتم ورثتموها من غيركم، ولو لا هلاككم لما ملكتم بيوتهم، أو لا تسألون أنفسكم لماذا هلك أولئك!؟ أو ليس بسبب الظلم الذي اقترفوه؟! فهلا اعتبرتم.

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ وهذا المنذر هو من تلك الأمثال.

المكر الخاسر

[٤٦] قد يظن الظالمون أنهم لو كانوا أفضل خطة من السابقين لاستطاعوا أن يحموا أنفسهم من جزاء ظلمهم، ولكن هيهات.. كل الظالمين مكروا مكرا، ولكن المكر كان بالتالي في حدود سلطان الله، وفي إطار هيمنته، فهو الذي زودهم بعقل وإرادة وقوة حتى خططوا لأنفسهم، ومتى ما يشاء يسلب منهم وعيهم، فيتحول مكرهم عليهم.

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾ أي توسلوا بكل وسيلة ممكنة للحفاظ على أنفسهم. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ فالأمور بيد الله حقا، وليس بيد العبد إختيار ما يريد، وربنا لا يعصى عن غلبة، بل بقوته التي منحها لعباده يعصيه الكفار.

وقد يكون مكر البشر قادرا على إزالة الجبال ولكن الأمر بالتالي بيد الله الذي زود الإنسان العقل والعلم.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ تزعم الجاهلية الحديثة التي اخترقت الفضاء، وغارت في أعماق المحيطات، وفلقت الذرة، ودكت الجبال تزعم أنها تستطيع الفرار من عقوبة ظلمها للمحرومين والمستضعفين، ولكن هيهات، إن الذي زود البشر اليوم بهذه الطاقات قادر أن يسلبها منهم متى يشاء.

إن كل جيل من الظالمين كان يحسب أنه قد بلغ القمة في تسخير الطبيعة، ولكن بعد حلول أجله أحاط به مكره، وهلك في الأكثر بذات القوة التي زعم أنها تحميه، فأغرق الله فرعون، وابتلعت الأرض قارون وكنوزه، ودكت حصون عاد ذات الصخور التي اعتمدت عليها.

[٤٧] كما أنه قد يزعم الظالمون إن الله يتجاوز عن ظلمهم، بسبب أو بآخر، ولكن هيهات.. وقد وعد ربك رسله بان يأخذ أعداءهم بعزته، وإذا كانت صفة الرحمة والغفران أبرز اسماء الله، فان اسم العزيز المنتقم من أسمائه الحسنى أيضا، وأنه سوف ينفذ هذا الاسم عليهم بسبب وعده للرسل، فلا يغرقوا في الرجاء الساذج، ويتوغلوا في ظلم العباد ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾.

[٤٨] ويبقى سؤال: إذا لماذا لا ينتقم الرب من الظالمين علي كثرة ظلمهم؟ أجل أنه أخّر انتقامه ليوم القيامة ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ فلأن البحار تتبخر، ولأن الجبال تتدكدك، ولأن الأرض تصبح قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، فإن الأرض تبدو وكأنها غير تلك التي نعرفها، كما أنه يتغير لون السماوات، وتجتمع أجرامها إلى بعضها، حيث تجمع الشمس والقمر، وتتناثر نجومها، وتكون السماوات غير هذه التي نراها، وهنالك يظهر الظالمون أمام محكمة الله ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ هنالك يتجلى اسم العزيز ذي الانتقام، فهل من مهرب؟.

[٤٩] أما المجرمون فيؤتى بهم على رؤوس الأشهاد وقد صفدوا بالأغلال الموضوعة على ايديهم، حيث يسلكون في سلسلة طولها سبعون ذراعا ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ بعضهم ملتصق بالبعض مغلولين -والعياذ بالله-.

[٥٠] وقد ألبسوا من مادة القطران سرابيل، حيث تحيط بهم مادة لزجة سوداء نتنة تشبه القار -يطلى بها الإبل- فتصبح كالثوب للقسم الأسفل من أجسادهم، بينما القسم الأعلى منها، تحيط به النار فتصبح كالحجاب.

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ دعنا نتصورهم في مادة سائلة

يحترق نصف جسدهم في المادة ونصفه في لهيبها، أو ليس الله عزيزا ذا انتقام.

[٥١] وهكذا لا يدع الله أية نفس حتى يجزيها بما كسبت وهو سريع الحساب، حيث يحيط حسابه بكل صغيرة وكبيرة دون أن يعزب عنه مثقال ذرة.

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ وهكذا لا ينام أحد على حرير التبرير، ويمني نفسه بالخلاص من ذنوبه إلا بالتوبة والعمل الصالح.

[٥٢] وإذا كان عذاب الله شديدا فإنه حكيم لم يدع العباد من دون أن ينذرهم بكلام واضح عميق الأثر بلغ قلوبهم وهداهم إلى الله الواحد الذي لا يشارك ألوهيته شيء أو شخص، فلا أمل في شفاعة الأصنام، ولكي يتذكر من شاء النجاة وهم أصحاب العقول الذين يستفيدون من عقولهم ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ اللهم فاجعلنا منهم.



* مكية.

* عدد آياتها: ٩٩.

* ترتيبها النزولي: ٥٤.

* ترتيبها في المصحف: ١٥.

* نزلت بعد سورة يوسف.

فضل السّورة

عن الرسول الأكرم ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَالحِجْرِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ عَبَدَ الأَصْنَامِ وَبِعَدَدِ مَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا».

(مجمع البيان: ج٦ ص٣٠١)

***

وعن الامام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ والحِجْرِ فِي رَكْعَتَيْنِ جَمِيعاً فِي كُلِّ جُمُعَةٍ لَمْ يُصِبْهُ فَقْرٌ أَبَداً وَلَا جُنُونٌ وَلَا بَلْوَى».

(وسائل الشيعة: ج٧ ص٣٧١)

الإطار العام

البشرية بين المادة والقيم السماوية

سورة الحجر تحدثنا عن ثمود الذين كذبوا المرسلين وأعرضوا عن آيات الله، واعتمدوا على بيوتهم المنحوتة من الصخور، فلم تغنِ عنهم شيئاً، بل أهلكهم الله وبقيت قصتهم عبرة لنا ألا نعتمد على الصخور والأشياء، بل على القيم.

ونظرة عامة إلى السورة توحي إلينا بأن إطار هذه السورة ينسف ما يعتمد عليه البشر من أفكار تبريرية، هي من وحي الشيطان الذي أقسم أن يغوي بني آدم بكل وسيلة ممكنة. كما تنسف السورة اعتماد الإنسان على الطبيعة، وتهدينا إلى الركن الأشد، وهو الله الذي يحفظ القرآن من التزوير والتحريف، ويحفظ البشر من الأخطار، ويحفظ السماوات والأرض.

وتؤكد السورة على أجل الإنسان الذي لا يمكن إختراقه أو تجاوزه، للدلالة على أن شؤون البشرية ليست بيدها.

ثم تتحدث السورة عن كيفية تحدي الإنسان المؤمن لغواية الشيطان التي تتخذ أشكالاً متفاوتة، كالكبر والحسد والغرور والعنصرية..

كما تعلن آيات هذه السورة بكل وضوح عن أن الجنة هي جزاء التقوى، وأن العذاب الأليم جزاء الكفر والجريمة، كما كان الشأن المريع في قوم النبي لوط عليه السلام.

وتهدينا الآيات إلى حقيقة أن الفكر لا يسلم من كيد البشر، إذ أن الإنسان الذي ينحرف يسعى لتبرير إنحرافه، ولكي لا يكتشف الفكر الصائب إنحرافه، تراه يحرِّف الفكر ذاته عبر التأويل والتفسير. ولكن الله تعالى قد أرسل القرآن مقياساً للبشر، وتعهد أن يحفظه من كيد التحريف، وهو الذي حفظ الأرض بهذا الواقع الموزون دون أن تهتز بفعل حركتها، باعتبار أن الحياة بيد الله وخزائنها لديه.

ثم ترشد الآيات القرآنية الإنسان إلى حقيقة خلقته وتطور مراحلها.. وتعلمه أن ذلك كله لينتخب الإنسان خيار التحدي الثابت والدائم لغواية الشيطان الذي قطع على نفسه أن يدفع بأولاد آدم إلى النار الأبدية.

وتلك كانت البداية، أما نهاية البشر، فهي الجنة ونعيمها لمن اتقى، والعذاب لمن غوى، كقوم النبي لوط عليه السلام الذين قرر الله أن يهلكهم دون أن يبقي منهم أحداً يحفظ سلالتهم، لما كانوا يرتكبونه من كفر وفجور يناقض حلال السماء.

ومثل قوم النبي لوط عليه السلام، قوم النبي شعيب عليه السلام، وهم أصحاب حقول مزروعة، انتقم الله منهم بناءً على السنة الإلهية الثابتة.

وأصحاب الحجر كذبوا بدورهم المرسلين، وكلما آتاهم الله سبحانه من آياته، أعرضوا عنها، وأخذوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين فيها، فنزل عليهم عذاب الله، حيث أخذتهم الصيحة في وقت الصباح، فهل منعت بيوتهم عنهم شيئاً من العذاب؟ كلا..

إن الحق هو محور وجود وطبيعة السماوات والأرض، وبه خلقن، ولذلك فإن الإنسان لا يبقى بلا جزاء. فإن لم ير جزاءه في الدنيا كقوم النبي لوط وثمود وأصحاب الأيكة الذين كذبوا المرسلين، فإنه سيراه -لا شك- في الآخرة التي لا ريب في مجيئها. فدع الكفار يعملون ما يشاؤون، واستقم أنت أيها المؤمن في طريقك، ويكفيك ما تنذرهم به من الحق.

الأمل الذي لم يسعده العمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

هذا الكتاب الذي نحن بين يديه يُقرأ ويُفهم بوضوح ينذرنا يوماً يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين أما اليوم فان الأمل يلهيهم عن الحق، وعن الخطر المستقبلي وسوف يعلمون أن افكارهم لم تكن سوى أماني كاذبة.

والله سبحانه تفضل على البشر حيث أرسل اليهم كتابا يبدد ظلام الأمل، كما أعطاهم فرصة كافية للهداية، وجعل لهم أجلا معلوما، لا يسبقونه ولا يستأخرون عنه.

ولكن ذات الأفكار التبريرية حجبت هؤلاء عن كتابهم فقالوا للرسول الذي كان يهبط عليه ما يذكرهم بصورة تدريجية حسب حاجاتهم أنك لمجنون، وطالبوه بأن ينزل عليهم الملائكة. أو لا يعلمون إن الله لا ينزل الملائكة إلا بحكمة وعندها ينتهي أجلهم حيث لا تزيد مهلتهم، وها هو التاريخ يشهد على ذلك.

بينات من الآيات:

[١] باسم الله الرحمن الرحيم، بعلم الله، وبقوته، وبرحمته الواسعة، أنزل قرآناً، يشار إليه بألفاظ ولكنها علامات واضحة تهدينا إلى الحق ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾.

الأمل الوثيري

[٢] الأمل الذي يسوف به الفرد عمل الخير، وينام على سريره الوثير قد يتحول إلى ندامة، فمن يعيش على (لو) يموت بـ (يا ليت)، ومن يركب حصان الأمنية يقتحم به وادي الحسرة ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾.

ويكفي أن نظن ظنا أننا سنندم يوما على فعلنا، يكفي ذلك موعظة لنا تهز مشاعرنا من الأعماق لأن الندامة لا تنفع وقد قال شاعرهم:

ليت وهل ينفع شيئا ليت ليت الشباب بوع[1] فاشتريت

[٣] سوف يعلم الكفار يوم يقضي أجلهم أن أملهم يلهيهم، وأن هدفهم كان مجرد التمتع بزينة الحياة الدنيا، وأن الأمل كان مسكنا لوخز ضمائرهم، وحجابا لوهج عقولهم ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾.

سنة العذاب

[٤] إن ساعة الندامة شديدة الوطء حتى علينا ونحن نتصورها، كيف هي حالة من يضيع فرصته الوحيدة وقد تثير في أنفسنا الشفقة، ولكن الله يقول: لقد وفرنا كافة الوسائل الكفيلة لهدايتهم فعاندوا ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾.

[٥] ولكن الفرصة ليست أزلية وإذا أنتهت فلن تعاد ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾.

ويلاحظ في هذه الأمة:

أولاً: إن الأمة وليس الفرد قد حدد لها الأجل، وذلك لأن الأفراد هم اتباع تجمع بر

(١) بوع: أي بيع من باع.

وفاجر. يتفاعلون معه في خيرهم وشرهم لذلك فإن أجل كل مجموعة ينتهي في وقت واحد.

ثانياً: إن تقديم الأجل كما تأخيره غير ممكن إلا أن يشاء الله، والسبب أن ربنا لا يأخذ أحدا قبل أن يكمل له فرصته ويتم الحجة عليه تماما.

التبرير منطق التقهقر

[٦] ويبرر الكافر بكفره عناده بالهجوم ضد من يحمل تلك الفكرة السليمة، وهكذا الكفار اتهموا الرسول بالجنون ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾ أنهم كانوا يتهربون من ذكرهم، ويخافون من الهداية على متعتهم الزائلة، فبالرغم من اعترافهم بأنه صاحب ذكر يريد بلورة عقولهم وتزكية نفوسهم اتهموه بالجنون لأنه كان يضحي بكل راحته ومتعته من أجل مصلحتهم، ولا يريد مصلحة لنفسه، فأي تهمة يمكن الصاقها به غير الجنون -طبعا- حسب ثقافتهم المتوغلة في المادية. وحسب تفسيرهم للعقل وهو الحصول على أكثر ما يمكن من المكاسب، ينبغي أن يكون المضحي من أجل الهدف ومن دون أية مصلحة ذاتية، أن يكون مجنونا.

أما الجنون بمعنى انعدام العقل فإنه ينعكس على تصرفات الفرد -في أكله وشربه، في سلمه وحربه، في إرادته لأصدقائه، ومقاومته لأعدائه- وهل كان الرسول مجنونا بهذا المقياس؟ وهل الرساليون السائرون على نهجه مجانين بهذا المقياس؟ أم بمقياس الماديين السائرين في متع الدنيا الرخيصة؟!.

[٧] ولكي يبرروا كفرهم طالبوا الرسول بأمر تصوروه محالا وقالوا: ﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وهكذا كل فرد لا يريد أن يؤمن بفكرة أو يقوم بعمل يتعلل ببعض العلل.

[٨] ولكن ألا يعلمون أن نزول الملائكة، يعني كشف الغيب أمام عين البشر، والله جعل الدنيا دار اختبار لعقل البشر وإرادته، وهل يختار الحق على الشهوات، ويكتشف الحق بين الشبهات أم يخضع لشهواته ويستسلم لها، وحين يشاء بعث الملائكة وكشف الغيب فإنه ينهي فترة الإختيار، وبعدها لا تُعطى فرصة أخرى للأمة.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴾ فعند هبوط الملائكة لا يهمل الناس، وكل من يموت قد يشاهد الملائكة ويؤمن بها ولكن من دون فائدة.

هكذا يحفظ الله رسالته

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ(١) ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ(٢) فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ(٣) سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ(٤) ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ(٥) أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا(٦) وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ(٧) فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

الفكر لا يسلم من كيد البشر. إذ أن الإنسان الذي ينحرف يسعى لتبرير انحرافه، ولكي لا يكتشف الفكر الصائب انحرافه يحرف الفكر بذاته بالتأويل والتفسير، والله أرسل القرآن مقياسا للبشر، وتعهد من أن يحفظه من كيد التحريف، وبالرغم من ان الله أرسل من قبل الرسول رسلا في مختلف فرق الناس الأولين فإنهم كانوا يستهزئون بالرسل، ويحرفون

(١) شيع: الشيع الفِرَق.
(٢) نُسلكه: نُدخله.
(٣) خلت: مضت.
(٤) يعرجون: العروج الصعود.
(٥) سكرت أبصارنا: غشيت.
(٦) بروجاً: البروج أصله الظهور ومنه البرج من بروج السماء وبرج الحصن ويقال تبرجت المرأة إذا ظهرت زينتها.
(٧) استرق السمع: إذا تسمع مستخفياً.

رسالاتهم، وسوف يحفظ الله القرآن ويسلكه في قلوب المجرمين ليبقى حجة بالغة عليهم لا يقدرون على تحريفه وهم لا يؤمنون به، وسنة الله جرت على أمثالهم ثم أخذهم بشدة، وليس عدم إيمانهم بسبب نقص في الحجة بل في أنفسهم، فلو أن ربنا فتح بابا في السماء فأخذوا يصعدون فيه، إذا قالوا لقد سترت أبصارنا عن الحقيقة وسحرنا، ومن لا يستضيء بالشمس هل تنفعه الشمعة؟! إن آيات الله في الكون أكبر من الصعود إلى السماء فها هي السماوات ذاتها، وما فيها من بروج جُعلت بحيث تشع جمالا وبهجة، كما أنها متينة تتحدى الشياطين، إلا بعض من حاول استراق السمع، فجاءه شهاب مبين، فهل نفعتهم الآيات هذه؟!.

بينات من الآيات:

كيف حفظ الله كتابه

[٩] كل الرسالات السماوية تعرضت للتحريف من قبل المبطلين، والقرآن بدوره سوف يتعرض لمثل هذه المحاولات، التي سوف تتجه في اتجاهين.

ألف: محاولة تغيير النص القرآني، وتبديل كلمة بأخرى.

بـاء: تغيير معاني القرآن، وتفسيرها بما يتناسب ومصالح المحرفين وأهوائهم، ولأن كل كتاب ينسخه كتاب إلا القرآن الذي جاء خاتمة للرسالات، فإن الله قد وعد أن يحافظ عليه لكي تتهيأ للأجيال القادمة فرصة الهداية يقول ربنا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ وهو القرآن الذي يثير في البشر دفائن عقله التي عفا عليها غبار النسيان.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أما ألفاظ القرآن، فقد حفظها الله بنصر الأمة، ودخول الناس أفواجا في دين الله، وإقبال الناس على كتاب الله، بحيث لم يبق مجال لتحريف ألفاظه.

وأما معاني القرآن فقد قيض الله سبحانه لهذه الأمة أئمة هدى وعلماء ربانيين حفظوا معالم الدين عن الإندراس، وأصبحوا بأفعالهم وأقوالهم تفسيرا صحيحا لنصوص القرآن، ولا يزال العلماء الربانيون والشباب المجاهدون ماضين قدما على نهج أولئك السلف الصالح في نفي شبهات الضالين وتحريف المبطلين.

الرسالات ومهمة الوحدة

[١٠] ولقد أرسل الله في الأمم السابقة على اختلاف فرقهم رسلا فلم تكن بدعة رسالة محمد ﷺ، كما لم تكن بدعة مخالفة الناس لها، واستهزائهم بها، ولكن الله سيحفظ هذه الرسالة

بالرغم منهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقد يكون الشيع إشارة إلى الفِرَق: «وهي جمع كلمة شيعة وهم الأتباع» للتذكر بأن كل رسالة، كانت تهدف فيما تهدف، توحيد الفرق المختلفة التي انقسمت على نفسها بعد الرسالة السابقة.

[١١] وواجه الناس رسلهم بأسوأ طريقة، حيث استهزؤوا بهم ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

[١٢] ولكن مع ذلك فإن ربنا يتم حجته على الناس، ويدخل الذكر في قلوب المجرمين. سواء آمنوا به أم لا لكي لا يقولوا كنا ناسين، أو لم نكن نعرف الحقيقة ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

[١٣] وهذا لا يدل على إجبار المجرمين على القبول به، بل أنهم لا يزالون على إختيارهم كبشر، وعلى عاداتهم الإجرامية ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وهذه سنة الله أن من يرتكب الجريمة لا يوفق عادة للإيمان ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

دليل الله في السماء

[١٤] عدم إيمان هؤلاء لا يدل أبدا على نقص في الأدلة، وبالتالي ينبغي ألا نجعل إيمان المجرمين مقياسا لقبول فكرة الرسالة، والدليل إنه لو فتح الله عليهم طريقا يصعدون عبره في السماء لما آمنوا لأن عقولهم في أكنة من الشهوات.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ أي استمروا يصعدون دون أن يكون الأمر مجرد لحظات يشتبهون فيها بأنهم يحلمون مثلا.

[١٥] ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ تتوهم العين برؤية باب السماء والصعود فيه، بسبب نشوة أو حجاب، ثم يكتشفون أن جسدهم يحس أيضا بوضع الصعود، هنالك يقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

[١٦] العروج في السماء ليس أكبر آية لربنا بل أكبر منه هذه السماء التي جعل الله فيها منازل وأجراماً، وأسبغ عليها من الجلال والجمال ما يبهر العقول والعيون ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ فخالق السماء هو خالق الأرض والإنسان وما فيه من غرائز، وهو الذي خلق الإحساس بجمال النجوم في السماء.

[١٧] وبالإضافة إلى الجمال الباهر في السماء فقد حفظها الله من كل شيطان رجيم، فالجن الذين يوهمون البشر بأنهم على علم بما يجري في السماء، وأنهم يعلمون الغيب إنهم يكذبون.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ حيث أنه يرجم باللعنة وبالشهاب المبين.

[١٨] نعم يغامر بعض الشياطين فيقتربون من بعض المواقع للحصول على بعض الأخبار، فيأتيهم الشهاب المبين ليردعهم ليعودوا خائبين.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ وهكذا نسف القرآن أساس عبادة الشياطين، واتباع الكهنة والمنجمين الذين يكذبون حتى ولو صدقوا. كما أن القرآن لم ينف وجود بعض المعلومات المتناثرة، ولكنها غير موثوق بها. من هنا فوجود بعض المعلومات لا يدل على سلامة المصدر دائماً إذ أن هدف الشياطين من إعطاء المعلومات السليمة هو تضليل البشر في القضايا العامة. تماما مثل وسائل إعلام الطاغوت التي تنقل عشرين خبرا صحيحا لتدس خبرا هاما باطلا.

قدرة الله وحكمته ينبوع العطاء

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [1] فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾.

هدى من الآيات:

كيف امتدت الأرض دون أن تهتز بفعل حركتها، ومن جعل فيها الجبال التي رست بسفينة الأرض، وكيف أنبت الله فيها من المعادن والنباتات الموزونة، وجعل الله للإنسان في الأرض ما يعيش عليه، كما جعل لسائر الأحياء ما يرزقها دون أن يكون للإنسان أثر فعال فيه.

ولكل نعمة ينبوع تفيض منه، وينابيع النعم عند الله، ولكنه لا ينزل منها إلا بقدر تقتضيه حكمته البالغة، مثلا ينبوع المطر الذي جاء من بخار البحار وعواصف الرياح التي تلقحها وتحملها حتى تسقي الناس، ثم تبقى تحت الأرض في خزائن يملكها الله.

والحياة بيد الله، وخزائن الحياة عنده، والموت بيد الله وأسباب الموت عنده والوارث بعد الموت هو الله.

---

(١) لواقح: اللواقح: الرياح التي تلقح السحاب حتى يحمل الماء.

والعلم بمفاتيح الغيب ينبوع من خزائن القدرة الإلهية، فربنا يحيط علمه بالسلف والخلف، وإليه مصير الناس جميعا.

هكذا تتصل شؤون البشر بمشيئة الله. ابتداء من أمه الأرض، إلى معيشته فيها، إلى ماء السماء، وإليه المصير. أو ليس الأفضل التسليم له؟.

بينات من الآيات:

دليل الله في الأرض

[١٩] أحب البشر أرضه، التي نبت فيها، وارتضع من خيراتها، ودب عليها، ومن أجل الدفاع عن بضعة أشبار منها أرخص دمه. أو لا يعلم أن الأرض هذه خلقها الله، ومدها من تحته من بعد أن كانت كتلة ملتهبة، ثم قرر الجبال فيها، ووضعها حيث تحافظ على توازنها على أدق نظام، وهو الذي أحاط علما بوزن الجبال ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ الرواسي، الثوابت وواحدها راسية والمراسي ما يثبت به[١]، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ الوزن أدق من الكيل، وكل شيء له وزنه الخاص ليس فقط كمجموع بل كما نعلم إن كل مادة كيمياوية تتركب من ترتيب نسب معينة من المواد الاخرى لا تزيد ولا تنقص، بحيث لو زادت أو نقصت لأصبحت مادة أخرى تختلف بل تتناقض خصائصها وميزاتها مع المادة السابقة.

[٢٠] وجعل الله للإنسان معايشه في الأرض، فعلمه كيف يعيش، وخلق أنواع الصيد في البر والبحر، وعلمه كيف يصيد، وأودع في الأرض كنوز الخير يستخرجها البشر بالزراعة، وعلمه كيف يحول مواد الأرض بحيث يستفيد منها، كما أنه وفر لكل حي رزقا يناسبه، هل يرزق البشر بعض أنواع الهوام والحشرات والدواب والطيور، والأسماك ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ معايش جمع معيشة وهي طلب أسباب الرزق مدة الحياة[٢]، ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾.

وقد تفسر الآية: بأن ربنا قد ضمن رزق من لا يملك حولا مثل المرضى والمقعدين. و... وهكذا.

[٢١] وبالرغم من أن الإنسان يسعى من أجل رزقه، فهو مثلا: يحرث الأرض ويطلب الصيد، ولكن هذا السعي ليس سوى وسيلة لاستدرار رحمة الله. ذلك لأن خزائن الله مليئة بالرزق، وتنتظر أوامر الله التي لا تأتي إلا بحكمة، ومتى تقتضي الحكمة؟ عندما يسعى البشر.

(١) مجمع البيان: ج٦ ص٤٣٠.
(٢) المصدر السابق: ص٤٣٠.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فلو أعطى الله البشر من دون سعي لشجعه على الكسل والترف، وإذا أنزل عليه أكثر من حاجته طغى في الأرض.

[٢٢] ومن خزائن رحمة الله بركات السماء، فالرياح تهب بسبب حركة الشمس، فتلقح السحب. تجمعها، وتربط السالب والموجب فيها، وتجعلها مهيأة للمطر ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ إنما ربنا الذي يخزن بقية المياه في خزائن جوف الجبال.

قدرة الله وحكمته

[٢٣] والموت والحياة بأمر الله، ولو لا الحياة هل كانت أموال الإنسان تنفعه شيئا؟!.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ فالأموال تعود بالتالي إلى الله.

[٢٤] وهكذا ينبغي ألا نعبد الأرض وما فيها ولا معايشنا، بل نعبد الله ربنا لاسيما وربنا يحيط علما بالبشر الخلف والسلف ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

[٢٥] وإنه سوف يحاكم الجميع بعد أن يحشرهم إليه، وهو حكيم لا يجازيهم إلا بما كسبوا، عليم بما فعلوا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

كيف يتحدى المؤمن غواية الشيطان

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ[1] مِّنْ حَمَإٍ[2] مَّسْنُونٍ[3] ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ[4] ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ[5] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى[6] لَأُزَيِّنَنَّ[7] لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(١) الصلصال: الطين اليابس يسمع له عند النقر صلصلة وهي صوت شديد متردد في الهواء.
(٢) الحمأ: جمع حمأة وهو الطين المتغير إلى السواد.
(٣) مسنون: من سننت الماء على وجهه أي صببته وقيل المتغير.
(٤) السموم: الريح الحارة.
(٥) فأنظرني: أمهلني في الدنيا ولا تمتني.
(٦) أغويتني: الاغواء الدعاء إلى الغي والضلال.
(٧) لأزينن: التزيين جعل الشيء متقبلاً في النفس واغواء الشيطان تزيينه الباطل حتى يدخل صاحبه فيه.

هدى من الآيات:

الأرض التي تحتضننا خليقة الله، فماذا عن الإنسان فوق الأرض، وما هي قصته التي لا تنتهي؟.

لقد كان ترابا فجُعل طينا، وبقي حتى تسنَّه، ثم أصبح صلصالا كالفخار يابسا يخلق منه البشر، وقبلئذ خلق الجان من نار أوجدتها الرياح السامة.

وبدأت القصة حيث قال الله للملائكة -وكان بينهم بعض الجان- وهو إبليس: إني خالق بشراً من طين يابس متخذ من حمأ مسنون، وأمرهم بأن يسجدوا له متى ما أصبح سويا متكاملا، وعندما يبعث فيه من الروح التي خلقها، فإذا بهم يسجدون جميعا، ويأبى إبليس، ويسأله الرب: لماذا لم تكن من الساجدين؟ فيجيب: أو لست قد خلقتني من نار ومثلي لا يسجد لبشر مخلوق من صلصال قد أتخذ من هذا الحمأ المتغير، فيخرجه الله من ساحة قربه ويرجمه بلعنته، ويطرده إلى أن يأتي يوم الدين فيحاسب. بيد أنه يطلب الإمهال إلى يوم البعث، فيعطيه الرب مهلة معينة لا يعرف مداها، ويتوعد بني آدم: بأن يزين لهم في الأرض وأن يغيرهم أجمعين، ولكنه يعرف أن هناك عبادا لله قد أخصهم ربهم لنفسه بسبب عبادتهم له وتسليمهم لأوامره، ويؤكد ربنا أن هناك صراطا مستقيما يتعهده الله ويسير عليه عباد الله الذين لا سلطان لإبليس عليهم. إنما سلطانه على من يتبعه وهم الغاوون الذين سيكون مصيرهم جهنم التي لها سبعة أبواب، كل فريق منهم يدخل من باب بينما المتقون في جنات وعيون يدخلونها وهم سالمون آمنون، لا يعيش في قلوبهم غل وهم إخوان يجلسون على سرر متقابلين، لا يعتريهم تعب لا يخشون من إخراج. تلك هي قصة الإنسان فوق الأرض فهل نعرف مغزاها؟.

بينات من الآيات:

مراحل الخلق

المرحلة الأولى

[٢٦] كيف خلق الله الإنسان الأول؟.

إن ربنا أحسن الخالقين قد يخلق شيئا بقوله كن فيكون ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وقد يخلقه وفق السنن والأنظمة، وقد خلق جسد الإنسان بهذه الطريقة حسبما تشير إليه تكاملية خلقه وضمير الجمع في ﴿خَلَقۡنَا﴾ أما روحه فقد نفخها فيه بقدرته المطلقة وبصورة مباشرة حسبما توحي إليه آية ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. وضمير

المفرد في قوله هنا: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾.

وهكذا تدرج الانسان من تراب، ثم إلى طين لازب وإلى حمأ مسنون وإلى صلصال كالفخار، وإلى أن سواه ربنا إنسانا فنفخ فيه من روحه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ الصلصال: الطين الجاف، الحمأة، والحمأ: طين أسود منسق، والمسنون: المتغير.

يبدو أن ربنا أجرى على التراب ماء فتفاعل معه فأصبح طينا لازبا، ثم تفاعل معه فأصبح متعفنا، ثم نمت الحياة فيه بفعل التفاعل وخلق فيه الحياة فأصبح مستويا، ثم نفخ الله فيه روح العقل والإرادة، فاستحق سجود الملائكة.

قال صاحب مجمع البيان: «وأصل آدم تراب، وذلك قوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ ثم جعل التراب طينا، وذلك قوله: ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ثم ترك ذلك الطين حتى تغير واسترخى وذلك قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ثم ترك حتى جفّ وذلك قوله: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ فهذه الأقوال لا تناقض فيها. إذ هي أخبار عن حالاته المختلفة»[1].

الطبائع البشرية

ويبدو أن لكل أصل من أصول البشر رواسب في خلقته، فلأنه من تراب يحن إلى الأرض، ويحب العمارة فيها، وينبغي أن يكون خاضعا لله، ساجدا عليها، لا يرى أحد أنه أفضل من غيره بطبعه لأن طبعهم جميعا هو التراب.

ولأنه من طين لازب فهو ابن الشهوات والأهواء، ولكنه يتصلب على شيء بسبب كونه من صلصال، وتلك جميعا طبائع البشر المادية، أما الروح فلها خصائص أخرى.

[٢٧] قبل أن يخلق الله البشر خلق عدوه -الجان- الذي يقابل الإنس، ذكر هنا بلفظة جان للدلالة على طبيعته كما نقول «الإنسان» ونشير إلى طبيعته دون ملاحظة أفراده.

كيف خلق الجان؟ يبدو أن ريحا تحمل السموم بسبب حرارتها، وقد عصفت فأوجدت نارا فخلق الله منها الجان ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

[٢٨] وأما كيف أصبح الجان عدو الإنسان فلذلك قصة أخرى بدأت مع إخبار الله ملائكته:

(١) مجمع البيان: ج٦ ص٤٣٤.

إنه سوف يخلق بشرا ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ وعرف الملائكة طبيعة هذا الخلق كما جاء في سورة البقرة. إنه ما دام من الطين فلا بد أن يفسد في الأرض.

المرحلة الثانية

[٢٩] ولكن الله أنبأهم أن له طبيعة أخرى يستحق بها السجود والخضوع تلك هي روحه الإلهية ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ويبدو أن التسوية هي تكامل جميع الأعضاء، وتعادل الغرائز وهذه مرحلة تسبق مرحلة بث الروح.

[٣٠] أما الملائكة التي هي الأرواح المطيعة لربها، المكلفة بتسيير الخليقة حسبما يأمرها جبارها، فإنها سجدت لآدم لمكان الروح التي نفخت فيه من الله ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾.

وكما استوحينا من آية في سورة البقرة[1]: إن الملائكة ترمز إلى قوى الطبيعة التي سخرت للبشر، بينما بقيت قوة في الطبيعة وهي قوة نفس الإنسان (الأمارة بالسوء) الموكل بها إبليس.

[٣١] لذلك لم ينضم إبليس إلى مجموعة الساجدين متعمدا وعن سبق إصرار ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

[٣٢] لم يرضَ الرب بذلك، بل نهره قائلا: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

فقوى الشر ليست ضمن برنامج السماء، ولا هي مقضية من قبل الرب على البشر إنما هي شذوذ عن سنة الله، وتمرد مؤقت على إرادته، ولذلك ينبغي ألا يستسلم لها البشر ولا يعترف بشرعيتها، ويناضل ضدها أبدا حتى ينتصر عليها بإذن الله.

[٣٣] وتعليل إبليس كان أسوأ من عمله. إذ زعم أنه أفضل من آدم، وأخطأ مرتين:

الأولى: حين أعتقد أن ابن النار أفضل من ابن التراب، وأعتقد أن أفضلية المخلوق هي بأصله، لا بعلمه وبفوائده.

الثانية: حين تمرد على أوامر الله، اعتمادا على هذا الزعم، فحتى لو كان أفضل من آدم -جدلا- فإن سجوده بأمر الله ليس سجودا لآدم -في الواقع- بل لمن أمره وهو الله. إن طاعتك مثلا للنبي أو الإمام ليست طاعة له في الواقع بل لله، وإن تسليمك لأوامر قيادتك الإلهية ليس تسليما لبشر، بل لمن أمرك بذلك.

---

(١) راجع تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة.

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ونستوحي من هذه الآية: إن طينة الإنسان لم تكن مقدسة تستدعي السجود من قبل الملائكة بل إن كرامته من الله، وبقدر طاعته لله لأن طينته كانت من طين يابس متخذ من طين متعفن، وقد نفرت منه بعض قوى الطبيعة لزعمها أنها أفضل منها.

[٣٤] ولأن التمرد على الله، ومخالفة الحق شذوذ في برنامج الحياة وليس جزءاً مقدرا منه، أو جانبا مقضيا، فقد طرد ربنا إبليس من مقام الإرادة والتوجيه، وأبعده أيضا عن مقام الطبيعة المأمورة، ورجمه باللعنة فهبط إبليس بذلك ثلاث درجات:

الأولى: حين قال له الله: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي من مقام الملائكة حسبما يهدي إليه السياق، وقالوا من الجنة أو من السماء أو من الأرض، ولأن مقام الملائكة هو مقام الأمر حيث أنهم ينفذون أوامر الله على الطبيعة فهم وسائط أمره عز وجل فلذلك كان إخراج إبليس من ذلك المقام الذي هو السماء بالنسبة إلينا «السماء مصدر الأمر في القرآن» اللعنة الاولى.

الثانية: حيث أسقطه الرب عن مقام سائر ما في الطبيعة مما إستسلمت لأوامر الله طوعا فأصبح رجيما وقال له الله: ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾.

ونستوحي من الآية -مرة ثانية- إن العصيان شذوذ في الطبيعة لا قاعدة.

[٣٥] الثالثة: حين كتب عليه الرب اللعنة فأصبحت الطبيعة ضده وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ واللعنة هي الإبعاد من رحمة الله، ويوم الدين هو يوم الجزاء.

المرحلة الأخيرة

[٣٦] وانتهت المرحلة الثانية من قصة الخليقة، وبقيت المرحلة الأخيرة التي هي عبرتها، وما يلتصق بحياتنا أكثر فأكثر، ذلك إن إبليس طلب من الله فرصة إلى يوم البعث، فأعطاه الله فرصة معينة إلى يوم معلوم، قد يكون قبل يوم البعث أو هو يوم البعث ذاته.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وهنا كشف القرآن عن فلسفة المسافة الزمنية التي تفصل بين الجزاء وبين العمل في الدنيا.

[٣٧] ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ والبشر بدوره يعطى مهلة إلى أجل محدود.

[٣٨] وينتهي الأجل إلى وقت معلوم عند الله. مجهول عند صاحبه ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ

﴿ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ قال البلخي: «فأبهم ولم يبين لأن في بيانه إغراء بالمعصية»[1].

[٣٩] أخذ يهدد إبليس بني آدم الذي كان سبب إختباره وبالتالي لعنته.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ لم يضل الله إبليس إلا بعد أن اختار بكامل وعيه وبسابق قصده عصيان أمر الرب ويكفي في معنى السبب الذي توحيه كلمة (باء)، هذا القدر من العلاقة، وخلاصة معناه: رب كما أنك اختبرتني ففشلت، فإني سوف أهيء لهم وسائل الإختبار فيفشلون، وهكذا أنتقم منهم. وكان الله يريد أن يختبر عباده وهذا إبليس رشح نفسه لهذه المهمة، كما أن اللـه يريد أن يعذب القوم الظالمين فيرشح من هو أظلم منهم نفسه للانتقام فيتركه الله -بينه وبينهم- فيصدق الحديث القدسي: «الظَّالِمُ سَيْفِي أَنْتَقِمُ بِهِ وَأَنْتَقِمُ مِنْهُ»[2].

أما كيف وبأية وسيلة أراد إبليس إغواء البشر؟ فلقد كشفها لنا قائلا: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي سوف أجعل الأرض جميلة في أفئدتهم حتى تستهويهم.

[٤٠] إغواء إبليس كاغواء الله لإبليس. مجرد اختبار وليس إجبار، ويشهد عليه أن عباد الله المخلصين يتمردون عليه ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

[٤١] وصراط الله مستقيم وهو إلى الله، وعلى الله المحافظة عليه مستقيما، وألا يدع التشويه والإنحراف يصيبه كما قال سبحانه في الآية العاشرة من هذه السورة: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ فمهما كان لإبليس من قوة الإغراء ومن جمال التزيين، فإن الله لن يدع له المجال لتحويل الحق إلى الباطل، وبطمس معالم الدين كليا.

[٤٢] وإنه لن يدعه يجبر الإنسان على اتباعه، نعم من تبعه يضله الله، ولا يعينه على الشيطان الغوي ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ وهم اختاروا سلطة إبليس اختيارا ولم يجبرهم عليها الله، فحرام تبرير البعض خطأهم وانحرافهم بأنهم كانوا مجبورين.

[٤٣] أما الغاوون فإن الله أجل عذابهم الجماعي إلى جهنم ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

[٤٤] حيث تختلف أبواب الضلالة ولكنها بالتالي تنتهي إلى ذات المصير الواحد ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾.

---

(١) مجمع البيان: ج٦ ص٤٣٦.

(٢) كلمة الله: ص١٨٠.

النهاية بين المتقين والمجرمين

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ (١) إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ (٢) مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٣) ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٤) ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

تلك كانت البداية أما نهاية البشرية، فإن من اتقى فإن مقامه جنات تظلله وعيون ترويه، وسلام أبدي، ووئام مع إخوان الصفا، وراحة بلا نصب، وإقامة بلا إخراج، وغفران من الله

(١) الغل: الحقد الكامن في القلب.
(٢) سرر: السرير المجلس الرفيع.
(٣) وجلون: خائفون.
(٤) القانطين: اليائسون من رحمة الله.

الغفور الرحيم. أما من أجرم فإن له عذابا أليما.

وكمثل على ذلك في الدنيا، جزاء الله لإبراهيم إذ دخل عليه ضيوف مكرمون فسلموا عليه، ولكنه أبدى خوفه منهم فطمأنوه بألا يخاف لأنهم جاؤوا يبشرونه بغلام عليم، فاستغرب فرحا وقال: كيف وأنا كبير السن فهل تبشروني بحق؟! قالوا بلى ولا تكن آيسا من رحمة الله، فاستدرك إبراهيم قائلا كيف أقنط ولا ييأس من رحمة ربه إلا الضالون، وهذا جانب من فضل الله.

ثم سألهم عن وجهة سيرهم؟ قالوا: نحن مبعوثون إلى أناس مجرمين -هم قوم لوط- حيث نهلكهم، إلا آل لوط المؤمنين الذين سوف ننجيهم أجمعين، باستثناء امرأته التي ستكون من الهالكين، وهذا جانب من عذاب الله.

بينات من الآيات:

جزاء المتقين

[٤٥] من هم المتقون وما هو جزاءهم؟.

المتقون هم الذين لا يستجيبون لإغواء إبليس، ويتجنبون مصائده، ويعرفون كيف يزين لهم في الدنيا، وجزاءهم كالتالي:

أولاً: يأكلون ويشربون بلا تعب ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

[٤٦] **ثانياً**: يشعرون بسلام أبدي ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾.

وكل الناس يبحثون عن عافية أجسادهم وأعراضهم، وعن ضمان مستقبلهم، ولكن المتقين هم وحدهم الذين يدركون كل ذلك.

[٤٧] **ثالثاً**: بعد أن يشعر الفرد باطمئنان كاف، يبحث عن مؤمنين يتقاسم معهم النعماء، فالمؤانسة غذاء الروح، والعطاء راحة القلب، ويوفر الله للمتقين هذا الطموح، فينزع كل -ما في صدورهم من مرض قلبي، كالحسد والبخل والطمع و..- حتى تكون نفوسهم متلاقية متسامية عن الحجب، ثم يجلسون على سرر متقابلين، وما أحلى مقعدهم! ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾.

[٤٨] **رابعاً**: ليسوا بحاجة إلى إتعاب أنفسهم أو الخوف من المستقبل ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ

فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾.

النصب: التعب، وربما ارتبط التعب بالخوف من المستقبل في الآية، بسبب أن أكثر تعب الناس في الدنيا إنما هو للحرص على الدنيا، والخوف من المستقبل.

[٤٩] كم يبعث السكينة في النفس البشرية التي تعيش القلق على المستقبل المجهول، والخوف من آثار الأخطاء والذنوب حين يطمأنه رب العالمين بانه هو الغفور الرحيم، بكلمات ملؤها الحنان فيقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

لقد أعلن الرب رسميا لمن وصفهم بأنهم عباده قد خلقهم رحمة بهم لأنه هو الغفور، يمحي آثار الذنوب الماضية، الرحيم يزيد من يتوب من رحمته.

[٥٠] ولكنه في ذات الوقت ينبغي أن يكون مرهوب الجانب ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾.

ضيف ابراهيم عليه السلام

[٥١] وكشاهد على ذلك، قصة ضيف إبراهيم عليه السلام، حيث جاءت الملائكة إبراهيم بالبشرى بينما حملت إلى قوم لوط العذاب الأليم ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾.

[٥٢] ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ ربما لأنهم جاؤوا في وقت غير مناسب، أو لأنهم لم يأكلوا من طعامه، وكانت العادة تقضي بأن من يأكل طعاما في بيت لا يلحق بأهله أذى احتراماً للزاد والملح، فإذا لم يأكل يعتقد إنه ينوي شرا.

[٥٣] ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ فلقد جئناك مبشرين لا منذرين، ونحن ملائكة ربك، والملائكة كما نعرف تتمثل في صورة بشر سوي كما تمثل لمريم.

[٥٤] وكان إبراهيم عليه السلام ينتظر بفارغ الصبر هذا الحدث السعيد، وقد أشرف على اليأس بسبب طول الإنتظار، وها هو الرب يبشره ليس بالغلام فقط وإنما أيضا بأنه صاحب فضل وعلم، وبالتالي هو الولي الذي ينتظره منذ وقت ليكون وارث علمه وهداه، ولأن إبراهيم فوجئ بالأمر فقد كان رد فعله الأولي التعجب والاستغراب ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ فأنا قد احتواني عمري الطويل، وقد شارفت على مرحلة الشيخوخة التي لا تقل عن المرض الذي يمس صاحبه. فكيف تبشروني؟!.

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ هل هذه مجرد أماني وكلمات ترحاب يتبادلها الناس، أم وعد مؤكد من الله.

[٥٥] ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ وبأمر من الله، وليس مجرد أمنية حلوة نتمنى لك تحقيقها ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ ذلك أن رحمة الله واسعة، وتنزل على البشر بقدر أملهم في الله، وثقتهم فيه، فلماذا اليأس؟.

[٥٦] ونفى إبراهيم عليه السلام أن يكون تساؤله بسبب قنوطه ويأسه من رحمة الله، بل ربما كان بسبب عدم معرفة جدية البشارة، لذلك نراه يؤكد إن الضالين الذين لا يعرفون إحاطة الله بقدرته وعلمه ورحمته على الكون، هم وحدهم الذين يقنطون، فما دام ربك واسع الرحمة، قريب مجيب الدعاء، وقادر على كل شيء. فلماذا القنوط؟! ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

[٥٧] ولما اطمأنت نفس إبراهيم عليه السلام إلى أن ضيوفه ملائكة الله سألهم عن وجهتهم؟ ولماذا هبطوا إلى الأرض هل لمجرد بشارته، أم لأمر جلل؟.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ الخطب: الأمر العظيم.

[٥٨-٥٩] ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وعرف إبراهيم عليه السلام انهم ملائكة العذاب مبعوثون إلى قوم لوط وتساءل عن مصير لوط، فقالوا له: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو ومن آمن معه من أهله وقومه.

[٦٠] وليس النجاة لآل لوط لأنهم ينتسبون إليه -لأن عذاب الله أليم، ولا تحيد عن الظالمين-، بل آل لوط من آمن منهم، لذلك فإن امرأته جزاها الله بالهلاك لإنها ليست من آله ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الهالكين، وهو استثناء منقطع.

العذاب حصاد الظالمين

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ[١] (٦٢) قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ[٢] بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ[٣] (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ[٤] (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ[٥] (٧٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ[٦] لَظَٰلِمِينَ (٧٨) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾.

(١) منكرون: غير معروفين.
(٢) فأسر: الاسراء هو السير في الليل.
(٣) يعمهون: من العمه وهو أشد العمى.
(٤) للمتوسمين: المتوسم هو الذي يكتشف الحقائق من خلال سماتها وعلائمها.
(٥) لبسبيل مقيم: في طريق ثابت.
(٦) الأيكة: الشجر الملتف وجمعها إيك.

هدى من الآيات:

وجاء ضيوف إبراهيم إلى قرى لوط، فلما شاهدهم لوط لم يعرفهم فقالوا نحن جئنا لتحقيق وعد الله الذي كانوا يشكون فيه، وهذا هو الحق ونحن صادقون فيه، وأمروه بأن يخرج من قريته ليلا هو وأهله وليكن خلف أهله يشيعهم، ولا يلتفت أحد منهم إلى ما وراءه، وليمضوا إلى حيث يأمرهم الله دون تردد، وقد نزل بقومه قضاء الله الذي قرر أن يهلكهم دون أن يبقى منهم أحد يحفظ سلالتهم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية حين اكتشف أهل القرية وجود الضيوف، جاءوا يستبشرون ليفجروا بهم، فتصدى لهم لوط وقال:بأن هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني في ضيفي واتقوا عذاب الله، ولا تجلبوا الخزي علي. أما هم فقد استمروا في غيهم، وقالوا:نحن لا نقبل جوارك لأننا قد نهيناك سابقا عن استقبال الضيوف وإجارتهم، فعرض عليهم النكاح من بناته والإستعفاف بهن عن الفاحشة، ولكنهم كانوا لا يزالون في سكرتهم يعمهون.

وهكذا أخذتهم الصيحة في وقت الشروق، وجعل الله عالي القرية سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وإن قصة هؤلاء عبرة لمن ينتفع بالعبر، وإنها لعبرة قائمة ولكن ليس كل شخص يستفيد من العبرة إلا المؤمنون!.

ومثل لوط قوم شعيب وهم أصحاب حقول مزروعة انتقم الله منهم، وكانت قريتهم في موضع يؤمه الناس.

وأصحاب الحجر كذبوا بدورهم المرسلين، وكلما أتاهم الله من آياته أعرضوا عنها؛ وأخذوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فيها، فنزل عليهم عذابا لله حيث أخذتهم الصيحة في وقت الصباح، فهل منعت بيوتهم عنهم شيئا من العذاب. كلا..

بينات من الآيات:

وجاء الضيوف

[٦١] جاء ضيف إبراهيم إلى قرى لوط حيث كان يقطنها مجموعة من المجرمين، وقطاع الطرق.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ والتغيير بكلمة ﴿ءَالَ﴾ يدل على أن نظامهم كان عشائريا، شأن سائر القبائل العربية آنئذ.

[٦٢] فلما رآهم وقد جاؤوا إليه بهيئة شباب عليهم مسحة من الجمال والجلال فسألهم بعد أن استضافهم ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فلستم من أهل المنطقة، ولكي لا يمسهم قومه بسوء لذلك أجارهم على عادة القوانين الشائعة في قومه التي ينبغي أن يأخذ المؤمن الرسالي بأفضلها وأنفعها.

[٦٣] أفصحوا عن أنفسهم وبينوا أنهم ملائكة الله، وقد جاؤوا بالعذاب الذي شكك قومه فيه أنفسهم طويلا. فها هو العذاب يأتيهم ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾.

[٦٤] وكانت المفاجأة، وارتسمت على وجه لوط علائم الاستغراب وعاد الملائكة يؤكدون على أن ميعاد العذاب قد حان اليوم بلا شك ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾.

[٦٥] ثم أمروه بالرحيل، وهجرة الصالحين، ونزول العذاب على الآخرين وكانت الهجرة سرية ربما خوفا من منع الناس لهم، وكان المفروض على لوط أن يسير خلفهم ويشهد تحركهم لكي لا يبقى أحد منهم.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ يبدو أن لوطاً أثر فقط في أهله بينما بقي الآخرون على فسادهم ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أي اقتفي أثرهم ولأن الهجرة كانت صعبة لذلك جاءهم الأمر، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا ينظر إلى ما وراءه، ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ واستمروا من دون تردد أو تراجع، وهكذا ينبغي أن يهاجر الرسالي قومه بعد يأسه منهم دون شفقة عليهم أو حنان، أو ميل إلى ما يخلفه فيهم من مال أو أقارب.

[٦٦] وقضى الله، واخبر لوطا بقضائه بذلك الأمر الخطير، وهو الحكم بالإعدام الكامل لسلالة تلك العشيرة الفاسدة ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ فلا أحد يبقى منهم ليستمر نسلهم فيه حتى زوجة لوط التي كانت منهم هلكت معهم حيث حنت على قومها، والتفت إلى ما ورائها من أهل ومتاع. وهكذا تجسد الحق في انتقام شديد من قوم فسدوا ولم ينفعهم الإصلاح شيئا.

[٦٧] هذه صورة من المشهد، أما الصورة الثانية فإن أهل المدينة استبشروا بالضيوف، لأنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر عليهم، وكان موقعهم الجغرافي يساعد على هذه الفعلة حيث كانوا على الطريق الرئيسي الذي يربط المدينة بالشام[1].

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

---

(١) راجع علل الشرائع للشيخ الصدوق: ج٢ ص٥٤٨ عن الإمام الباقر عليه السلام.

المسؤولية الإجتماعية

[٦٨] فتلقاهم لوط عليه السلام بالنصيحة، وأجار الضيوف ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾ وكان الاعتداء على الضيف بمثابة الاعتداء على من هو في بيته في عرف تلك القبيلة الصحراوية.

[٦٩] ثم نصحهم أكثر فأكثر ودعاهم إلى الحذر من عذاب الله، وبَيَّنَ أن الاعتداء على ضيوفه يلحق الخزي به، وهو لذلك يدافع عن شرفه إذا تعرض ضيوفه لأذى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾.

[٧٠] أما هم فقد رفضوا قبول إجارة لوط عليه السلام، لأنه كان يفعل ذلك دائما، فكلما دخل قريته غريب استضافه حتى لا يصاب بأذى من قبل قومه، وكانوا قد أكدوا عليه ألا يقبل بعدئذ أي ضيف.

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ونستوحي من هذه الآية أمرين:

الأول:إن القبيلة العربية فقدت مع الزمن خصائصها الإنسانية كإجارة الضيف، ولم تبق فيها بقية من قيم يتشبث بها الضعيف والغريب.

الثاني:إن لوطاً عليه السلام ضحى بكل ما يملك من أجل الضعفاء، هكذا ينبغي ألا يكتفى بترداد شعار الدفاع عن المحرومين، بل لابد أن يدعم بالعمل الواقعي.

[٧١] وبلغ الأمر بلوط عليه السلام أن عرض على قومه التزوج ببناته لكي لا يتعرضوا لضيوفه بأذى.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ ويبدو أن توجيه لوط عليه السلام إلى البنات كان يهدف بالإضافة إلى ما قلنا:تذكرة قومه ان السبيل القويم لإفراغ الشهوة الجنسية هو السبيل الفطري الذي يحافظ على النسل، وليس الشذوذ الجنسي، ومن هنا يكون حديثه شاملا لبناته من صلبه، وبنات قومه باعتباره شيخا، أو قائدا يعتبر كل الفتيات بناته.

[٧٢] ولكنهم كانوا مترفين قد أسرفوا في الشهوات حتى أسكرتهم الغريزة الجنسية فلم يعودوا يفرقون بين الإناث والذكران، ولا بين الغريب والضيف والمستجار وبين قومهم.

﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ أي قسما بحياتك يا رسول الله، وأنت يا من تتلو القرآن إن قوم لوط عليه السلام قد فقدوا أبصارهم بسبب سكرة الشهوات، والعُمْر والعَمْر بمعنى

واحد ولكن عند الحلف يستخدم عَمْر بالفتح.

[٧٣] عندما لم يبق أمام لوط عليه السلام أي حل، ركن إلى الله ذلك الركن الشديد فكشفت الملائكة عن حقيقتهم له، وطمأنوا لوطا عليه السلام بأنهم لن يصلوا إليه، وجرى بينهم وبين لوط عليه السلام الحوار الذي بينه السياق.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ عند الصباح، حين لم يستطيعوا أن يردوا عن أنفسهم البأس.

[٧٤] وقلب الله مدينتهم على رأسهم ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ والسجيل: حجارة وطين، وقال أبو عبيدة: هو الحجارة الشديدة[1].

[٧٥] وها هي بلادهم مهدمة، فمن يعتبر منها؟ بالطبع ليس كل الناس بل المتوسمون منهم فقط الذين يكتشفون الحقائق من خلال سماتها وعلائمها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أما الذين يجمدون على ظواهر الأمور، وينظرون إلى ركام الصخور دون أن يتفكروا أنها كانت في يوم بيوتا معمورة فما الذي جعلها هكذا، فهم لا يعتبرون من قصص قوم لوط.

[٧٦] ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ قال الطبرسي: «معناه إن مدينة لوط بطريق يسلكها الناس في حوائجهم، فينظرون إلى آثارها ويعتبرون بها لأن الآثار التي يستدل بها مقيمة ثابتة بها وهي مدينة سدوم»[2].

ويبدو أن ضمير ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعود إلى الآيات، فمعناها إذن: أن الآيات قد وضعت معالم على طريق ثابت، وثبات الطريق وضوحها، ولذلك جاء في الحديث المأثور عن أهل البيت: «وَالسَّبِيلُ فِينَا مُقِيمٌ»[3].

[٧٧] ولكن لا يسلك هذا الطريق إلا المؤمنون، وهم من المتوسمين حقا لأن الإيمان بصيرة المرء، من خلالها ينظر إلى الحقائق الظاهرة فيؤمن بما ورائها من حقائق واقعية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن هنا جاء في الحديث: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله»[4].

---

(١) مجمع البيان: ج٥ ص١٨٣.
(٢) مجمع البيان: ج٦ ص٤٤٤.
(٣) الكافي: ج١ ص٢١٨.
(٤) الكافي: ج١ ص٢١٨.

أصحاب الأيكة تحت الغمام

[٧٨] هناك شاهد تاريخي آخر نجده في أصحاب الأيكة الذين اتاهم الله حقولا مزروعة فظلموا أنفسهم ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾.

[٧٩] وأصبح ظلمهم ظلمات عليهم، فعاقبهم الله بالحر سبعة أيام ثم جاءت سحابة استظلوا بها يلتمسون البرد فيها، فلما تجمعوا تحولت إلى صاعقة أحرقتهم جميعا ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ وبقيت لنا عبرتهم وعبرة قوم لوط، ألا وهي: إن تدبير الحياة يتم مرة بالرحمة ومرة بالانتقام فلا ينبغي الركون إلى النعمة، إنما يجب الحذر باستمرار من يوم الانتقام وها هي قصص قوم لوط وأصحاب الأيكة ظاهرة، وآثارها قائمة في طريق واضح يؤمه الناس ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ويبدو أن معناه: إن قوم لوط وأصحاب الأيكة كانا مع إمام واضح، من رسول وكتاب، فلم نعذبهما من دون إنذار مسبق.

أصحاب الحجر الأمن الحجري

[٨٠] وشاهد ثالث من واقع أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا أخاهم صالحا وكذبوا من ورائه كل الرسالات والرسل. إذ لا ينفع الإيمان برسول مضى والكفر بهذا الرسول ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وحِجْر اسم مدينتهم.

[٨١] ولقد وفر الله لهم سبل الهداية ولكنهم أعرضوا عنها عمدا ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾.

[٨٢] كل ذلك ثقة بحضارتهم وبالمتعة التي شعروا بها في ظل البيوت الصخرية العالية التي نحتوها من الجبال ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾.

[٨٣] ولكن الصيحة العالية التي أخذتهم كشفت عن مدى خطئهم، وإن البيوت لا تعوض عن القيم، كما أن القوة لا تحمي الشخص عن انتقام الحق ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾.

[٨٤] ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ فهل استطاعت مكاسبهم المادية أن تمنع عنهم العذاب الذي لحقهم بسبب كفرهم بالحق وبالقيم الإلهية؟!.

إذن مقياس الأمن ليس القوة بل الحق لأن بناء السماوات قائم على أساس الحق حسبما يأتي في الدرس القادم إن شاء الله.

فاصدع بما تؤمر

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

لأن الحق هو محور السماوات والأرض وبه خُلقن، فإن الإنسان لا يبقى بلا جزاء، وإن لم ير جزاءه في الدنيا كقوم لوط وثمود وأصحاب الأيكة، فإنه سيراه في الآخرة التي لا ريب من مجيئها، ولماذا الضجر؟ دع الكفار يعملون ما يشاؤون. استقم في طريقك ما دام الله هو الخلاق العليم، خلقهم هكذا ليبتليهم، وارضَ يا رسول الله، وأنت يا من تبعته بالقرآن المتشابهة آياته، لا تشغل نفسك بما يملكون من نعم متشابهة، واترك الاهتمام بالكفار وركز نظرك واهتمامك بالمؤمنين، ويكفيك بالنسبة إلى الكفار أن تنذرهم.

وكما أنذر الله الذين اقتسموا القرآن جزءاً جزءاً فطبقوا منه ما وافق أهواءهم، وتركوا

الباقي، فهل يحسبون أنهم يُتركون هكذا. كلا.. بل سوف يسألون جميعا عما عملوا، فأبلغ رسالتك حسبما أمرت واترك المشركين والذين يستهزؤون منهم، يكفيك ربك شرهم؛ والمشركون هم الذين يتخذون الها آخر غير الله، وفي المستقبل يُجازون بأفعالهم.

ولكي يزيدك الله سعة في الصدر تقابل بها استهزاءهم فسبح بحمد ربك واسجد له، واستقم في العبادة حتى تحصل على أفضل يقين بالعبادة الدائمة حتى الموت.

وهذه خلاصة عبرة سورة حجر التي ذَكَّرت بمصير المستهزئين في الدنيا، واستقامة الرسل، وعدم تزلزلهم بأقوالهم، وينبغي أن يكون كل ذلك وسيلة لهداية المؤمنين أيضا.

بينات من الآيات:

[٨٥] تكفينا نظرة عميقة إلى الطبيعة من حولنا لنعرف أن كل شيء خلق بحكمة وبهدف ولأجل محدود، وهذا يهدينا الى الحكمة من خلق الإنسان.

ونتساءل:إذا كان خلق البشر أيضا لحكمة، وإذا كان الإنسان محكوما بسنة الحق كما الكون من حوله، فلماذا يكتسب بعض الناس الجرائم دون أن يُعاقبوا، ويأتي الجواب:

لأن الله قد وعد أن يأتي يوم الجزاء بعد يوم الإبتلاء، إذن ينبغي ألا يضيق صدرنا بما يفعله الكفار، بل نتركهم بعد أن ننذرهم وبعد أن نهتم بشؤون المؤمنين من الناس ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ بلى، إذا تكتل المشركون وأرادوا منع المؤمنين من أداء فرائض دينهم، ومنع المستضعفين من الإيمان، فإن الله يأذن للمؤمنين بالجهاد، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

الصفح: هو الإعراض، والإعراض الجميل هو الذي يسبقه الوعظ والإرشاد، ويلحقه التمني بالهداية.

[٨٦] والله هو الذي خلق الكون والإنسان هكذا لحكمة، فلا يجوز أن أهلك نفسي من أجل الناس أو جبرهم على الإيمان. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

السبع المثاني

[٨٧] المشركون يملكون ألوانا من النعم المادية من الأموال والأولاد والزينة والقوة،

ونحن بدورنا نملك ألوانا من النعم المعنوية، فلا سبب يدعونا إلى محاربتهم للحصول على ثرواتهم لأننا أغنياء بثروتنا المعنوية.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ لقد فسروا (السبع من المثاني) بأنها سورة الحمد لأنها تحتوي على سبع آيات وذكرت فيها المترادفات أو المتقابلات مثل ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٣]، أو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، إذن فهي مثاني، أي محتوى آياتها مثنى مثنى.

ويبدو أن القرآن الحكيم قد نزل على سبعة أحرف، أو بتعبير آخر على سبعة أبواب للعلم تتلخص في سورة الحمد، التي احتوت على معاني القرآن الحكيم بإيجاز، وتتبين في سائر آيات الذكر بتفصيل.

وإذا كان نور القرآن يشع من مشكاة واحدة دون اختلاف أو تناقض، فإن آياته متشابهة وهي مثاني، كما إن نعم الكفار ذات ألوان وهي أزواج. بعضها يزين بعضا، وآيات القرآن بعضها يفسر بعضا.

ويظهر من هذا البيان إن القرآن العظيم هو السبع المثاني ولا منافاة بين التفسيرين. التفسير الذي يقول: إن معنى المثاني هو الحمد، والتفسير الذي يقول أنه القرآن كله لأن القرآن كله قد أوجز في تلك السورة.

[٨٨] والمؤمن يستغني بما لديه من ينابيع المعرفة، عما يملكه الآخرون من متع الحياة الدنيا، فلا يطيل النظر فيما يملكه أولئك من زهرة الحياة الدنيا.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ قال في الميزان: «المراد بالأزواج: الأزواج من الرجال والنساء، أو الأصناف من الناس كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس والمعنى لا تتجاوز عن النظر عما انعمنا به عليك من النعم الظاهرة والباطنة إلى ما متعنا به أزواجا قليلة أو أصنافا من الكفار»[١].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ فلا تأبه بكفرهم لأن من يبالغ في الاهتمام بالكفار قد يقع في بعض الأخطاء.

أولاً: قد ينشغل بذلك عن الاهتمام الجدي بالفئة المؤمنة، والسعي وراء تربيتهم وتعبئة طاقاتهم، كالذي يؤتيه الله أرضا، فلا يشكر الله عليها، ولا يحرثها بل يفكر أبدا بتلك الأرض

(١) تفسير الميزان: ج١٢ ص١٩٢.

الأخرى التي لم يحصل عليها، ويحزن عليها.

ثانياً: قد يدعوه ذلك الحزن إلى محاولة إكراههم على الإيمان بصورة أو بأخرى مما يتنافى وسنة الاختيار، وقد يتم ذلك عن طريق التنازل عن بعض أركان الدين كما فعلت الكنيسة في بعض عصورها فحرفت تعاليم السماء رغبة في توسيع رقعة نفوذها والحصول على المزيد من الأتباع.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى الرفق بهم، والاهتمام بشؤونهم: «والأصل فيه أن الطائر إذا أراد أن يضم إليه أفراخه بسط جناحه عليها ثم خفضه لها»[1].

التجزيئيون في الميزان

[٨٩] وبقدر ما يهتم الرسول بالمؤمنين يذر الكفار لشؤونهم، ويكتفي بإنذارهم لأن الإيمان أو الكفر لا بد أن يكونا بحرية الفرد التامة ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾.

[٩٠] وينذر الرسول كل الناس، بعذاب شديد لو تركوا القرآن أو قسموه أقساما، فتركوا جزء منه ذلك الذي يخالف هواهم ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أن أنزل العذاب عليهم.

[٩١] أما المقتسمون فهم الذين فرقوا دينهم وهم: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ عضين جمع عضة، وأصلها عضوة فنقضت الواو ولذلك جمعت عضين، مأخوذ من الأعضاء، يقال:عضيت الشيء أي فرقته وبعضته.

والسؤال:من هم هؤلاء؟.

قال بعضهم: إنهم اليهود والنصارى قبل الإسلام الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، كل حزب بما لديهم فرحون، والمراد من القرآن هو كتاب الله.

بينما قال البعض: إن طائفة من قريش قسموا القرآن فقالوا:هذا سحر -هذا كذب- هذا شعر، وكانوا ينتشرون في شعاب مكة يضلون الناس عن القرآن، فعذبهم الله، وأهلكهم جميعا.

ويبدو أن التفسير الأول أقرب، بالرغم من أن القرآن مثله كمثل الشمس يجري في عهد

---

(١) تفسير الميزان: ج١٢ ص١٩٢.

اليهود والنصارى، كما يجري في عهد المسلمين الأول في أولئك المستهزئين، وفي عهدنا يجري في أولئك الذي يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض بينما القرآن نزل مثاني تقشعر منه جلود الذين آمنوا، وكله من عند الله.

[٩٢-٩٣] ولكن هل يترك هؤلاء. أم هل يكتفي ربنا بعذابهم في الدنيا. كلا.. بل إن لهم يوما للحساب طويلا ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

[٩٤] أما أنت يا رسول الله فعليك بالإنذار بكل وضوح ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ولا تخشاهم ولا تأبه بهم ولا تحاول أن تسترضيهم بإخفاء بعض الكتاب وإظهار بعضه، ومعنى الصدع الجهر بالحق، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

[٩٥] وأكثر ما يؤلم الداعية ويثير أعصابه، ويستقطب اهتمامه هم المستهزؤون الذين يستخفون بالرسالة والله سبحانه وعد أن يكفي رسوله والدعاة إلى الله شر هؤلاء ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ في التفاسير أنهم كانوا في عهد الرسول «خمسة نفر من قريش»[١] أو ستة[٢] فأهلكهم الله عن آخرهم.

[٩٦] وهم في الواقع لا يستهزؤون بك إنما هم مشركون، وهم أعداء الله ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فمشكلتهم ليست معك لذلك لا يضيقن صدرك بأقوالهم.

حين يضيق صدرك

[٩٧] ولكن الرسول بشر، وكان ﷺ يحب رسالته ويتفانى من أجلها، فلم يكن من السهل عليه أن يسمع استهزاءهم لذلك سلاه ربه سبحانه قائلا: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾.

[٩٨] وأمره بأن يسبح الله كلما ضاق صدره فإنه منزه عن أقوالهم ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ التسبيح إشارة إلى أسماء الله الجلالية، والحمد إشارة الى أسمائه الكمالية. على المؤمن أن ينزه الله عن الضعف والعجز والموت والغفلة و..، كما يذكره بانه الحي القيوم العليم القدير و...

﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ لله بالصلاة، وكلما سجد العبد لربه كلما تعالى عن التأثر باذى

(١) تفسير مجمع البيان: ج٦، ص٤٤٩.
(٢) راجع تفسير التبيان للطوسي: ج٦، ص٣٥٦.

الكفار، واستهزائهم.

[٩٩] ولكي يحصل الداعية على أعلى مراتب القرب والزلفى لابد أن يديم العبادة لله ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ فلا أجل للعبادة الا لقاء الله، وأفضل تطلع للإنسان المسلم أن يختم حياته بخير وقد وصى يعقوب بنيه قائلا: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وسمى الموت باليقين لأنه يكشف للبشر الحقائق العارية حتى يحصل منها على يقين كامل، والخطاب ليس فقط للرسول بل لكل قارئ. أو لم ينزل القرآن على لغة «بِإِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ»[1].

(١) الكافي: ج٢، ص٦٣٠. عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ ...».

سُورَةُ النَّحل

* مكية.

* عدد آياتها: ١٢٨.

* ترتيبها النزولي: ٧٠.

* ترتيبها في المصحف: ١٦.

* نزلت بعد سورة الكهف.

فضل السّورة

عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّحْلِ فِي كُلِّ شَهْرٍ كُفِيَ المَغْرَمَ فِي الدُّنْيَا وَسَبْعِينَ نَوْعاً مِنْ أَنْوَاعِ البَلَايَا أَهْوَنُهَا الجُنُونُ وَالجُذَامُ وَالبَرَصُ وَكَانَ مَسْكَنُهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ وَ هِيَ وَسَطُ الجِنَانِ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥١)

***

عن النبي محمد صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ قَرَأَهَا لَمْ يُحَاسِبْهُ اللهُ تَعَالَى بِالنِّعْمَةِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَأُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَالَّذِي مَاتَ فَأَحْسَنَ الوَصِيَّةَ وَإِنْ مَاتَ فِي يَوْمِ تَلَاهَا أَوْ لَيْلَتِهِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ كَالَّذِي مَاتَ وَأَحْسَنَ الوَصِيَّةَ».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤٣)

الإطار العام

آفاق التعامل مع النعم الإلهية

لأن هذه سورة تذكرنا بنعم الله، فقد سميت بسورة النعم عند البعض، وسورة النحل عند الآخرين، فإن الإطار العام للسورة -كما يبدو لي- هو كيف نتعامل مع نعم الخالق؟ وجملة القول في ذلك:

١- ضرورة توحيد الله، ونفي الشركاء عمن أنعم علينا.

٢- تكميل نعم الله التي لا تحصى بأعظم نعمة، وهي الوحي والرسالة.

٣- الالتزام بحدود الله في الإستفادة من هذه النعم (التقوى).

كل ذلك يجعلنا من أتباع النبي إبراهيم الخليل عليه السلام الذي كان شاكراً لأنعم الله.

وتكاد (الآيات: ١-٩) تذكرنا بكل موضوعات السورة جملة واحدة.

وتستوقفنا للتدبر في الآية الثانية، حيث ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ وهكذا تذكرنا بالوحي والتوحيد والتقوى، وهي الموضوعات الرئيسة في السورة، والتي يريدنا الذكر الحكيم أن نستفيدها من نعم الله ونجعل الإيمان بها شكراً عليها.

ثم تذكرنا بآيات الله، تمهيداً لذكر النعم وأعظم الآيات خلق السماوات والأرض، ثم خلق الإنسان من نطفة، وخلق ما يحتاجه من الأنعام..

وبعد ذكر أهم المنافع للأنعام تبين (الآية: ٩) أن السبيل القويم للحياة الطيبة، وبالتالي لطريقة الانتفاع بنعم الله، إنما هو السبيل الذي يهدينا إليه الله سبحانه، أما السبل الأخرى فهي جائرة. وهكذا يصل السياق بين نعمة الوحي وسائر النعم باعتباره متمماً أساسيًّا لها.

وفي (الآيات: ١٠-١٨) يذكرنا الرب بنعم الماء والزرع والثمرات، وكيف سخر لنا الشمس والقمر، وسخر البحر، وما فيه من نعمة الأسماك والطرق البحرية للتجارة، ونعمة الجبال وما فيها من فائدة حفظ الأرض ومخازن الماء وكيف جعل النجوم علامات.

ويأمرنا بالتفكر والتعقل والتذكر والشكر لعلنا نهتدي إلى حقيقة التوحيد، وأن الله الذي يخلق ليس كالشركاء الذين لا يخلقون.

وتتابع (الآيات: ١٩-٢٩) التذكرة بالخالق الذي يحيط بنا علمه، وأن علينا الخشية منه، وألاّ نستكبر أو نستنكف عن عبادته سبحانه، لأنه يعلم ذلك منا، وأنه لا يحب المستكبرين.

ويحذرنا من إنكار الرسالة، ويذكرنا بمصير المستكبرين كيف أتى الله بنيانهم من القواعد فإذا بالسقف يخر عليهم في الدنيا، أما في الآخرة فلهم الخزي والنار، وأنهم أسلموا حين جاءتهم ملائكة الموت فأدخلوهم جهنم لأنهم تكبروا.

أما المتقون، فإن موقفهم من الرسالة هو أنها خير، حيث تهيء منهاج الإحسان الذي يؤدي إلى الحسنات في الدنيا، وإلى جزائهم الأوفى في الآخرة، حيث يستقر المتقون فيها بسلام (الآيات: ٣٠-٣٢).

ولا يهتدي الكفار بعقولهم، بل ينتظرون هبوط الملائكة لينظروا إليها بأعينهم، أو نزول العذاب الذي يُنذرون به (الآيات:٣٣-٣٤).

ومن الكفار من يبرر إنحرافه الفكري والسلوكي بالفكرة الجبرية، ويقول: لو شاء الله لمنعنا عن عبادة الشركاء، وهذا تبرير قديم، ولا يسع الرسل سوى البلاغ الواضح، وبعدئذ تبقى لهم حريتهم واختيارهم. والله لم يأمر بعبادة الطاغوت، بل بعث الأنبياء لخلاص الناس من الطاغوت فمنهم من استجاب لدعوة الرسل فهدين ومنهم من لم يستجب فأضله الله(الآيات:٣٥-٣٧).

ويستمر السياق (الآيات: ٣٨-٤٠) في معالجة حالة الاستكبار (و لعلها أعظم عقبة في طريق الإيمان بالوحي)، وذلك بالتذكرة بالبعث، وكيف أن الهدف منه بيان الواقع الذي يتمثل في كذب الكفار.

وفي (الآيات: ٤١-٤٢) يذكرنا الرب بأجر المهاجرين، لماذا؟ لينبهنا إلى ضرورة مقاومة الاغترار بالنعم، إذا خير المؤمن بينها وبين الحق.

ويعود في (الآيات: ٤٣-٤٤) يذكرنا بالوحي، وكيف أن النبي ليس بدعاً من الرسل،

فاسألوا أهل العلم الذين أحاطوا علماً بالبينات والزبر، والقرآن ذكرٌ أُنزل على رسول الله ﷺ بهدف توضيح وتكميل الرسالة التي نزلت على الناس بشكل تدريجي، والغاية الأسمى لها إثارة عقولهم وتحريضهم على التفكير.

ومرة أخرى (الآيات: ٤٥-٥٥) يذكرنا الله سبحانه بأن الذين مكروا السيئات لا أمان لهم من مكر الله. ولعل ذلك لكي يعالج غرور الاستكبار في النفس. ثم يذكرنا بأن كل شيء في الطبيعة يسجد لله سبحانه، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله، بل يخافون ربهم، وأن الله قد نهى عن اتخاذ شريك له، وأمر بالخوف منه وتقواه. أو ليست النعم منه؟ وإذا فقدنا منها شيئاً أولسنا نجأر إليه؟ ومع ذلك يشرك كثير من الناس بالله بعد أن يكشف عنهم الضر.

ويستمر السياق في تسفيه فكرة الشرك، والاعتقاد بأن النعم من غير الله، ونسبة الأمثلة السيئة إلى ربهم سبحانه، كأن يكرهون البنت ولكنهم يزعمون أن لله البنات سبحانه.

كلا؛ لله المثل الأعلى، وللمشركين مثل السوء، وأن لهم النار، وأن الشيطان وليهم.

ولعل (الآيات: ٥٦-٦٣) تهدينا إلى ضرورة التسليم بأن النعم من الله، وعدم الانبهار بالنعم، وبمن يملك النعم من البشر، أو بما هي وسيلة للنعم من مصادر الطبيعة، لكي لا يهبط الإنسان إلى حضيض الشرك، فينسى أن المثل الأعلى لله سبحانه.

وهكذا (الآيات: ٦٤-٧٤) فهي في الوقت الذي تذكرنا بأن الرزق والوحي من الله، تبين لنا مجموعة من النعم؛ مثل الماء الذي ينزله الله من السماء فيحيي به الأرض، ويرزقنا شراباً لذيذا من بين فرث ودم لبناً خالصاً، ويرزقنا السكر من ثمرات النخيل والأعناب، ويرزقنا شراباً ثالثاً من النحل فيه شفاء للناس.

تلك نعم الله، فلماذا نشكر غيره أو نعبد سواه؟ ويقلب الله البشر من حياة إلى موت، وربما إلى هرم ويفضل بعض الناس في الرزق، فهل نعبد سواه، وهل يملك الرزق غيره؟ وهو الذي جعل للناس من أنفسهم ازواجاً وأولاداً وحفدة، ورزقهم من الطيبات، فلماذا يكفرون بنعمه ويعبدون غيره وهو لا يملك رزقاً، أو يقرنوه بسواه ويضربون له الأمثال سبحانه؟.

ويبدو أن الآيات هذه تخفف من (سَورة) الانبهار بنعم الله لكي يخلص المرء لربه عبادته ويمنحه حبه.

كذلك (الآيات: ٧٥-٨٣) تذكر الناس بأن الله وحده يملك ناصية الأقدار، بينما الشركاء المزعومون هم كعبد مملوك لا يقدر على شيء، فمن هو أحق بالعبادة؟ وأن الله يملك

غيب السماوات والأرض، كما يملك أمر الساعة، وهو الذي أنعم على البشر بالعلم بعد أن خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وهذه الطيور في جو السماء ما يمسكهن إلا الله.

هكذا الولاية لله، وأنه السلطان القائم بأمر العالمين. وهكذا نعم السكن الدائم أو المتنقل كالخيم، ونعمة الأثاث والمتاع ونعمة الظلال والأكنان والثياب أيام السلم، والدروع للحرب، أو ليست من تمام نعمة الله؟ فلماذا الكفر وإنكار نعمة الله؟.

و يستمر السياق القرآني عبر (الآيات: ٨٤-٨٩) ينذر الكفار والظالمين والمشركين الذين يعبثون، ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، ولا ينقذهم شركاؤهم، وألقوا جميعاً السلم إلى الله، بيد أن كبراءهم أشد عذاباً. ويؤكد السياق على شهادة الرسول هنالك، وأن الكتاب لابد أن يقرن بالشاهد على الناس، وأنهما لن يفترقا.

ويعود القرآن الكريم في (الآيات: ٩٠-٩٧) يبين واحدةً من أهم نعم الله، وهي الكتاب الذي أوحاه الرب لعبده ليتم نعمته على الناس، ويبين السبيل إلى الانتفاع بالنعم. وجملة القول في تنظيم الحياة حتى تكون طيبة؛ هي العدل، والإحسان، وإيتاء حقوق ذوي القربى، واجتناب الفحشاء والمنكر والبغي، وهكذا الوفاء بعهد الله والإلتزام بالإيمان.(ويشدد عليها القرآن توكيداً وربما لأنها أهم منظم للعلاقات الاجتماعية). ورعاية التساوي أمام القانون، لكي لا تستضعف طائفةٌ طائفةً ثانية، لما تعتقد أنها أرفع شأناً منها، واجتناب استغلال اليمين استغلالاً سيئاً، ثم الصبر (ولعله لمقاومة إغراء الشهوات).

ويشجع السياق العمل الصالح، لأنه مفتاح الحياة الطيبة. وهكذا يبين الكتاب منهاجاً كاملاً للحياة الطيبة..

ولكن كيف نستفيد من القرآن؟ لأن الشيطان قد يغوينا عنه، أو يجعلنا نحرف آياته، فإن (الآيات: ٩٨-١٠٥) تبين لنا منهاجاً لفهم القرآن:

أولاً: بالاستعاذة بالله حين قراءته من الشيطان.

ثانياً: بالتسليم لكل آياته، لأن روح القدس قد نزله بأمر الله فلا اختلاف ولا نقص فيه، وشبهات الكفار مرفوضة حيث قالوا بأن رجلاً أعجمياً يعلم الرسول هذا القرآن الذي هو قمة البلاغة.

ثالثاً: اجتناب الافتراء على الله (الكذب).

إن السبيل إلى الإيمان هو التعالي عن الحياة الدنيا واستحباب الآخرة عليها. وهكذا

تكون النعم في الدنيا نافعة لمن ملكها، وأما من ملكته النعم واستحب الحياة الدنيا على الآخرة، فإن الله لا يهديه، لأنه يكفر بالله وبرسالاته.

هكذا تبين (الآيات: ١٠٦-١١٣) الموقف السليم من نعم الله. ويبدو أن الذين يستحبون الحياة الدنيا ويفضلون نعمها على نعم الله في الآخرة هم الذين يشرحون للكفر صدراً، فيسلب منهم الرب أدوات الوعي وأولئك هم الغافلون.

أما من يسمو بنفسه عن الدنيا، ويهاجر بعد أن يُفتَن في الله ويجاهد ويعبد ربه، فإن الله بعدها لغفور رحيم.

إن تساميه عن الدنيا ينفعه يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها.

وإن الكفر بالله يسلب النعم في الدنيا أيضاً، كما ضرب الله مثلاً قرية أسبغ الله عليها نعمة الأمن والرزق فلما كفرت أذاقها الله لباس الجوع والخوف.

وهكذا جزاء من امتلكته الدنيا ولم يستمع لنداء الرسول، وبالتالي لم يستفد من نعمة الوحي التي تحافظ على سائر النعم.

وهذا لا يعني أبداً ترك نعم الله. كلا؛ بل يعني:

أولاً: تنظيم العلاقة معها، بحيث لا تنسينا ذكر الله.

ثانياً: تنظيم الاستفادة منها كما أمر الله.

وهكذا تبين (الآيات: ١١٤-١١٩) حدود الله في الانتفاع بنعمه، وهذا بعد من أبعاد التقوى التي جاءت الآيات الأولى في هذه السورة لتأمرنا بها.

علينا ألا نحرم الطيبات على أنفسنا، بل نأكل منها ونشكر الله عليها.

أما المحرمات؛ فهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به (إلا عند الاضطرار).

وحرام الافتراء على الله، والكذب عليه بأن هذا حلال وهذا حرام.

أما اليهود؛ فقد ظلموا أنفسهم فحرم عليهم أشياء بسبب ظلمهم.

أما رحمة الله على هذه الأمة فهي واسعة، حيث أن الله رفع القلم عمن عمل سوءاً بجهالة ثم تاب وأصلح.

ويعطي القرآن الكريم وعبر (الآيات: ١٢٠-١٢٣) أسوة للذين آمنوا من قصة النبي إبراهيم عليه السلام كيف كان شاكراً لأنعم الله، وأن علينا اتباع ملته.

أما قصة السبت وحرمة الصيد فيه؛ فهي خاصة بالذين اختلفوا فيه (الآية: ١٢٤).

والرسول، مهبط وحي الله، يدعو قومه بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو المثل الأعلى للعدل والإحسان، وللصبر والاستقامة وسعة الصدر، وسيرة الرسول خير شاهد على صدق رسالته، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (الآيات: ١٢٥-١٢٨).

وهكذا تحدد سورة النحل العلاقة السليمة مع نعم الله، حيث يزداد المؤمن بواسطتها إيماناً بربه وتسليماً لرسالات ربه ونبذاً للشركاء، واستقامةً أمام المفسدين.

وعلى الله قصد السبيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ[1] وَحِينَ تَسْرَحُونَ[2] ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ[3] ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بإسم الله، برحمته الواسعة الدائمة، بعلمه وحكمته، بقدرته وتدبيره، تشرع هذه السورة.

---

(١) تريحون: من أراح بمعنى رد الانعام بالعشي إلى المراح وهو محل استراحة الحيوانات.

(٢) تسرحون: ترسلونها صباحاً إلى محل الرعي والسرح وهي مأخوذة من السروح.

(٣) قصد: القصد استقامة الطريق.

يستعجل المشركون دائما جزاء أعمالهم، زاعمين أن التأخير دليل العدم، كلا.. فها هو أمر الله المتمثل في تحقيق ما أنذر به الرسول قد أتاكم ليجازيكم على شرككم، دون أن يقدر الشفعاء على إنقاذكم من عذاب الله.

وتهبط الملائكة بين حين وآخر من أمر الله، بالروح الذي يحمل رسالة ربه إلى الناس بالإنذار بضرورة التوحيد، والأمر بالتقوى. ولا أحد يفر من الجزاء، لأن خلق السماوات والأرض قائم على أساس الحق، ولا إله ينقذ البشر من عذاب الله. تعالى الله عن شركهم.

ومن الذي يستكبر على الله؟! إنه هذا الإنسان الذي كان أصل خلقه نطفة، فإذا به يديم الجدال ويكل وقاحة في الحقائق، بالرغم من انه لا يزال بحاجة إلى نعم الله، فهذه الأنعام خلقها الله للإنسان يستدفئ بها، وينتفع منها، ويأكل منها، ويتخذ منها وسائل الزينة، ووسائل النقل إلى بلد بعيد يشق على الأنفس الوصول إليه، كل ذلك آية رحمة الله ورأفته بالبشر، كما خلق الرب الخيل والبغال والحمير لكي يمتطيها البشر ويتخذ منها زينة، هذه نعم ظاهرة، وهناك نعم باطنة لا نعرفها، والله الذي هيأ النعم حدد البرامج التفصيلية للإنتفاع الأفضل منها، حين بين لنا بفضله السبيل المستقيم إليها، ولكن دون أن يفرض علينا السير عبره، ولو شاء الله لهدى الناس جميعا.

بينات من الآيات:

بين الخلق والأمر

[١] يبدو إن أمر الله هو إبداعه وإنشاؤه الذي يتم بإحداث الإرادة، ويعبر عنها القرآن بكلمة- ﴿كُن﴾- قائلا: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ويبدو أن هناك فرقا بين الأمر والخلق؛ فالخلق قد يكون بالوسائل المعهودة، و حسب السنن التي أجراها الله، بينما الأمر هو الخلق المباشر الذي لوحظ فيه الإنشاء والإبداع.

وكذلك أمر الله هو بتدبيره المباشر يوماً بيوم و ساعة بساعة حيث قال الله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالذي خلق أول مرة هو الذي يجري في خلقه سننه الظاهرة وكلماته الباطنة فهو فعّال لما يريد، يمحو ما يشاء و يثبت ما يشاء وهو كل يوم في شأن ومن هنا يسأله من في السماوات والأرض. و يستجيب دعاء المضطر إذا دعاه. ويكشف كربة المكروبين.

وعذاب الله للأمم المنحرفة، كما رسالة الرسل أمران إلهيان إبداعيان، لا يخضعان للسنن

الظاهرة.

وحين جاء الرسل بالإنذار استعجل الكفار ما انذروا به، و اتخذوا من التأخير دليلا على عدم وجود الجزاء، و جاءت الآية تنذرهم باقتراب ساعة الجزاء ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾.

والواقع أن شركهم بالله، وزعمهم إن هناك آلهة تمنعهم من دون الله، هو الذي جعلهم يطمئنون ولا يأخذون الإنذار بجدية كافية، و نفى ربنا ما أشركوا به.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ فهو منزه وهو أسمى من أن تساويه بشريك، وهو خالق كل شيء.

روح رسالات الله

[٢] ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ والله ينزل الملائكة ملكاً بعد ملك، مؤيدون بالروح، والروح -حسبما يظهر من النظر في مختلف الآيات التي تحدثنا عنه- هو: ذلك الملك العظيم الذي يؤيد الله به رسله، والذي يأتي إلى الأرض في ليلة القدر مع الملائكة، وهناك قول آخر يقول: «إن الروح كلمة الحياة التي يلقيها الله سبحانه إلى الأشياء فيحييها بمشيئته ولذلك سماه وحياً وعدَّ إلقاءه وإنزاله على نبيه إيحاء في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]. فإن الوحي هو الكلام الخفي والتفهيم بطريق الإشارة والإيماء، فيكون إلقاء كلمته تعالى -كلمة الحياة- إلى قلب النبي ﷺ وحيا للروح إليه»[1].

وإذا كان الروح ملكا، فإن الباء هنا تدل على الإستعانة، أي مستعينا بالروح ومؤيدا، أما إذا كان الروح جوهر الرسالة المركب من نور العلم والهدى، وهو الذي يحي البشر كما قال سبحانه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤] فإن الروح يكون النور الذي جاء به الملائكة إلى الأرض، وهذا المعنى قريب أيضا من قوله سبحانه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥].

﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ والملائكة تصدر انطلاقا من أمر الله، فلا تعمل حسب أهوائها، لذلك فهم يهبطون إلى عباد الله المصطفين ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾؛ فالرسل عباد الله وليسوا أنصاف آلهة، أما محتوى الرسالة وجوهرها فهو التالي: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ إخلاص العبادة لله في كل الشؤون، والذي يتجسد في التقوى، هو جوهر الرسالات الإلهية.

---

(١) تفسير الميزان: ج١٢ ص٢٠٦.

[٣] وحين ينذر ربنا عباده من الإنحراف عن خط التوحيد، فإن ذلك ينسجم مع أساس الخلق، حيث خلق السماوات والأرض بالحق، وإنه هو المهيمن عليها دون شريك، فالبشر إذا شذوا عن سنة الكون، فلا أحد ينقذهم من جزاء إنحرافهم، لأن ربنا تعالى عن الشركاء الذين يدعوهم الكفار أندادا له سبحانه فلا يغنون من عذاب الله شيئا ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

[٤] ومن هو هذا الإنسان الذي يخالف سنة الكون؟! أو لم يخلق من نطفة، فإذا به يتحول إلى مجادل يلقي الحجة بعد الحجة. ويختار رأيه الخاص به، ويفند سائر الآراء بل تراه قد يتحدى سنة الحق بلا استحياء!! ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

[٥] والإنسان بحاجة إلى الطبيعة من حوله، يتفاعل معها، فلابد أن يكيف نفسه مع السنن العامة التي تحكمها، فنرى الأنعام كالغنم والبقر والإبل خلقها الله لكي ينتفع بها البشر من عدة أبعاد:

أولاً: إنها تدفئ جسد الإنسان، بأصوافها وأشعارها ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾.

ثانياً: إن للأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم) منافع أخرى في أنها تحمل الإنسان. أوليس الإبل سفينة الصحراء أو لم تكن الأبقار أفضل وسيلة للزراعة سابقا؟! فهي تحرث الأرض وهي تروي الأسرة باللبن ومشتقاته وهي إلى جانب ذلك ثروة عظيمة بسبب سرعة تناسلها ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾.

ثالثاً: يأكل الإنسان من الأنعام باعتبارها أفضل للغذاء، وأنسب طعام للإنسان، ومن أخصب الحيوانات نسلا، وأسرعها نموا.. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

[٦] **رابعاً**: وهي تشبع حاجة نفسية للبشر، حاجة السيطرة على الطبيعة، وتسخيرها لأهدافه، والتفاعل معها. إن منظر الأنعام حين تعود من مراعيها بالليل ليريحها أصحابها في مرابضها. إن هذا المنظر يملأ العين بهجة والقلب سرورا، ويشبع كل أبعاد النفس البشرية التي تحن إلى أمها الطبيعة. كما أن منظرها وهي تسرح أول الشروق، يطلب أصحابها لها الرزق، يشبع غرور المسؤولية عند البشر.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ إن الحيوانات الأليفة تشبع تقريبا ذات الحاجة النفسية التي يشبعها الأولاد عند أبناء آدم ولكن بدرجة أدنى.

إن خالق الإنسان وجاعل الغرائز في نفسه، هو خالق الأنعام التي تشبع هذه الغرائز، وهذا هو الحق الذي أرسى عليه الله بناء السماوات والأرض.

[٧] خامساً: ويحتاج البشر إلى مراكب في البر كحاجته إليها في البحر، وفي ذات الأنعام وبالذات في الإبل هذه الفائدة الكبيرة.. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ أي تحمل الأنعام أحمالكم إلى البلاد البعيدة التي يشق عليكم بلوغها.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وفر هذه النعم جميعا لكم لأنه ذو رأفة ورحمة، وربما الفرق بين الرأفة والرحمة يكمن في أن الأول يلاحظ النفع الحالي، بينما يلاحظ في الثاني النفع حالا ومستقبلا.

[٨] وإلى جانب الأنعام خلق الله للإنسان حيوانات أخر للركوب والزينة، فيها - تقريبا- ذات المنافع ولكن بدرجات متفاوتة لا يعلمها البشر.. ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنواع المنافع المادية والمعنوية التي لا نعلم مدى حاجتنا إليها.

[٩] والله الذي خلق كل هذه النعم فصل لنا كيف نستفيد منها، ووضع البرامج التي تمنع الإسراف أو الإفساد فيها، أو الشذوذ في الإستفادة منها!.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ فقد كتب على نفسه الرحمة فبين بفضله الطريق القاصد المستقيم إلى الغايات النبيلة، فلأنه الذي خلق تلك الأحياء لفائدة البشر، فهو العليم بمنهاج الإنتفاع بها، فهو الذي يبين لنا السبيل المستقيم في ذلك، ولكنه لم يجبرنا على ذلك جبرا، فمن الناس من يسلكون السبيل الجائر المائل عن الحق ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

لعلكم تهتدون

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن ذكرنا الرب بآياته. من خلق السماوات والأرض، ثم خلق الإنسان من نطفة، وإعطائه النطق ثم خلق الأنعام. والخيل والبغال والحمير. مبتدئ بالخلق الأعظم فالأعظم وأنعمه الأكبر فالأكبر. أقول: بعد أن ذكرنا الرب بها في الدرس السابق لعلنا نخلص العبادة

لله، ونترك الشركاء من دونه.

أخذ السياق -بعدئذ- يتدرج عبر سائر النعم الأقرب منها إلينا فالأقرب. فذكرنا بالمنافع التي جعلها في المطر. وتغيير الأنواء واختلاف الليل والنهار. وما فيها من منافع ونتساءل من الذي أنزل المطر من السماء فأخرج المراعي والثمرات ووفر الماء للشرب؟.

ومن الذي أنبت في الأرض زرعا بماء السماء، وأنبت أشجار الزيتون والنخيل و الأعناب وألوانا من الثمرات الأخرى؟.

إنه الله، ولكن المتفكرين من الناس هم الذين يهتدون بهذه الآيات وسخر الليل والنهار للإنسان، وسخر الشمس والقمر كما سخر النجوم. كل تجري في فلك. إن هذه الآيات ينتفع بها من ينتفع بعقله، وهيأ في الأرض للبشر ألوان المنافع، فمن تذكر اهتدى بهذه الآيات إلى الله. خالقها ومدبرها.

وجعل الله البحر بحيث يستفيد منه الإنسان لحما طريا، كما أودع في قاعه أنواع الزينة، وهيأه للسفن التي تمخر فيه، كل ذلك لكي يسعى الإنسان من أجل رزقه ثم يشكر الله عليه.

وإذا خرجت إلى البر رأيت الجبال التي تقوم بدور المراسي[1] تحافظ على تعادل الأرض وتمنع ميلانها، و أودع فيها مخازن المياه التي تتفجر أنهارا، كما جعل فيها طرقا يسلكها البشر ويهتدي فيها بعلمه، ولعله يهتدي إلى ربه بذلك العلم.

والله سبحانه أودع في السماء علامات يهتدي بها البشر، ووراء كل آية حقيقة، ووراء آيات الكون حقيقة الألوهية، فهل الذي يخلق كمن لا يخلق، لماذا لا نتذكر؟!.

كل تلك النعم -التي لو عديتها لما أحصيتها- شاهدة على أن الله غفور رحيم بعباده.

بينات من الآيات:

[١٠] الله الذي قدر الكون بحيث أنزل لكم ومن أجل استمرار معاشكم ماء من السماء تشربون منه، كما ينبت لكم الله به مراع لأنعامكم، ولولا المطر من أين تأكل الأنعام؟!.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ قال الأزهري: «الشجر ما ينبت من الأرض، قام على ساقٍ أو لم يقم»[2]. وهذا الرأي أقرب إلى السياق هنا،

(١) المراسي: جمع مِرساة بمعنى انجر السفينة الذي تقف به في البحر.
(٢) مجمع البيان: ج٦، ص١٤١.

كما هو الأقرب إلى أصل معنى الشجر وهو ظهور الشيء أو اختلاطه ببعضه.

﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ الكلمة مأخوذة من الأسامة، وهي الرعي يقال أسمت الإبل أي رعيتها. وقال بعض المفسرين إن الآية: «تدل على ماء الشرب إنما هو من السماء فقط». وهو كذلك واقعاً.

[١١] والماء الواحد يهبط على الأرض الواحدة، فإذا بها تنبت به ألوانا مفيدة من الثمرات ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ ﴾ وأكثر طعام البشرية من الحنطة والحبوب والخضراوات وبالتالي من الزرع ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ ﴾ وهي الثمرات الأكثر نفعا للجسم البشري، والأكثر انتشارا في مختلف الأقاليم ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، يوفر الله لكل أرض ما يناسبها، ويناسب حاجة أهلها، ففي ثمرة كل أرض المواد الأشد ضرورة بالنسبة إلى سكان تلك الأرض ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

مراحل العلم وهدف الأنعام

[١٢] تختم هذه الآيات بالكلمات التالية: ﴿يَتَفَكَّرُونَ - يَعۡقِلُونَ - يَذَّكَّرُونَ - وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ - تَهۡتَدُونَ ﴾ فما هي العلاقة بينها؟ ولماذا جاءت متدرجة. علما بأن التدبر في نهايات الآيات يفهمنا معاني الآيات ولربما أعطانا علما جديدا؟ يبدو أن مراحل تكون العلم عند الإنسان هي التالية:

ألف: مرحلة جمع الحوادث وربطها ببعضها والتعرف على علاقتها الثابتة ببعضها، والحصول منها -بالتالي- على قانون عام يحكمها، وهذا يحصل عن طريق التفكر، لأن التفكر -حسبما يبدو لي- هو تقليب المعلومات وخلطها وإعادة فرزها جاء في المنجد (الفكر جمعه أفكار: تردد الخاطر بالتأمل والتدبر بطلب المعاني).

والآية الماضية ربطت الحوادث الظاهرة (هطول الأمطار، واخضرار الأرض واختلاف الثمرات) ببعضها، وجعلتها جميعا آية الخلق عن طريق التفكر، فقال ربنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأنه بسبب تقليب المعلومات نحصل على أنها آية الله.

باء: مرحلة تخزين التجارب والاستفادة منها في فهم الحوادث الجديدة، ويبدو أن هذه العملية تسمى بالعقل -حسبما تدل عليه الكلمة- إذ أن أصل العقل مستوحى من العقال، وهو الذي يحفظ الناقة، وجاء في الحديث: «**العَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ**»[1].

---

(١) غرر الحكم: حكمة: ١٠١٤٠.

وربطت هذه الآية بين العقل وبين التعرف على سر تسخير الطبيعة للبشر، لأن فهم هذه الحقيقة صعب وبحاجة إلى تجارب مختزنة أكبر. يقول ربنا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ فاختلاف سنن الله في الليل من الظلام والسكون، وركون الطبيعة إلى الراحة. اختلافها عن النهار وما فيه من الضوء والضوضاء، والنشاط في السعي كل ذلك جاء لمصلحة البشر، كما سخر الله الشمس والقمر ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾، وقد لا تكون النجوم جميعا مسخرات للبشر إلا أنها تنفع البشر، وترتبط بتسخير الشمس والقمر، آيتي النهار والليل.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فعن طريق تخزين التجارب والاستفادة منها سوف يبلغ البشر درجة من العلم تؤهله لمعرفة سر الطبيعة، وأن كل شيء فيها قد نظم لمصلحة البشر، وأن عليه أن يستفيد منها لحياته، ولكن لا يزال أمامنا مسافة حتى نصل إلى ذروة العلم ما هي تلك المسافة؟ إنها التذكر.

[١٣] بعد العقل يأتي دور التذكر وهو المرحلة المتقدمة في مسيرة المعرفة.

جيم: وهي مرحلة استيعاب التجارب من أجل العمل، فكيف نستفيد من الطبيعة المسخرة لنا؟ هل كل شيء فيها صالح في كل وقت ولكل شخص؟ كلا.. إذ أن حقيقة الأشياء مختلفة، وكل شيء نافع لوقت ولشخص، بالرغم من أنها جميعا خلقت للبشر.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ما أظهره الله في الأرض وما أنشأه وفطره من أجلكم ولمنفعتكم، ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

[١٤] والله سخر الطبيعة للإنسان، ولكن على الإنسان أن يسعى هو بدوره من أجل إنجاز هذا التسخير في بعض الأحيان، فليس النعم تأتي دائما كما السماء، بل قد تحتاج إلى معالجة جادة وإلى المخاطرة كالصيد في البحر. والسفر عبره للتجارة.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فالبحر مثل مخزن كبير لأفضل أنواع اللحوم تحصل عليها فيه بأقل جهد وكذلك للحلي.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ المخر: شق الماء عن يمين وشمال. ويحدث هذا الشق صوتا يشبه صوت العاصفة، وهنا يذكرنا القرآن بمرحلة رابعة للعلم هي:

دال: مرحلة الاستفادة العملية من العلم، تلك التي نسميها اليوم التقنية، وربما يسميها

القرآن بالاكتساب.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي تسعوا في البحار للحصول على رزقكم الذي هو فضل الله، وبعدها تأتي المرحلة الخامسة وهي:

هـاء: مرحلة الرضا النفسي، ذلك الذي يفرزه الشكر فإن إشباع حاجات الجسد عن طريق النعم لا تكفي، إذا ظلت النفس قلقة، تحرص أبدا على شيء مفقود، أما إذا شكر الإنسان ربه، وعرف أن النعمة ليست من حقه، بل هي من فضل الله، وتذكر الأيام التي كان يحتاج إليها وكيف حصل عليها بسعيه أو برزق الله، فإن نفسه تمتلئ سكينة وهدوءا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وتبقى أمامنا درجة نعرج فيها إلى ذروة الكمال في درجات العرفان، وهي درجة الهداية التي تذكرها الآية التالية.

[١٥] كما السفينة في أعالي البحار بحاجة إلى مرساة تحفظها وسط الأمواج المجنونة، كذلك الأرض التي تسبح في الفضاء تدور حول محور الشمس، بحاجة إلى ثقل يرسيها ويوقف اهتزازها، والجبال هي تلك المراسي.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي وضع الله فوق الأرض جبالا عالية.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لكي لا تتحرك بكم فتزعجكم إن الجبال متصلة من الداخل ببعضها، لتكون حصنا منيعا للأرض يمنع الزلازل والهزات التي يتعرض لها كوكبنا بسبب الغازات الداخلية. كما أن الجبال تمنع العواصف الشديدة التي تجوب سطع الأرض باستمرار، وتمتص قوتها وهي -في ذات الوقت- تعطي قوة إضافية للأرض لمقاومة جاذبية القمر، وفجر خلال الجبال عيونا. بسبب مخازن المياه العظيمة في بطن الجبال.

﴿وَأَنْهَارًا﴾ ولقد كان من الممكن أن تمنع الجبال اتصال البشر ببعضهم، بيد أن الله هيأ بينها سبلاً وهذه من أعظم النعم الإلهية حيث أنك لا تجد سلسلة جبال متراصة كالجدار يفصل بين الأراضي.

﴿وَسُبُلًا﴾ كيف يهتدي الإنسان إلى مآربه في الأرض عبر هذه السبل؟ هكذا ينبغي أن يهتدي إلى الحقائق من وراء الآيات، إذ الآيات هي السبل المؤدية إلى الحقائق ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

[١٦] يهتدي البشر عن طريق معالم السبل إلى غاياته في الدنيا، وهكذا ينبغي أن يهتدي

عن طريق الآيات في الأرض وفي السماوات إلى حكمة الله وقدرته ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ كتلك التي يضعها على السبل.

﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ وإذا كان البشر يهتدي بالنجم إلى سبيله في الأرض، والعلاقة خفية بين النجوم في السماء وسبل الأرض، فكيف لا يهتدي إلى الله عبر آياته؟! وآيات الله أوضح شهادة. وأصرح دلالة ومن آياته في الأرض النبيون والأوصياء عليهم السلام يهتدي بنورهم المؤمنون.

افلا تذكرون

[١٧] كيف لا يميز بين الخالق والمخلوق، بين إله السماء والأرض، وبين الأرباب المخلوقين العاجزين؟! ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

[١٨] وأنى ألقينا بنظرنا، وجدنا آية عظيمة من آيات الله تدلنا على أحديته، وأنى تقلبنا فإنما تحيط بنا نعم الله التي لا تحصى، فلماذا الجهل؟ ولماذا الكفر؟!.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إن كل سنة إلهية نعمة، وكل موهبة نعمة، وكل قدرة نعمة، وكل عضو بل كل جزء من عضو، بل كل خلية نعمة، إن خلايا المخ تعد بالبلايين وفقدان كل خلية يسبب نقصا.

وربنا الغفور ذو الرحمة، فلولا غفرانه، إذا لسلبنا بعض النعم بسبب غفلتنا عنها وعن شكرها، كما إنه برحمته، يفيض علينا من نعمه التي لا تحصى.

التكبر أسبابه وجزاؤه

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ[1] يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ[2] فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ[3] مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾.

---

(١) أيان: في أي وقت.

(٢) تشاقون: تخاصمون وتنازعون.

(٣) السلم: الاستسلام والخضوع.

هدى من الآيات:

من الذي تحق عبادته؟ الذي خلق وأنعم وغفر ورحم أم الذي لا يخلق ذبابا؟ حول هذا كان الدرس السابق.

ونكرر من الذي تحق عبادته؟ الله الذي يعلم السر وأخفى، أم الذين يدعوهم المشركون، من الأصنام التي لا تخلق شيئا وهم يخلقون؟ وليس فقط لا يعلمون السر، بل ولا يملكون الحياة، ولا شعور عندهم حتى يبعثون يوم القيامة؟!.

والله إله الخلق أجمعين، واحد لا شريك له، أما المشركون فهم لا يؤمنون بالآخرة والسبب أن قلوبهم جاحدة للحق لصعوبته عليها، ولأنهم يفتشون عن العلو فهم مستكبرون.

حقا يعلم الله سرهم وإعلانهم، والله لا يحب المستكبرين الذين يبتغون علوا في الأرض، فيخالفون الحق بوعي وإصرار، لذلك يستصغرون الحق الذي هبط عليهم من الله، ويقولون أنه أساطير الأولين.

وهؤلاء يحملون أثقال ذنوبهم من دون أن تنقص عنهم بالتبرير، ويحملون أيضا شيئا من ذنوب الناس الذين يضلونهم ولبئس ما يحملون.

وأن المستكبريـن يمكرون في آيات الله، ويحاولون منع الناس عنها بشتى الحيل، كما فعل الذين من قبلهم، ولكن الله ينسف بناءهم من الأساس فإذا بالسقف ينهدم عليهم ويهجم عليهم العذاب من حيث لم يحتسبوا.

أما في يوم القيامة فإن الله يذلهم بأن يقول لهم شماتة: أي الذين كنتم تعبدونهم من دون الله وتشقون عصى الوحدة من أجلهم؟! فيسكتون. أما أهل العلم فانهم يقرون للمشركين الخزي والسوء لكفرهم.

ومن هم الكافرون؟.

إنهم الذين يظلمون أنفسهم، وعند الموت يتبرؤون من أفعالهم، وينكرونها، ويدعون أنهم لم يكونوا يعملوا شيئا من السوء، بيد أن الله يخبرهم بعلمه بأعمالهم فيدخل كل منهم في النار، من باب الذنب الذي أرتكبه ويبقى خالدا فيها، وتلحقه اللعنة بسبب تكبره في الأرض.

بينات من الآيات:

من نعبد؟

[١٩] علم البشر محدود ويتكامل عبر مراحل، ويختص بظواهر الأمور، والله محيط علما بالسر والعلن، وبالسر قبل العلن، لأن كل شيء يقع في السر قبل أن يعلن عن ظهوره ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

[٢٠] ومن يعلم السر والعلن أحق بالدعوة، ممن لا يخلق ولا يعلم!! ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ والسؤال من هم هؤلاء؟.

قالوا: هي الأصنام، ويبدو لي أنهم الطغاة والمستكبرون الذين ترمز إليهم الأصنام، ووفق هذه النظرة نجري في تفسير الآيات التالية.

[٢١] إن أول صفات الآلهة المزيفة هي أنها أموات، لا علم لهم ولا قدرة إلا بقدر ما يهب الله لهم من علمه وقدرته.

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ وربما جاء التأكيد على أنهم غير أحياء، لأن المراد بالأموات ليس حقيقة الموت وإنما المراد بالأموات هو موت المعنوي لذهابهم عن الحق والدين. فوجب التأكيد.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي أنهم ينتظرون الجزاء لكفرهم من دون معرفة يومه، فهم مسؤولون أمام الله.

قال الطبرسي رحمه الله وهو يفسر الآيات: «الأصنام أموات غير أحياء، وأكثر كونها أمواتا بقوله غير أحياء، لنفي الحياة عنها على الإطلاق، وما يشعرون أيان يبعثون معناه: وما تشعر هذه الأصنام متى تبعث للجزاء، وقيل في الآية هم أموات يعني الكفار في حكم الأموات، لذهابهم عن الحق والدين ولا يدرون متى يبعثون!»[1].

وإذا فسرنا الآيات بالأرباب الذين هم بشر، لا نحتاج إلى هذه التفسيرات والوجوه البعيدة عن ظواهر الآيات.

[٢٢] أما الإله الحق الذي ينبغي أن تخلص العبادة له فهو الله. وليس عدم إيمان البعض به

---

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص١٤٧.

إلا بسبب نقص فيهم، حيث أن قلوبهم منكرة تستبعد ما يرد عليها من الحق ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ وسبب جحودهم هو طلب العلو والاستكبار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

[٢٣] ولكنهم يخفون السبب الحقيقي لجحودهم وهو الأستكبار، وتكريس عبادة الذات، بينما الله يعلم أسرارهم وإعلانهم، ويكره حالتهم هذه ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

كلمة ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ مأخوذة من الكسب (حسبما جاء في المجمع عن أبي مسلم) يعني لا يحتاج معرفة هذا الأمر إلى اكتساب علم، لأننا نفهمه بلا تكلف وبوضوح. وقال البعض إن (الجرم) بمعنى قطع التمر من الشجر وإذا أضيف إليه (لا) فإنه يعني ليس هناك شيء يقطع هذا الأمر أو يخالفه.

[٢٤] ولكي يغلفوا استكبارهم بتبرير مقبول عند الناس، تجدهم يحسبون أنفسهم تقدميين، وينسبون الأفكار الصحيحة إلى العصور الماضية، وكأن الزمن يعتق الحق ويجعله باليا.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ والأساطير جمع أسطورة - في مثل وزن أحدوثة- وهي ما كتب وربما توحي اللفظة بها كتب باطلا.

جزاء الاستكبار

[٢٥] إن المستكبر يرى في الحق عدوه الخطير، لأنه يريد أن يستغل الناس ويبسط عليهم جناح طغيانه، وإذا كان الناس عارفين بالحق فلن يسمحوا له بذلك، لذلك يبث الدعاية تلو الدعاية ضد الحق، ولكن ما هي العاقبة؟.

إن عاقبته تحمل أوزار الذين يضلهم بدعاياته، بالإضافة إلى أوزاره ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ والأوزار هي: أثقال الذنوب، باعتبار أن الذنب لا ينتهي بل سوف يبقى كثقل يتحمله صاحبه يوم القيامة، وقد يشترك اثنان في تحمل وزر ذنب دون أن يخفف أحدهما عن الآخر، وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَ وِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1].

(١) الفصول المختارة: الشيخ المفيد: ص١٣٦.

والآية توحي بأن فرض السيطرة على أحد، إذا لم تكن في طريق يعلم الفرد سلامته، يعتبر جريمة كبيرة.

[٢٦] ولا يكتفي المستكبرون بالدعاية، بل يتأمرون ضد الحق وجبهته بشتى أنواع المكر والخدع، ومكرهم يشبه مكر الذين كانوا من قبلهم، وكيف أن الله نسف أساسهم حتى وقع عليهم السقف ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ هبط السقف بسبب تزلزل القواعد التي قام عليها ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهم تحته، ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فهم كانوا يزينون السقف، ويحاولون المحافظة عليه، فإذا السقف ينهدم بسبب نسف قواعده.

إن آيات سورة العنكبوت قد تكون افضل تفسير لهذه الآية، حيث أن الكفار الذين اعتمدوا على الماء، وبنوا بناءهم على قواعد الحضارة، غرقوا في البحر فتلاشوا كقوم فرعون، وكذلك الذين ركنوا إلى مناعة بيوتهم كعاد دمروا بالريح وبالصخور التي بنوا بناءهم بها وهكذا كل قوم اعتمدوا من دون الله على قواعد مادية أتى عليها الله، ودمرهم بها وهم لا يشعرون أن خطأهم الأكبر كان اعتمادهم على هذه القوة الزائلة.

[٢٧] ثم عذابهم في الدنيا لا العذاب في الآخرة بل إن استكبارهم سوف يجر إليهم العار والخزي ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أن تشقون عصى الوحدة من أجلهم، أو بتعبير آخر كنتم تتعبون أنفسكم دفاعا عنهم، تناضلون جبهة الحق من أجلهم، وكان الحري بكم أن تحاربوهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فلهم عذاب نفسي هو العار، وعذاب جسدي يسؤوهم، وهذه الآية توحي بقيمة العلم وفائدته. حيث أن أعظم سبب لإستكبار المستكبرين واستغلالهم للناس هو انعدام العلم عند الناس.

[٢٨] وهل الكافرون هم الذين يجحدون بألسنتهم، أو أن كل مستكبر عن الحق وظالم لنفسه يواجه ذات العذاب؟

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي في الوقت الذي كانوا يظلمون أنفسهم، أما من تاب قبلئذ فحسابه يختلف.

﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ بالرغم من أنهم قبل ذلك كانوا يستكبرون، ويحسبون أنفسهم فوق الحق، وفوق المسؤولية، فوق القانون ويستضعفون الناس فإنهم

يخضعون لقوة إرادة الله ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إن الاستكبار يبدأ من ظلم الناس واستصغارهم وقد يرتكبه واحد من أدنى الناس تجاه من هو أدنى منه. جاء في نص شريف مأثور عفص بن غياث عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «وَ مَنْ ذَهَبَ يَرَى أَنَّ لَهُ عَلَى الآخَرِ فَضْلًا فَهُوَ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّمَا يَرَى أَنَّ لَهُ عَلَيْهِ فَضْلًا بِالعَافِيَةِ إِذَا رَآهُ مُرْتَكِباً لِلْمَعَاصِي؟ فَقَالَ: هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا أَتَى، وَ أَنْتَ مَوْقُوفٌ مُحَاسَبٌ أَمَا تَلَوْتَ قِصَّةَ سَحَرَةِ مُوسَى عليه السلام»[1].

[٢٩] آنئذ يساقون إلى أبواب جهنم، كل جزء منهم يدخلها من الباب الذي اختاره في الدنيا لنفسه، فمنهم من اختار باب الطغيان على العباد، ومنهم من اختار باب طاعة الطغاة، ومنهم من يدخل من باب الفساد في الأرض وهكذا.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين استكبروا عن الحق، واستكبروا في الأرض وكانت قلوبهم منكرة.

وآيات هذا الدرس إذا ما قسناها بآيات الدرس السابق التي كانت حول العلم رأيناها تعالج حالة التكبر عن الحق التي هي أخطر أعداء العلم، وتتدرج من الإنكار إلى الاستكبار إلى التكبر. كما أن الآيات السابقة كانت تتدرج من التفكر إلى التعقل إلى التذكرة إلى الشكر فالهداية.

(١) الكافي: ج٨، ص١٢٨.

والعاقبة للمتقين

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم [1] مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧)﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس السابق بين السياق موقف الكفار من الرسالة وأما المتقين فان موقفهم هو

(١) حاق بهم: حل بهم وأحاط.

أنها خير، حيث تهيئ منهاج الإحسان الذي يؤدي إلى الحسنات في الدنيا، وفي الآخرة جزاءهم الأوفى حيث يستقر المتقون فيها بسلام.

هنالك حيث الجنان الخالدة التي يدخلونها، يجدون فيها الأنهار تجري من تحتها، وتتحقق أمانيهم وذلك جزاء المتقين الذين تنتهي حياتهم بخير، يسلم عليهم الملائكة التي تتوفاهم، ويبشرونهم بدخول الجنة بأعمالهم الصالحة.

ولا يهتدي الكفار بعقولهم، بل ينتظرون هبوط الملائكة لينظروا إليها بأعينهم، أو نزول العذاب الذي ينذرون به، ولكن الدنيا دار ابتلاء، فإذا ظهرت الحقائق فان العذاب لا يرد عنهم، ولا تقبل توبتهم، بأنهم ظلموا أنفسهم ولم يظلمهم الله، هنالك يجدون سيئات أعمالهم، ويأخذهم ذلك العذاب الذي استهزؤوا به.

ومن الكفار من يبرر انحرافه الفكري والسلوكي بالفكرة الجبرية، ويقول: لو شاء الله لمنعنا عن عبادة الشركاء أو اتباع القانون الباطل، وهذا تبرير قديم، ولا يسع الرسل سوى البلاغ الواضح، وبعدئذ تبقى لهم حريتهم واختبارهم، وابتلاء الله لهم، والله لم يأمرهم بعبادة الطاغوت، بل بعث الأنبياء لخلاص الناس من الطاغوت، فمنهم من استجاب لدعوة الرسل فهدي، ومنهم من لم يستجب فأضله الله والمكذبون بالرسل أخذوا بأشد العذاب باعتبارهم أحرارا في تصرفهم وتكذيبهم، فانظروا في آثار السابقين.

والله لا يكره أحد على الهدى، بل لا يهدي من يختار الضلالة، ولا ينصره ولن ينصره أحد.

بينات من الآيات:

جزاء المتقين

[٣٠] تلك كانت نظرة المستكبرين إلى الرسالة، أما المؤمنون الذين اتقوا فلم تحجب الذنوب عقولهم عن فهم الحقائق فإذا سئلوا عن الرسالة قالوا أنها خير ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾.

ولا يذوق حلاوة الإيمان غير المتقين وابرز سمات المتقين هو الإحسان الذي يثمر حسنات في الدنيا والآخرة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

[٣١] أما دار المتقين فهي متمثلة في جنات خالدة ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ ﴾.

وهذا الإطلاق يدل على أن أهل الجنة تتحقق أمانيهم هناك، فهم راضون عن وضعهم بالكامل، وهذا الرضا لا يتحقق أبدا في الدنيا، حتى قال قائلهم: ما كل ما يتمنى المرء يدركه! وهذا فارق كبير بين أهل الجنة وأهل النار.

﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أما غيرهم من المؤمنين فأنهم يظلون في نار جهنم حتى تذهب آثار الذنوب التي ارتكبوها، وبعدئذ يدخلون الجنة.

[٣٢] والمتقي يبقى في خطر عظيم حتى يأتيه اليقين وهو الموت، إذ يخشى أن تزل قدمه قبل أن يصل إلى نهايته فإذا استمر على الهدى حتى الموت فهو الطيب ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ وبالرغم من أن هناك مسافة زمنية واسعة بين الموت ودخول جنات الخلد، إلا أن الملائكة تبشر المتقين عند موتهم بأنهم داخلوها حتما، مضافا إلى أنهم يعيشون خلال الفترة في جنان ورياض مماثلة بجنات الخلد، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

[٣٣] أما غير المتقين، فإن أكبر خطأ لهم أنهم ينتظرون إحاطة الخطر بهم حتى يعترفوا به، وآنئذ لا ينفعهم إيمانهم، ذلك أن الدنيا دار اختبار وإنما يختبر مدى إيمان الفرد وتقواه، وقوة إرادته وعقله إذا انذر بالخطر وأبلغ بالحقائق قبل أن يراها، أما بعدئذ فكل الناس سواء، وكل شخص يهرب من الخطر الذي يبصره، ولكن العقلاء وحدهم يتجنبون الخطر في الوقت المناسب، وعندما تأتيهم نذره. وتظهر لهم إرهاصاته ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي هل ينتظرون الملائكة حتى يؤمنوا، وإذا نزلت الملائكة انعدم الابتلاء. ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ ﴾ من العذاب، فآنئذ يؤمنون، وماذا ينفعهم إيمانهم إذ رأوا العذاب؟.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ فدمرهم الله شر تدمير، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ إن مثل هؤلاء كمثل رجل يبصر بعينه بئرا فلا يعترف بها حتى يقع فيها وتتهشم عظامه، فيقول الآن آمنت أنها كانت بئرا! فلماذا إذا زودت بعين، أو ليس لكي ترى أمامك الطريق؟! وتتجنب البئر قبل الوقوع فيه.

لماذا زود الإنسان بالعقل؟ أوليس لكي يبصر الغيب، أما الشهود فيحس به حتى الحيوان! ولماذا زود بالإرادة؟ أو ليس لكي يتحدى الشهوات، أما الاسترسال معها فانه ليس بشيء! هكذا الخطر متى يقدر الإنسان على معالجته؟! عندما ينتبه له بسبب علاماته المبكرة، أما

إذا أحدق به فكيف الفرار؟!.

[٣٤] هكذا قامت الدنيا على أساس الانتفاع بالعقل والإرادة، والكفار لم يستفيدوا منها.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي حل بهم الفكر الذي استهزؤوا به، فقد انتقم منهم الفكر الحق الذي سخروا منه، كما أن أفعالهم السيئة، تحولت إلى مشاكل وصعوبات دمرت حياتهم.

[٣٥] إذا فإن انتظار تحول الحق المبلغ به إلى واقع مشهود خطأ كبير ارتكبه الهالكون من قبلنا، وعلينا تجنبه، وخطأ آخر هو القدرية، والاعتقاد بأن الله لم يتركنا أحرارا في تصرفاتنا، إلا لأنه فوض إلينا شؤون الحياة نفعل كما نشاء، ولو كان يريد غير ذلك لأجبرنا على ترك عبادة الطغاة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ فلا عبدنا المال المتمثل في الرأسمالية، ولا عبدنا القوة المتمثلة في الطاغوت، ولا عبدنا التراث المتمثل في الآباء ﴿نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فقلنا هذا حلال وهذا حرام حسب أهوائنا، كما فعل الجاهليون، حينما حرموا البحيرة والسائبة، وكما يضع الجاهليون اليوم قوانين تكبل طاقات الناس. وبتعبير آخر لم نخضع لسيادة السلطة الفاسدة، ولم نطبق التشريعات البشرية.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عبدوا الطاغوت، وشرعوا لأنفسهم، وادعوا أن الله فوض إليهم ذلك الأمر، ولكن لماذا بعث الله الرسل؟.

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ فلا الله فوض أمر الحياة إلى البشر، لأنه بعث الرسل، ولا أنه يريد أن يكره الناس على الهداية، فإذا لم يكرههم فهو راض عنهم، لأن مهمة الرسل تنتهي عند البلاغ، لتبدأ مسؤولية الإنسان نفسه.

الكلمة البالغة

[٣٦] وهكذا بعث الله الرسل بكلمة بالغة الوضوح: عبادة الله ورفض الطاغوت.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ الطاغوت يفرض نفسه على الناس ولا يكفي السكوت عنه، بل إنه رجس يجب الاجتناب عنه، والتحصن منه، كما يجب التمرد عليه، إذا لم يفوض الله أمر العباد إليهم ليختاروا لأنفسهم حكومتهم وفق

مقاييس بشرية بعيدة عن القيم الإلهية للحكم، أو ليسكتوا إن شاءوا عمن يريد استغلالهم وتضليلهم، كلا.. بل أتم حجته عليهم بأن بعث في كل أمة رسولا يأتمون به، ويتفاعلون مع بعضهم، حتى لا يبقى أحد منهم يقول لم أكن أعلم.

ولكنه لم يشأ أن يكرههم على قبول الهداية ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ الذي يهتدي فالله يهديه ولكن بعد أن يختار ذلك، والذي يضل فالله يضله ولكن بعد أن يختار ذلك، لذلك قال ربنا: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ أي وجبت ضلالته بعد أن اختار ذلك، وكل يتحمل مسؤوليته.

﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فلو أن الله يرضى لعباده الكفر، إذا لم يعذب الكافرين؟!.

[٣٧] ومرة أخرى يؤكد ربنا أن الهدى ليس جبرا من الله، ولذلك فلا ينتظر أحد أن يأتي نبي يكرهه على الهداية، ولا يقولن إذا لم يأت من يجبره فما تقصيري. كلا.. أنت مسؤول، والرسول ليس مسؤولا عنك.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ فلا يسلوا أنفسهم بهذه التبريرات، ولا ينتظروا أحدا لينصرهم، كلا لا أحد ينصرهم، الله وحده هو الناصر، وأنت إذا اهتديت إليه حصلت على سعادتك المنشودة.

آثار الإيمان بالآخرة

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾.

هدى من الآيات:

ولكي يتهرب الكفار من صعوبة العلم بالآخرة، حلفوا بالله الأيمان المغلظة أن الله لا يبعث من يموت! فأكد الله لهم إنه قد وعد أن يبعثهم فلن يخلف الله وعده، وأكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة.

والهدف من البعثة تبيان الحق في اختلافاتهم، وإثبات كذب الكفار لهم، وليست هناك صعوبة في البعث فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

وفي المقابل نجد الذين يتحملون مسؤولية إيمانهم بالحق، فإذا هم يهاجرون عن أرضهم حين لا يجدون حرية العمل بالحق، فيعدهم الله حسنة في الدنيا وأكبر منها في الآخرة، حيث أخفيت عنهم نعمها التي لا توصف، لأن هؤلاء يصبرون على الأذى، ويتوكلون على الله في

مقاومة الكفار.

وبعضهم يناقش في صدق الرسول لأنه بشر كسائر الناس، علما بأن الله قد بعث من قبله رجالا لا يميزهم عن غيرهم سوى الوحي، ألا فسألوا أهل العلم الذين ذكروا بالبينات والزبر. والقرآن ذكر أنزل على محمد ﷺ بهدف توضيح الرسالة التي نزلت عليهم تدريجيا، والغاية الأسمى لها إثارة عقولهم، وتحريضهم على التفكير.

بينات من الآيات:

العلم دليل الحقيقة

[٣٨] السياق القرآني يتبع عادة أكثر من خط فكري واحد خلال درس أو سورة، لأنه كتاب الله الذي لا يشغله شأن عن شأن، وإذا تدبرنا في نهايات آيات هذا الدرس الكريم تبين لنا أن السياق يحدثنا أيضا عن العلم، بالإضافة إلى حديثه عن الإيمان بالبعث، وعن الهجرة في الله، وعن الرسالة، بل يكاد العلم يكون الخط الرابط بين موضوعات الآيات هذه، ذلك أن العلم مسؤولية خطيرة لأنه قرين العمل، ويهتف به فإن وجده وإلا ارتحل، ولولا العمل بالعلم فإن القرآن لا يسميه علما، ذلك أن العلم -في الإسلام- ليس مجرد تراكم المعلومات في الحافظة البشرية كما تراكمها مثلا في الحاسوب، بل هو انكشاف المعلومات بوضوح أمام العقل النير. وعندما تنكشف الحقائق فإن العمل وفقها نتيجة فطرية لها.

ولكن هل العمل بالعلم سهل؟ كلا.. أو لم يقل الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ حَدِيثَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ»[1].

فإن أمام العمل عقبات نفسية وواقعية لابد من تجاوزها والتغلب عليها.

ولكي يتهرب البعض من مسؤولية العلم يجهلون، ويحلفون الإيمان المغلظة على جهلهم.

ومن جهة أخرى فإن العلم بالآخرة يبدو كحجر الزاوية في العلم، لأن فهم الدنيا وما فيها من مسؤوليات وقيم وحقائق لا يمكن دون الإعتراف بالآخرة، وإلا فكل شيء في الدنيا يبدو لغزا وسرا كبيرا.

ومن هنا كان إنكار الآخرة بمثابة جهل مطبق بالحياة الدنيا، هذه التي قد تنتهي في أية لحظة ومن حكمة معروفة.

---

(١) الكافي: ج١ ص٤٠١.

ومن جهة ثالثة: العلم بالآخرة، يجعلنا نؤمن بأن هناك حقا ثابتا في هذا العالم، وأننا سوف نعرفه ونحاسب على أساسه في يوم ما لذلك لابد أن نبحث عنه وأن نجعله هو المحور لتفكرنا وعملنا.

وفقدان محورية الحق يشبه سقوط قاعدة البناء، كل شيء فيه ينهدم، فاذا لم يكن هناك حق وباطل واقعيان، وإذا لم يكن هناك حسن وقبح عقليان - حسب تعبير الفلاسفة - فلماذا ترانا نبحث في العلم؟ وما هو المقياس في الصراعات؟ هل المقياس هو الأنا، أم الأقوى، أم ماذا؟

ويبدو أن الآيتين توضحان هذه الحقيقة:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ القسم فيما لا يعلم الفرد دليل على تأكيده على جهله وفراره من العلم بالحق، وإلا فلماذا التأكيد على القسم على أن الله لا يبعث الموتى؟

﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن وعد الله حق، وقد وعد أن يبعث من يموت، وأكثر الناس لا يعلمون ذلك.

يقول العلامة الطباطبائي: «أي لا يعلمون انه من الوعد الذي لا يخلف، والقضاء الذي لا يتغير لإعراضهم عن الآيات الدالة عليه، الكاشفة عن وعده وهي خلق السماوات والأرض، واختلاف الناس بالظلم والطغيان، والعدل والإحسان، والتكليف النازل في الشرائع الإلهية»[1].

وقال البعض: «إن المعنى لا يعلمون وجه الحكمة في البعث فلا يؤمنون به»[2].

ويبدو أن القرآن، ينفي علم أكثر الناس كعلم، لكي لا تتخذ الأكثرية مقياسا، بل يكون المقياس هو الحق الذي يتبين في الآخرة، وتنتهي الآية إلى بيان حقيقة العلم ومقاييسه، والله العالم.

لماذا البعث؟

[٣٩] من أهداف النشور بعد الموت تبيان الحق، وكشف زيف الكفار، وهكذا يكون من حكم الزمان بالآخرة، الإيمان بوجود مقياس ثابت للحق، يرجع إليه الناس، فيحكم بينهم

---

(١) تفسير الميزان: ج١٢ ص٢٤٧.

(٢) مجمع البيان: ج٦ ص٤٦٧.

فيما اختلفوا.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ فلا يستطيع أحد من أن يبدل الحق بالباطل، ويخدع نفسه أن الباطل قد أصبح حقا، لأن رأي الأكثرية -حسبما يزعم أغلب الناس- هو مقياس فهم الحق والباطل، كلا.. إن وراءنا يوما يميز فيه الحق عن الباطل بوضوح كاف.

[٤٠] ويزعم الكفار أن البعث مستحيل، ولا يعلمون أن الله لو أراد شيئا، قال له: كن فيكون.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وتكرار كلمة (القول) ربما جاء لبيان أن الإرادة ليست نعمة في القلب، أو ترويا في النفس، كما هي لنا نحن البشر، إنما هو كالقول (فعل) يبدعه الله إبداعا، وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي الحسن عليه السلام حينما سأله صفوان بن يحيى: «**قُلْتُ لِأَبِي الحَسَنِ عليه السلام أَخْبِرْنِي عَنِ الإِرَادَةِ مِنَ الله وَمِنَ الخَلْقِ قَالَ: فَقَالَ: الإِرَادَةُ مِنَ الخَلْقِ الضَّمِيرُ وَمَا يَبْدُو لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الفِعْلِ وَأَمَّا مِنَ الله تَعَالَى فَإِرَادَتُهُ إِحْدَاثُهُ لَا غَيْرُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُرَوِّي وَلَا يَهُمُّ وَلَا يَتَفَكَّرُ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ مَنْفِيَّةٌ عَنْهُ وَهِيَ صِفَاتُ الخَلْقِ فَإِرَادَةُ الله الفِعْلُ لَا غَيْرُ ذَلِكَ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ بِلَا لَفْظٍ وَلَا نُطْقٍ بِلِسَانٍ وَلَا هِمَّةٍ وَلَا تَفَكُّرٍ وَلَا كَيْفَ لِذَلِكَ كَمَا أَنَّهُ لَا كَيْفَ لَهُ**»(١).

واجب الهجرة

[٤١] وكثير من الناس يتركون ما يعلمون، ويعملون بالجهل خشية المجتمع الفاسد والطاغوت، بينما ينبغي أن يتمردوا عليهما فإذا ظلموا، ولم يجدوا حيلة، هاجروا من تلك الأرض، وأرض الله واسعة، دعهم يهاجروا لكي يعودوا أقوى إلى بلادهم.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي في سبيل الله، ومن أجل العمل بأوامر الله، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فسوف يهيئ الله لهم: أرضا رحبة، وحياة حسنة، وحرية وأمنا، ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وعليهم ألا يبحثوا فقط عن أجر الدنيا، وفائدة العلم أنه ينقلنا إلى رحاب الآخرة وما فيها من أجر كبير.

[٤٢] كل ذلك بشرط أن يتحملوا الأذى في سبيل الله، وألا يستسلموا لضغوط الطاغوت، ولا ينسوا قضيتهم الرسالية ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

---

(١) الكافي: ج١ ص١٠٩.

سبيل المعرفة

[٤٣] إنهم يجادلون في رسالة محمد ﷺ لأنه رجل مثلهم، وهل بعث الله إلا رجالا أهم ما يميزهم عن غيرهم الوحي؟!.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ وعلى الإنسان أن يبحث عن الحقيقة بنفسه، فإذا لم يجدها يبحث عمن وجدها من الذين صاغت المعرفة شخصياتهم، فتميزوا عن غيرهم بمعرفة البينات والزبر.

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فإن كنتم تعلمون فلا يحق لكم تقليد الآخرين، كما لا يجوز إتباع من لا يعرف شيئا عن البينات والزبر، أو يعرف ولكن لم ينتفع بها عمليا فلم يتذكر هو شخصيا بالوحي، ولم يتعظ بمواعظه الرشيدة، وهذه الآية والتي بعدها تحدد شروط التقليد، أو بتعبير آخر تحدد شروط اتباع الجاهل للعالم، وهما يشيران إلى حقائق عقلية فطر البشر عليها.

البينات والزبر

[٤٤] عالم الطبيعة وعالم التاريخ وعالم الطب ومن أشبه، لا يمكن تقليد أحدهم في شؤون الحياة مما يتصل بالدين، بل عالم الدين الذي تذكر بالأدلة وعرف المحتويات.

﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ البينات هي الشواهد الواضحة، أما الزبر فإنها الكتب التي تحتوي على العلوم الإلهية. ولأن البينات قد جاءت في آيات قرآنية أخرى مقارنة بكلمة الهدى، مثل قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فإن معناها -حسبما يبدو لي- هو التفاصيل الواضحة للتعاليم السماوية، بينما الهدى أو الزبر التي تحتوي عليه، هي البصائر والإشارات (المحكمات).. التي فصلت بعضها فقط.

وبناء على هذا التفسير فإن كلمة بالبينات والزبر متعلقة بقوله تعالى: ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ وقال البعض إنها متعلقة بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾، وقال العلامة الطباطبائي: «أي أرسلناهم بالبينات والزبر، وهي الآيات الواضحة الدالة على رسالتهم والكتب المنزلة عليهم وذلك أن العناية في الآية السابقة، إنما هي ببيان كون الرسل بشرا على العادة فحسب، فكأنه لما ذكر اختلج في ذهن السامع أنهم بماذا أرسلوا؟ فأجيب عنه فقيل بالبينات والزبر، أما البينات

فلإثبات رسالتهم، وأما الزبر فلحفظ تعليماتهم»[1].

وأقول: كما أرسل ربنا رسوله بالبينات والزبر، كذلك كان أهل الذكر يتذكرون بها، علما بأن المتعلق أقرب الألفاظ السابقة، والأقرب هنا: الذكر، خصوصا بإضافة الأهل، ولا سيما والكلمة غامضة وأكثر إثارة للتساؤل من كلمة: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ثم إن المتعلق ينبغي أن يكون حسب رأيهم كلمة الوحي لا أرسلنا، فتدبر.

هدف البعثة

وهكذا أنزل الذكر إلى الرسول ﷺ بهدف تحقيق واحد من أمرين:

الأول: إن يكون الرسول ﷺ قدوة يتبع، وهذا يشبه التقليد.

الثاني: إن يثير عقول الناس ويحرك الراكد من أفكارهم، فيحصلون على العلم مباشرة. والهدف الأول يشمل جميع الناس، بينما يختص العقلاء بالثاني ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(١) تفسير الميزان: ج١٢ ص٢٥٩.

إنما هو إله واحد

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا[1] أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

إن الذين يعملون السيئات بمكر، ويعالجونها بأفكارهم معالجة، كيف يطمئنوا إلى مكرهم ويأمنوا مكر الله، فقد يخسف الله بهم جانبا من الأرض، أو يتعرضون للعذاب من حيث لم يتوقعوا، أو يحيط بهم عذاب الله وهم يبحثون عن المعاش في البر والبحر، فلا يستطيعون رد العذاب عن أنفسهم، أو يأخذهم الله بعذابه وهم متيقظون في كل وعيهم فلا يستطيعون رده، ولكن الله يؤخر عنهم العذاب لأنه رؤوف بهم رحيم.

(١) واصباً: وصب الشيء وصوباً إذا دام، ووصب الدين وجب.

ولماذا يمكرون السيئات؟ لماذا لا يعبدون ربهم؟ أو لا يرون إلى خلق الله أنى نظروا كيف يتحول ظلاله عن اليمين إلى الشمائل، وكل هذا الخلق يسجدون لله خاضعين، بلى، كل ما في السماء وكل ما في الأرض يسجد لله، من الأحياء والملائكة، دون أن يستكبروا شيئا، وهم يخافون ربهم أن يأتيهم عذابه من فوقهم، ولذلك يطيعون الله في كل ما يأمرهم به.

أما الناس فبعضهم يتخذون الشركاء من دون الله، بينما أمرهم الله الا يعبدوا الهين اثنين، لأنه لا اله إلا الله إلها واحدا، ينبغي أن يرهب جانبه، وأن لله كل شيء في السماوات والأرض، وله الحاكمية الواجبة، فلماذا يحذرون غير الله فيعبدونه؟! بينما النعم منه وعند النعم يستغيثون إليه، ولكنهم إذا كشف الضر عنهم يشركون بالله، كافرين بما آتاهم الله من خير ومن كشف الضر، فدعهم إذا يتمتعون فسوف يعلمون غدا مصيرهم المحتوم.

بينات من الآيات:

الحاكمية الإلهية

[٤٥] الله هو الحاكم، وله الدين الواجب، أما الذين يشرعون لأنفسهم الأنظمة الباطلة، ويبتدعونها بقوة خيالهم، من أجل الوصول إلى أهدافهم السيئة التي يخططون للوصول إليها تخطيطا واعيا، فإنهم لا يأمنون عذاب الله.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي مكروا مكراً يعملون به السيئات، فالهدف كان شيئا، ولكنهم استخدموا حيلتهم الشيطانية للوصول إليها، فهم أكثر ذنبا ممن يعمل السيئات خطأ أو حسب الصدفة، فهل أمن هؤلاء مكر الله؟ مثلاً: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ من فوقهم أو من أطرافهم.

يقول العلامة الطباطبائي: «هذه الآية والآيتان بعدها إنذار وتهديد للمشركين، وهم الذين يعبدون غير الله سبحانه، ويشرعون لأنفسهم سننا يستنون بها في الحياة، فما يعملون من الأعمال مستقلين فيها بأنفسهم، معرضين عن شرائع الله النازلة من طريق النبوة، استنادا إلى حجج داحضة (واهية) اختلقوها لأنفسهم، كلها سيئات.

وأضاف قائلا: السيئات مفعول مكروا بتضمينه معنى عملوا: أي عملوا السيئات ماكرين»[1].

---

(١) تفسير الميزان: ج١٢ ص٢٦٢.

وكلمة ﴿ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ في السياق تدل على ما استوحاه العلامة الطباطبائي من معنى التشريع في الشرك.

[٤٦] والبشر بحاجة إلى الكسب، والاكتساب محفوف بالأخطار، والله سبحانه يحفظ الإنسان حين يسعى لرزقه، ولكنه إذا شرع لنفسه قوانين باطلة لسعيه، فقد يتركه الله فريسة للأخطار.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي في سيرهم في البر والبحر لاكتشاف الرزق. ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لا يهربون من ملاحقة العذاب، ولا يفلتون من يد العقوبة.

أنواع العذاب الإلهي

[٤٧] عذاب الله ألوان:

الأول: العذاب الفجائي الذي لا ينتظره، ويأتي من دون سابق إنذار مثل الخسف والزلازل.

الثاني: العذاب الذي يسببه البشر بأخطائه كأن يركب البحر فتنقلب به السفينة.

الثالث: العذاب التدريجي كأن يعذب الله أمة بالقحط فيموتوا بالتدريج. ولكل لون من العذاب ألم خاص يدعنا نتحذر منه، وقد حذرنا القرآن منها جميعا. فعن اللون الأول من العذاب والثاني حذرتنا الآية الأولى والثانية، أما عن اللون الثالث فيقول سبحانه: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾.

قال الطبرسي: «التخوف والتنقص وهو أن يأخذ الأول فالأول حتى لا يبقى منهم أحد، وتلك حالة يخاف منها الفناء ويتخوف الهلاك، ويقال: تخوفه الدهر»[١].

وجاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام بوصيته لجابر بن يزيد الجعفي، قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**اسْتَعْمِلْ حَاضِرَ العِلْمِ بِخَالِصِ العَمَلِ وَتَحَرَّزْ فِي خَالِصِ العَمَلِ مِنْ عَظِيمِ الغَفْلَةِ بِشِدَّةِ التَّيَقُّظِ وَ اسْتَجْلِبْ شِدَّةَ التَّيَقُّظِ بِصِدْقِ الخَوْفِ**»[٢].

والواقع أن معنى التخوف الأصلي هو التيقظ اشتقاقا من كلمة الخوف، ولكن يسمى الهلاك التدريجي بذلك، لأن الإنسان يخشاه ويسعى جهده لتجنبه، فلا يستطيع ذلك مما يسبب

(١) مجمع البيان: ج٦ ص٤٦٩.
(٢) تحف العقول: ص٢٨٤.

له ألما جسديا ونفسيا، وربما كان هذا اللون من العذاب هو الأكثر ألما، ولذلك طمأن ربنا عباده بأنه رؤوف رحيم ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فبالرغم من استحقاقهم العذاب التدريجي، إلا أنه يتابع نعمه عليهم برأفته ورحمته.

آيات الخلق وحقيقة العبودية

[٤٨] لماذا الشرك بالله العظيم؟ أو ليس الكون كله ساجد لله، خاضع لمشيئته؟!.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ أو لا يرون ناظرين ما خلق الله من أشياء!!.

﴿مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ أي يتحرك ظلاله من اليمين إلى اليسار. يقول الطبرسي: « التفيؤ التفعل من الفيء، يقال فاء الفيء يفيء إذا رجع وعاد بعدما كان ضياء الشمس قد نسخه »، ويضيف قائلا: « الفيء ما نسخه ضوء الشمس، والظل ما كان قائما لم تنسفه الشمس »، ويستنتج من ذلك أن معنى الآية يتميل ظلاله عن جانب اليمين وجانب الشمال ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ وربما جاء السياق بلفظ اليمين مفردا بينما جمع الشمائل، لأنه قد اتخذ جانب اليمين مبدأ الحركة، بينما جعل جانب الشمال مآلها، والحركة تبدأ من مكان ولكنها تسير في أماكن مختلفة.

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ كل شيء يسجد لله داخرا خاضعا صاغرا، بالرغم من أننا نراها وكأنها واقفة، حيث لا يتحرك الا ظلاله فقط، ولكنها في الواقع تسجد لله، تسبحه وتستجيب أوامره، و في السجود معنى لا نفهمه من الخضوع وهو معنى الفعل.

[٤٩] وكما الأشياء الجامدة التي تتحرك حولها الظلال وهي جامدة ظاهراً، لكنها تسجد لله، كذلك الأحياء في الأرض والملائكة في السماء ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ بالرغم من عظمتهم بالنسبة إلينا نحن البشر الذين نستكبر ونتحدى إرادة الله.

[٥٠] وكل شيء يخشى ربه الذي يشعر أنه فوقه قاهره ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾.

العذاب يأتي من فوق وكذلك الثواب، يقول ربنا: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وهذا هو شعور الفرد أيضا تجاه ربه المحيط به علما وقدرة..﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

[٥١] ويبقى الإنسان بين الخلق أجمعين يخضع لما هو خاضع لله، يخضع للشمس والقمر

والنجوم، يخضع للأنوار والأشجار والأحجار، يخضع للثروة، والقوة والدعاية.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فلماذا نرهب جانب الطبيعة، حتى نعبدها، ولماذا نرهب الطاغوت حتى نستسلم له؟! ألا فلنخشَ ربا واحدا صمدا ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾

عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «مَنْ خَافَ اللهَ أَخَافَ اللهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ وَ مَنْ لَمْ يَخَفِ اللهَ أَخَافَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»(١).

إن أكثر ما تتم العبادة من جانب البشر للأشياء، إنما تتم بسبب الهيبة والرهبة، الا فلتسقط هيبة الطبيعة ألا فلنرهب ربها! وخالقها فقط!!.

تجاوز الخوف شرط العبادة

[٥٢] وإذا تجاوزنا الخشية من الطبيعة، وتحررنا من رهبتها أسلمنا الوجوه لرب العالمين، وخضعنا لحاكميته وسيادته القانونية، وبالتالي لدينه الواجب ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن بيده ناصية الطبيعة له السيادة التشريعية ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ قال الطبرسي: «وصب الشيء وصوبا إذا دام، ووصب الدين وجب»(٢).

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ لماذا نتحذر ممن لا سيادة له؟.

إن السيادة لله، وأن التشريع الذي يعكس هذه السيادة هو لله، وأن مخالفة تشريعه وسيادته هي ما نحذر منه.

[٥٣] وعمليًّا نحن بحاجة إلى الله في كل صغيرة وكبيرة، فما من نعمة إلا وهي لله، وعند فقدها نستغيث به ليعيدها علينا. فله السيادة أم لغيره؟!.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ الجؤار: الاستغاثة برفع الصدمة.

[٥٤] ولكنه ما إن يرفع الضر حتى تعود حجب الشرك تفصل بين قلب البشر وربه.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ والشرك هنا قد يعني

---

(١) الكافي: ج٢ ص٦٨.
(٢) مجمع البيان: ج٦ ص٣٦٥.

الخضوع لقانون غير قانونه، إن لحظات الحاجة هي أكبر شاهد على سفاهة الشرك، لأننا آنئذ نرى بوضوح شديد عجز الشركاء، فهل الطاغوت والسلطة السياسية الفاسدة التي تخضع لها هي التي تنقذ من أمواج البحر حين تكاد تبتلع السفينة؟!.

أم أن الثروة والأثرياء تقدر أن تنقذ طفلنا المشرف على الهلاك في غرفة العناية القصوى؟!. من الذي نتوسل إليه آنذاك؟ أو ليس الله، فلماذا نعود ونخضع لقانون البشر؟!.

[٥٥] إن ذلك كفر بنعم الله التي وهبها الله لنا ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾، والشكر هو الذي يدعم النعم، أما الكفر بها فصاحبه ينتظر اليوم الأسود ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فإن المتعة اليوم، تستتبع ندما طويلا طويلا.

لله المثل الأعلى

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ[1] مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾.

هدى من الآيات:

إن الشرك يقتضي أن يتنازل البشر عن جزء من نعم الله عليه لمصلحة الآلهة التي يزعم أن لها تأثيرا حقيقيا عليه، ولا يحق له ذلك وهذا كذب على الله يتحمل المشرك مسؤوليته غدا.

وينسبون إلى ربهم الأمثال السيئة، فمثلا لأنهم يكرهون البنات، يجعلون لربهم البنات، بينما يجعلون لأنفسهم الذكور الذين يشتهونهم، فحين يبشر أحدهم بمولود أنثى، يبقى وجهه

---

(١) يتوارى: يستتر حياء وخجلًا.

مسودا لزيادة الغضب الذي يكظمه، وتراه يتخفى عن الناس، وهو متردد هل يخفي ابنته في التراب أم يبقي عليها على ذلة وهوان؟.

وساء ما يصفون به ربهم. إنهم لإفتقارهم إلى مقياس الحق، وذلك بسبب كفرهم بالآخرة، يتخذون أسوأ القدوات لأنفسهم.

فدعهم في غيهم -بالرغم من نسبتهم السيئة لله- فإن الله لو أخذ الناس كلما ظلموا أنفسهم، لما ترك عليها من دابة، ولكنه -ولحكمة- يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وتراهم يصفون ربهم بما يكرهون لأنفسهم، ويزعمون أن لهم الحسنى بينما ليس لهم إلا النار، وأنهم مجموعون إليها، وهذا ليس خاصا بهم، فلقد بعث الله الأنبياء بهذه الرسالة للناس، فزين لهم الشيطان أعمالهم، وهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم.

بينات من الآيات:

الشرك عبودية وذل

[٥٦] الشرك عبودية وتقيد، وفقدان لإستقلال البشر وحريته أمام قوى الطبيعة أو القوى الاجتماعية، ويتجسد الشرك في الأغلال التي يضعها الإنسان لنفسه باسم الأنظمة والقوانين ويقيد بها حياته، وعادة ما يقدس البشر هذه الأنظمة.

وبكلمة: الشرك هو تنازل طوعي عن رزق الله لمصلحة الطبيعة أو لمصلحة مراكز القوى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الأصنام، ورؤساء القبائل، وقادة التجمعات غير الربانية، وقوى التسلط، وكلما لا يعلم الإنسان أن الله أمر باتباعها، وأن في اتباعها مصلحة الإنسان الحقيقية، يجعل المشركون لهؤلاء..

﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: جزءاً من نعم الله، وذلك بسبب جهلهم بواقع الأصنام الحجرية والبشرية، و إنها لا تملك لهم شيئا، والله لا يرضى أن يتنازل البشر عن حريته وكرامته وعن حقوقه شيئا، لأنه هو الذي رزقه له لا لغيره ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

[٥٧] للحياة مثلان، وفيها خطان، الأول: مثل القيم السامية الكريمة، وخط القوة والعلم والحرية، والثاني: مثل الشهوات والأهواء، وخط الضعف والجهل والعبودية.

والمشرك يجعل نفسه محور عقيدته، فيقيس العالم كله بما يشتهيه ويهواه، وتنقلب عنده

المعايير، ويتخذ مثله من أرذل المثل، كما يتبع خط الضعف والجهل والعبودية.

إنه يصبح أنانيا إلى درجة ينسب كل خير إلى نفسه وينسب إلى ربه تعالى الكذب، وبالرغم من أن الخير والشر عنده ليسا هما الخير والشر في الواقع، إلا أنه ينسب إلى ربه ما يراه هو شرا. إنك تراه ينسب إلى الله البنات اللاتي يزعم أنهن منقصة لأبيهن ولكنه يرفض أن تكون له البنات، ويبحث دائما عن الذكور، فإذا افترضنا -جدلا- إن البنين خير فلماذا لا تنسب الخير لربك، بل لنفسك فقط؟! ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ من الأولاد.

مكانة المرأة في الجاهلية

[٥٨] بينما الواحد منهم يشتد غضبه إذا أخبر بأنه رزق مولودا أنثى.

وهذا مثل من واقع المشرك الذي يحرم نفسه من أفضل نعم الله من ريحانته من الدنيا، من بهجة البيت، من البنت النظرة، بسبب جهله وشركه وخضوعه للأعراف الجاهلية، انه حكم سيئ جدا.

ولقد كانت عادة وأد البنات من أسوأ العادات الشركية، وأول ما بدأ لهم ذلك أن بني تميم غزوا كسرى فهزمهم، وسبى نساءهم وذراريهم، فأدخلهن دار الملك، وأتخذ البنات جواري وسرايا، ثم اصطلحوا بعد برهة واستردوا السبايا فخيرن في الرجوع إلى أهلن، فامتنعن عدة من البنات، فاغضب ذلك رجال بني تميم فعزموا ألا تولد أنثى إلا وأدوها ودفنوها حية، ثم تبعهم في ذلك بعض من دونهم، فشاع بينهم وأد البنات[1] ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ من شدة الحنق والغضب ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يكظم غيظه لأنه لا يجد من ينفس عنه غيظه.

[٥٩] ويتهرب من الناس خجلا، ولكي يختلي إلى نفسه ويفكر في حل لمشكلته، فهل يدفن أبنته حية في التراب، أم يبقيها ويتجرع الهوان والذل على نفسه؟.

﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ أي يحتفظ بالمولود بما فيه من ذل وهوان. ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ أي يخفيه في التراب. ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

عبادة الذات جذر الإنحراف

[٦٠] والجاهلي الذي لا يؤمن بوجود مقياس للحق غير ذاته، حيث يجعل أهواءه

---

(١) تفسير الميزان: ج١٢ ص٢٧٧.

وشهواته ونزعاته الفردية والإقليمية، والإستكبار على الناس، وظلمه للضعفاء، ويجعل خيالاته وأساطيره الموروثة، يجعل -بالتالي- كلما يتصل بجانب الضعف والعجز والاستسلام مثلا أعلى لنفسه، لأنه لا يرى أن هناك يوما يطبق فيه الحق بلا لبس ولا خداع ولا نقيصة، فلماذا البحث عن الحق؟ ولماذا يجعله أساسيا لحياته، ومقياسا لتقييم الأشياء؟.

وشيئا فشيئا يرحل عن قلبه ذلك الضوء الذي كان يهديه أبدا للحق، فلا تبقى في قلبه إلا ظلمات الشهوات ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ وهذه الآية الكريمة تشهد بما شهدت به الآية الأخر في سورة ص: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

فلقد كان نسيان الحساب ويومه سببا للضلالة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إن أعلى مثل يتطلع لتحقيقه البشر، هو الوصول إلى القوة والفضيلة، لكي يحقق الفضيلة بما يملكه من قوة، والله عزيز وحكيم، ومن يتبع مثل الله فهو يصل إلى العزة والحكمة بإذنه.

والقرآن يهدي بهذه الكلمة إلى ما يحب به كل منا بوجدانه، إذ أن هناك خطين: خط الهدى والعقل، وخط الظلم والطغيان. ومن يؤمن بالآخرة سيصل بإيمانه بيوم الحساب إلى الخط الأمثل.

حكمة الأجل

[٦١] ولكن لماذا يترك الله العزيز الحكيم الناس يخالفون الحق، بل ينسبون إلى الله الأمثال السيئة؟ أفلا يدل ذلك على رضا الله بما يفعلون؟ كلا.. إنما هي حكمته ورحمته.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ إن كل دابة في الأرض تظلم في أي وقت وبالنسبة إلى أي شيء، تكفي سببا لعذاب الله، ولأن الله الذي خلق الأحياء للإنسان وسخرها له، فإن ظلم الإنسان يكفي سببا في هلاك الدواب جميعا، وهكذا أغرق الله فرعون وجزء من دوابه، وأهلك الله عادا وثمود والمؤتفكة وقوم لوط بدوابهم ومواشيهم.

[٦٢] ويكفي الجاهليين ذنبا ما يفترون على الله، أفلا نرى كيف يجعلون لله تلك البنات التي يكرهونها لهم؟! ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ ويزعمون أن الأولاد الذكور شيء حسن، وأنهم لهم، كلا.. أن الأولاد فتنة، وعدم

الوفاء بحقوقهم يؤدي بهم إلى وسط النار.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي حقا، وبلا حاجة إلى تفكر. ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي معجلون إلى النار من قولهم: فرط وإفراط، إذا تقدم، والإفراط الإسراف، وسره أن صاحبه يتقدم الآخرين، ومعنى الآية -على هذا التفسير- إن أصحاب هذه النظرية أول من يدخل النار.

لماذا التسافل؟

[٦٣] ويبقى السؤال: لماذا هبط هذا الفريق إلى هذا الحضيض؟ لماذا افتروا على الله الكذب؟.

لأنهم عملوا السيئات فزين لهم الشيطان أعمالهم، فاصبح الشيطان أقرب صديق لهم، وكان لهم العذاب الأليم ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ربما يدل لفظ اليوم على مرحلة ما بعد التزيين، سواء في الدنيا أو بعد الموت، أما هنا فإن انحرافهم عن الحق يجعلهم يبحثون أبداً عن شياطين الأنس لاتباعهم، أما في الآخرة فإن هؤلاء الأشخاص يقودونهم إلى نار جهنم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

القرآن مقياس الحق ومظهر الرحمة

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

إن للحق مقياسا يتجسد في الآخرة في الحساب، ويتجلى في الدنيا بالكتاب الذي أنزله

الله لفض الخلافات، وإيصال الناس إلى صميم الحق، وتوفير الرفاه لمن يؤمن منهم به.

والكتاب مظهر لرحمة الله، كما ماء السماء الذي يحيي به الله الأرض بعد موتها، ومن يسمع حق السمع يستدل بهذه النعمة على رحمة الله، فلا يضرب لله الأمثال الباطلة، بل يهتدي إلى أن لربه المثل الأعلى، أو ليس الله أودع في حياة الأنعام عبرة، كيف يسقي الله من بعض الأجهزة والأعضاء المودعة في بطونها المحتوية على فرث ودم، يسقينا لبنا خالصا هنيئا لمن يشربه؟!.

ومن رحمته إنه رزقنا من ثمرات النخيل وأنواع التمور، ومن ثمرات الكروم، وأنواع الأعناب ما نتخذ منه سكرا حلوا، ورزقا حسنا، إن هذه عبر أخرى وآية لقوم يعقلون.

وقد أوحى ربنا إلى النحل لكي تتخذ من الجبال بيوتا، وكذلك تبني بيوتا في الشجر، وفيما يبنيه الناس من العمارات المختلفة، ثم أمرها الله بأن تأكل من كل الثمرات، ثم تتحرك عبر السبل التي جعلها الله لها، فإذا ببطونها تصبح بإذن الله ينبوعا لشراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، وهكذا يصل المتفكرون إلى ما وراء هذه الظاهرة من آثار رحمة الله.

وتقلبات الحياة البشرية كيف أنه يخلقه الله ثم يميته، والبعض من الناس يطول عمره ويصل إلى وضع غير محمود، حتى لا يعلم بعد علم شيئا.

وهكذا فضل الله بالناس بعضا على بعض فيما رزقهم إياه بحكمته، فلا يستطيع ذوي الفضل أن يعطوا رزقهم لمن هو دونهم، ويملكونهم حتى يصبحوا سواء، ولكن مع كل ذلك نجدهم يكفرون بنعمة الله، ويتخذون من الرزق وسيلة للاستعلاء.

وهكذا جعل الله للناس أزواجا من أنفسهم، ورزقهم الذرية والأولاد، ورزقهم من الطيبات، ومع ذلك يتركون نعمة الله ويؤمنون بالباطل المتجسد في الشركاء من دون الله، الذي لا يملكون شيئا من الرزق من السماوات والأرض، ولا يستطيعون شيئا.

كل هذه الآيات وغيرها تدل على أن لله المثل الأعلى، ولا يجوز لنا أن نقيس ربنا بخلقه، ونضرب له الأمثال الباطلة، فان الله يعلم الحق ونحن لا نعلم، ولا يجوز أن يحكم الجاهل على العالم سبحانه!.

بينات من الآيات:

الكتاب ميزان الحق

[٦٤] كما أن للحق مقياسا ثابتاً يتجلى في اليوم الآخر على شكل جزاء، فلا تختلط هنالك الشهوات بالعلم، ولا الخرافات المزيفة للنفس بالحق، كذلك في الدنيا أنزل الله كتابا ينطق

بالحق، ويفرق الحق عن الباطل.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ ولكن ليس هذا هو الهدف الوحيد، بل لكي يبلغ الإنسان بالكتاب عمق الحق فيهتدي إليه، ثم ينال بتطبيقه على ذاته رحمة ورفاه جم.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إن من لا يؤمن بالحق ينتفع بالكتاب فائدة واحدة هي: رفع الخلاف الظاهر بينه وبين الآخرين، كما استفاد الأعراب من الإسلام قبل أن ينفذ الإيمان إلى قلوبهم، فقد خضعوا للإسلام كحكم سياسي، فنفعهم تسليمهم له وحدة سياسية، ولكن بعد أن آمنوا وصلوا بأنفسهم إلى الحق، ونالوا الخير الواسع.

القرآن مطر الرحمة

[٦٥] وكتاب الله كماء السماء يحيي الله به الأرض بعد موتها ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سوف نستمع إلى ثلاث عبارات جاءت كشرط مسبق لإستيعاب عبرة الحياة، وفهم خلفيات الطبيعة وهي بالتدريج. السمع، والعقل، والتفكر، وهي مراحل العلم الذي يهب الله للإنسان نوره، ثم يسلبه إذا بلغ أرذل العمر، وهي مرحلة الإحساس المباشر، أو التجربة البسيطة الآتية عن طريق السمع، وهي أقرب الأحاسيس إلى الشؤون العقلية، كما أنها وسيلة حضارية لنقل تجارب الأجيال لبعضها، ولنقل تجارب الناس المعاصرين لبعضهم، ثم تأتي مرحلة الحفظ وتراكم التجارب التي هي العقل حسبما جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: **«العَقْلَ عِقَالٌ مِنَ الجَهْلِ»**[١]، وإن **«العَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ»**[٢].

في النهاية تأتي مرحلة التفكر، وذلك بربط التجارب إلى بعضها مما نسميه نحن بالتحليل أو التعقل، ويبدو أن المعرفة الحق لا تحصل من دون اجتياز المراحل جميعا، ولكن القرآن الحكيم ربط بين كل مرحلة وبين آية إلهية لحكمة بالغة قد لا نفهمها إلا بالتدبر.

الأنعام عبرة ورحمة

[٦٦] ويتجلى اسم الرحمة الإلهي في الأنعام التي نعتبر بها عند أدنى نظرة، ونتعرف من خلال النظر إليها على الهدف من خلقها، وما يتصل بهذا الهدف من هدف أسمى لخلقة البشر

(١) مستدرك الوسائل: ج١ ص٨٣.

(٢) نهج البلاغة، من وصية الإمام علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام.

هو العلم والعمل.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ فمن خلال النظر فيها والتدبر في أمورها، ننفذ إلى الهدف منها، ولكن كيف؟.

﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ كيف يميز الله اللبن عن الفرث، وهي الزيادة التي تهبط إلى الكرش قبل أن تخرج فتصبح سرجينا، وعن الدم الذي يجري في العروق ليصبح: ﴿لَبَنًا خَالِصًا﴾ من الشوائب والجراثيم، ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ ففيه الفائدة لخلوصه، واللذة لأنه هنيء يحبه الطبع البشري.

[٦٧] وآية أخرى هي الثمار النافعة كالرطب والعنب، وما ينتهيان إليه من السكر والتمر والزبيب ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ولا ريب أن ثمرات النخيل والكروم من أفضل الرزق مذاقا، وفائدة طيبة، أما السكر فقد اختلفت كلمات العلماء فيها، وأمثل القول ما جاء مأثوراً عن ابن عباس أنه قال: «السكر ما حرم من ثمرها، والرزق الحسن ما حل من ثمرها»[1]. أي ثمة مقابلة بين ﴿سَكَرًا﴾ و﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كإشارة لطيفة بإخراج ﴿سَكَرًا﴾ من ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، تمهيداً لإعلان: (وإلا وهو محرم وإن لم يُعلن ذلك)، وعلى كل فالآية لاتدل على حلية المسكر.

نعم سياق الآيات في إطار الامتنان، مما يوحي عدم سلخ صفة الحُسنُ عن السكر، مما قد يتمسك به بعض بحلية المسكر ولو الدرجة الخفيفة منه (النبيذ)، وقال بعض أن ﴿تَتَّخِذُونَ ﴾ فعل الناس أعم من المسلمين والكفار، فلا يدل على الحلية، إذ هو إخبار عن فعل الناس، وقد يوسع في معنى السكر حتى يشمل الأنتعاش، ولا ريب أن العنب والتمر يسببان انتعاشا، والانتعاش بها لا يبلغ مستوى فقدان العقل (السكر المتعارف) حتى إذا زاد منه الشارب.

النحل آية بينة

[٦٨] وهناك رزق إلهي يختلف عما ينبت من الزرع أو يجري من الضرع هو: العسل الذي هيأ الله النحل له، حيث ألهمه أن يبني بيوته السداسية الشكل، البارعة والبالغة الدقة، وذلك في كنف الجبال، أو في سوق الأشجار، أو في الأبنية ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وقال بعضهم أن العرش هو: الكروم التي تقام فوق ساباط مرتفع.

---

(١) مجمع البيان: ج٦ ص٤٨١.

معنى الوحي

وبدءًا نتساءل: كيف الوحي؟.

قبل الإجابة لنعرف معنى الكلمة، والتي يقول عنها اللغوي الراغب: «الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمر وحي وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، أو بإشارة بعض الجوارح»[1]. وقال العلامة الطباطبائي: «والمحصل من موارد استعماله: أنه إلقاء المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه»[2].

١- فالإلهام بإلقاء المعنى في فهم الحيوان من طريق الغريزة من الوحي: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾.

٢- وكذا ورود المعنى في النفس من طريق الرؤيا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧].

٣- أو ورود المعنى في النفس من طريق الوسوسة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

٤- ومن الوحي التكليم الإلهي لأنبيائه ورسله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]. الآيات كاملة.

والوحي من الله إلى النحل يتناسب وجو الآيات العام، الذي يهدينا إلى آيات الله في الحياة، ليبرز دور الإلهام في العلم، ابتداء من إنزال الكتاب إلى العلم الذي يسلبه الله عمن يبلغ أرذل العمر.

حيث أن الآية هذه تشير إلى دور الإلهام المباشر من قبل الله في حياة النحل، فكيف بالإنسان، وأن من يتعالى على الوحي المنزل من السماء فإنما يتكبر على أوضح وأبسط الحقائق التي يعيشها في حياته، وهي النور الذي يضيء له دروب الحياة، وقد يكون ذلك سببا لتسمية هذه السورة المباركة بإسم النحل.

[٦٩] ثم أمر الله النحل بأن تأكل من زهرة الأثمار، والتي هي خلاصة مواد الثمر قبل بروزه، متخذة السبل الإلهية، والأنظمة التي وضعها الله للحياة، حتى تتحول تلك الزهرات

---

(١) مفردات غريب القرآن: ص٥١٥.

(٢) تفسير الميزان: ج١٢ ص٢٩٢.

إلى شراب سائغ.

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ ﴾ أي الطرق المعبدة التي هيأها الله لك، فقد جعل الله للهواء سبلا كما للأرض، وهي الأيسر سلوكا والأقل مطبات هوائية، ويتعرف عليها الطيارون بصعوبة، بينما أوحى الله بها إلى النحل وغيره مما يطير بجناحيه.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ والعسل يلقيه النحل من فيه، بعد أن يتفاعل في بطنه، ولذلك عبر ربنا عن ذلك بأنه يخرج من بطون النحل ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ ﴾ من أمراض مختلفة، ويعطي الجسم حيوية ومناعة عن الأمراض ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

إن النحل هذا الحيوان المستهان في الدنيا، يأمره الله بأن يحقق هذا الهدف، وعلمه وسائل ذلك وكيف يبني بيته؟ وكيف يتخذ لنفسه يعسوبا، وكيف يتوالد؟ كل هذه السنن الإلهية تستقطب اهتمامنا، وتجعلنا نعترف خاشعين بأن للكون المهيب إلها يدبر شؤونه سبحانه، ويبدو أن معرفة أسرار النحل بحاجة إلى بحث مثابر، ولذلك عقب الله الآية بأن النحل آية للمتفكرين، بينما لا تحتاج آية الثمرات إلى ذلك الجهد الفكري، بل إلى حفظ التجارب الزراعية، لذلك بين السياق هناك أن الثمرات آية لمن يعقلون، واكتفى في مراقبة الأمطار بالسماع فقال: ﴿لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾، وهكذا تختلف أسرار الحياة فبعضها تفهم بأقل دراسة، بينما بعضها الآخر تفهم بدارسة معمقة، وتبقى بعضها متوسطة.

دليل التدبير

[٧٠] وتطورات الحياة البشرية تهدينا إلى تلك الإرادة التي توجه حياتنا، لقد خلقنا الله وحين يشاء يسترد أمانته منا فيميتنا، وقد يشاء أن يعمر الفرد طويلا حتى يبلغ سن الكهولة، فإذا به يفقد ما حصل عليه أيام شبابه من علم وخبرة.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ أي العمر الأكثر هبوطا، كما كان في أيام الصبا والطفولة ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ فأصل علم الإنسان هبه إلهية. ويزداد بالسمع والإعتبار والتعقل والتفكر، بينما علم الله واسع دائم.

حدود الحرية البشرية

[٧١] والإنسان حر في الحياة، ولكن حريته محدودة، مما يهدينا إلى أن يد الغيب تدبر حياته، وأن الحرية المحدودة التي يملكها إنما هي لإختباره وليست من ذاته، لذلك ترى مواقع

الناس في المجتمع والدرجات العليا أو الدنيا التي يتفاضلون عبرها، إنها نفوذ إلى أصول تكوينية صعبة التغيير، أو مستحيلة التغيير، فلقد فضل الله بعض الناس على بعض في الذكاء، أو في النشاط، أو الصحة، وتهيئة فرص التقدم، فهل يقدر هؤلاء على تحويل صفاتهم إلى أولئك؟ كلا.. ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ﴾ وهو النعمة التي يهبها الله للإنسان بسعيه، وطيب نفسه، أو امتحانه وابتلاء الناس به مثل: العلم، والعافية، والأمن.

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ فلا يقدر الذين فضلهم الله أن يعطوا رزقهم الإلهي لمن هم دونهم، ولمن هم محكومون لهم.

والتعبير القرآني: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ يوحي بالرقية التي كانت شائعة في أيام نزول القرآن -ويبدو لي- أنه يشمل أيضا كل المراتب الاجتماعية التي يقتضيها التفاضل بين الناس في الكفاءات الطبيعية، ذلك لأن الكفاءة تقتضي -بالطبع- هيمنة صاحبها على من هو دونه فيها، فالعلم والقوة يعلوان الجهل والضعف، وصاحبها يملك ولو بنسبة معينة من لا علم ولا قوة له.

ولا أحد ينكر اختلاف الناس من الكفاءة الطبيعية، وأن هذه الكفاءة لا تقبل التحول من صاحبها إلى من هو دونه، حتى يصبحوا جميعا سواء فيها.

إن نظام الكون قائم على التفاعل بين أجزائه، وقد أمرت سنة الله في الناس أن يتعاون بعضهم مع بعض مثلما تتفاعل أجزاء الكون، ولكي يتعاونوا احتاج بعضهم إلى البعض الآخر، واختلفت كفاءاتهم، ولو تساوت كفاءاتهم واستغنى الناس عن بعضهم، إذن لبقوا كالحيوانات يعيشون أفرادا، ولم يتقدموا ولا خطوة واحدة في طريق الحضارة.

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ إن نعمة التفاضل التي تنتهي إلى التعاون والتقدم نعمة كبيرة، لابد من شكرها عن طريق رضا الناس بها وقبولها كواقع، ثم انطلاق كل واحد من موقعه في سبل الخير والفضيلة.

نعمة الأزواج

[٧٢] وإلى جانب نعمة التفاضل الطبيعي، ونعمة الحاجة المتبادلة، وبالتالي نعمة التعاون الذي فرض على البشر فرضا، نجد نوعا آخر من الحاجة المتبادلة والتي تؤدي إلى التعاون وهي الحاجة إلى الزوج ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ فلو لا الحاجة النفسية والجسدية والاجتماعية القائمة بين الزوج والزوجة لما تم هذا

التعاون العميق والواسع بين الزوجين.

إنها نعمة كبيرة، أسبغها الله علينا، إذ جعل لنا من أنفسنا أزواجا، وكأن كل جزء في الذكر انفصل عنه جزء في الأنثى، وانه يبحث عنه حتى يلتقي الذكر بالأنثى، فتلتقي كل أجزاء وجوديهما الجسدية والنفسية والعقلية.

ومن الأزواج ينسل البنين والبنات، أزواج البنات وهم الحفدة، أو أبناء البنين كما جاء في تفسير آخر، أو أبناء البنات كما جاء في حديث كريم، وأصل الكلمة مشتق من لفظة الحفد وهو: «الإسراع في العمل، ومنه قيل للأعوان حفدة لإسراعهم في الطاعة»[1].

ويبدو أن الحفيد هو الفرد الذي يخدم الشخص، سواء كان ابن ابنه أو ابن بنته أو زوج بنته أو ابنها ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ وكلما كثر نسل الفرد زادت نعم الله عليه، بينما يقتضي الحساب البشري أن يتناقص، أو لا يدل على أن الله هو الرزاق؟.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ ويزعمون أن رازقهم الأغنياء أو الدولة أو الأصنام. ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، تراهم يكفرون بنعمته، حيث يتوجهون تلقاء الشركاء من دونه.

لماذا الإصرار؟

[٧٣] أترى الغباء والسفاهة؟ كيف يترك البشر خالقه الرزاق، ويتوجه بالعبادة والطاعة لمن لا يملك رزقا، ولا يقدر على أن يسلبه رزقه؟!.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وربما توحي كلمة الاستطاعة بالقدرة التي يكتسبها البشر اكتسابا، بينما الرزق والملك قد يأتيان بلا تعب، والأصنام لا تملك ولا تستطيع، أو بتعبير آخر: لا تقدر على شيء من الرزق سعت أو لم تسع في سبيل القدرة.

[٧٤] كيف يشبه البشر ربه بخلقه؟.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ﴾ فتقولوا: فلان يرزقنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الله يعلم أنه الخالق الرازق، والبشر لا يعلم شيئا إلا بما علمه الله، فلا يحق للبشر أن يتخيل ربه أو يتوهمه سبحانه، أو يحدد لفعله كيفا أو مكانا.

(١) مجمع البيان: ج٨ ص٤٨١-٤٨٢.

يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ[1] لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾.

---

(١) الذي يولد أخرس لا يَفهم ولا يُفهم.

هدى من الآيات:

قد يفقد البعض منا القدرة الطبيعية، إما لقانون اجتماعي أو لنقص طبيعي، فيقعد به العجز عن أي عمل، كالعبد المملوك أو الأبكم، ويضرب القرآن بهما مثلا على واقع الكافر الذي يفقد قدرة الإيمان والعدل والحق.

والله سبحانه الذي يؤمن به المؤمنون عالم، قادر، فعنده غيب السماوات والأرض، وتتجلى قدرته في الساعة، فأمرها مثل خطفة أو أقرب.

والله مصدر العلم، أو لم يخرجنا الله من بطون الأمهات لا نعلم شيئا؟ ثم وهب لنا السمع والأبصار والقلوب بهدف الشكر له!

والله مصدر القدرة، فهو الذي سخر الطير في جو السماء، لا يستطيع أحد أن يحفظهن إلا الله، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

والله مصدر الرحمة، فقد جعل للناس سكنا في بيوتهم، كما وفر لهم من جلود الأنعام بيوتا خفيفة في السفر والحضر، وهيأ لهم من أصواف وأوبار وأشعار الأنعام متاع البيت. من فراش ودثار ومعاش إلى حين الانتقال من دار الدنيا إلى دار القرار.

وهو الذي وفر للإنسان الظلال والملابس السلمية والحربية، لتقيه من عارية الطبيعة ومن بأس بعضهم، وأتم نعمته على البشر لكي يسلم وجهه إلى الله، ولكنه يتولى ويعرض، ويكتفي الرسول بإبلاغ الرسالة، لأن الأدلة واضحة إذ يعرفون نعمة الله ولكنهم ينكرونها، وأكثرهم كافرون بربهم.

بينات من الآيات:

ظلم الطاغوت

[٧٥] عندما كانت الملكية المطلقة نظاما سائدا في المجتمعات قبل انتشار نور القرآن، وكان العبد المملوك لا يقدر على شيء إلا بأذن مولاه. يضرب القرآن بذلك العبد مثلا على واقع ذلك الإنسان الذي يقيد نفسه بأغلال الشرك، فيجعل نفسه عبدا لغيره وقد خلقه الله حرا.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ ويمكننا أن نضرب ذات المثل من واقع الشعوب التي استعبدها الأقوياء، ولم يتركوا لها شيئا يتصرفون فيه بحريتهم، هل هم سواء ومن انعم الله عليه بالإيمان، وحرر نفسه من أغلال الشرك وعبودية ذوي الثروة والسلطة والتضليل؟!

﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ كلا.. الذي أعطاه الله الحرية وزوده بحب الخير فهو لا ينفق رياء، ولا يكتم إنفاقه عن الناس خوفا، بل ينطلق في إنفاقه من إرادته الحرة، يستهدف مرضاة الله، و لا يرجو ولا يخشى أحدا.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي هيأ للإنسان كل فرص الخير، ووفر له الحرية الكاملة، وزوده بالأحاسيس الخيرة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والجهل آفة الحرية، ولأن الجهل يتفشى في الأمم الضالة، فانه يسهل استعبادهم من قبل الطغاة.

ظلام الجبت

[٧٦] كان لك مثلا ضربه القرآن الحكيم من واقع شخص سلبه الطاغوت حريته، وحوله إلى موجود عاجز، ويضرب الله مثلا آخر من واقع من يسلبه الجبت حريته، فإذا به كالأبكم الذي ولدته أمه وأذنه صماء لا تسمع شيئا، فلم يتعلم اللغة ولم يتفاعل مع الحضارة، وبقيت تجاربه محدودة بحدود ذاته، كالإنسان الذي ينمو في غابة، هل يستوي هو ومن أوتي العدالة والاستقامة؟.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ أي ثقيل على من يلي أمره ويشرف عليه.. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ كلما يبعثه إلى مكان لا ينفع شيئا.

﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ فهذا الذي يأمر بالعدل فصيح اللسان قوي الجنان لا يخضع للضغوط ولا يخشى من التهديد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فهو قادر على أن يحقق أهدافه من أقرب الطرق أن هذان مثلان للمشرك والموحد، فبينما المشرك منغلق على ذاته، لا يكاد ينفتح على العالم من حوله، بل يجحد بآيات الله ويعبد ذاته، ولا يسمع ولا يعقل ولا يتفكر، ولذلك فهو ليس فقط لا يقدر على التخطيط السليم لنفسه، بل إذا خطط الآخرون له شيئا لا يقدر على إنجازه، أقول: بينما المشرك هكذا، ترى الموحد ليس فقط عادلا بنفسه، بل ويقود الآخرين نحو العدالة.

وهذان المثلان يمكن تطبيقهما على الجاهل والعالم أيضا، لأن السياق يتحدث عن العلم أيضا.

[٧٧] والعلم والقدرة عند الله، والعلم مفتاح القدرة ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولعلمه المحيط بكل شيء ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ فهو يأمر بها في أقل من رمشة العين فتأتمر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن أراد العلم والقدرة، فعليه

أن يؤمن بالله، ويتوكل عليه.

[٧٨] هل العلم من ذواتنا نحن البشر؟ إذًا لكنا عالمين منذ الميلاد؟.

كلا.. حينما أخرجنا الله لم نكن نعلم شيئا، ثم هيأ الرب لنا وسائل العلم الظاهرة والباطنة، فأعطانا السمع والأبصار، كما أعطانا الأفئدة.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ والسمع هو: الإحساس الذي يتقدم ذكره في القرآن، لأنه الإدارة الأولى لنقل تجارب الأجيال إلى بعضها عبر اللغة، كما أنها تنقل أيضا المفاهيم العامة التي تتجاوز الظواهر الجزئية، ففائدتها أهم والتعبير عنها يأتي بصيغة مفرد (فلا يقال أسماع) لأن المفاهيم العامة أقرب إلى المجردات الكلية، ويلاحظ فيها العموم الذي يتجلى بالأفراد، بينما الجزئيات التي تعرف عن طريق البصر يلاحظ فيها التنوع، فهي اقرب إلى الجمع.

﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وهي القلوب التي تجمع الأفكار وتحلل المعلومات، ولولاها لما كانت الحواس مفيدة إلا بقدر فائدتها للحيوان أو أقل.

ولعل الآية تشير إلى أن مصادر العلم الحسية كما السمع والبصر لا بد أن تتكامل؛ فقد يرى الإنسان ما لا يصدقه سمعُه، وقد يسمع ما لا يصدقه بصره، وبعد التكامل بين معطيات الحواس تُصب المحسوسات في بوتقة القلب، حيث يتم تحليلها بما أودع الله فيه من عقل وعلم. والله العالم.

لعلكم تشكرون

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الهدف الأسمى لنعم الله على البشر ليس التكامل الجسدي والمادي، بل المعنوي والروحي، والتعرف على النعم وعلى أهميتها، وعلى الفوائد الكبيرة لها، والإنتفاع بها فيما أمر الله، وفيما خصصت النعم لها، والتعرف من خلالها بالتالي إلى ينبوع الخير ومعدن الرحمة، إلى الرفيق الأعلى.. كل ذلكم أسمى من الاستفادة الجزئية لهذه النعم حسب الحاجات العاجلة، وكل ذلك يجمعه معنى الشكر.

والآية هذه لا تعني أن العقل وبالتالي العلم ينشأ بتكامل طبيعي عند البشر، بل بالعكس تماما، إذ أكدت الآية على أن ربنا جعل لنا الأفئدة التي هي مركز العقل، فمن دون هذه النعمة كيف كان يتسنى لنا العلم؟.

[٧٩] وأشرف العلم معرفة الله، ولا تتم المعرفة من دون الإيمان، إذ تبقى الشهوات وصفة الشرك كالسدود المنيعة التي لا تدع تيار المعرفة ينفذ إلى القلب.

إن الجاحد لا يرى في الطيور التي تسبح في الفضاء إلا ما تسجله أداة التصوير، بينما المؤمن تنفذ بصيرته إلى معرفة الله الذي أمسك الطيور في جو السماء.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي في الهواء المحيط بالأرض، ولولا الهواء لما كانت الطيور قادرة على البقاء في الجو، ولولا الجاذبية المحيطة بالأرض لقذفت الطيور بمجرد صعودهن في كرة أخرى، أو في الفضاء اللامتناهي.

[٨٠] وهكذا القلب المؤمن الذي أسلم لله يعرف ما وراء نعم الله من عبر وأهداف.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي محلا تسكنون إليه، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي بيوت الجلد التي هي خفيفة للسفر والحضر، ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ أي أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز ﴿أَثَاثًا﴾ كالفراش والدثار التي يتمتع بها الإنسان لأجل مسمى ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

[٨١] تلك كانت نعمة السكن، وأمتعة الإنسان التي تحفظ البشر من اختلاف الحر والبرد، وظلال الأشجار تقي السائر في الصحراء حر الظهيرة، والكهوف تحمي الإنسان من عادية البرد والحر، ومن الوحوش الضارية.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾ كالأشجار التي أنبتها الله في الأرض ليستظلها الإنسان، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي مواقع تستترون فيها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ فهناك ملابس السلم تقي حر الجو، وملابس الحرب (كالدروع) تقي حر السيف.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هكذا يحوط الله برحمته الواسعة الإنسان الضعيف، ليعلم حاجته إلى ربه، فيسلم إليه وجهه، ولا يتجبر عليه.

إذا الهدف الأسمى لنعم السكن وما يحفظ البشر من شرور الطبيعة هو: دفعه إلى التسليم لربه، ليحافظ بذلك على نفسه من غضب الله.

الهداية بين الإكراه والاختبار

[٨٢] ولكن لا تبلغ قوة الدفع درجة الإكراه، فالله يريد أن يهدي الإنسان بما يوفر له من نعم، ولكنه لا يريد أن يجبره على ذلك، فإذا أعرض عن الرسالة فليس على الرسول سوى إبلاغ الرسالة إليه ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

[٨٣] وليس النقص في الآيات، أو في وسائل المعرفة عند البشر، بل في إرادة الكفر التي عقدوا العزم عليها ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

لا يؤذن لهم ولا هم يستعتبون

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾.

هدى من الآيات:

الذين يتولون ويعرفون نعمة الله وينكرونها -حسبما ذكرهم الدرس السابق- ينتظرون يوم العذاب الأكبر، حين يبعث الله شهيدا من كل طائفة من الناس ليشهد عليهم، فإذا شهد لزمهم العقاب دون أن تجري محاولة لإصلاحهم كما كان في الدنيا، ثم حين العذاب لا يخفف عنهم شفقة بهم، ولا تعطى لهم مهلة لدخولها، ولا تبقى لديهم حيلة الا محاولة يائسة لإلقاء مسؤولية انحرافهم على من أطاعوهم واتبعوهم من دون الله وهم الشركاء يتبرءون -بدورهم- من أمرهم، وسكت الجميع واستسلموا لله، وتبخرت الأفكار التبريرية التي كانوا يفترونها من دون الله.

ولكن الكفار الذين أضافوا إلى كفرهم جريمة إضلال الناس، وقطع الطريق على من أراد مرضاة الله، لهؤلاء المزيد من العذاب بسبب إفسادهم في الأرض وإضلال الآخرين.

بينات من الآيات:

من الشاهد؟

[٨٤] كل جيل من البشر، وكل فريق من الناس يعيشون في قرية أو ضاحية، يشهد عليهم واحد منهم، يكون أفضلهم سلوكا وأقربهم إلى الله زلفى، ابتداء من الأنبياء والأولياء، ومرورا بعباد الله الصالحين والعلماء العدول، وانتهاءً بكل من يسبق من حوله في طريق الله خطوة واحدة، فحتى هذا الأخير شهيد على الآخرين بنسبة تلك الخطوة التي سبق الناس بها إلى الله ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ وهذا الشهيد هو أمام قومه عند الله، فإن اتبعوه ظاهرا قادهم إلى الجنة، وإن خالفوه ساقهم إلى النار، وشهد عليهم عند رب العالمين.

يقول العلامة الطبرسي: بين سبحانه أنه يبعث فيه (يوم القيامة) من كل أمة شهيدا وهم: الأنبياء والعدول من كل عصر، يشهدون على الناس بأعمالهم. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لِكُلِّ زَمَانٍ وَ أُمَّةٍ إِمَامٌ تُبْعَثُ كُلُّ أُمَّةٍ مَعَ إِمَامِهَا»[1].

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي انهم لا يمكنهم أن يعتذروا، ولا يحاول أحد إرضاءهم او إصلاحهم كما كان الشهداء يفعلون في الدنيا، فيسعون من اجل إصلاحهم والاستماع إلى حديثهم.

[٨٥] ويوم القيامة يعرض الظالمون الذين غصبوا حقوق الآخرين، واعتدوا على حرمات الله، يعرضون على النار ثم لا يخفف عنهم العذاب ولا تعطى لهم مهلة.

﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أما قبل ذلك في الدنيا فانهم قادرون على تخفيف العذاب عن أنفسهم بالتوبة، وتأخيره بالدعاء.

مسؤولية الإنحراف

[٨٦] ويبدأ يومئذ الصراع الساخن بين المشركين، وبين من عبدوهم من الطغاة ورموز الفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فيتبرأ كل فريق من الآخر ﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ ﴾ وطلبوا من الله أن ينزل بهم العذاب ويتركهم، لأنهم كانوا -في زعمهم- مجبورين، كانوا شعبا اعزلا لا حول لهم في مقاومة الطاغوت، كانوا أبناء قبيلة لا قوة لهم في التمرد على رئيس القبيلة، كانوا

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص٣٠٨.

جميعا رعاع لا علم لهم حتى ينتقدوا علماء السوء ووسائل الإعلام المضللة، إذن ينبغي أن يتحمل القادة العذاب عنهم، ولكن الشركاء وهم طغاة السياسة والاجتماع والاقتصاد تبرؤوا بدورهم ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي ألقوا هذا الكلام.

[٨٧] وخضع الجميع، الشركاء والمشركون بهم، لله رب العالمين ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ فرفعوا أيديهم خاضعين لله، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فقد زالت عنهم نخوة الجاهلية، وتلك الأفكار الباطلة التي زينوا بها شركهم، زالت عنهم الأسماء البراقة، والعناوين، والشعارات، وما برروا به تسلطهم الباطل، وما افتروا على الله كذبا.

عذاب المضل اشد

[٨٨] ولكن لا يعني هذا أن الشركاء متساوون في العذاب مع المشركين، كلا.. القادة الذين ضللوا الناس أشد عذابا، لأنهم أفسدوا عقول الناس، ومنعوهم من ممارسة حريتهم والسير في طريق الله.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنفسهم.. كفروا بالله، ولم يشكروا نعمة الجاه والمال والعلم، ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فاتخذوا هذه النعم وسيلة للتسلط على الناس، ومنع الناس من ممارسة عبودية الله وتطبيق مناهجه، ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي فوق جزائهم الطبيعي من العذاب، ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ لأنهم صدوا الناس عن سبيل الله، وأفسدوا فطرة الناس بتضليلهم وافتراء الكذب عليهم، كما صدوا عن سبيل الله عمليا بالإرهاب، فأفسدوا على الناس حياتهم بسلب الحرية والاستقلال عنهم، والآية هذه تدل على أن التضليل نوع من الإفساد.

[٨٩] ويبعث الله الرسول شهيدا على الناس في عصره والعصور من بعده، بعد أن زوده بكل ما ينفعهم، كتابا.. فيه تفصيل مناهج الحياة، ويهتدي به من اسلم وجهه إلى الله، كما يوفر له افضل حياة، ويبشر بحياة أفضل في الآخرة ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ وامتازت رسالة الإسلام على ما سبقها فإنها ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، فشريعة موسى عليه السلام المنزلة في الألواح ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، فـ﴿مِنْ﴾ تبعيضية، وأما شريعة عيسى عليه السلام ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [النحل: ٣٩] من شريعة موسى عليه السلام، ويبدو أن هذه الميزة هي البشرى للمسلمين ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

العلاقات المثلى في المجتمع الإسلامي

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾.

هدى من الآيات:

لقد بينت الدروس السابقة فضيلة العلم وقيمة التقوى وحاجة الإنسان إلى المدينة ببنائها

وأمتعتها وإلى نظام اجتماعي توحيدي بعيد عن الشرك، وإلى قيادة سماوية تتجسد في الرسول، وها هو هذا الدرس يأمرنا بالعلاقات الإسلامية الاجتماعية المثلى بين أبناء آدم. بأن يعطى كل فرد حقه، وأن يزاد له بالإحسان، وأن يبني الحياة الأسرية على أساس العطاء، وأن يتقي الفحشاء والمنكر والاعتداء، تلك هي موعظة الله الهادفة لتوجيه الإنسان.

وأن يحترم الجميع عهودهم وأيمانهم التي أشهدوا عليها الله، وألا ينكثوا أيمانهم التي أكدوها بينهم، كتلك المرأة الخرقاء التي كانت تنقض آخر النهار ما غزلته أوله، فلا تجعلوا اليمين وسيلة للغدر للحصول على نصيب أوفر من الدنيا. ولا لكي يتعالى بعضكم على بعض، أن الله يختبركم باختلافاتكم الطبيعية، وغدا يبين لكم من كان منكم على حق ومن لم يكن، ولو شاء الله لبين ذلك هنا، فنصر صاحب الحق بالغيب الظاهر، ولكنه شاء أن يدعكم أحرارا ليسألكم عن أعمالكم، ولكي يضل من يشاء ويهدي من يشاء حسب حكمته.

فلا تجعلوا الدين وسيلة للغايات المادية، فتحلفوا كذبا وغدرا فتزل بالكفر قدم كانت ثابتة بالإيمان، ويصيبكم سوء الجزاء بسبب انهيار الثقة بينكم، وصدكم عن سبيل الله المتجسد في العهد، كما يسجل لكم عذاب عظيم.

وعهد الله الذي تخونونه أعظم شأنا من المصلحة المادية التي تبيعونه لها، فإن ما عند الله لمن ثبت على عهده خير من مصلحة الدنيا التي تفنى ويبقى ما عند الله فقط، والله يجزى الصابرين بخير ما عملوا.

ذلك الخير هو توفير حياة طيبة لهم، في الدنيا وجزاء حسن في الآخرة.

بينات من الآيات:

العدل سنة اجتماعية وواجب الهي

[٩٠] على كل واحد من أبناء المجتمع الإسلامي أن يكون عادلا، يعطي كل شخص حقه الفطري والقانوني، وليس الحفاظ على العدل مسؤولية الدولة فقط، لأن المجتمع الذي لا يشعر أبناؤه بضرورة تطبيق القانون واحترام حقوق الآخرين، لا يمكن للدولة فيه أنى كانت أن تجبره على ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ والعدل لا يتنافى مع اختلاف الدرجات الذي تشير إليه الآية الآتية، إذ قد تكون المساواة أقبح ظلم، فليس سواء الجاهل والعالم، الكسول والنشيط، المضحي

بنفسه والجبان و.. و.. ألخ.

وبالرغم من حاجة المجتمع إلى قانون يحدد أبعاد العدالة، وحقوق الطبقات المختلفة، حسب مساعيهم وحاجاتهم وحاجة الناس إليهم، ومما يجعل للعدالة معان مختلفة حسب القوانين والأعراف.

إلا أن العدالة واقع فطري لا يختلف البشر في خطوطه العريضة، وإن اختلفوا في التفاصيل.

ولكن قد يتعاسر الناس في تطبيق العدالة، فنحتاج إلى القضاء الذي لا يرضى عنه كل الخصماء، كما لا يطمئن الإنسان إلى نتائجه مائة بالمائة.

الإحسان ضرورة العدل

ولذلك يأمر القرآن بالإحسان، الذي هو التنازل عن بعض الحقوق للآخرين، والذي يسع رحابه العدالة ويزيد.. فيقول: ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ ويؤكد الإسلام على الإحسان لذوي القربى ليشكل الخلية الأولى في الكيان الاجتماعي ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ففضلاً عما تعنيه الآية من التواصل والتعاون المالي بين ذوي القربى لما بينهم من حقوق تفرضها صلة الرحم، فقد جاء في بعض النصوص الإسلامية أن تفسير ذي القربى هو: «أهل بيت الرسول ﷺ»[1] وإن الإيتاء هو الخمس المذكور في الآية (٤١)[2] من سورة الأنفال، وقد نستوحي ذلك من سياق الحديث عن شهادة الرسول على الأمة في الدرس السابق.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ الفحشاء كما قال في المفردات: ما عظم قبحه من الأفعال، ويبدو من أصل اللفظة أن الفحشاء هي تجاوز الحد، والذي يتناسب مع الإسراف والتبذير، ومن المعلوم: أن الإسراف أصل كل خطيئة ورأس كل رذيلة.

أما المنكر فهو الذنوب التي ينكرها الناس.

ويبدو أن معناه هو كل فحشاء قبيحة عند الناس، وهي أشد من سائر أنواع الفحشاء،

---

(١) جاء في كتاب الكافي: ج٨ ص٦٣ من خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام: «فَنَحْنُ وَاللهِ عَنَى بِذِي القُرْبَى الَّذِي قَرَنَنَا اللهُ بِنَفْسِهِ وَبِرَسُولِهِ ﷺ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فِينَا خَاصَّةً ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾».

(٢) ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

بينما البغي هو تجاوز حقوق الناس بصورة علنية، أو عن طريق الغش والخداع و.. و...

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ إنها حقائق فطر قلب البشر عليها وهو بحاجة إلى من يذكره ويعظه بها. ومن هنا فإن الإيمان بهذا الدين العظيم لا يتطلب سوى إعادة الناس إلى وجدانهم واستنارة فطرتهم، فإنهم إلا القليل سيرون أنه دين الحق. إن هذا الدين لا يتطلب الكثير من التفلسف في دعوة الناس، نعم الجدل العميق ينفع في دفع شبهات الضالين.

الوفاء لا النقض

[٩١] المجتمع الذي يمتلك أساسا لعلاقاته، وركيزة يعود إليها عند الضرورة، يستطيع أن يتبادل بسهولة، والمجتمع الإسلامي قائم على أساس الإلتزام بالعهد واليمين، اللذين يؤكدان اسم الله.

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ فلأن أبناء المجتمع يتمسكون بقيمة التوحيد، ولأنهم لا يضحون بأيمانهم ابتغاء عرض الحياة الدنيا، فإنهم يعتمدون على بعضهم في أمورهم الاقتصادية، وحتى في شؤونهم السياسية.

إن الثقة المتبادلة هي أعظم رصيد يملكه المجتمع المسلم في معاملته مع بعضه، ذلك لأن شرف التوحيد يأبى لهم أن يغدروا ببعضهم وهم يؤمنون برعاية الله عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

[٩٢] تروي قصص العرب أن امرأة قرشية خرقاء كانت تغزل هي وجواريها عرض النهار، فإذا أمسى نقضت الغزل، وتركته كحالته السابقة أنكاثا، لا فتل فيه ولا إبرام، فنهى القرآن الحكيم أن نكون مثلها، نتعب أنفسنا في أمر الدين حتى إذا أحكمناه عدنا ننقضه بنكث العهد ونقض القسم ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ أي مثل (ريطة بنت كعب) خرقاء مكة التي غزلت بقوة، ثم نقضت من بعد قوة.

﴿أَنكَاثًا ﴾ جاء في (المجمع): «وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث، حبلا كان أو غزلا»[1].

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي تستخدمون اليمين وسيلة للغدر، والدخل

(١) مجمع البيان: ج٦ ص٤٩٤.

-في الأصل- كلما دخل الشيء، وليس منه، ويكن به عن الخدعة والخيانة.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي بهدف أن تكون أمة أعلى من أمة أخرى وتتسلط على أختها وتحافظ على سيطرتها بالخداع.

وما الحلف والعهد، وما نوازع السلطة والاستعلاء إلا ابتلاء إلهي ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ ولن يصبح الحق باطلا بتضليل الناس، ولن يصبح السيئ صالحا بتبريره للنفس أو للآخرين، إذ أن هناك يوما يكشف الله فيه الحق لكل الناس ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

[٩٣] ولكن لماذا لم يبين الله في الدنيا واقع الخداعين، المتسلطين على رقاب ال.ناس؟ إن لهذا حكمتين:

الأولى: ليمنح نعمة الهداية للبعض، ويسلب نور العقل من آخرين حسب اختيارهم هم، لا حسب علمه سبحانه.

الثانية: ليجازي صاحب الخير، وفاعل الشر بالعمل الذي مارسوه بكل اختيار وحرية ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

آثار اليمين الكاذبة

[٩٤] وعاد السياق ينهى عن الخداع في اليمين، ويحذر من آثاره الفكرية والاجتماعية.

ألف: فمن الناحية الفكرية: حنث اليمين ونكث العهد يسبب ضلالة صاحبه، فإذا بتلك القدم الثابتة بسبب الإيمان تزل بالحنث والنكث، وماذا ينفع الثبات في أوضاع عادية، إنما الثبات عندما تهب عواصف المصالح ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾.

بـاء: ومن الناحية الاجتماعية: لا يمكن أن يستخدم الفرد يمينه (وبالتالي شرفه وحسن سمعته عند الناس) إلا مرة واحدة، وبعدها يكشفه الناس، بل وتشيع عند الناس فكرة خبيثة هي: أن أهل هذا البلد لا يحترمون اليمين، فلا يحترم بعضهم يمين البعض، وإذا سقطت قيمة اليمين الاجتماعية أغلق باب واسع للثقة وللتعاون، وبالتالي انهار البناء الاجتماعي، ويذوق الجميع فاجعة تهاونهم باليمين وصدهم عن سبيل الثقة بها.

والآية تشير إلى حقيقة وهي أن اتخاذ الأيمان مدخلاً للعلو عاقبته في نهاية الأمر هو زلل القدم عن موقعها المكتسب بعد ثبوتها فيه، إذ سرعان ما ينكشف الزيف في تدافع الأيام.

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وسبيل الله هو كل خير، وكل تقدم وعمران ورفاه للناس، ومنع الناس عن سبيل الله. وصدهم عنه قد يكون بإغلاق طرق التعاون واليمين من أفضلها، إذ لا شيء من القوانين والوثائق والضمانات والرهون بسهولة اليمين ولا بقوته في إشاعة الثقة والتعاون ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

[٩٥] وكما اليمين العهد الذي يشتري به البعض ثمنا قليلا، وإن كانت قيمة الثمن الذي يقبضه الفرد بيع شرفه وعهده وإيمانه فإنها ستكون قليلة، لأنها تسقط هيبة العهد فيسد باب كبير للرحمة.

﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾
فمن يبدل رحمة الله ببضع دراهم يكسبها من نكث العهد أو بسلطة زائلة أو ما أشبه؟!.

وكأنها الآية تحكي حال بعض الطالبين للعلو من أجل خدمة الدين ولو ظاهراً لكن الالتواء في نهاية المطاف يجعل هذا العلو للصد عن سبيل الله. فالبحث عن المكاسب السريعة على حساب القيم لن يكون في سبيل الله مطلقاً، ولن ينفع مرتاديه.

خلود الجزاء

[٩٦] علما بأن ما عند الله من خير يبقى ببقاء الله سبحانه، بينما حطام الدنيا يزول بزوال العوامل التي أنشأته ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ ﴾ إن الحق الذي يضمن الله ثباته، أبقى من الباطل الذي يضمنه غرور الإنسان، وخداع الشيطان، لقد خلق الله السماوات والأرض بالحق، فلذلك تخدم حركة الكون سلطة الحق، بينما الباطل يجري في عكس حركة الطبيعة والتاريخ.

فطرة الإنسان حق، لأن القوانين النفسية والجسمية والاجتماعية السائدة على أبعاد حياة البشر لا تتغير منذ خلق الله آدم وإلى الأبد، فإذا كانت فطرة الإنسان قائمة على أساس الوفاء بالعهد، فإن المجتمع القائم على أساس شرف العهد يكون أبقى، وخير الله أكثر مما يحصل عليه بعض الأفراد بسبب الغدر والمكر.

إلا أن الحق بحاجة إلى الزمن حتى يظهر، ولذلك فإنا بحاجة إلى الصبر حتى يخدمنا

الزمن ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فإن طيبات العمل تنمو في عمق الزمن، بينما يذهب العمل السيئ كما يذهب غثاء السيل برغم ظهوره وبروزه، كما في الحديث: «**إِنَّ لِلْحَقِّ دَوْلَةً وَلِلْبَاطِلِ دَوْلَةً**»[1].

الحق صلاح

[٩٧] الحق في واقع السعي صلاح، فمن اتبع الحق فإن عمله صالح، ينمو مع نمو الطبيعة، ويزرع بذلك بذور الحياة الطيبة لنفسه في أرض الزمن المباركة، ليحصد جزاء حسنا في الدنيا وأجرا كريما في الآخرة ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وهكذا يغفر الله لمن عمل صالحا سيئات عمله، ويحفظ له صالحات عمله ليجزيه بها خيرا.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال: «**الْقُنُوعُ**»[2] ولا ريب أنه كنز من كنوز الله التي لا تنفد، وتطيب الحياة كلما طابت النفس البشرية في مواقفها منها، فإن الرضا أطيب من كل الطيبات.

وكلمة أخيرة: إن العهد ليس فقط أساس التعامل المالي في المجتمع، بل قبل ذلك أساس التعاون السياسي، وإذا انعدم شرف العهد في أمـة، فسوف يبدأ بالتشرذم السياسي، وقديما قيل: «لَا وَفَاءَ لِمَلِكٍ وَأَنَّ الْمُلْكَ عَقِيمٌ». ولذلك أكد القرآن الحكيم في هذا الدرس على حرمة نقض العهد من أجل سلطة قوم على آخر، وأن تكون أمة هي أربى من أمة.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٤٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٨ ص٣٤٥.

كيف نفهم الكتاب؟

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾.

هدى من الآيات:

كان الدرس السابق بعض تعاليم القرآن الاجتماعية الرشيدة التي لا ينكرها إلا الجاحدون، وهي تدل على أن الكتاب من الله، بيد أن الكتاب لا يفهمه إلا من تخلص من سلطان الشيطان، ولا يتخلص منه إلا المتوكلون الذين يستعيذون بالله من شره، أما الذين يقولونه ويجعلونه شريكا في أمورهم بطاعته، فإن الشيطان يتسلط عليهم ولا يدعهم يبصرون نور القرآن.

وقد ينسخ الله آية بآية لعلمه بالمصالح العامة التي تتغير وفق الظروف، فآنئذ يجد المشركون فرصتهم في إتهام الرسول بأنه مفتر، لجهل أكثرهم بحكم الآيات. كلا.. إن القرآن

كتاب الله الذي أنزله روح القدس بالحق من الله، ليكون تثبيتا لإيمان المؤمنين، وهدى لهم، وبشرى إلى حياة أفضل.

ويقولون: إن الرسول يتعلم من بعض النصارى المبادرين بالإسلام، دون أن يعرفوا الفرق بين لسان النبي ولسانهم، فبينما ذلك اللسان أعجمي نرى القرآن يحدثنا بلسان عربي مبين، وليس الجدل في القرآن إلا بسبب جحودهم به، ولا يهدي الله قلبا جاحدا، بل يذيقه عذابا أليما.

وكيف يفتري الكذب شخص مخلص لربه، محسن إلى الناس كمحمد ﷺ والذي يعرف أن الكذب أبعد خصلة عن المؤمن، ولا يفتري الكذب إلا الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون حقا؟!.

بينات من الآيات:

توكل على الله

[٩٨] القلب البشري يلفه الظلام الآتي من طبيعة الضعف والجهل فيه، ومن تأثير جاذبية الطبيعة، وبالرغم من أن هذه النفس قد أوتيت قبسا من نور الحقيقة هو الذي نسميه بالعقل والإرادة، إلا أن على الإنسان أن يتحدى الظلام المحيط بنفسه عن طريق إثارة عقله، ويتحدى ضعفه ويأسه وخوفه بالتوكل على الله.

إن أقوى الحجب التي تمنع النور عن قلب البشر هو: الخوف من الحقيقة، والجبن عن مواجهة القوى الفاسدة والباطلة التي ترفض الحقيقة.

الاستعاذة بالله، والطلب المباشر منه لكي يحفظ الإنسان من خطر القوى التي ترفض الحق، إنه العلاج المباشر لمشكلة الخوف من الحقيقة، ولمقاومة سلطان الشيطان على القلب.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ لكي نبلغ قمة الحقيقة المتمثلة بالقرآن لابد أن نتجاوز جاذبية الأرض، والقوة التي بها نقاوم هذه الجاذبية المتجسدة في الشهوات هي قوة التوكل على الله، والاستعاذة نوع من التوكل، وتفترق عنه في أن الاستعاذة طلب ملح من الله بإنقاذ الإنسان من شر محدق، وأي شر أخطر من شر العقيدة الباطلة، أو من شر الجهل بالحقيقة الذي تخلقه وساوس الشيطان في القلب؟!.

وفي طول فترة تلاوة القرآن لابد أن يستعين البشر بربه.

التوكل حصن المؤمن

[٩٩] الشيطان ينفذ إلى قلب الشخص، ويتجسد في شكل القوى السياسية والاجتماعية المحيطة به، ولكن المؤمن الذي يتوكل على الله يحفظه الله من هذا الشيطان الذي يجري فيه مجرى الدم ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ بينما الذي لا يؤمن بالله يتسلط عليه الشيطان، فيضله عن الحقيقة لضعف إرادته.

[١٠٠] الذي يتخذ الشيطان وليا وقائدا مطاعا، فيشرك بالله ويتخذ من الشيطان شريكا مزعوما لله، ويعبد الله حينا ويعبد ويطيع الشيطان حينا آخر، إنه يقع في فريسة الشيطان الذي لا يستطيع أن يتخلص من شره إلا بالاستعاذة بالله.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ يبدو أن هناك فريقين يتسلط عليهما الشيطان، انسيًّا كان شيطانهما أو جنيًّا، ظاهراً كالطغاة والمستكبرين، أو باطنا كالعقائد الفاسدة والعقد النفسية.

الفريق الأول: الذين يتخذون الشيطان وليا، ويخلصون الإنتماء إليه كمثل أئمة الكفر، والملأ من حول الفراعنة، والبطانة من حول الطغاة.

الفريق الثاني: الذين يطيعون الشيطان خوفا وطمعا وسواء هذا الفريق أو ذاك فانهم جميعا يصبحون عبيد الشيطان، ويفقدون حريتهم واستقلالهم وثرواتهم التي يصادرها الشيطان.

القوى الإستكبارية في الأرض، لم تفوض بالسيطرة على الناس من قبل الله الحكيم سبحانه، إنما نحن الذين خضعنا لأفكارهم، فأخضعتنا لمصالحهم، أو خضعنا للثروة والقوة رهبا ورغبا، فامتلكت دوننا ناصية الثروة والقوة، واستعبدتنا صاغرين.

والآن كيف نتخلص؟.

لابد أولاً من التحرر عن الأفكار الإستكبارية القاضية بالتبعية المطلقة للمال والرجال، ثم العودة إلى الله، والاستعاذة به من شر الشيطان، ذلك لأن الطبيعة ترفض الفراغ، والقلب البشري ينقاد إما لسلطة الله أو لتسلط الطاغوت، فإذا رفضنا ولاية الله استعبدَنَا الشيطان، ولا حياد بين الحق والباطل، كما لا مسافة بين الكفر بالله ورفض حاكميته على الإنسان، وبين الإيمان بالطاغوت والخضوع لتسلطه واستغلاله.

والسياق القرآني يشير إلى هذه المعادلة، إذ يأمرنا ربنا بالإستعاذة بالله والتوكل عليه، ثم

يبين أن الشيطان عاجز عن التسلط على المتوكلين بالله.

ونتساءل معا: هل تعني الاستعاذة مجرد التوجه القلبي إلى الله؟ أم أن تطبيق مناهج السماء في الوحدة والصبر، والاستقامة والسعي، والقيادة الرشيدة، كل أولئك بعض معاني الاستعاذة بالله، وبالتالي طرق مقاومة العبودية للشيطان الإنسي والجني؟.

شيطان الفكر

[١٠١] الشيطان الثقافي أخطر على الإنسان من زملائه شياطين الثروة والإرهاب والزينة؟.

ذلك لأن قدرة الإنسان على التمييز بين الحق والباطل ليست عالية، وذلك لسبب بسيط أن القلب البشري يتعرض لعواصف الشهوات، فيخبو ضوء العقل، ولولا تدخل قوة غيبية هي قوة الإيمان والتوكل، فإن رياح الشهوة تكاد تطفئ مشعل العقل.

من هنا كانت الشبهات خطيرة، ومن هنا أيضا لم يتخلص حتى المؤمنون من وساوس الشيطان، فغفر الله لهذه الأمة المرحومة ما يوسوس به الشيطان إذا لم يعتقد به المؤمن.

ومن الشبهات ما أثاره الشياطين حول تبدل الأحكام الشرعية وفق متغيرات الظروف فقالوا: إذا كان الرسول صادقا إذا لم يأت كل يوم بقانون جديد ومخالف للقانون السابق؟ بل قالوا: إذا كانت رسالات السماء صادقة إذا ما اختلفت شرائعها؟!.

ولكن الله أعلم بما ينزل، وهم جاهلون ولا يعلمون أن الحياة تتغير، وكل قانون يناسب وضعا معينا، فإذا نزل فيه كان حكيما، وإذا تخطاه كان سفها.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ فهو عالم بحكم النسخ والتغيير.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإذا ترسخت هذه الشبهة في قلب فليس من السهل إزالتها، لذلك كان علينا الاستعاذة بالله أبدا حين قراءة القرآن، بل حين دراسة أية قضية علمية حتى لا يختلط الحق والباطل في أذهاننا.

[١٠٢] إن الذين يكذبون ويبدلون آراءهم كل يوم، بل بين ساعة وأخرى إنما يتبعون أهواءهم، بينما الكتاب نزله الله بسبب روح القدس المعصومة عن الزلل، والمقدسة عن الأهواء، وحكمة هذه الروح التي ترافق الرسول أن تثبت المؤمنين وتعصمهم من غواية الشيطان ومن شبهاته.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ فالحق المتمثل في سنن الله، في الآفاق والأنفس، هو باطن آيات الله، كل آية مظهر لسنة إلهية راسخة في ضمير الخلق. والسنن ليست واحدة وكذلك الآيات. والاختلاف بين الخلق موجود، ودليل على وحدة خالقهم، كذلك الاختلاف في آيات الله الكاشفة لتلك السنن موجود، وكاشف عن علم الله سبحانه.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فالذين آمنوا يعتصمون بروح القدس، ويظلهم روح القدس بقبس من نوره ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ فمن أسلم وجهه لله، هداه الله بالقرآن وبشره بحياة طيبة، وإذا تكامل فإنه سوف يصبح مؤمنا، والمؤمن يملك قوة إلهية تحفظه من كيد الشيطان، ومن شبهاته وهذا يسمى بالعدالة، ويقولون خطأً: «أنها مَلَكَة في النفس»؟!.

من شبهات الشيطان

[١٠٣] وشبهة أخرى يطرحها الشيطان ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ يلحدون: أي يميلون. فقد قالوا: إن رجلا اسمه (أبو فكيهة مولى بني الخضرمي) كان أعجمي اللسان، وكان قد اتبع نبي الله وآمن به، وكان من أهل الكتاب، قالوا أنه يعلم الرسول!.

وبعض التفاسير تقول: إنه غير هذا الرجل، ولكنه على أي فرض كان أعجمي اللسان، والقرآن نزل بلغة عربية واضحة تعرب عن الحقيقة ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾.

الرد على الشبهة

إن الترجمة طابعها مهما كانت بلاغة المترجم، لأن كل لغة تعبر عن ثقافة خاصة صيغت تلك اللغة على مقاسها، واللغة العربية لم تكن قادرة على التعبير بدقة عن الأفكار الدخيلة، ولم تكن واضحة بذلك الوضوح المتناهي في البلاغة والنفاذ إلى القلب، لولا أن ملقيها قد تعمق في فهم المحتوى، واهتدى إلى الموضوع الذي يعبر عنه، وواضح أن التعبير المفصل لا يكون من دون فهم عميق للفكرة، فكيف يعبر الرسول عن كل تلك الأفكار المفصلة والدقيقة إذا كان مجرد مترجم؟!.

[١٠٤] ثم إن القلب الذي لا يؤمن بالله لا يقدر أن يعبر عن الله، وأن ينطق باسم الله بهذا الوضوح والصراحة والقدرة، ذلك: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

[١٠٥] والمؤمن بالله لا يفتري على الله، خصوصا ورسول لله أكد بوضوح مدى جريمة الإفتراء على الله، فكيف يرتكب بنفسه لو كان مؤمنا هذه الجريمة؟!.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾
الذي يؤمن بآيات الله، وشخص رسول الله هو أظهر مصاديقه بلا ريب، فإنه يخشى من الكذب، بل إنه قوي لا يحتاج إلى الكذب، وعالم لا يتورط في الكذب.

ولذلك جاء في الحديث النبوي: عن عبد الله بن جراد أنه سأل النبي ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ يَزْنِي؟ قَالَ ﷺ: قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ، قَالَ: الْمُؤْمِنُ يَسْرِقُ؟ قَالَ ﷺ: قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ الْمُؤْمِنُ يَكْذِبُ؟ قَالَ ﷺ: لَا، -ثم أتبعها نبي الله ﷺ - قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾»[1].

(١) مستدرك الوسائل: ج٩ ص٨٦.

عاقبة الإرتداد

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ[1] أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[2] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) ﴾.

---

(١) لا جرم: حقاً لا محالة.

(٢) رغداً: طيباً واسعاً.

هدى من الآيات:

في الدروس السابقة حذرنا الرب الكريم من الكفر بعد الإيمان، والزلل بعد الثبات وذلك بمناسبة الحديث عن النكث والحنث. وها هو الدرس يفصل القول في الكفر بعد الإيمان بصفة عامة، فيحذر من غضب الله الذي يحل بمن يرتد عن دينه -قولا أو عملا- إلا الذي أكره على الكفر بطريق لسانه، بينما لا يزال قلبه مطمئنا، وإنما المرتد من استقبل الكفر بصدر رحب وذلك له عذاب عظيم، لأنه فضل الحياة الدنيا على الآخرة، فسلب الله منهم نور الهدى، ويطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وهم غافلون عن أوضح الحقائق من حولهم، وبالتأكيد سوف يخسرون أنفسهم في الآخرة.

بينما الثابتون على الهدى برغم ما يتعرضون له من مكروه، ويهاجرون إلى الديار الآمنة من بعد الإبتلاء، فإن الله بالنسبة إليهم غفور رحيم، يشملهم برحمته في يوم تأتي كل نفس تدافع عن ذاتها، فلا تعطى إلا جزاء عملها الأوفى، دون أن نظلم من عملها شيئا.

وأما من يكفر بعد إيمانه فإن الله يضرب له مثلا من واقع قرية كانت آمنة مطمئنة يأتها رزقها واسعا طيبا، من كل مكان، ولكنها كفرت بأنعم الله فشملهم الجوع والخوف بسبب أفعالهم، وكلما حاول رسولهم أن يهديهم لم يسمعوا له، بل كذبوه وكانوا ظالمين لأنفسهم في ذلك.

بينات من الآيات:

الإيمان مسؤولية

[١٠٦] ما هو الإيمان؟ هل إنه مجرد العمل؟ أم مجرد كلام؟.

كلا.. إنهما مظهران للإيمان، ولكن الإيمان شيء آخر. أنه موقف الشخص من الحياة الدنيا، ومدى إطمئنانه بها، واستحبابه لها بالقياس إلى الآخرة. فالذي يريد الدنيا بقلبه ويفضلها على الآخرة فإن الله لا يهديه سبيلا.

وإذا كان الإيمان موقفا قلبيا فما هو دور القول؟! أوليس مواقف البشر تتحدد بأقوالهم؟!.

بلى.. ولكن قد يتلفظ الإنسان بلسانه ما ليس في قلبه، كما المنافق الذي يدعي بلسانه أنه مؤمن والواقع أنه كاذب، وكذلك الذي أكره على الكفر بلسانه، بينما بقى قلبه مطمئنا بالإيمان

ثابتا عليه.

هكذا كان (عمار بن ياسر) الذي تعرض لتعذيب وحشي من قبل كفار قريش، فأعطاهم بلسانه ما أسرهم، حيث مدح آلهتهم ونال من رسول الله ﷺ لإنقاذ نفسه، فنزلت فيه الآية الكريمة تقرر تقاته منهم، وأمره الرسول ﷺ أن يعود لمثل ذلك إذا عادوا عليه..

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ وهل يكفر أحد بعد أن آمن؟ أو ليس الإيمان معرفة وعلما؟ وكيف يتحول الفرد بين لحظة وأخرى من عارف إلى جاهل؟!.

بلى.. الإيمان علم، ولكن العلم وحده لا يكفي، بل للإيمان عنصر آخر هو: اليقين، وعقد القلب والثبات، ومواجهة الضغوط، الإيمان موقف وانتماء وسعي وفداء..

جاء في حديث شريف: عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «فَأَمَّا مَا فَرَضَ عَلَى القَلْبِ مِنَ الإِيمَانِ فَالإِقْرَارُ وَ المَعْرِفَةُ وَ العَقْدُ وَ الرِّضَا وَ التَّسْلِيمُ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِلَهاً وَاحِداً لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ ﷺ وَالإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ كِتَابٍ فَذَلِكَ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى القَلْبِ مِنَ الإِقْرَارِ وَالمَعْرِفَةِ وَهُوَ عَمَلُهُ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾»[1].

ومن الناس من يتنازل عن موقفه وانتمائه فور ما يتعرض لضغط، فيكفر بعد الإيمان، ومنهم من يصمد، ومنهم من يخلص نفسه بإستخدام التقاة، فيكتم إيمانه كما فعل عمار الذي قال ربنا عنه وعن أمثاله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾.

والحديث المأثور في قصة عمار يقول: «لما أراد رسول الله أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: تفرقوا عني، فمن كانت به قوة فليتأخر إلى آخر الليل، ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي.

فأصبح بلال المؤذن، وخباب، وعمار، وجارية من قريش كانت أسلمت (وهي سمية أم عمار حسبما جاء في حديث، وأضيف أيضا اسم ياسر والد عمار) فأصبحوا بمكة، فأخذهم المشركون وأبو جهل، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى، فأخذوا يضعون درعا من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه، فإذا ألبسوها إياه قال: أحد.. أحد.. وأما خباب فأخذوا يجرونه في الشوك.

وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية، وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أوتاد ثم مدها،

(١) الكافي: ج٢ ص ٣٣.

فادخل الحربة في قلبها حتى قتلها[١]، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار..

فلحقوا رسول الله ﷺ فأخبروه بالذي كان من أمرهم، واشتد على عمار الذي كان تكلم به، فقال له رسول الله ﷺ: كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ أكان منشرحا بالذي قلت أم لا؟ قال: لا.. فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾»[٢].

هكذا صمد عمار فلم يستجب لضغوط قريش، بل تحداهم بالتقية وظل على موقفه الثابت. وآخرون ينهارون فيتقبلون الكفر برحابة صدر، فيتعرضون لغضب الله سبحانه.. ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ذلك لأنهم أرادوا إرضاء الطغاة فغضب الله عليهم، وأرادوا الحصول على نعم الدنيا فلحقهم عذاب عظيم في الآخرة، ولفظة ﴿فَعَلَيْهِمْ﴾ خبر لفظة من كفر بالله.

جذر المشكلة

[١٠٧] وجذر المشكلة يتصل بموقفهم من الدنيا التي فضلوها على الحياة الآخرة..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي بلغ حبهم للدنيا مستوى فضلوها على الآخرة.. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فمن استحب الدنيا على الآخرة، يغضب الله عليه بسلب نور العقل عنه، فيتركه في ظلمات جهله الذاتي، لأنه قد اختار منذ البدء الكفر.

وهذه الآية توحي بأن المعرفة واليقين والهدى، كل ذلك يأتي بعد الإختيار السليم، وتفضيل الآخرة على الحياة الدنيا.

الإرتداد انحطاط

[١٠٨] الذي يرتد عن الإيمان لا يهبط فقط إلى مستوى الشخص العادي الذي لما يؤمن، بل يهبط أكثر منه بكثير، إذ يسلب منه الله «جل جلاله» فرصة الهداية إلى الأبد بسبب موقفه الجحودي..

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ بل يصبح هؤلاء

---

(١) وهكذا قتل زوج هذه الشهيدة ياسر وهما أبوا عمار بن ياسر اللذين كانا أول شهيدين في سبيل الله في الإسلام.

(٢) راجع: الكافي: ج٢ ص٢١٩، بحار الأنوار: ج١٩ ص٩٠.

كمن لا شعور له غافلين عن أبسط الحقائق وأوضحها.. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾.

[١٠٩] ولأنهم اختاروا الدنيا على الآخرة فلا ريب أنهم يخسرون الآخرة.. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

سبيل المغفرة

[١١٠] كم ينبغي أن نصمد في مواجهة الضغط حتى لا نحسب من المرتدين؟.

يضرب الله لنا مثلا فيقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أجل إنها مسؤولية كبرى ينبغي أن يستعد كل مؤمن لها، ويعقد العزم على أدائها بإذن الله، الهجرة النفسية والبدنية عن المجتمع الجاهلي بعد التوخي للفتنة (أو تدري إن أصل الفتنة إدخال الذهب النار لتظهر جودته!!).

وليست الهجرة نهاية المطاف، بل لابد من الجهاد للعودة إلى الوطن السليب، وتحريره من طغيان المفسدين، والصبر على صعوبات الجهاد..

وآنئذ يغفر الله لهم ذنوبهم السابقة، مثل سكوتهم السابق على الظلم، بل خضوعهم للظالم وهو أكبر ذنب، بل هو الشرك ذاته، كما يغفر الله هفواتهم اللاحقة.

[١١١] وغفران الله نعمة كبرى يدخرها المجاهدون الصابرون ليوم القيامة، حيث يأتي كل فرد وحده لا أحد ينصره أو ينفعه غير عمله.. ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ أي كل إنسان يدافع عن نفسه فلا يجد إلا الحق.. ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

عاقبة الارتداد في الدنيا

[١١٢] كل ذلك في الآخرة، أما في الدنيا فإن الكفر بعد الإيمان ينتهي بالمجتمع إلى سلب نعم الله، كمثل تلك القرية التي كانت تتمتع بالرفاه والسلام فكفرت، فأنزل الله عليها الفقر والحرب.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ يبدو من الآية أن للأمن درجات، وهكذا للرفاه الاجتماعي درجات، وأن هذه القرية

كانت تعيش في أمن ظاهر وأمن قلبي، وهو أفضل درجات السلام، كما كانت تعيش على رزقها ورزق ما حولها من القرى، وهذا أفضل درجات الرفاه..

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ وعبر القرآن عن وضعهم بعد الكفر بأنهم تخلفوا إلى أن اصبحوا يحيط بهم الجوع والخوف كما يحيط بهم اللباس.

وقد لا تكون هذه القرية واحدة عبر التاريخ، فربما تشير الآية إلى آلاف القرى التي تردت إلى هذا المستوى بسبب كفرها، وفي حديث مأثور يقص علينا قصة واحدة من تلك القرى فيقول: «نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانَ لَهُمْ نَهَرٌ يُقَالُ لَهُ الثَّرْثَارُ وَكَانَتْ بِلَادُهُمْ خِصْبَةً كَثِيرَةَ الخَيْرِ وَكَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالعَجِينِ وَيَقُولُونَ هُوَ أَلْيَنُ لَنَا فَكَفَرُوا بِأَنْعُمِ اللهِ وَاسْتَخَفُّوا بِنِعْمَةِ اللهِ فَحَبَسَ اللهُ عَلَيْهِمُ الثَّرْثَارَ فَجَدَبُوا حَتَّى أَحْوَجَهُمُ اللهُ إِلَى مَا كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِهِ حَتَّى كَانُوا يَتَقَاسَمُونَ عَلَيْهِ»[1].

الحجة التامة

[١١٣] ولقد جاءهم رسول من أنفسهم يدعوهم إلى الشكر، فلم يستجيبوا له حتى أخذهم الله بعذاب شديد..

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ وفي نهاية هذا الدرس القرآني الكريم ينبغي أن نطرح عدة نقاط هامة:

ألف: إن قصة هذه القرية التي تتكرر عادة في كل عصر، توحي إلينا بضرورة مواجهة المؤمن لضغط قد يكون أشد من ضغط الإرهاب، ذلك هو ضغط الإغراء، فمع الرفاه والأمن يزداد شره النفس وشبقها، وبالتالي إحتمالات الغفلة عن الله وعن حقوق الإيمان به.

وإذا كان عمار قد تعرض لإرهاب قريش ومعه أكثر أصحاب النبي ﷺ فتحدوا بإيمانهم ذلك الإرهاب العظيم، فإن بعض أصحاب النبي قد غرتهم الدنيا بعد أن فتح الله عليهم، فأخذوا يخوضون في أموال المسلمين، وكما وصفهم الإمام علي عليه السلام: «يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خِضْمَةَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ»[2].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١ ص٢٨١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة الشقشقية.

من هنا أكدت (الآيات: ١١٢-١١٣) على ضرورة مواجهة ضغط الإغراء بعد أن أكدت (الآيات: ١٠٦-١١١) في هذا الدرس على مسؤولية مواجهة الإرهاب الجاهلي.

باء: إن ربنا الرحيم يرسل أنبياء في مراحل هبوط الحضارات لكي يوقفوا تدهور المجتمع، ولكن أغلب المجتمعات تسترسل مع عوامل الإنهيار حتى النهاية الأليمة، وهكذا بعث الله رسول هذه القرية فلما كذبوه أخذهم عذاب عظيم.

جيم: لقد أشرنا في بدايات هذه السورة الكريمة إلى أن سياقها يوحي بمناهج البحث وسبل الحصول على المعرفة، وفي هذا الدرس ذكرنا الله بمعنى الإيمان الذي هو أرفع درجات العلم، كما أشارت آية كريمة منه -هي الأولى- إلى المسؤولية التي تتبع الإيمان، بل هي جوهره، وإلى استثناءات المسؤولية.

ويشير حديث نبوي شريف إلى هذه الآية في هذا الحقل فيقول: «رُفِعَتْ عَنْ أُمَّتِي أَرْبَعَةُ خِصَالٍ: مَا أَخْطَئُوا وَمَا نَسُوا وَمَا أُكْرِهُوا عَلَيْهِ وَمَا لَمْ يُطِيقُوا وَذَلِكَ فِي كِتَابِ الله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾»[1].

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦ ص٤٥.

السبيل إلى شكر النعم

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ(١) وَلَا عَادٍ(٢) فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لكي يشكر الفرد نعم الله لابد أن يعرف حدود التصرف في هذه النعم، وبمناسبة الحديث عن العلم والإيمان والكفر والارتداد الذي مر في آيات سبقت، ترى هذا الدرس الكريم يأمرنا بأن نأكل من رزق الله شريطة أن يكون حلالا من ناحية المكسب وطيبا من ناحية ذات المأكول، ولكن علينا أن نؤدي حقوق النعم فلا نخضع لغير الله ابتغاء الحصول على بعض النعم.

وعلينا أن نتفقه في الدين، فلا نحلل ونحرم حسب أهوائنا، كلا.. إنما حرم الله علينا

---

(١) باغ: غير طالب للمحرم للذة أو استئثار.

(٢) ولا عاد: ولا متجاوز ما يسد الرمق.

الميتة والدم ولحم الخنزير والذبيحة التي ذكر عليها اسم غير الله، أما من اضطر من دون أن يكون معتديا ومسرفا فإن الله يغفر له، ولا يجوز أن تتحرك ألسنتنا بالحلية والحرمة من قبل أنفسنا، فهذا كذب وافتراء على الله، ومن يفتري على الله الكذب فإنه لا يفلح، لأنه لا يحصل إلا على متاع قليل بينما له عذاب أليم.

وقد يحرم الله أشياء إضافية بسبب ظلم الناس، كما بين لنا في آيات أخرى أنه حرم أشياء على بني إسرائيل لظلمهم.

وقد يعمل الإنسان شيئا بجهالة، ثم يتوب إلى الله، ويصلح ما أفسده بعمله، فإن الله من بعد ذلك غفور رحيم.

بينات من الآيات:

حدود الانتفاع بالنعم

[١١٤] العدالة في المعاش تتحقق بالانتفاع المناسب من رزق الله، أما الذين لا يستفيدون من نعم الله ويزعمون أن ذلك زهد فإنه بعيد عن تعاليم السماء، فربنا يقول: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾.

بيد أن حدودا ثلاثة تحيط بهذا الانتفاع وهي:

ألف: أن يكون الرزق من نصيبك، لا من حق الآخرين حتى يكون حلالا لك.

بـاء: أن يكون طيبا، فأكل الخبيث كالنجس والحشرات -والخبائث الأشياء المضرة والعفنة- لا يجوز.

جيم: أن تؤدي حق النعمة، بأن تعرف أنها من الله، ثم لا تنسى المحرومين، فإذا قويت بها نشطت في عمل الخير، بعد أن تذكر ربك بحمده.. ﴿حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

[١١٥] ولا يجوز أن يحرم الفرد على نفسه الطيبات باسم الدين، بل المحرمات أشياء معروفة.. ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ذبح باسم الأوثان، كالتي كان الجاهليون يذبحونها على أقدام أصنامهم!.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بعد أن استثنى القرآن

الإكراه من المسؤوليات، يبين رفع التكليف عما اضطر إليه الإنسان من خلال حاجته الضرورية التي من دونها يتعرض للهلاك.

كيف نشكر الله؟

[١١٦] ولكي نشكر ربنا لابد أن نلتزم بحدوده وشرائعه، ولابد أن نضمن صحة المصادر التشريعية، فلذلك حذر ربنا من إصدار الأحكام من دون تثبت.. ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ فالذي يسعد الإنسان هو الدين الحق، وليست الأهواء التي تفترى وتسمى دينا!.

جزاء الكذب والبدع

[١١٧] إن نهاية المبدعين والكذابين أليمة، إذ أن متاعهم في الدنيا قليل.. ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يبدو من هذه الآية أن المبتدع لا يغير في الدين إلا الهوى في نفسه أو نفس السلطان، ولتحقيق مصلحة ذاتية، يحذر ربنا منها، ويهدده بعذاب أليم في مقابل تلك اللذة التي يصيبها بسبب التحريف.

[١١٨] ونتساءل: إذا كانت المحرمات محصورة بالتي سبقت، فلماذا نرى بني إسرائيل محرم عليهم أشياء كثيرة من الطعام وغيره؟!.

ويقول ربنا جوابا عن هذا السؤال: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

لقد ضيقوا على أنفسهم وظلموها، فحرم الله عليهم أشياء كانت حلالا عليهم، وجاء في آية أخرى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠].

التوبة والإصلاح

[١١٩] ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قد يكون وعي الفرد ناقصا وعلمه محدودا ولم يؤت فرصة للتوجيه الكافي، فيرتكب بجهالته (وليس بجهله) ذنبا سرعان ما يتوب عنه فور ما يعود إلى رشده ويملك الوعي والتوجيه، فيغفر الله له ما سبق.

والجهالة غير الجهل، فإن الجهل عذر شرعي في الموضوعات وفي بعض الأحكام، فلا يتناسب والتوبة التي وعدها الله لصاحب الجهالة، بينما الجهالة ليست بعذر شرعي، إذ يكفي أن صاحبها يعلم بصورة مجملة حدود الواجب الشرعي الذي عليه، و يمكنه أن يفتش عنه حتى يجده.

وقد جاءت في آيات عديدة كلمة الإصلاح بعد التوبة للدلالة على أن التوبة الظاهرية لا تنفع شيئا، إنما ينبغي أن تكون التوبة نصوحا يتغير حال الفرد بها من سيئ إلى حسن، ومن فاسد إلى صالح، وفي الآية بحوث تتصل بعلم الفقه ندعها إلى الكتب العلمية المتخصصة.

شكر النعمة وبرامج الوحي

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)﴾.

هدى من الآيات:

الشكر يزيد النعمة، والمجتمع الكافر يلفه الجوع والخوف، والفرد الشاكر يبعثه الله أمة ويدخله في الصالحين، كما كان إبراهيم الذي حنف عن ضلالة قومه إلى الله الواحد، وشكر أنعم الله فاجتباه الله وهداه إلى صراط مستقيم، وآتاه في الدنيا حسنة، وأدخله في الآخرة في زمرة الصالحين، ثم أمر الرسول بأن يتبع نهجه التوحيدي البعيد عن الشرك.

وأما المجتمع الكافر بأنعم الله، فمثله مثل بني إسرائيل الذين اختلفوا في السبت، فأخره

الله عليهم وحرم عليهم فيه الصيد، وسوف يقضي ربنا يوم القيامة في أمرهم.

وفي نهاية السورة يلخص الله برامج الوحي التي تتلخص في ثلاث كلمات هي:

١- الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة، دون أن يتكفل الداعية مسؤولية الناس عن إيمانهم أو ضلالتهم، بل الله ولي ذلك.

٢- وعند المواجهة يكون العقاب بقدر الذنب، والانتقام بقدر الجرم، والتنازل عن الحق الشخصي في الله أولى.

٣- والاستقامة بالصبر على أذى الناس، دون أن يحزن الداعية على مصيرهم، ولا يخشى من مكرهم، ذلك لأن الله مع أهل التقوى والإحسان.

بينات من الآيات:

إبراهيم عليه السلام قدوة الشكر

[١٢٠] على الإنسان أن يشكر نعم الله عليه حتى ولو كفر بها المجتمع الذي يعيش فيه، أو ليس إبراهيم قدوة الإنسانية المثلى، الذي شكر أنعم الله مخالفا سيرة قومه الجاهليين؟!.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ ولو كان رجل آخر في عهد إبراهيم مسلما لذكره الله، ولكنه وحده تحدى مجتمع الفساد وكان.. ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ خاضعا له قلبا.. ﴿حَنِيفًا﴾ تنكب طريق الضلالة إلى صراط العزيز العليم. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أحاطوا به.

وقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لَقَدْ كَانَتِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِلَّا وَاحِدٌ يَعْبُدُ اللهَ وَلَوْ كَانَ مَعَهُ غَيْرُهُ لَأَضَافَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فَصَبَرَ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ إِنَّ اللهَ آنَسَهُ بِإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ فَصَارُوا ثَلَاثَةً**»[1]. ويبدو أن الحديث عن فترة -قبل الزواج مثلًا- معينة من حياة إبراهيم عليه السلام، حيث كان فتى وقبل أن يؤمن معه أحد، ولعل عبارة ﴿كَانَ﴾ إشارة لذلك.

[١٢١] أبرز صفات إبراهيم عليه السلام التي تتناسب والسياق القرآني هنا: صفة الشكر التي انتهت بإبراهيم إلى أن يختاره الله من بين الملايين من البشر المعاصرين له، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم.. ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.وهكذا كل من

(١) الكافي: ج٢ ص٢٤٣.

شكر أنعم الله هداه الله الصراط المستقيم.

[١٢٢] ولم يبق إبراهيم عليه السلام وحده، بل آنسه الله بذرية طيبة لم تلبث أن تكاثرت حتى ملأت الدنيا، وأما في الآخرة فهو في عداد الصالحين.. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

[١٢٣] وجعله الله قدوة الأنبياء عليهم السلام وإمام الناس، حتى أن ربنا أمر نبيه الأعظم أن يتبع دين إبراهيم وطريقته، لأنه كان مستقيما معصوما عن الزلل.. ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ والله لا يأمر باتباع المشرك أنى كانت الظروف.

بنو إسرائيل والإبتلاء

[١٢٤] ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ ماذا تعني الآية في هذا السياق القرآني بالذات؟.

لقد جاء في التفاسير: «إن السبت بمعنى القطع، وسمي السبت بهذا الاسم لأن اليهود كانوا قد كلفوا بقطع العمل في هذا اليوم. ثم قالوا: إن اختلاف اليهود في السبت كان بسبب أنهم خالفوا أوامر الله في الإستراحة فيه، ففرض الله عليهم ذلك، وكان ذلك بمثابة الإبتلاء. وبعضهم قال: بل أنه فرض عليهم يوم الجمعة، وحين اختلفوا أخره الله إلى السبت»[1].

وبقي السؤال العريض: ما هي علاقة الآية بما سبقتها؟.

ربما الآية توحي إلى أن بني إسرائيل أمروا بأن يعطلوا يوما يقضون فيه حاجاتهم الخاصة، فلم يتفقوا على يوم، بل كان كل فريق يتنافس وسائر الفرقاء في المكسب، مما جعلهم في الحيرة، وهنا جعل الله عليهم السبت ليقطع خلافاتهم، وكان ذلك إمتحانا لهم.

وهذا يتناسب مع السياق الذي يدل على أن بعض الأحكام الشرعية تشرع بسبب ظروف خاصة، ثم إذا تغيرت الظروف زال الحكم، وهذا أمر كثير في بني إسرائيل.. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وصايا للدعاة

[١٢٥] وفي نهاية السورة التي خصصت آياتها بالوحي تقريباً، وسميت باسم (النحل) الذي

---

(١) راجع الميزان: ج١٢ ص٣٦٩ ففيه تفصيل.

يوحي إليه الله سبحانه ما يشاء، جاءت توصيات إلى الدعاة إلى الله من الذين يحملون الوحي.

الحكمة

الوصية الأولى: الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة وقد ذكرت آيات القرآن في سورة الإسراء القادمة، وفي سورة لقمان، وسور أخرى معنى الحكمة، وقد عرفها البعض بأنها الجانب النظري من العلم، ولكنها في الواقع أكثر من هذا، أنها جماع الصفات النفسية والسلوكية الحسنة التي يذكر بها الله في آيات تأتي..

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ وتتجلى الحكمة في الحديث الطيب الذي لا وهن فيه ولا خشونة، إنما هو حزم في لين، وبلاغة في وضوح، وجمال في إتقان..

﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ وحين الجدال ينبغي ألا يثور غضب الداعية، فيصدر أحكاما كاسحة على الناس، ولا يهن أمام الخصم فيتنازل له عن بعض الحقائق طمعا في استجابته للحقيقة..

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ وقد جاء في حديث شريف أن الجدال بالتي هي أحسن هو القرآن، ولا ريب أن تفاصيل السلوك الحسن موجودة في القرآن الحكيم..

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ فلا يجوز اتهام الناس بالكفر والزندقة، واتخاذ مواقف سلبية منهم جميعا، بل الله يحاسبهم، إنما على الداعية أن يعمل بواجبه في دعوتهم إلى الله.

وقد بين في حديث طويل أن معنى الجدال بالتي هي أحسن: اتباع الحق في كل المراحل[١]، فلا ينكر حقا لزعم أنه ينفي حقا أكبر منه، ولا يقبل بباطل لأنه - في زعمه- يثبت حقا أكبر منه، كلا.. ينبغي أن نصل إلى الهدف الحق عبر وسيلة الحق نفسه.

وكلمة أخيرة: إن الآية هذه تدل على ضرورة تحكيم العقل في أسلوب الدعوة إلى الله.

العدل

[١٢٦] **الوصية الثانية للدعاة:** إلتزام العدالة في معاملة الأعداء، فلا يسرف في العقوبة، بل يسعى الدعاة في تجاوز أنفسهم، وأن يتنازلوا عن حقوقهم من أجل المصلحة العامة.. ﴿وَإِنۡ

(١) راجع بحار الانوار: ج٢ ص١٢٥.

عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾.

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ما صنع بحمزة بن عبد المطلب قال: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، وَ إِلَيْكَ الْمُشتكى، وَ أَنتَ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا أَرَى» ثم قال: «لأن ظفرت لأمثلن ولأمثلن» فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أصبر أصبر»[1].

الاستقامة

[١٢٧] الوصية الثالثة: صفات الاستقامة.

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ فالصبر بالتوكل على الله، وعدم التأثر بتغير الظروف وأقوال الناس، وسعة الصدر في مواجهة المشاكل..

[١٢٨] وفي نهاية السورة يؤكد القرآن على أن الله يؤيد الدعاة بشرطين:

الأول: أن يتقوا الله.

الثاني: الإحسان والطاعة..

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

نرجو أن نكون من الدعاة إلى الله والقادة في سبيله.. إنه عزيز حكيم.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٠ ص٩٣، تفسير العياشي: ج٢ ص٢٧٤.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

* مكية.

* عدد آياتها: ١١١.

* ترتيبها النزولي: ٥٠.

* ترتيبها في المصحف: ١٧.

* نزلت بعد سورة القصص.

فضل السورة

في مصباح الكفعمي: عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَهَا فَرَقَّ قَلْبُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الوَالِدَيْنِ أُعْطِيَ قِنطَارَيْنِ مِنَ الأَجْرِ.. وَالقِنْطَارِ أَلْفُ أُوقِيَةٍ وَمِائَتَا أُوقِيَّةٍ، وَالأُوقِيَّةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

(مصباح الكفعمي: ص٤٤٦)

***

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي كُلِّ لَيْلَةِ الجُمُعَةِ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُدْرِكَ القَائِمَ عليه السلام فَيَكُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ».

(ثواب الأعمال للصدوق: ص١٠٧)

الإطار العام

الإنسان ذلك المسؤول عن مصيره

لعل أهم الموضوعات التي تناولتها سورة الإسراء هي مسؤولية الإنسان عن أعماله في إطار الرسالة الإلهية، وتتحدث السورة عن طائفة من المسؤوليات تجاه المجتمع، ابتداءً من الوالدين وانتهاءً بسائر الناس.

وتعالج السورة -بتفصيل- قضية الشرك بالله الذي يمثل جذر الفساد، وسبب تهرب البشر عن مسؤولياته.

كما تبين بتفصيل أيضاً خطط الشيطان لإغواء البشر وكيفية محاربة تلك الخطط، ويضرب القرآن الأمثلة التاريخية العديدة.

وتبدأ السورة بقصة بني إسرائيل كمثل لمجتمع سعى مرة وتخاذل أخرى، وتنتهي بها.

هذه جملة القول في إطار السورة، وتلك هي خلاصة رسالات الله التي هي -في الواقع- واحدة.

فبعد أن أشار القرآن إلى واقعة الإسراء فالمعراج، ذكّرنا بأنه السميع البصير، وبالتالي محيط بعباده علماً، مما يوحي بضرورة التقوى منه (الآية :١).

وخلاصة الكتاب الذي أنزله على النبي موسى عليه السلام لبني إسرائيل ألا يتخذوا من دون الله وكيلاً (الآية: ٢)، ذلك أن الشرك بالله، هو جذر كل فساد وضلال.

أفلم يكونوا ذرية الذين حملهم الرب مع النبي نوح عليه السلام في السفينة لينجيهم من الطوفان، وكان النبي نوح عبداً شكوراً (الآية: ٣).

بلى؛ ولكنهم قد أفسدوا (أو يفسدون) مرتين في الأرض، ويلاقون جزاءهم (الآية:٥) إذ يبعث الله بعد أن يحين ميعاد الجزاء في المرة الأولى عباداً له أقوياء فيدمر عرشهم، وبعد أن يعيد لهم الكرة يأتي وعد المرة، ويتبرهم تتبيراً. لماذا؟ لأن الله يجازيهم بالإحسان إحساناً وبالإساءة جزاءً وفاقاً (الآيات: ٦ - ٧) تلك هي سنة الله في التاريخ، جزاء كل مجموعة لمجمل أفعالهم، أما في الآخرة فإن الله جعل جهنم للكافرين سجناً (الآية: ٨).

إنّ الهدى من الله عبر القرآن، أما الإيمان والعمل الصالح فهو من فعل الشر، وعليهما الجزاء الكبير، والكفر قد أعد لصاحبه العذاب الأليم. (الآيات: ٩-١٠).

والجزاء يتأخر، وكان الإنسان عجولاً، فتراه يدعو بالشر كدعائه بالخير، إلا أن الجزاء لواقع (الآية: ١١).

والآن، ألقِ نظرة في آيات الكون، ماذا ترى؟.

آية الليل التي محاها الرب بحكمته، وآية النهار جعلها مبصرة بحسن تدبيره لكي تسعى لمعاشك وتعد السنوات وتفقه الحساب.

إذن كل شيء منظم ومقدر ومدبر، وأن الذي دبر شؤون الليل والنهار ونظمها، فصّل لنا القول فيها تفصيلاً.

أفيخرج البشر عن هذا النظام؟ كلا؛ بل هو الآخر محكوم بسعيه، حيث يكتب في صحيفة عمله المعلقة بعنقه كل فعاله، ليلقى كتابه منشوراً يوم القيامة.

ويقال له: اقرأ كتابك وحاسب نفسك فأنت الذي تدين نفسك بنفسك ولو كنت خاطئاً (الآيات: ١٢-١٣).

فالهدى بسعيك والضلالة من عندك، ولا أحد يتحمل وزر الآخرين، ولا يبدر الرب عباده بالعذاب إن ضلوا حتى ينذرهم برسول، وهكذا حين يحين ميعاد هلاك قرية يبعث فيها رسولاً ينذر مترفيهم وقيادة انحرافهم، ولكنهم يفسقون عن أمر الله، فهنالك تثبت عليهم الحجة فيدمرهم الله تدميراً.

وكذلك أهلك الله كثيراً من القرون من بعد طوفان نوح عليه السلام، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراًبصيراً. فلا يزعمن أحد أن الله غافل عنه (الآيات: ١٤-١٧).

والسعي ينتج واقعاً، ولكن حسب نية البشر. فمن أراد الدنيا أعطاه الله منها بقدر

ما تقتضيه سنن الله وحكمته. إلا أن جزاءه في الآخرة سيكون جهنم حيث يصلاها مذموماً مدحوراً. أما من أراد الآخرة وسعى من أجلها بقدرها فإن الله يشكر سعيه.

والله يمد للأول في دنياه وللثاني في أخراه، وما كان عطاؤه محظوراً. هكذا يجعل حياة البشر وليدة إرادته وسعيه.

وكما أن رزق الناس في الدنيا متفاضل -بسبب تفاضل سعيهم- كذلك أكثر منه جزاء الآخرة (الآيات: ١٨ - ٢١).

ثم يحذرنا الرب من الشرك، ويبدو أن المراد منه هنا: الاسترسال مع التقاليد وتيارات المجتمع، لأنه ينتمي إلى اللوم والخذلان (الآية: ٢٢).

ويأمرنا بألاّ نعبد إلا أياه (فلا نعبد الآباء ولا نخضع لضغوط المجتمع)، إلا أن علينا إيجاد العلاقات الإيجابية مع الناس (في إطار التوحيد)، وأهمها الإحسان إلى الوالدين، وبالذات عند الكبر، والرحمة بهم والاستغفار لهم (الآيات: ٢٣ - ٢٥).

وبعد الوالدين؛ يلتزم المؤمن بحقوق الأقارب والمسكين وابن السبيل، ويتقي التبذير، لأن التبذير يجعله في صف الشياطين والكافرين بالله، غير الشاكرين لأنعمه. وفي حالة الاعراض عنهم (ماديًّا) لابد أن تحسن إليهم (معنويًّا) بالقول الميسور (الآيات: ٢٦ - ٢٨).

ويأمرنا الرب بالاقتصاد في الإنفاق، فلا بخل يغل اليدين ولا سرف ينتهي إلى الملامة والضيق، أو ليس الله يبسط الرزق لعباده ويقدره؟ فلماذا البخل والسرف؟ بل علينا أن نتبع أصول الحكمة في الصرف، ولماذا قتل الأولاد خشية إملاق مادام الرب هوالرزاق؟ (الآيات: ٢٩-٣١).

ومثلما نهى الله عن قتل الأولاد في إطار المسؤولية الأسرية -بما يشمل الإجهاض حسب الظاهر- ينهى عن الزنا باعتباره ذنباً كبيراً وساء سبيلاً.

وفي إطار المسؤوليات الاجتماعية يحرم قتل النفس إلا بالحق، ويجعل لوليّ القتيل حق القصاص، وينهى عن الإسراف في القتل، و يبشره بأنه كان منصوراً (الآيات: ٣٢ - ٣٣).

وتلك كانت مسؤوليات الإنسان تجاه الناس، وتتلخص في كلمات: التوحيد، وعدم الخضوع للتقاليد والضغوط، والإحسان، واحترام حقوق الآخرين.

وفي (الآيات: ٣٤ - ٣٥) يحرم الله مجرد الاقتراب إلى مال اليتيم (إلا بالتي هي أحسن)، ويأمر بالوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والوزن.

و لعل هذه المسؤوليات الاجتماعية وغيرها، تأتي تحصيناً للمجتمع من بعض الثغرات التي يدخل منها الظلم إلى كيانه، فإن إقامة العدل لا يمكن إلا بسد كل أبواب الظلم والمداخل الطبيعية إلى إشاعة الظلم في المجتمع.

وهكذا يأمر الرب بضرورة اتباع العلم، وترك سوء الظن، والابتعاد عن التكبر والاستكبار في الأرض. ويجعل ذلك من الحكمة التي أوحى بها الرب إلى العباد، والتي يجمعها توحيد الله سبحانه (الآيات: ٣٦ - ٣٩).

بلى؛ إن بناء المجتمع الفاضل قائم على أساس التثبت من التهم، والمساواة أمام القانون.

وينهى الله عن الشرك، أو ليس الشرك أساس كل جريمة، وتبرير شائع لكل فساد ولا مسؤولية؟

أصحيح أن الله اختار لهم البنين واتخذ من الملائكة بنات؟ إنه بهتان عظيم. وقد صرف القرآن لهم من كل مثل ولكنهم ازدادوا نفوراً (الآيات: ٤٠ - ٤١).

لو كان هؤلاء الآلهة كما يزعمون إذاً لتحدوا سلطان الرب ذي العرش. كلا؛ سبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. إن السماوات السبع والأرض تشهد بقدس مقامه وتسبح له وكل شيء يسبح بحمده، إلا أن البشر عاجز عن فهم تسبيحهم، والله حليم عن العاصين؛ غفور للمؤمنين سبحانه (الآيات: ٤٢ - ٤٤).

أما (الآيات: ٤٥ - ٥٢) فإنها تبين أخطار الكفر بالحياة الآخرة، وكيف أن الله يجعل بين الرسول ومن لا يؤمن بها حجاباً مستوراً، حيث يحيط بقلوب الكافرين بها ستاراً، فلا يفقهون القرآن، ويجعل الله في آذانهم وقراً، حتى أنهم يولون نفوراً كلما ذكر الرسول ربه في القرآن وحده.

إن تراكمات الجهل والضلالة والعصبية تجعلهم يستمعون إلى الرسول من وراء شبهات باطلة. فهم يقولون عن الرسول إنه رجل مسحور، فيضلون ولا يهتدون سبيلاً إلى الحقائق. وتراهم ينكرون البعث ويتساءلون: أبعد أن نصبح عظاماً ورفاتاً يعقل أن يخلقنا الله من جديد؟!.

وهكذا تصبح هذه الشبهات حجاباً مستوراً بينهم وبين القرآن وفهم حقائقه.

ويردهم الله بقوة؛ حيث يذكرهم بأنهم لو كانوا من الحجارة أو الحديد أو أي شيء كبير في نظرهم، فإن الله تعالى الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم. ثم يقولون متى؟ يقول

الله: عسى أن يكون قريباً، ذلك اليوم الذي يدعوهم الله فيستجيبون بحمده، ويزعمون أنهم كانوا في الدنيا أو البرزخ أياماً قليلة.

ولأن الشيطان عدو مبين؛ فعلى عباد الله أن يختاروا كلماتهم لكي لا ينزغ الشيطان بينهم بها، وأن يتركوا العصبية لقومهم أو تزكية أنفسهم، إذ أن الله أعلم بهم، يرحم من يشاء ويعذب من يشاء.

هكذا تبين (الآيات: ٥٣ - ٦٠) بعض المسؤوليات الاجتماعية الواجبة على المؤمنين لبعضهم.

ولعل الصراعات الداخلية تنشأ من رواسب الشرك؛ فيعود السياق لبيان زيف الأنداد وأنهم لا يدفعون الضر عن أنصارهم، بل هم بدورهم يبتغون سبيلاً إلى الله ربهم ويرجونه ويخافونه.

وكل القرى معرضة للهلاك قبل يوم القيامة، إما بالعذاب أو الموت. ولقد كذب الأولون بآيات الله، فاستحقوا العذاب، ولأن الله لم يشأ إهلاكهم فإنه لم ينزله عليهم كلما طلبوه، إذ لو أوتوه ثم كفروا لهلكوا. فهذه ثمود لما أتاهم الله الناقة آية مبصرة كفروا بها فأهلكهم الله، وإنما حكمة الآيات التخويف، ولعلهم يهتدون.

وهكذا أرى الله رسوله الرؤيا، وجعلها فتنة لهم، كما أخبره بالشجرة الملعونة، ويخوفهم الله فلا يزدادون إلا طغياناً.

وهكذا كانت الآيات للتخويف، وليس من أجل إنزال العذاب عليهم.

ويبقى سؤال هام: لماذا الشرك أساساً؟ ولم لا يخلص الناس الطاعة لله، ولمن فرض الله طاعته؟ ولماذا تنمو على صعيد مجتمع مسلم شجرة ملعونة كبني أمية يفرضون سيادتهم على الناس؟ في (الآيات: ٦١ - ٧٠) نقرأ الجواب الذي يستوحي منه قصة الخلق وكيف أضحى إبليس عدو بني آدم، وما هي خططه الماكرة.

والقصة بدأت حين أخذته العصبية الذاتية وادعى أن عنصره أفضل من عنصر آدم، ورفض السجود لآدم الذي سجد له الملائكة جميعاً.

وأمهله الله ليوم القيامة، وتحدى ربه في السيطرة على ولد آدم، وأخبره الله:

أولاً: أنه سوف يخسر العاقبة هو ومن اتبعه.

ثانياً: أنه لا سلطان له على عباد الله بالرغم من وسائله الماكرة، لأنهم يتوكلون على الله وكفى بالله وكيلاً.

أما خطط الشيطان فهي أربعة:

١- التضليل الإعلامي.

٢- الإرهاب.

٣- إفساد النظام الاقتصادي والتربوي.

٤- والغرور.

ولكن الله هو الذي يزجي الفلك في البحر، وهو الذي يكشف الضر، وهو الذي يُخشى مقامه؛ فإذا أراد أن يخسف الأرض بأهلها،أو يرسل قاصفاً من الريح، فلا أحد ينجيهم من الله سبحانه.

وهو الذي كرم بني آدم، وحملهم في البر والبحر وفضلهم على كثير من الخلق تفضيلاً.

وهكذا كان كيد الشيطان ضعيفاً، لأن الولاية لله وله الدين وبيده الأمر، وهو يريد كرامة الإنسان، بينما يريد الآخرون إضلاله.

وحبل الإنقاذ من أمواج كيد الشيطان ومكره هو القرآن.

ولكن، كيف نقاوم مكر الشيطان؟ وإلى أين ينتهي الصراع بين بني آدم وإبليس؟ وما هي عبر التاريخ في هذا الحقل؟

يبدو أن (الآيات: ٧١ - ٨١) تدور حول هذه الأسئلة. وتبدأ بالحديث عن القيادة باعتبارها تحدد مسيرة البشر. ففي يوم البعث يدعو الله كل أناس بإمامهم، ويختلف الناس بين من يؤتى كتابه بيمينه فيقرأه، وبين من يحشر أعمى فلا يهتدي سبيلاً.

ويبين القرآن بعدئذٍ كيف تعرض الرسول للضغط الإعلامي من قبل الكافرين، ليفتنوه عما أوحي إليه، فتحداهم. ولنا فيه أسوة حسنة، ويعلمنا كيف نقاوم الفتنة بالتوكل على الله كما فعل الرسول ﷺ فثبته الله. كان هذا مثلاً لخطة التضليل، ويضرب القرآن مثلاً لخطة الإرهاب حيث كادوا يستفزون النبي ﷺ من الأرض، ولو فعلوا لما بقوا من بعده إلا قليلاً، تلك سنة الله.

ولمواجهة غواية إبليس فرضت علينا إقامة الصلوات الخمس، وأمرنا بنافلة الليل التي بعث الله بها نبيه مقاماً محموداً.

ولكي نحافظ على النظام الاقتصادي والاجتماعي والتربوي السليم ولا ندع إبليس

يفسده، فعلينا أن نسأل الله أن يوفقنا للصدق في المدخل والمخرج، وأن يجعل لنا من لدنه سلطاناً نصيراً، وأن نثق بأن الحق منتصر وأن الباطل كان زهوقاً.

ولكي نقاوم مكر إبليس وكيده علينا أن نقوم بأمرين:

١- التمسك بحبل القيادة الإلهية المتمثلة في شخص رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام من خلفائه، ومن ثم الأمثل من الفقهاء والأقرب إلى نهج الرسول. وقد بينت الآيات السالفة صفات الرسول في الاستقامة والصبر والتوكل والثقة، وكأنها الصفات المثلى للقيادة التي تعصمنا من مكر الشيطان.

٢- الاعتصام بالقرآن، باعتباره حبل الله المتين. و(الآيات ٨٢ - ٩٣) بيان ذلك، حيث تبين أن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، بينما لا يزيد الظالمين إلا خساراً. ويمكننا أن نستلهم من هذه الآيات كيفية الاستفادة من القرآن والتمسك بحبله، ببيان أن الإنسان يغتر بالنعم، فإذا أوتيها أعرض ونأى، وإن سلبت منه استبد به اليأس.

والناس مختلفون، فكل يعمل على شاكلته، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

وإنما القرآن من الله، فإذا شاء ذهب به، وإنه لمعجز. فلو اجتمعت الجن والإنس ما استطاعوا تحديه، وفيه من كل شيء مثل، وأنهم ليطالبون ببعض الآيات المادية دون أن يهتدوا إلى أن الرسول بشر وإنما القرآن من الله، وإنما عليه البلاغ.

ولعل في هذه الآيات أهم محاور سورة الإسراء، وهو الذي يدور حول الرسالة، وإن الذي يستفيد منه إنما هو المؤمن بها، أما الظالم الذي يعرض عن نعم الله ويتولى بركنه عنها، وكذلك أصحاب المقاييس المادية فإنهم لا ينتفعون بالوحي.

ولكن لماذا لا يؤمن الناس بالهدى الذي جاءهم؟ وما هي أهم عقبات الإيمان برسالات الله؟.

أولاً: زعمهم بأن الرسول ينبغي أن يكون ملكاً.

ثانياً: ارتيابهم في البعث.

وهكذا تعالج (الآيات: ٩٤ - ١٠٤) العقبات النفسية التي يضعها إبليس في طريق الإيمان بالرسالة، فيبين أن الرسول يجب أن يكون من جنس من يرسل إليهم. فلو كان سكان الأرض الملائكة لأنزل الله إليهم ملكاً رسولاً.

وبعد أن يبين أن الله سبحانه شهيد على صدق رسالة النبي، وأن بيده الهداية، وأن من

يضله لا هادي له ولا ولي، وأنه يحشر أعمى وأبكم وأصم، وأن عاقبته جهنم التي يستمر سعيرها جزاءً على ما عملوا.

بعد كل ذلك، يستنطق وجدانهم ويقول: أليس الله الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، وإنما لا يؤاخذهم بالعذاب لأنه قدر لهم أجلاً لا ريب فيه ولكنهم لا يستغلون هذه الفرصة.

ولأن الإنسان كفور بطبعه، وبخيل قتور، فهو بحاجة إلى هادٍ ومربٍّ، وهو الرسول الذي يأتيه بالقرآن شفاء لما في الصدور.

ولم يكن النبي محمد ﷺ بدعاً من الرسل، فهذه رسالة الله تتنزل على النبي موسى، والله سبحانه يؤتيه تسع آيات بينات فتحداه فرعون واتهمه بأنه مسحور، وبيّن له النبي موسى أنها بصائر من الله وأن فرعون مبتور.

وكما جرى لرسول الله محمد ﷺ جرى لرسول الله موسى عليه السلام، حيث أراد فرعون أن يستفز الرسول من الأرض فأغرقه الله ومن معه جميعاً، وأورث الله الأرض لبني إسرائيل من بعده إلى أجل معدود.

هذا مثل لشهادة الله على صدق رسالاته، ومثل لمكر الشيطان وكيده، ومثل لنصرة الله عباده، وأن الحق منتصر، وأن الباطل كان زهوقاً.

ولقد جاء القرآن بالحق، وما على الرسول إلا إبلاغه، وإنما فرقه الله على أنجم ليثبت به فؤاد رسوله.

هكذا ابتدأت (الآيات: ١٠٥-١١١)، وهي تشير إلى مسألة تفريق القرآن وتنزله عبر سنين البعثة، وتؤكد أن للقرآن أصحاباً يؤمنون به وأنهم يخرون للأذقان سجداً كلما تليت عليهم آياته، ويزدادون إيماناً بوعد الله، ويسجدون ويزيدهم القرآن خشوعاً لربهم.

وهذه هي صفات المؤمنين بالقرآن، وهم عباد الله الذين لا سلطان لإبليس عليهم.

ومن صفاتم أنهم يدعون الله -كما أمرهم- بأسمائه الحسنى، وأنهم لا يجهرون بصلاتهم (رياءً)، ولا يخافتون بها(خوفاً)، إنما يبتغون بين ذلك سبيلاً (لأن مشيهم الهون، وسيرتهم الاقتصاد، وامتهم وسط).

وتختم سورة الإسراء بحمد الله الذي لا ولد له ولا شريك له ولا ولي له من الذل، كما ابتدأت بحمد الله وتسبيحه.

قصة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى[1] بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾.

هدى من الآيات:

آيات الله تجليات أسماءه الحسنى، ومنها الرحمة الواسعة الدائمة، وبهذا الاسم العظيم خُلِقنا وفي رحابه ترعرعنا، وبه حيينا وبه نشاء وبه نعمل وبه نقرأ كتاب ربنا وبه نستفيد من هذا الكتاب.

وبأسمائه الحسنى اصطفى النبي محمداً عبده ورسوله، وبه أسراه وعرج به، ولم يكن النبي ولداً له بل كان عبداً مصطفى فهو أول العابدين له.

والله هو السبوح القدوس، وهو السميع العليم حين اختار محمداً بين خلقه فهو أعلم حيث يجعل رسالته.

وكان إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مروراً بمواطن الأنبياء، وهناك في الملأ الأعلى أراه ربنا آياته الكبرى.

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ذي القدرة والعظمة، والنور والكمال، والفضل والأنعام ﴿الرَّحْمَنِ

(١) أسرى: سار ليلًا.

ﭐلرَّحِيمِ ﴾ ابتدأت السورة بالتسبيح، والتسبيح يدل على التنزيه والتقديس، ومادتها من (سبح) أي نزه، ومعنى ذلك أن نبعد الله عن أي نقص أو عجز أو حد.

إن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك إلا الأمور القريبة من ذهنه أو المتعارفة في الطبيعة، ولكنه يعجز عن إدراك ما وراء ذلك، ولو أراد الإنسان أن يتصور الله لتصوره في حدود مفاهيمه ومعارفه. حيث أن بعضهم قال: «إنه تعالى -﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٣]- على صورة إنسان أعلاه مجوف وأسفله مصمت، وهو نور ساطع يتلألأ، وله حواس خمس»[١].

والتاريخ يدلنا على: أن الأمم الكافرة والمشركة، إنما تصورت الله في حدود معارفها، فالأمة التي كانت بحاجة إلى الزراعة والرعي كانت تقدس الماء او البقر أو كليهما باعتبارهما آلهة.

والأمة التي كانت بحاجة إلى الأنواء والنجوم لتهتدي بها في السفر، كانت تتصور الله نجما أو قمرا أو شمسا، اما الأمة التي كانت تعيش ضمن القبيلة والتقاليد الموروثة، فإنها كانت تقدس الجد الأكبر لها، وبالتالي فانهم كانوا يتصورون الله شيخا كبيرا ذا لحية بيضاء.

وقد جاء في بعض الكتب الحديثة التي انطلقت من الغرور العلمي، أحاديث مسهبة خلاصتها: «انه لما كان الله موجودا في كل مكان وليس له صوت ولا صورة فهو إذا الجاذبية».

وقال بعضهم بأن الله هو الوجود، وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: **«وَلَعَلَّ النَّمْلَ الصِّغَارَ تَتَوَهَّمُ أَنَّ لله تَعَالَى زَبَانِيَتَيْنِ**[٢] **فَإِنَّ ذَلِكَ كَمَالُهَا، وَيَتَوَهَّمُ أَنَّ عَدَمَهَا نُقْصَانٌ لِمَنْ لاَ يَتَّصِفُ بِهِمَا»**[٣].

ومن أجل أن يقطع الإنسان على نفسه الدخول في هذه الدائرة عليه أن يقول: «سبحان الله» فينزهه لأنه اجل من أن يتصور، وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام يقول حين سأله ابن أبي نجران عن التوحيد: **«أَتَوَهَّمُ شَيْئاً؟ فَقَالَ عليه السلام: نَعَمْ غَيْرَ مَعْقُولٍ وَلَا مَحْدُودٍ فَمَا وَقَعَ وَهْمُكَ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ خِلَافُهُ، لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ، كَيْفَ تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ وَ هُوَ خِلَافُ مَا يُعْقَلُ، وَخِلَافُ مَا يُتَصَوَّرُ فِي الْأَوْهَامِ، إِنَّمَا يُتَوَهَّمُ شَيْءٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَلَا مَحْدُودٍ»**[٤].

وبالتالي فان كل ما نتصوره مخلوق مردود إلينا، والشيء الوحيد الذي يمكن أن نقوله

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٨٩ نقلًا عن بعض الجهلة.
(٢) زبانيا النمل أو العقرب قرناها.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٢٩٣.
(٤) الكافي: ج٢ ص٨٢.

عن ربنا هو «سبحان الله» فإننا متى ما قلنا ذلك اقتربنا إلى الله خطوة.

جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام وقد سأله البعض: «أَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللهَ شَيْءٌ؟ قَالَ عليه السلام: نَعَمْ يُخْرِجُهُ مِنَ الحَدَّيْنِ حَدِّ التَّعْطِيلِ وَ حَدِّ التَّشْبِيهِ»[1]. وهذا معنى الاعتراف بالله، لذلك بدأ القرآن حديثه بالتسبيح فقال:

[١] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ما هي علاقة تقديس الله وتنزيهه بالحادثة التاريخية التي وقعت لرسول الله صلى الله عليه وآله وهي حادثة الإسراء والمعراج؟.

قال بعض المفسرين: «إن التسبيح هنا بمعنى التعجب أي عجبا». كيف أسرى الله بعبده من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماء هذا صحيح. ولكن يبقى السؤال ما هي العلاقة بين التسبيح والتعجب؟ الواقع إننا حين نتعجب من شيء، فإن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء يوسوسان لنا بأن ذلك الشيء هو عظيم إلى حد الألوهية، ومن أجل أن نبتعد عن هذا الشرك علينا أن نسبح الله وننزهه لنتذكر بأنه اكبر من أي شيء عجيب قد يبهرنا.

وهكذا عندما أسرى الله بالنبي صلى الله عليه وآله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماء كان من الممكن أن يعتقد البعض بأن النبي صلى الله عليه وآله هو الإله، لذلك كان يلزم أن تبدأ القصة بـ «سبحان الله».

ولمفردات اللغة العربية معان دقيقة فمثلا: إذا ذهب أحدهم في أول الصباح إلى مكان ما يقال عنه (بكر) وإذا كان بعد ذلك بقليل قيل (صبح) وبعد مدة (غدا) ثم (أضحى) وفي النهار يقال (سرب) واما في الليل فيقال (سرى).

والقرآن في هذه الآية يقول ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ يعني أسرى به في الليل، فلماذا تقول تتمة الآية: ﴿بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾؟.

قد يكون ذلك لما يلي:

أولاً: أسرى بعبده أي ذهب بالليل، ولكن هل كان رجوعه في الليل أيضا؟ إن كلمة ﴿لَيْلًا﴾ جاءت هنا لتؤكد على أن الذهاب والإياب كان في الليل، تأكيدا لمعجزة الإسراء.

ثانياً: قد يكون تأكيد الآية على أن هذا الحدث العجيب قد تم في الليل، حيث السكون

(١) الكافي: ج١ ص٨٢.

والهدوء، وحيث لا يتم الانتقال فيها إلا قليلا، ثم إن العروج الإيماني يتم في الليل أكثر من النهار، قال ربنا: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أما محل انطلاق رسول الله ﷺ للإسراء فقد اختلفت الروايات في ذلك، فمنهم من قال: بأنه خرج من المسجد الحرام، وبعض قال: من بيت أم هاني بنت أبي طالب، ولكن يمكن جمع الخبرين بالقول: إن الرسول ﷺ كان في بيت أم هاني، ثم خرج إلى المسجد الحرام، ومن هناك بدأ رحلته إلى المسجد الأقصى، أي المسجد الأبعد من المسجد الحرام.

وأما العروج فقد كان من المسجد الأقصى إلى السماء، حيث رأى آيات ربه الكبرى، إذ يقول تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ وفي آية أخرى يقول: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]. ولكن ما هي تلك الآيات؟ وأين هي؟.

القرآن لا يحدثنا عن هذه الآيات إنما نجد هناك إشارات إلى هذه الآيات في الأحاديث كما سيأتي ذكره.

أما كيف تمت تلك الآيات والحوادث في ليلة واحدة في حين أنها تحتاج إلى مدة مديدة؟ فان ذلك أثار التساؤلات لدى العلماء، فقال بعضهم: بأن الزمان في الفضاء الأعلى يختلف عما هو عليه في كرتنا الأرضية، ولهم في ذلك بحوث مطولة لا يسع المجال لذكرها، وأساسا هناك تساؤلات حول كيفية حدوث الإسراء لشخص الرسول كالتالي:

١- كيف قطع الرسول المسافة بين المسجدين في ليلة، علما بأنها كانت تقطع في ذلك الزمان في أسابيع؟.

٢- وبعدئذ كيف اخترق جاذبية الأرض إلى الفضاء، ونحن اليوم لا نقدر على مثله إلا بمركبات فضائية متطورة ومعقدة، ومع ذلك فإنها لا تستطيع أن تعمل إلا في حدود ضيقة جدا، بالنسبة إلى رحلة الرسول ﷺ؟.

٣- وإذا كانت السماوات جميعا عرصة رحلة الرسول، فيقتضي ذلك أن تكون سرعة المركبة أضعاف سرعة النور بملايين المرات، لأن الرسول قطع -حسب الروايات- تلك المسافات في ساعات وهو لا يتناسب مع الجسم الكثيف.

وتساؤلات أخرى جعلت طائفة من العلماء يشككون أنفسهم في المعراج، حتى أن بعضهم أوله بأن روح الرسول هي التي عرجت وليس النبي ﷺ بجسمه وروحه.

بيد أن إجماع علماء أهل البيت عليهم السلام قائم على أن العروج كان بالجسم والروح كما يحكيه شيخ الطائفة الطوسي قدس سره [1] والشيخ الطبرسي قدس سره [2] والعلامة المجلسي قدس سره [3] وآخرون.

وهكذا ذهب اكثر المحققين من علماء المسلمين إلى ذلك وعليه روايات صحاح مشهورة حسب ما يحكيه المفسر المعروف الرازي[4].

ويدل على ذلك:

أولاً: إن الآية صريحة على أن العروج تم ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ كما جاء في هذه الآية وتصرح آيات سورة النجم بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣ - ١٨]. وهذا التعبير صريح في أن العروج تم به وليس بروحه صلى الله عليه وآله.

ثانياً: إن الرسول صلى الله عليه وآله قص على الناس في مكة وأكثرهم كفار قصة المعراج، فكذبوه وأخبرهم بها رأى في الطريق مما ظهر صدقه لهم بعدئذ، ولو أن العروج كان بروحه في مثل النوم، لكان الأمر غير ذي بال، ولا يثير التساؤلات عندهم بل لا يكون معجزة لافتة للنظر.

وعلى العموم لابد أن نعرف: أن عروج الرسول لم يكن مثل صعود المركبات، بل كان إعجازا مثل صعود عيسى وإدريس عليهما السلام ومثل ما فعل الله سبحانه وتعالى لأنبيائه عليهم السلام من طوفان نوح، وخمود النيران لإبراهيم عليه السلام وابتلاع عصى موسى عليه السلام لحبال سحرة فرعون وإحياء الموتى على يد عيسى ابن مريم عليه السلام.

وكما القرآن إعجاز تحدى كل العلماء والبلغاء، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، كذلك إسراء النبي صلى الله عليه وآله ومعراجه.

أما كيف تم ذلك فإن العلم يتقدم، وأمامه طريق طويل حتى يستطيع أن يكشف أسرار هذه الرحلة المادية الروحية العجيبة.

بلى فهذا العلم تقدم خطوات، واظهر أن قطع المسافة بين المسجدين في ليلة واحدة

---

(١) تفسير البيان: ج٦ ص٤٤٤.

(٢) مجمع البيان: ج٣ ص٣٩٥.

(٣) بحار الأنوار: ج١٨ ص٢٨٢ وما بعدها.

(٤) تفسير الفخر الرازي في تفسيره للآيات: ج٢٠ ص١٤٧ .

ممكنة، ثم تقدم وأثبت أن الصعود إلى الفضاء هو الآخر ممكن بصورة إجمالية، بينما كان الأمران محالان عند السابقين حين تمت رحلة الإسراء والمعراج، وسوف يتقدم ويتقدم ليكشف بعض أسرار الرحلة المعجزة.

وأخيرا لنعلم أن عروج الرسول كان رحلة روحية أيضا، بالإضافة إلى أنه كان رحلة مادية، حيث شاهد الملائكة والأنبياء السابقين، والجنة والنار ومن فيهما.

حديث الإسراء

في الحديث المروي عن تفسير القمي، عن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام انه قال: «جَاءَ جَبْرَئِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ بِالْبُرَاقِ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَأَخَذَ وَاحِدٌ بِاللِّجَامِ وَوَاحِدٌ بِالرِّكَابِ، وَسَوَّى الْآخَرُ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ، فَتَضَعْضَعَتِ الْبُرَاقُ (أي تحركت) فَلَطَمَهَا جَبْرَئِيلُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: اسْكُنِي يَا بُرَاقُ، فَمَا رَكِبَكِ نَبِيٌّ قَبْلَهُ، وَلَا يَرْكَبُكِ بَعْدَهُ مِثْلُهُ، قَالَ فَرَقَّتْ بِهِ (أي طارت) وَرَفَعَتْهُ ارْتِفَاعاً لَيْسَ بِالْكَثِيرِ، وَمَعَهُ جَبْرَئِيلُ يُرِيهِ الْآيَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي مَسِيرِي إِذْ نَادَى مُنَادٍ عَنْ يَمِينِي، يَا مُحَمَّدُ! فَلَمْ أُجِبْهُ، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ عَنْ يَسَارِي: يَا مُحَمَّدُ فَلَمْ أُجِبْهُ، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْنِي امْرَأَةٌ كَاشِفَةٌ عَنْ ذِرَاعَيْهَا، عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةِ الدُّنْيَا فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ! انْظُرْنِي حَتَّى أُكَلِّمَكَ فَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، ثُمَّ سِرْتُ فَسَمِعْتُ صَوْتاً أَفْزَعَنِي فَجَاوَزْتُ، فَنَزَلَ بِي جَبْرَئِيلُ، فَقَالَ: صَلِّ، فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ: تَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: صَلَّيْتَ بِطَيْبَةَ وَإِلَيْهَا مُهَاجَرَتُكَ، ثُمَّ رَكِبْتُ فَمَضَيْنَا مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالَ لِي: انْزِلْ وَصَلِّ، فَنَزَلْتُ وَصَلَّيْتُ، فَقَالَ لِي: تَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: صَلَّيْتَ بِطُورِ سَيْنَاءَ حَيْثُ كَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً، ثُمَّ رَكِبْتُ فَمَضَيْنَا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ قَالَ لِي: انْزِلْ فَصَلِّ، فَنَزَلْتُ وَصَلَّيْتُ، فَقَالَ لِي: تَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: صَلَّيْتَ فِي بَيْتِ لَحْمٍ، -وَبَيْتُ لَحْمٍ بِنَاحِيَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَيْثُ وُلِدَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام-، ثُمَّ رَكِبْتُ فَمَضَيْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَرَبَطْتُ الْبُرَاقَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ تَرْبِطُ بِهَا، فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَمَعِي جَبْرَئِيلُ إِلَى جَنْبِي فَوَجَدْنَا إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى فِيمَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ الله عليهم السلام قَدْ جُمِعُوا إِلَيَّ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَلَا أَشُكُّ إِلَّا وَجَبْرَئِيلُ سَيَتَقَدَّمُنَا، فَلَمَّا اسْتَوَوْا أَخَذَ جَبْرَئِيلُ بِعَضُدِي فَقَدَّمَنِي وَأَمَمْتُهُمْ وَ لَا فَخْرَ.

ثُمَّ أَتَانِي الْخَازِنُ بِثَلَاثَةِ أَوَانٍ إِنَاءٌ فِيهِ لَبَنٌ وَ إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ وَ إِنَاءٌ فِيهِ خَمْرٌ وَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: إِنْ أَخَذَ الْمَاءَ غَرِقَ وَغَرِقَتْ أُمَّتُهُ، وَإِنْ أَخَذَ الْخَمْرَ غَوِيَ وَغَوِيَتْ أُمَّتُهُ، وَإِنْ أَخَذَ اللَّبَنَ هُدِيَ وَهُدِيَتْ أُمَّتُهُ. قَالَ: فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ وَشَرِبْتُ مِنْهُ، فَقَالَ لِي جَبْرَئِيلُ: هُدِيتَ وَهُدِيَتْ أُمَّتُكَ.

ثُمَّ قَالَ لِي: مَاذَا رَأَيْتَ فِي مَسِيرِكَ؟. فَقُلْتُ: نَادَانِي مُنَادٍ عَنْ يَمِينِي، فَقَالَ لِي: أَوَأَجَبْتَهُ؟. فَقُلْتُ: لَا، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ذَلِكَ دَاعِي الْيَهُودِ لَوْ أَجَبْتَهُ لَتَهَوَّدَتْ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ، ثُمَّ قَالَ: مَاذَا رَأَيْتَ؟. فَقُلْتُ: نَادَانِي مُنَادٍ عَنْ يَسَارِي، فَقَالَ لِي: أَوَأَجَبْتَهُ؟ فَقُلْتُ: لَا، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ذَاكَ دَاعِي النَّصَارَى لَوْ أَجَبْتَهُ لَتَنَصَّرَتْ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ، ثُمَّ قَالَ: مَاذَا اسْتَقْبَلَكَ؟ فَقُلْتُ: لَقِيتُ امْرَأَةً كَاشِفَةً عَنْ ذِرَاعَيْهَا عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةِ الدُّنْيَا، فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ! انْظُرْنِي حَتَّى أُكَلِّمَكَ، فَقَالَ لِي: أَفَكَلَّمْتَهَا؟ فَقُلْتُ: لَا كَلَّمْتُهَا وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تِلْكَ الدُّنْيَا وَلَوْ كَلَّمْتَهَا لَاخْتَارَتْ أُمَّتُكَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتاً أَفْزَعَنِي فَقَالَ لِي جَبْرَئِيلُ: أَتَسْمَعُ يَا مُحَمَّدُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: هَذِهِ صَخْرَةٌ قَذَفْتُهَا عَنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ عَاماً فَهَذَا حِينَ اسْتَقَرَّتْ. قَالُوا فَمَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى قُبِضَ»[1].

قصة المعراج

في حديث الإسراء والمعراج كثير من المواعظ والحكم، وفي نفس الوقت هو حديث ممتع، يحمل الإنسان بعيدا عن آفاق الزمان والمكان، ويدعه يسيح في آفاق بعيدة وأشارت إلى ذلك الآية القرآنية تقول: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

في وقت كان الناس يعتقدون بأن الأرض هي محور الكون، وإن السماء سقفها، وأن النجوم مسامير وضعت في هذا السقف لكي لا تقع السماء على الأرض، ولتكون زينة، وكان يتصور فريق منهم أن السماوات عقول مجردة لا تحتمل الفساد.

في ذلك الوقت تمت حادثة المعراج، ونقلتها الأحاديث، ولابد أن نعرف أن قصة السماوات تختلف عن موضوع الكبد مثلا في جسم الإنسان، إذ الكبد شيء خفي لا يهتم كل إنسان به، أما السماء فكل إنسان يزعم أنه يعرف عنها الشيء الكثير، وذلك لعلاقته الوثيقة بها، فهو يرى الشمس والقمر والنجوم يوميا، كما أنه يشاهد تغييرات الأنواء باستمرار، وهكذا فإنه لابد أن يكون تصورا معينا عن السماء في نفسه يكون خاطئاً في الأغلب، وكثيرا ما تحولت الأساطير المرتبطة بعلم الهيئة القديم إلى أفكار مقدسة، فمثلا: دافعت الكنيسة عن هيئة بطليموس، وأحرقت أو قتلت من تحداها، كما جرى لجاليليو، حين قال: بأن الأرض التي تدور حول الشمس وليس العكس.

وبالرغم من ذلك فقد جاءت إشارات صريحة في بعض الأحاديث عن طبيعة السماء يقول الإمام الباقر عليه السلام في كلام له لأحد أصحابه: «..لَقَدْ خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى أَلْفَ أَلْفِ

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣ معراج رسول الله ﷺ، بحار الأنوار: ج١٨ ص٣١٩.

عَالَمٍ وَ أَلْفَ أَلْفِ آدَمٍ أَنْتَ فِي آخِرِ تِلْكَ الْعَوَالِمِ وَ أُولَئِكَ الآدَمِيِّينَ»[1].

ولقد كان الإمام علي عليه السلام يقف في مسجد الكوفة فيقول بملء فيه: «سَلُونِي عَنْ طُرُقِ السَّمَاوَاتِ فَإِنِّي أَعْلَمُ بِهَا مِنْ طُرُقِ الأَرْضِ»[2].

حديث المعراج

انتهينا في الدرس الماضي من الحديث عن الإسراء، ونواصل هنا الحديث عن المعراج، هذا الحديث يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فَصَعِدَ جَبْرَئِيلُ وَصَعِدْتُ مَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا (يعني أقرب سماء إلى الأرض، فإن لفظة دنيا مؤنث أدنى، وأدنى مقابل أقصى) وَعَلَيْهَا مَلَكٌ يُقَالُ لَهُ إِسْمَاعِيلُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْخَطْفَةِ الَّتِي قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ١٠]. وَتَحْتَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ تَحْتَ كُلِّ مَلَكٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ[3].

فَقَالَ: يَا جَبْرَئِيلُ مَنْ هَذَا مَعَكَ؟ فَقَالَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله، قَالَ وَقَدْ بُعِثَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفَتَحَ الْبَابَ (كأن للسماء باباً ولكن ليس كالأبواب المتعارفة لدينا) فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ، وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَقَالَ: مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَتَلَقَّتْنِي الْمَلَائِكَةُ حَتَّى دَخَلْتُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَمَا لَقِيَنِي مَلَكٌ إِلَّا ضَاحِكاً مُسْتَبْشِراً، حَتَّى لَقِيَنِي مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لَمْ أَرَ أَعْظَمَ خَلْقاً مِنْهُ، كَرِيهُ الْمَنْظَرِ ظَاهِرُ الْغَضَبِ، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالُوا مِنَ الدُّعَاءِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَضْحَكْ وَلَمْ أَرَ فِيهِ مِنَ الاسْتِبْشَارِ مَا رَأَيْتُ مِمَّنْ ضَحِكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرَئِيلُ فَإِنِّي قَدْ فَزِعْتُ مِنْهُ؟.

فَقَالَ: يَجُوزُ أَنْ تَفْزَعَ مِنْهُ وَكُلُّنَا نَفْزَعُ مِنْهُ، إِنَّ هَذَا مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ لَمْ يَضْحَكْ قَطُّ وَلَمْ يَزَلْ مُنْذُ وَلَّاهُ اللهُ جَهَنَّمَ يَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ غَضَباً وَغَيْظاً عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، فَيَنْتَقِمُ اللهُ بِهِ مِنْهُمْ، وَ لَوْ ضَحِكَ إِلَى أَحَدٍ كَانَ قَبْلَكَ أَوْ كَانَ ضَاحِكاً إِلَى أَحَدٍ بَعْدَكَ لَضَحِكَ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَضْحَكُ. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ عَلَيَّ وَبَشَّرَنِي بِالْجَنَّةِ، فَقُلْتُ لِجَبْرَئِيلَ وَجَبْرَئِيلُ بِالْمَكَانِ الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] أَلَا تَأْمُرُنِي أَنْ يُرِيَنِي النَّارَ؟. فَقَالَ لَهُ جَبْرَئِيلُ: يَا مَالِكُ أَرِ مُحَمَّداً النَّارَ، فَكَشَفَ عَنْهَا غِطَاءَهَا، وَفَتَحَ بَاباً مِنْهَا فَخَرَجَ مِنْهَا لَهَبٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ وَفَارَتْ

---

(١) بحار الأنوار: ج ٨، ص ٣٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣٩، ص ١٠٨، كشف الغمة: ج١، ص ١٣٠.

(٣) مكلفون بإدارة السماء الأولى فقط، وهناك أحاديث تصف بعض الملائكة فتقول بأن جناح الواحد منهم يمتد ما بين المشرق والمغرب، أو أن الواحد منهم يحمل ثقل الأرض كلها فوق جناحه، وما هذه الإشارات إلا إلى سعة السماوات.

وَارْتَفَعَتْ حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَتَنَاوَلُنِي مِمَّا رَأَيْتُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ قُلْ لَهُ فَلْيَرُدَّ عَلَيْهَا غِطَاءَهَا، فَأَمَرَهَا فَقَالَ لَهَا: ارْجِعِي، فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ(١).

ثُمَّ مَضَيْتُ فَرَأَيْتُ رَجُلًا آدِماً جَسِيماً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَإِذَا هُوَ يُعْرَضُ عَلَيْهِ ذُرِّيَّتُهُ فَيَقُولُ: رُوحٌ طَيِّبٌ وَرِيحٌ طَيِّبَةٌ مِنْ جَسَدٍ طَيِّبٍ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ سُورَةَ الْمُطَفِّفِينَ عَلَى رَأْسِ سَبْعَ عَشْرَةَ آيَةً ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (إِلَى آخِرِهَا) [المطففين: ١٨-٢١]. قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَى أَبِي آدَمَ وَسَلَّمَ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَقَالَ: مَرْحَباً بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْمَبْعُوثِ فِي الزَّمَنِ الصَّالِحِ.

قال: ثُمَّ مَرَرْتُ بِمَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَالِسٍ عَلَى مَجْلِسٍ وَإِذَا جَمِيعُ الدُّنْيَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ، وَإِذَا بِيَدِهِ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ سَطْرٌ فِيهِ مَكْتُوبٌ فِيهِ كِتَابٌ يَنْظُرُ فِيهِ لَا يَلْتَفِتُ يَمِيناً وَلَا شِمَالًا مُقْبِلًا عَلَيْهِ كَهَيْئَةِ الْحَزِينِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟. فَقَالَ: هَذَا مَلَكُ الْمَوْتِ دَائِبٌ فِي قَبْضِ الْأَرْوَاحِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ أَدْنِنِي مِنْهُ حَتَّى أُكَلِّمَهُ، فَأَدْنَانِي مِنْهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: هَذَا مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى الْعِبَادِ، فَرَحَّبَ بِي وَحَيَّانِي بِالسَّلَامِ، وَقَالَ: أَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنِّي أَرَى الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي أُمَّتِكَ، فَقُلْتُ: الْحَمْدُ للهِ الْمَنَّانِ ذِي النِّعَمِ عَلَى عِبَادِهِ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ رَبِّي وَرَحْمَتِهِ عَلَيَّ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هُوَ أَشَدُّ الْمَلَائِكَةِ عَمَلًا، فَقُلْتُ: أَكُلُّ مَنْ مَاتَ أَوْ هُوَ مَيِّتٌ فِيمَا بَعْدُ هَذَا يَقْبِضُ رُوحَهُ؟، فَقَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَتَرَاهُمْ حَيْثُ كَانُوا وَتَشْهَدُهُمْ بِنَفْسِكَ؟، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ: مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا عِنْدِي فِيمَا سَخَّرَهَا اللهُ لِي وَمَكَّنَنِي عَلَيْهَا إِلَّا كَالدِّرْهَمِ فِي كَفِّ الرَّجُلِ يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَمَا مِنْ دَارٍ إِلَّا وَأَنَا أَتَصَفَّحُهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَأَقُولُ إِذَا بَكَى أَهْلُ الْمَيِّتِ عَلَى مَيِّتِهِمْ: لَا تَبْكُوا عَلَيْهِ فَإِنَّ لِي فِيكُمْ عَوْدَةً وَعَوْدَةً حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ أَحَدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَفَى بِالْمَوْتِ طَامَّةً يَا جِبْرِيلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ أَطَمُّ وَأَطَمُّ مِنَ الْمَوْتِ.

قَالَ: ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَوَائِدُ مِنْ لَحْمٍ طَيِّبٍ وَلَحْمٍ خَبِيثٍ يَأْكُلُونَ اللَّحْمَ الْخَبِيثَ وَيَدَعُونَ الطَّيِّبَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الْحَرَامَ وَيَدَعُونَ الْحَلَالَ، وَهُمْ مِنْ أُمَّتِكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ثُمَّ رَأَيْتُ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَعَلَ اللهُ أَمْرَهُ عَجَباً نِصْفُ جَسَدِهِ النَّارُ وَالنِّصْفُ الْآخَرُ ثَلْجٌ فَلَا النَّارُ تُذِيبُ الثَّلْجَ وَلَا الثَّلْجُ يُطْفِئُ النَّارَ، وَهُوَ يُنَادِي بِصَوْتٍ رَفِيعٍ وَيَقُولُ: سُبْحَانَ الَّذِي كَفَّ حَرَّ هَذِهِ النَّارِ فَلَا تُذِيبُ الثَّلْجَ،

---

(١) ومن هذا الحديث يبدو أن جهنم ضمن إطار السماء الأولى وهي أقرب سماء إلينا، وقد تكون جهنم مثلا كرة ملتهبة من هذه الكرات الموجودة في إحدى هذه المجرات، أو شمس من الشموس العتيقة التي تحدث فيها انفجارات هائلة تتجاوز عظمتها ملايين المرات عما هي عليه القنابل النووية في الدنيا، أو يكون ما رآه سيدنا ونبينا محمد ﷺ جانبا من جهنم والله العالم.

وَكَفَّ بَرْدَ هَذَا الثَّلْجِ فَلَا يُطْفِئُ حَرَّ هَذِهِ النَّارِ، اللَّهُمَّ يَا مُؤَلِّفَ بَيْنَ الثَّلْجِ وَالنَّارِ أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرَئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ وَكَّلَهُ اللهُ بِأَكْنَافِ السَّمَاءِ وَأَطْرَافِ الْأَرَضِينَ، وَهُوَ أَنْصَحُ مَلَائِكَةِ اللهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُو لَهُمْ بِمَا تَسْمَعُ مُنْذُ خُلِقَ.

وَرَأَيْتُ مَلَكَيْنِ يُنَادِيَانِ فِي السَّمَاءِ أَحَدُهُمَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُنْفِقٍ خَلَفاً، وَالْآخَرُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُمْسِكٍ تَلَفاً. ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ لَهُمْ مَشَافِرُ كَمَشَافِرِ الْإِبِلِ يُقْرَضُ اللَّحْمُ مِنْ جُنُوبِهِمْ وَيُلْقَى فِي أَفْوَاهِهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَئِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الْهَمَّازُونَ اللَّمَّازُونَ (المغتابون النمامون). ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ تُرْضَخُ رُؤُوسُهُمْ بِالصَّخْرِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَئِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنَامُونَ عَنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ.

ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ تُقْذَفُ النَّارُ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَتَخْرُجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَئِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ يُرِيدُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَقُومَ فَلَا يَقْدِرُ مِنْ عِظَمِ بَطْنِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَئِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وَ إِذَا هُمْ بِسَبِيلِ آلِ فِرْعَوْنَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ.

قَالَ: ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِنِسْوَانٍ مُعَلَّقَاتٍ بِثَدْيِهِنَّ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَئِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ اللَّوَاتِي يُوَرِّثْنَ أَمْوَالَ أَزْوَاجِهِنَّ أَوْلَادَ غَيْرِهِمْ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى امْرَأَةٍ أَدْخَلَتْ عَلَى قَوْمٍ فِي نَسَبِهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَاطَّلَعَ عَلَى عَوْرَتِهِمْ وَأَكَلَ خَزَائِنَهُمْ.

قَالَ: ثُمَّ مَرَرْنَا بِمَلَائِكَةٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُمُ اللهُ كَيْفَ شَاءَ، وَوَضَعَ وُجُوهَهُمْ كَيْفَ شَاءَ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ أَطْبَاقِ أَجْسَادِهِمْ إِلَّا وَهُوَ يُسَبِّحُ اللهَ وَيُحَمِّدُهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِأَصْوَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، أَصْوَاتُهُمْ مُرْتَفِعَةٌ بِالتَّحْمِيدِ وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ فَسَأَلْتُ جَبْرَئِيلَ عَنْهُمْ فَقَالَ: كَمَا تَرَى خُلِقُوا، إِنَّ الْمَلَكَ مِنْهُمْ إِلَى جَنْبِ صَاحِبِهِ مَا كَلَّمَهُ قَطُّ، وَلَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ إِلَى مَا فَوْقَهَا، وَلَا خَفَضُوهَا إِلَى مَا تَحْتَهَا، خَوْفاً مِنَ اللهِ وَخُشُوعاً. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ، فَرَدُّوا عَلَيَّ إِيمَاءً بِرُؤُوسِهِمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَيَّ مِنَ الْخُشُوعِ، فَقَالَ لَهُمْ جَبْرَئِيلُ: هَذَا مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى الْعِبَادِ رَسُولاً وَنَبِيّاً، وَهُوَ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ وَسَيِّدُهُمْ أَفَلَا تُكَلِّمُونَهُ؟، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ جَبْرَئِيلَ أَقْبَلُوا عَلَيَّ بِالسَّلَامِ وَأَكْرَمُونِي وَبَشَّرُونِي بِالْخَيْرِ لِي وَلِأُمَّتِي».

الرسول في السماوات

يقول رسول الله ﷺ: «ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَإِذَا فِيهَا رَجُلَانِ مُتَشَابِهَانِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَانِ يَا جَبْرَئِيلُ؟ فَقَالَ لِي: ابْنَا الخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى عليهما السلام فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَا عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُمَا وَاسْتَغْفَرَا لِي، وَقَالَا: مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَإِذَا فِيهَا مِنَ المَلَائِكَةِ وَعَلَيْهِمُ الخُشُوعُ قَدْ وَضَعَ اللهُ وُجُوهَهُمْ كَيْفَ شَاءَ لَيْسَ مِنْهُمْ مَلَكٌ إِلَّا يُسَبِّحُ اللهَ وَيَحْمَدُهُ بِأَصْوَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ.

قَالَ: ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ فَضْلُ حُسْنِهِ عَلَى سَائِرِ الخَلْقِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرَئِيلُ؟، فَقَالَ: هَذَا أَخُوكَ يُوسُفُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَقَالَ: مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ وَالمَبْعُوثِ فِي الزَّمَنِ الصَّالِحِ، وَإِذَا فِيهَا مَلَائِكَةٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الخُشُوعِ مِثْلُ مَا وَصَفْتُ فِي السَّمَاءِ الأُولَى وَالثَّانِيَةِ. وَقَالَ لَهُمْ جَبْرَئِيلُ فِي أَمْرِي مَا قَالَ لِلآخَرِينَ، وَصَنَعُوا بِي مِثْلَ مَا صَنَعَ الآخَرُونَ.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ رَفَعَهُ اللهُ مَكَاناً عَلِيّاً فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَإِذَا فِيهَا مِنَ المَلَائِكَةِ الخُشُوعِ مِثْلُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ الَّتِي عَبَرْنَاهَا فَبَشَّرُونِي بِالخَيْرِ لِي وَلِأُمَّتِي، ثُمَّ رَأَيْتُ مَلَكاً جَالِساً عَلَى سَرِيرٍ تَحْتَ يَدَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ تَحْتَ كُلِّ مَلَكٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ أَنَّهُ هُوَ، فَصَاحَ بِهِ جَبْرَئِيلُ فَقَالَ: قُمْ فَهُوَ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ كَهْلٌ عَظِيمُ العَيْنِ لَمْ أَرَ كَهْلاً أَعْظَمَ مِنْهُ حَوْلَهُ ثُلَّةٌ مِنْ أُمَّتِهِ فَأَعْجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرَئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا المُحِيبُ فِي قَوْمِهِ هَارُونُ بْنُ عِمْرَانَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَإِذَا فِيهَا مِنَ المَلَائِكَةِ الخُشُوعِ مِثْلُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ آدَمٌ (أي أسمر اللون) طَوِيلٌ كَأَنَّهُ مِنْ شَبْوَةَ[1] وَلَوْ أَنَّ عَلَيْهِ قَمِيصَيْنِ لَنَفَذَ شَعْرُهُ فِيهِمَا، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: يَزْعُمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَكْرَمُ وُلْدِ آدَمَ عَلَى اللهِ وَهَذَا رَجُلٌ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنِّي (وأشار إلى رسول الله)، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرَئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَإِذَا فِيهَا مِنَ المَلَائِكَةِ الخُشُوعِ مِثْلُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ[2].

---

(١) شبوة قبيلة عربية معروفة طوال القامة.

(٢) وهكذا فإننا نرى بأن الرسول ﷺ يلتقي في كل سماء بنبي أو أكثر تعبيرا عن وحدة الرسالات السماوية وعن الأخوة بين الأنبياء، وعن اختلاف درجات الأنبياء.

قَالَ: ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَمَا مَرَرْتُ بِمَلَكٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ احْتَجِمْ وَأْمُرْ أُمَّتَكَ بِالْحِجَامَةِ، وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ أَشْمَطُ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرَئِيلُ مَنْ هَذَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فِي جِوَارِ اللهِ؟ فَقَالَ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ، وَهَذَا مَحَلُّكَ وَمَحَلُّ مَنِ اتَّقَى مِنْ أُمَّتِكَ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ وَقَالَ: مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ وَالْمَبْعُوثِ فِي الزَّمَنِ الصَّالِحِ، وَإِذَا فِيهَا مِنَ المَلَائِكَةِ الْخُشُوعِ مِثْلُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ فَبَشَّرُونِي بِالْخَيْرِ لِي وَلِأُمَّتِي[1].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَرَأَيْتُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بِحَاراً مِنْ نُورٍ يَتَلَأْلَأُ تَلَأْلُؤُهَا يَخْطَفُ بِالْأَبْصَارِ، وَفِيهَا بِحَارٌ مُظْلِمَةٌ وَبِحَارٌ مِنْ ثَلْجٍ تَرْعُدُ، فَكُلَّمَا فَزِعْتُ وَرَأَيْتُ هَؤُلَاءِ سَأَلْتُ جَبْرَئِيلَ فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ وَاشْكُرْ كَرَامَةَ رَبِّكَ وَاشْكُرِ اللهَ بِمَا صَنَعَ إِلَيْكَ، قَالَ فَثَبَّتَنِيَ اللهُ بِقُوَّتِهِ وَعَوْنِهِ حَتَّى كَثُرَ قَوْلِي لِجَبْرَئِيلَ وَتَعَجُّبِي، فَقَالَ جَبْرَئِيلُ: يَا مُحَمَّدُ تُعَظِّمُ مَا تَرَى (هل تراه عظيماً)؟! إِنَّمَا هَذَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ رَبِّكَ فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ الَّذِي خَلَقَ مَا تَرَى وَمَا لَا تَرَى أَعْظَمَ مِنْ هَذَا!.

إِنَّ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ تِسْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ، وَأَقْرَبُ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ أَنَا وَإِسْرَافِيلُ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَرْبَعَةُ حُجُبٍ: حِجَابٌ مِنْ نُورٍ، وَحِجَابٌ مِنْ ظُلْمَةٍ، وَحِجَابٌ مِنَ الْغَمَامِ، وَحِجَابٌ مِنَ الْمَاءِ.

قَالَ ﷺ: وَرَأَيْتُ مِنَ الْعَجَائِبِ الَّتِي خَلَقَ اللهُ وَسَخَّرَ عَلَى مَا أَرَادَهُ دِيكاً رِجْلَاهُ فِي تُخُومِ الْأَرَضِينَ السَّابِعَةِ وَرَأْسُهُ عِنْدَ الْعَرْشِ، وَهُوَ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ تَعَالَى خَلَقَهُ اللهُ كَمَا أَرَادَ رِجْلَاهُ فِي تُخُومِ الْأَرَضِينَ السَّابِعَةِ. ثُمَّ أَقْبَلَ مُصْعِداً حَتَّى خَرَجَ فِي الْهَوَاءِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَانْتَهَى فِيهَا مُصْعِداً حَتَّى انْتَهَى قَرْنُهُ إِلَى قُرْبِ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي حَيْثُ مَا كُنْتُ لَا تَدْرِي أَيْنَ رَبُّكَ مِنْ عِظَمِ شَأْنِهِ وَلَهُ جَنَاحَانِ فِي مَنْكِبَيْهِ إِذَا نَشَرَهُمَا جَاوَزَ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، فَإِذَا كَانَ فِي السَّحَرِ نَشَرَ جَنَاحَيْهِ وَخَفَقَ بِهِمَا وَصَرَخَ بِالتَّسْبِيحِ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ اللهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَإِذَا قَالَ ذَلِكَ سَبَّحَتْ دُيُوكُ الْأَرْضِ كُلُّهَا وَخَفَقَتْ بِأَجْنِحَتِهَا وَأَخَذَتْ فِي الصِّيَاحِ، فَإِذَا سَكَتَ ذَلِكَ الدِّيكُ فِي السَّمَاءِ سَكَتَتْ دُيُوكُ الْأَرْضِ كُلُّهَا، وَلِذَلِكَ الدِّيكِ زَغَبٌ أَخْضَرُ وَرِيشٌ أَبْيَضُ كَأَشَدِّ بَيَاضٍ مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ، وَلَهُ زَغَبٌ أَخْضَرُ أَيْضاً تَحْتَ رِيشِهِ الْأَبْيَضِ كَأَشَدِّ خُضْرَةٍ مَا رَأَيْتُهَا قَطُّ.

قَالَ ﷺ: ثُمَّ مَضَيْتُ مَعَ جَبْرَئِيلَ فَدَخَلْتُ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ فَصَلَّيْتُ فِيهَا رَكْعَتَيْنِ وَمَعِي

---

(١) إننا نجد أن الأنبياء في حديثهم مع النبي محمد ﷺ يقولون له: المبعوث في الزمن الصالح وهذا يدل على أن البشرية قد تكاملت عبر رسالات الله حتى بلغت مرحلة النضج في عهد رسول الله ﷺ والعهود التالية لعهده، وإنسان اليوم إنما يتقدم في مدارج الكمال بفضل رسالات الله.

أُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ جُدُدٌ، وَآخَرِينَ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ خُلْقَانٌ، فَدَخَلَ أَصْحَابُ الْجُدَدِ وَحُبِسَ أَصْحَابُ الْخُلْقَانِ[١]، ثُمَّ خَرَجْتُ فَانْقَادَ لِي نَهَرَانِ، نَهَرٌ يُسَمَّى الْكَوْثَرَ، وَنَهَرٌ يُسَمَّى الرَّحْمَةَ فَشَرِبْتُ مِنَ الْكَوْثَرِ وَاغْتَسَلْتُ مِنَ الرَّحْمَةِ[٢]، ثُمَّ انْقَادَا لِي جَمِيعاً حَتَّى دَخَلْتُ الْجَنَّةَ وَإِذَا عَلَى حَافَتَيْهَا بُيُوتِي وَبُيُوتُ أَهْلِي، وَإِذَا تُرَابُهَا كَالْمِسْكِ، وَإِذَا جَارِيَةٌ تَنْغَمِسُ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَقُلْتُ: لِمَنْ أَنْتِ يَا جَارِيَةُ؟ فَقَالَتْ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ[٣]، فَبَشَّرْتُهُ بِهَا حِينَ أَصْبَحْتُ، وَإِذَا بِطَيْرِهَا كَالْبُخْتِ وَإِذَا رُمَّانُهَا مِثْلُ دُلِيِّ الْعِظَامِ، وَإِذَا شَجَرَةٌ لَوْ أُرْسِلَ طَائِرٌ فِي أَصْلِهَا مَا دَارَهَا سَبْعَمِائَةِ سَنَةٍ وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ مَنْزِلٌ إِلَّا وَفِيهَا قُتْرٌ مِنْهَا فَقُلْتُ مَا هَذِهِ يَا جَبْرَئِيلُ فَقَالَ هَذِهِ شَجَرَةُ طُوبَى قَالَ اللهُ: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَلَمَّا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ رَجَعْتُ إِلَيَّ نَفْسِي فَسَأَلْتُ جَبْرَئِيلَ عَنْ تِلْكَ الْبِحَارِ وَهَوْلِهَا وَأَعَاجِيبِهَا، فَقَالَ: هِيَ سُرَادِقَاتُ الْحُجُبِ الَّتِي احْتَجَبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَا وَلَوْ لَا تِلْكَ الْحُجُبُ لَتَهَتَّكَ نُورُ الْعَرْشِ وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ. وَانْتَهَيْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فَإِذَا الْوَرَقَةُ مِنْهَا تُظِلُّ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ فَكُنْتُ مِنْهَا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]. فَنَادَانِي الله سبحانه وتعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فَقُلْتُ: أَنَا مُجِيباً عَنِّي وَعَنْ أُمَّتِي: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فَقَالَ اللهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ فَقُلْتُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فَقَالَ اللهُ: لَا أُؤَاخِذُكَ، فَقُلْتُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ فَقَالَ اللهُ: لَا أُحَمِّلُكَ، فَقُلْتُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قَدْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ لَكَ وَلِأُمَّتِكَ.

فَقَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «مَا وَفَدَ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَحَدٌ أَكْرَمُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْثُ سَأَلَ لِأُمَّتِهِ هَذِهِ الْخِصَالَ»[٤].

---

(١) والقرآن الحكيم يقول في سورة البقرة ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فلباس التقوى خير لباس، وزاد التقوى خير زاد، وكلما كنت تقيًا كان ثوبك في يوم القيامة أجد وآنئذ يمكنك أن تدخل مع رسول الله ﷺ إلى البيت المعمور فتصل فيه.

(٢) يعني استوعب رسول الله ﷺ الخير الكثير ولفته الرحمة.

(٣) الذي تبناه رسول الله ﷺ وهو والد أسامة وقد استشهد في معركة مؤتة، التي استشهد فيها عبد الله بن رواحة وجعفر الطيار.

(٤) وتلك هي الآيات الأخيرة من سورة البقرة، وقد جاء ذلك في مضمون حديث عن رسول الله ﷺ حيث قال: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي تِسْعٌ: الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا أُكْرِهُوا عَلَيْهِ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ ...» بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٥٥.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: يَا رَبِّ أَعْطَيْتَ أَنْبِيَاءَكَ فَضَائِلَ فَأَعْطِنِي، فَقَالَ اللهُ: قَدْ أَعْطَيْتُكَ فِيمَا أَعْطَيْتُكَ كَلِمَتَيْنِ مِنْ تَحْتِ عَرْشِي: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»، قَالَ: وَعَلَّمَتْنِي الْمَلَائِكَةُ قَوْلًا أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَأَمْسَيْتُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ ظُلْمِي أَصْبَحَ مُسْتَجِيراً بِعَفْوِكَ وَذَنْبِي أَصْبَحَ مُسْتَجِيراً بِمَغْفِرَتِكَ، وَذُلِّي أَصْبَحَ مُسْتَجِيراً بِعِزَّتِكَ، وَفَقْرِي أَصْبَحَ مُسْتَجِيراً بِغِنَاكَ، وَوَجْهِيَ الْبَالِي أَصْبَحَ مُسْتَجِيراً بِوَجْهِكَ الدَّائِمِ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَفْنَى»، وَأَقُولُ ذَلِكَ إِذَا أَمْسَيْتُ.

ثُمَّ سَمِعْتُ الْأَذَانَ، فَإِذَا مَلَكٌ يُؤَذِّنُ لَمْ يُرَ فِي السَّمَاءِ قَبْلَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَقَالَ:

اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ.

فَقَالَ اللهُ: صَدَقَ عَبْدِي أَنَا أَكْبَرُ.

فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فَقَالَ اللهُ: صَدَقَ عَبْدِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي.

فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله.

فَقَالَ اللهُ: صَدَقَ عَبْدِي إِنَّ مُحَمَّداً عَبْدِي وَرَسُولِي أَنَا بَعَثْتُهُ وَانْتَجَبْتُهُ.

فَقَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ.

فَقَالَ: صَدَقَ عَبْدِي وَدَعَا إِلَى فَرِيضَتِي فَمَنْ مَشَى إِلَيْهَا رَاغِباً فِيهَا مُحْتَسِباً كَانَتْ لَهُ كَفَّارَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ.

فَقَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ.

فَقَالَ اللهُ: هِيَ الصَّلَاحُ وَالنَّجَاحُ وَالْفَلَاحُ.

ثُمَّ أَمَمْتُ الْمَلَائِكَةَ فِي السَّمَاءِ كَمَا أَمَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ»[1].

وللحديث بقية: «قَالَ: ثُمَّ غَشِيَتْنِي صَبَابَةٌ فَخَرَرْتُ سَاجِداً فَنَادَانِي رَبِّي أَنِّي قَدْ فَرَضْتُ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ كَانَ قَبْلَكَ خَمْسِينَ صَلَاةً وَفَرَضْتُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ فَقُمْ بِهَا أَنْتَ فِي أُمَّتِكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ فَانْحَدَرْتُ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَلَمْ يَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ يَا مُحَمَّدُ؟. فَقُلْتُ: قَالَ رَبِّي فَرَضْتُ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ كَانَ قَبْلَكَ

(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص٣٢١-٣٣٠.

خَمْسِينَ صَلَاةً وَفَرَضْتُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ، فَقَالَ مُوسَى عليه السلام: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ أُمَّتَكَ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَضْعَفُهَا وَإِنَّ رَبَّكَ لَا يَزِيدُهُ شَيْءٌ وَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ بِهَا فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فَخَرَرْتُ سَاجِداً ثُمَّ قُلْتُ: فَرَضْتَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً وَلَا أُطِيقُ ذَلِكَ وَلَا أُمَّتِي فَخَفِّفْ عَنِّي فَوَضَعَ عَنِّي عَشْراً، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ ارْجِعْ لَا تُطِيقُ فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَوَضَعَ عَنِّي عَشْراً، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ. وَفِي كُلِّ رَجْعَةٍ أَرْجِعُ إِلَيْهِ أَخِرُّ سَاجِداً حَتَّى رَجَعَ إِلَى عَشْرِ صَلَوَاتٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى وَأَخْبَرْتُهُ.

فَقَالَ: لَا تُطِيقُ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَوَضَعَ عَنِّي خَمْساً فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام وَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: لَا تُطِيقُ، فَقُلْتُ قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي وَلَكِنْ أَصْبِرُ عَلَيْهَا فَنَادَانِي مُنَادٍ كَمَا صَبَرْتَ عَلَيْهَا فَهَذِهِ الْخَمْسُ بِخَمْسِينَ، كُلُّ صَلَاةٍ بِعَشْرٍ، وَمَنْ هَمَّ مِنْ أُمَّتِكَ بِحَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا فَعَمِلَهَا كَتَبْتُ لَهُ عَشْراً، وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ كَتَبْتُ لَهُ وَاحِدَةً وَمَنْ هَمَّ مِنْ أُمَّتِكَ بِسَيِّئَةٍ فَعَمِلَهَا كَتَبْتُ عَلَيْهِ وَاحِدَةً وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ أَكْتُبْ عَلَيْهِ شَيْئاً».

فَقَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «جَزَى اللهُ مُوسَى عليه السلام عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَيْراً»[1].

وهناك أحاديث أخرى في هذا المجال يمكن الرجوع إليها في الكتب التي احتوت على النصوص الإسلامية.

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٣٣٠.

إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ [1] إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ [2] عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ [3] وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ [4] مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا [5] ﴿٨﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

إن القرآن الحكيم يكرس في الإنسان روح المسؤولية، ويبين له بأن طبيعة حياته ليست إلا نتيجة لإرادته وسعيه، ويضرب ربنا مثلا في هذه السورة عن واقع بني إسرائيل، وكيف

(١) وقضينا: القضاء فصل الأمر على إحكام.

(٢) الكرة: الرجعة والدولة.

(٣) ليسوؤوا وجوهكم: يحزنوكم.

(٤) ويتبروا: التتبير الاهلاك.

(٥) حصيراً: الحصير الحبس ويقال للملك حصير لأنه محجوب...

أنهم عندما أحسنوا تقدموا، وعندما أساءوا تخلفوا، وشروط السعادة اتباع هدى الله الذي يحمله رسوله في صورة كتاب إلهي، ورسالة الكتاب تتلخص في التوكل على الله وحده، ونبذ الشركاء والأنداد.

وبنو إسرائيل الذين ذرأهم الله من صلب الناجين عن واقعة الطوفان، وحملهم في سفينة نوح عليه السلام ذلك العبد الشاكر لربه، هؤلاء من الله عليهم -مرة أخرى- بكتاب ورسول هو موسى عليه السلام.

وقضى الرب إلى بني إسرائيل في الكتاب: إنهم يفسدون -بالتأكيد- في الأرض مرتين، ويطغون فبعد أولى المرتين يبعث الله عليهم عبادا له، ولكنهم يعودون -بفضل الله- أقوياء، ويغلبون أعداءهم، حيث يجعلهم الله أكثر أموالا وأولادا. وبسبب قوتهم أو ضعفهم، إحسانهم أو إساءتهم، وهكذا يعود أولئك العباد إلى سابق قوتهم، ويدخلون المسجد وهذه سنة الله قائمة على أساس الجزاء، ليس في الدنيا فقط وإنما في الآخرة أيضا حيث أن ربنا يجعل جهنم للكافرين حصيرا.

بينات من الآيات:

ماذا جرى على بني إسرائيل؟ يقول تعالى:

[٢] ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ قد جمعت رسالة الله لبني إسرائيل والتي حملها موسى في كتاب التوراة في كلمة (توحيد الله) وأثر التوحيد في استراتيجية العمل ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ هو الاعتماد على الله، والاستفادة من مواهبه العظيمة التي أسبغها على الإنسان، وعدم الاعتماد على الناس وما لديهم من أفكار وأشياء، وبالتالي الاستقلال السياسي، والاقتصادي، والثقافي الذي هو من أعظم ثمرات توحيد الله.

ويبدو أن هذا هو أهم ما توحي به كلمة ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾ [الإسراء: ٧]. إذ التوكل على الله وليس على الناس رمز التقدم، وعكسه عنوان التخلف.

[٣] ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ هناك فرق بين من يدخل مكتبته فيجد الكتب متراكمة فيها، وبين من يستوعب الكتب ويحفظها، فيعرف السقيم منها والسليم، فليس كل من امتلك مكتبة كان عالما، كما أن هناك فرق بين من يستوعب علما،

وبين من يعمل بذلك العلم، فليس كل عالم عامل، وهكذا يوجد فرق بين من يعرف الحقائق الروحية والنفسية وبين من يربي نفسه عليها، فأغلب الناس عالمون غير عاملين، وقليل من العاملين يربون أنفسهم على الأخلاق الفاضلة.

فقد تعرف الشكر خلال لحظات وتعرف حقيقته، ولكن إذا أردت أن تحول هذه الحقيقة إلى سلوك فتكون من الشاكرين فإن ذلك ليس بالأمر الهين، والمسافة بينهما مقدار الإرادة.

معرفة الذات منطلق الشكر

إن الشكر عند الإنسان يتجسد تبعا لأحد موقفين من الطبيعة حوله:

الأول: أن يعتقد بأنه موجود متكامل بالأصل، وأنه يملك بذاته الجوارح، والجوانح، والعقل، والعلم، والسعادة، والرقي، فليس بحاجة إلى أن يشكر أحدا.

الثاني: أن يعتقد بأنه كان قطرة من ماء مهين فصار إنسانا، ثم أعطاه الله الجوارح والنعم وهي ليست ملكا ذاتيا له، وإنما وهبها الله له فتنة، فإن شكره عليها زاده منها، وإن كفر فإنه سيعذبه عذابا شديدا، يقول تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [ابراهيم: ٧].

وهكذا فإن كل نعمة تستحق الشكر الجزيل والثناء الجميل، فبالعين ترى الأشياء، وبالأذن تسمع، والقلب ينبض بانتظام لتبقى حيا بإذن الله، وما على الإنسان إلا أن يستفيد من كل ما قدره الله له، فلا يعمل إلا صالحا، ولا ينظر إلى ما حرمه الله، ولا يسمع إلا الكلام الطيب. وهذا هو معنى الشكر.

الكثير من الناس بدل أن تكون النعم عاملا يؤكد فيهم صفة الشكر، والتواضع للذي من عليهم بها وهو الله، بدل ذلك يتكبرون لأنهم يشعرون بالكمال، فيقدسون ذواتهم، ويقولون: إنما أوتيناه على علم عندنا كما فعل قارون، أما المؤمنون فإنهم يزدادون إيمانا وشكرا لله.

وفي حديث عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يغيب عن فراشه ويتوجه إلى البقيع، فيتعبد ويبكي ويتضرع فتقول له عائشة: يا رسول الله أَوَلَمْ يغفر لك ربك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: نعم. فتقول له: فلماذا تتعب نفسك؟ فيقول: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**»(١).

هكذا كان نوح عبدا شكورا، وهكذا يأمر الله بني إسرائيل الذين أنقذ آباؤهم مع نوح

(١) الكافي: ج٢ ص٩٥.

من ذلك الطوفان العظيم أن يشكروا ربهم، وهو بعدئذ من عليهم بكتاب فيه هدى يحمله إليهم نبي عظيم وهو موسى عليه السلام الذي قادهم بإذن الله من نصر إلى نصر.

فلو أنهم شكروا نعمة الرسالة، ونفذوا تعاليمها، فقد أحسنوا لأنفسهم، وكان هذا في الكتاب مسطورا كما بينته الآية التالية.

الظالم سيف الله

[٤] ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ لقد أنبأ كتاب التوراة بني إسرائيل بقضاء الله الذي سوف يتحقق ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ علو بني إسرائيل يشبه علو فرعون الذي يقول عنه ربنا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤].

والعلو هو حالة الغرور بالذات، والاستكبار على الحق، والاستعلاء على الآخرين..

[٥] ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ يعني حان وقت الفساد الأول ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ البأس: الشدة والغلظة وهي كلمة تستخدم عادة عند الحديث عن الحرب.

ولكن من هم هؤلاء العباد؟ هل يصدق هذا على بخت نصر، هكذا قال البعض فلقد كان ملكا على بابل في العراق، فقاد جيشه نحو فلسطين، فأنهى حضارة اليهود، وهدم الهيكل، وقتل سبعين ألفا منهم، وسبى الآلاف، ثم تأججت الحروب بين بابل وبلاد فارس، والتي كان يرأسها كورش الأول، فانتصر الأخير وحرر المستعبدين من بني إسرائيل، وأعادهم إلى فلسطين، وسمح لهم ببناء الهيكل، وحينما رأى اليهود ذلك علو في الأرض ثانية وأفسدوا فيها.

ولو كان هذا المقصود فهل يمكن أن يسمي القرآن السفاكين كبخت نصر ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾؟.

بلى، إذ الصالح والفاسد كلاهما عبدان لله، وقد يكون الظالم وسيلة انتقام الرب من العصاة كما قال ربنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ وجاس من التجسس أي دخل بخت نصر وجماعته أعماق البلاد، وتجسسوا عن أحوالها.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ فحينما ينزل البلاء قد لا يدفعه الدعاء، ولا الأمر بالمعروف أو

النهي عن المنكر، وحين يولى على الناس شرارهم بسبب تفريطهم في جنب الله، وترك وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستجاب دعاؤهم. لماذا؟، لان الذنب قسمان، فإذا كنت قد أذنبت أنت، ثم رفعت يديك بالدعاء وتبت إلى ربك فإن الله قد يغفر لك، أما إذا فسد المجتمع كله، فإنه لا ينفعه دعاء فرد واحد، إنما يجب أن يتوبوا إلى الله جميعا. ويصلحوا ما فسد من أمورهم.

[٦] ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي صارت الكرة لبني إسرائيل على أهل بابل والحاكمين فيها ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ النفير جمع نفر ومعناه العدد المقاتل.

الإنسان قرين عمله

[٧] ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ لقد كان علوكم وقدرتكم بسبب أعمالكم الحسنة. والإنسان قرين عمله حسناً كان أو سيئاً، وقد قيل -مرة- لهرتزل مؤسس الكيان الصهيوني الغاصب في فلسطين: كان اليهود خلال قرون بؤساء محرومين، فكيف تبادر إلى ذهنك تأسيس دولة لهم؟. فقال: قرأت قرآن (محمد) فرأيت فيه آية تقول: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فعرفت أن البؤس الذي يعانيه اليهود في العالم ليس إلا من عند أنفسهم.

هؤلاء الصهاينة حين غصبوا أراضي الآخرين، وطردوهم من ديارهم، واستبدوا في البلاد ظلماً وبطشاً، لن يتركهم الله، بل سوف يسلط عليهم عباداً له ذوي بأسٍ شديد، فيصيبهم ما أصابهم في المرتين السابقتين إذ أفسدوا في البلاد.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي حان وقت الإفساد الثاني. سلط الله عليهم ملك الروم (اسبيانوس) الذي بعث قائده (طرطوز) إلى فلسطين فدخل البيت المقدس، وقتل أهلها، وسباهم، وعمل الفضائع في بني إسرائيل حيث يقول تعالى: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالطبع إن (بخت نصر) غير (اسبيانوس) ولكن القرآن يريد أن يذكرنا بأن الطغاة سواء جاءوا من الشمال أو الجنوب فهم ذوو مسلك واحد وهدف مشترك.

وما ذكرناه سلفاً واحد من التفاسير المعروفة في هذه الآيات، وهناك من يرى غير ذلك، مثلا:

١- إن (القدس) قد بني مرة على عهد داود وسليمان عليهما السلام فهدمه بخت نصر، ومرة أخرى بني على عهد ملوك الفرس من سلسلة (الإخمينيين) وإن قائدا باسم (طيطوس) هدمه وبقي مهدما حتى فتحه المسلمون على عهد الخليفة الثاني.

٢- وقالوا -وهذا القول تؤيده الروايات الكثيرة الواردة-: بأن فساد بني إسرائيل الأول كان في عهد بداية الإسلام، حيث قمعه عباد الله المسلمون. أما فسادهم الثاني فهو الذي نراه في العصر الراهن، وسوف يقمعه عباد الله المسلمون، أيضا. نرجو أن يكون ذلك قريبا بإذن الله.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ إذ كانوا يقطعون الأشجار، ويحطمون العمران ويهلكون الحرث والنسل.

[٨] ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فإذا تركتم الفساد، وتوجهتم إلى تعاليم الله فإنه سوف يغنيكم ويرحمكم. هذا في الدنيا أما في الآخرة فإنه تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

إن بني إسرائيل لم ينتفعوا بهذه الحكمة الإلهية البالغة، فجاءوا إلى فلسطين جبارين بعد أن تحالفوا مع القوى المفسدة في الأرض، وقتلوا، وشردوا، وارهبوا، وارتكبوا ابشع الجرائم بحق الناس الآمنين من أهالي فلسطين بإسم حقهم في أرض الميعاد، ولعمري لو كان دينهم يعطيهم شرعية الظلم والعدوان فإنه ليس دين الله، ولا هو ينسجم مع وجدان الإنسان، إنما هي عقد نفسية تراكمت عبر التاريخ، وانفجرت اليوم، ولأن أمهلهم الرب العزيز الحكيم، فلسوف يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

هذا عنهم، أما عنا فلقد جعلنا هذه الآية خلف ظهورنا، ولم ننتفع بحكمتها أيضا، فلقد كسلنا، وتقاعسنا، واختلفنا، ولم نتضرع إلى الله، ونصلح أنفسنا حين أحاط بنا البلاء، وكان بنوا إسرائيل اليوم بالنسبة إلينا كما كان بخت نصر بالنسبة إليهم ظالمين، ينتقم الله بهم منا، وثم ينتقم منهم بمن يشاء سبحانه.

الإنسان ذلك المسؤول

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [1] وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢) وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ [2] فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ [3] وِزْرَ أُخْرَىٰ [4] وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ

(١) أقوم: الأشد استقامة.

(٢) طائره: عمله المقدر عليه.

(٣) ولا تزر وازرة: ولا تحمل نفسٌ.

(٤) وزر أخرى: إثم أخرى.

مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن بين القرآن الحكيم في الآيات السابقة قصة بني إسرائيل التي تركز البحث فيها حول العلاقة بين أعمالهم وما أصابهم تبعا لذلك، لخص فكرة القصة وعبرتها في كلمة حين قال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. تؤكد هذه الآيات ذات الفكرة، وهي مسؤولية الإنسان الفرد أو المجتمع، ويبين أبعادها، وكيف أنها اخطر فكرة ينبغي على الإنسان أن يفهمها، في حين أنه أبعد ما يكون عنها، ذلك لأنها تدعوه إلى السعي والعمل الجدي، والتحدي، والصمود، وما إلى ذلك من أسباب التقدم والتي تبدو صعبة على النفس البشرية.

ولذلك فإنه تعالى يضرب لنا مثلا من التاريخ مرة، ويؤكد مرة أخرى أهمية تحمل المسؤولية في الحياة الدنيا ودور هذا الإحساس في تقدم البشرية، ثم إنه يذكرنا بيوم القيامة ومدى مسؤولية الإنسان عن أعماله فيها.

بينات من الآيات:

[٩] لقد أتم الله حجته على خلقه حين أنزل عليهم القرآن الذي يهديهم إلى الصراط القويم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾.

﴿يَهْدِى﴾ من أراد الهداية ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ بعيدا عن الهوى، والضلالة، والخرافة، وفي كل المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية والتربوية و.. و.. وبالتالي فهو ينسق بين سعي الإنسان من جهة، وبين فطرته، والطبيعة من حوله، والتاريخ وسننه من جهة أخرى، ويخبره أن الإنسان قرين عمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فيقول: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ فلا يكفي الإيمان وحده، بل يجب أن يعمل المؤمن الصالحات، وعندها يكون له عند الله اجر كبير.

[١٠] ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فالإيمان بالآخرة وحده ركن مهم يجعل الإنسان يشعر بالمسؤولية إزاء أعماله، وإنه مجزي عليها، إن لم يكن ذلك في الدنيا ففي الآخرة. مما يدفعه لتحمل المسؤولية والعمل الدؤوب.

[١١] ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ الخطأ الكبير الذي يرتكبه الإنسان دائما هو أنه يحسب الشر خيرا، والسؤال: أو ليس له عقل يميز بين الخير والشر؟ بلى له عقل ولكنه عادة ما يكون محجوبا بأهوائه ومصالحه التي يستعجل بها، فيقدم على الكبائر من الذنوب ظنا منه بأنها خير بمجرد أنها توفر له بعض اللذات الآنية، ولا يثور على السلطان الجائر خشية فقدان بعض المصالح العاجلة.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ وهذه الطبيعة هي التي تجعل الإنسان يتوهم بأن عصفورة في الحاضر خير من عشرة في المستقبل، فيتقرب إلى الدنيا لأنها عاجلة وإن كانت شرا، غافلا عن أن «كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكَلَاتٍ»[1] بينما يتنازل عن الآخرة ويحيد عن طريقها.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ تعليل لقوله ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ ذلك لأن الخير بحاجة إلى صبر. والمسؤولية لا تنمو في قلب عجول، وإنما في قلب مطمئن صبور، ولعل الآية الكريمة تذكر أيضا بأن تأخر الجزاء عن وقت العمل قد يغري الإنسان الغافل بارتكاب الجرائم لأن الإنسان كان عجولا.

والعجلة من ذات الإنسان، حيث أنها نابعة من الجهل بالمستقبل، والاحتجاب عن غيب الزمن، بينما الصبر وليد العقل، والعلم بالنتائج المستقبلية، ومعلوم أن ذات الإنسان جهل، والعلم من الله، وهكذا تكون الآية منتظمة إلى سياق الآيات التي تذكرنا بالمسؤولية.

المسؤولية وعامل الزمن

[١٢] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ فالليل وما فيه من سكون وهدوء آية من آيات الله، وكذلك النهار وما فيه من تحرك ونشاط آية أيضا.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلنا الليل سكنا وهدوءا -وكأن الليل آية ممحاة- ذلك لان الليل لمن ينامه قصير، أما النهار فآيته مبصرة لأنه عامر بالنشاط والتحرك من أجل الحصول على الرزق.

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ تعاقب الليل والنهار مبدأ للحساب الزمني -هذا هو ظاهر الآية- أما المغزى منها فهو: أن حركة الزمان تدعو الإنسان إلى تحمل مسؤوليته في الدنيا، وإدراك حقيقة نفسه، فالإنسان الذي يجمد فكره فلا يتحرك فإنه لا ينتج شيئا سوى العبث وضياع الوقت، وقال الإمام الحسين عليه السلام: «يا بْنَ آدَمَ

(١) نهج البلاغة: حكمة: ١٧١.

إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ فَإِذَا مَضَى يَوْمٌ فَقَدْ مَضَى بَعْضُكَ»[1]، فالذي يعرف أن للزمان قيمة (يحاسب نفسه على الساعات والدقائق) يتقدم لأنه يعلم أن «مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً»[2].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ فالأيام لها حسابها، واليوم يختلف عن الغد، وهذا الشهر يختلف عن الآخر، وإن كانت كلها لله، وقد فصل الله لنا بيان حقيقة الزمان، والتقدير لكي نتذكر ونعي واقع أنفسنا، والله الذي دبر شؤون الليل والنهار والقمر والشمس، وقدرهما بالسنين والحساب، جعل للإنسان أيضا كتابا وحسابا، فما من عمل يقوم به أو خطوة يخطوها، أو فكرة تجول في ضميره إلا وتسجل في كتابه، ويحاسب عليها يوم القيامة.

[١٣] ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ وهذه الآية دعوة ضمنية إلى تحمل المسؤولية لأنها تذكر الإنسان بمسؤوليته عن عمله والذي يترتب عليه جزاؤه في الحاضر والمستقبل.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ فللإنسان كتاب عند الله، فيه تفصيل ما عمله في دنياه. ينشره له يوم القيامة ليقرأه.

[١٤] ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الإنسان يعترف بأعماله، ويحكم نفسه بنفسه، فلا حاجة إلى محكمة تقضي عليه، ولا إلى شهود يثبتون عليه جرائمه، بالرغم من وجود تلك المحكمة وأولئك الشهود.

وبعد ذلك يوضح لنا ربنا بعدا آخر من أبعاد المسؤولية وهي مسؤولية الإنسان عن هداه وضلالته كمسؤوليته عن سعيه وعمله، إذ يقول تعالى:

[١٥] ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وكثيرا ما ترى أناسا يضلون، فيلقون اللوم على عاتق الآخرين كأن يقول: لم يكن هناك من يهديني، أو أن الحكومة ضللتني، أو أن البيئة الثقافية والتربوية لم تكن مساعدة لي على الهداية. كلا.. إن الله أعطى لكل إنسان قدرة الكشف والاهتداء، ووفر له فرصة الهداية، وإنما يتبع البشر هواه لأنه أسهل له واقرب إلى طبيعته الجاهلية العجولة.

ومثلما هو مسؤول عن ضلالته، فهو مسؤول عن أعماله، وحرام أن يلقي اللائمة على الآخرين.

(١) إرشاد القلوب: ج١، ص ٤٠.
(٢) غرر الحكم: حكمة: ٣٠٢٧.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فلا يستطيع أحد أن يهدي أحداً إلا إذا أراد الآخر أن يهتدي بهداه، كما لا يستطيع أحد إضلال الآخر إلا إذا أراد هذا أن يضل بضلالته، ولكن القرآن ينفي ذلك ويقول: إن لكل عمله. ولا أحد يقدر على تحمل وزر عملك.

والآية هنا تقول: ﴿وَازِرَةٌ﴾ وهي اسم فاعل للمؤنث، كناية عن النفس البشرية، وهنا تتبين العلاقة بين النفس والمسؤولية العملية للإنسان.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إن التاريخ يحدثنا بأن العذاب لم ينزل على أمة ما إلا من بعد أن يرسل الله إليهم هاديا ينذرهم، ويبلغهم رسالات ربهم.

كلمة ﴿رَسُولًا﴾ عامة تشمل كل من حمل رسالة التوحيد بصورة مباشرة كرسول الله ﷺ أو غير مباشرة مثل الأئمة المعصومين عليهم السلام أو الفقهاء المجتهدين، أو الرساليين والمجاهدين.

كيف تنهار الأمم؟

[١٦] ودليل مسؤولية البشر، هو جزاؤه في الدنيا على سيئات عمله، فينبغي أن نقيس الآخرة بالدنيا، ودليل رحمة الله وحكمته، أنه لا يعذب أحدا حتى يبعث إليه رسولا، إنه سبحانه لم يهلك قرية إلا بعد أن أتم حجته عليهم بالرسل ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾.

يربط القرآن الحكيم في هذا السياق بين الإسراف وهلاك القرى، ولكن بماذا أمر الله المترفين؟

المأمور به هنا محذوف وهو معطوف على قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فالله سبحانه وتعالى يأمر الناس بالهدى والخير والتقوى، ولكنهم حين لا يعملون بها بل يفسقون عنها، ويحاربون الله ورسوله، فماذا يحدث آنئذ؟.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي تحققت عليهم المسؤولية وأصبحت لله الحجة البالغة عليهم، فدمرهم بسبب تركهم لها تدميرا، ولعل الآية تشير إلى حقيقة تاريخية هامة هي: إن الله سبحانه يبعث الرسل عادة على القرى التي ينتشر فيها الفساد. ويتسلط عليها المترفون، وذلك لكي يرتدعوا، ولا يستمروا في رحلة الفناء حتى النهاية، وعادة لا يتوبون فيحق عليهم العذاب، وربما تشير الآية ايضا إلى الدورات الحضارية في التاريخ.

[١٧] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فإذا

قلنا بأننا لسنا من قوم نوح، أو قوم عاد، أو ثمود، فإن الله يؤكد لنا بأنه سبحانه أعلم بذنوبنا منا، وليست المسألة محصورة في عنصر ما، بل هي سنة الله في الخلق.

[١٨] قد جاء في الآية (١٢) من هذه السورة المباركة: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾. وهذه الآية تكلمنا وتقول: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ فإذا أراد الإنسان الدنيا فإن الله يؤتيه منها بقدر حكمته ووفق سنته.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ فيذم نفسه، ويذمه الآخرون، ويدحرونه، أي يبعدونه عنهم وكذلك الله يذمه ويدحره.

[١٩] ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ وتشير الآية إلى أن سعي الإنسان في الدنيا مفيد، فإن كان يريد الدنيا إن الله سبحانه يعطيه منها بقدر، ومن أراد الآخرة يشكره الله على سعيه.

ولكسب رضا الله والفوز بالجنة لا يكفي الإنسان أن يحلم بذلك، بل عليه أن يسعى من أجله، وأن يكون مؤمنا بعمله، يؤديه عن خلوص نية.

[٢٠] ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ وقد يتساءل المرء: من أين تأتي قوة الإنسان التي يختار بها طريقه ويسعى بها فيه؟.

الحقيقية أن قوة الاختيار، وقوة السعي هي من عند الله، فحتى العصاة يستمدون قوتهم مـن الله، فليس عطاء الله ممنوعا عن أحد في الدنيا، وهذا منتهى الحرية الممنوحة للبشر.

[٢١] ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فإذا كان الفرق بين إنسان وآخر في الدنيا الأموال الكثيرة، والرفاه الواسع، فإن هذه الفواصل في الآخرة تكون أكبر بكثير، والمسافة بينهما أعرض، فترى إنسانا مؤمنا يخرج من قبره في يوم القيامة، فيجتاز الصراط بسرعة إلى الجنة، وهناك مؤمن ينتظر خمسين ألف سنة في صحراء القيامة حتى يصل دوره للحساب، بينما نجد جارهما المنافق أو الكافر يلقى في نار جهنم مذموما مدحورا.

المسؤولية الاجتماعية للإنسان المؤمن

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا[1] وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ[2] غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا[3] ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ[4] عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا[5] ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ[6] نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ

---

(١) ولا تنهرهما: النهر هو الزجر بإغلاظ وصياح.
(٢) للأوابين: الراجعين بعد الذنب.
(٣) تبذيراً: التبذير التفريق بالإسراف وأصله أن يفرق كما يفرق البذر.
(٤) تعرضن: الإعراض صرف الوجه عن الشيء.
(٥) ميسوراً: القول باللطف واللين.
(٦) إملاق: الفقر.

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

تحدد الآيات الكريمة هذه عدة جوانب من المسؤولية الاجتماعية للإنسان، وكمثل تنفيذي لفكرة المسؤولية ذلك أن القرآن الحكيم لا يحدثنا عن قضية في جانبها النظري، إلا وتطرق إلى جانبها العملي أيضا، فلا يدع النظريات بلا برامج عملية، كما لا يترك المناهج العملية من دون جذور نظرية.

ولمسؤولية الإنسان في الحياة الدنيا علاقة بالمناهج التي جاءت بها الآيات، ولذلك قال بعض المفسرين بأن سورة (الكذائية) قد خصصت للبرامج العملية وقال بعضهم: بأنها تبحث القضايـا النظرية. وكلاهما صادق في تفسيره لأن السورة تحدثنا عن الواقع كواقع، سواء كان نظريا أم عمليا.

فمثلا الآيات: (٢٢) و (٣٩) تبحث في التعاليم الاجتماعية والبرامج العملية، ولكنها تبدأ بقوله تعالى في الآية (٢٢): ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ وتختم البحث الآية (٣٩) بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

والسؤال: لماذا تبدأ هذه الآيات وتنتهي بموضوع واحد هو النهي عن الشرك بالله سبحانه وتعالى؟.

إن الشرك بالله يشكل جذر كل مشكلة، اجتماعية كانت أو نفسية، فالشرك وجهها النظري بينما وجهها العملي فهو الكذب والغدر والخيانة، وعدم الوفاء، وغير ذلك. وكذلك الإيمان بالله وتوحيده من جهة، والصلاة والصوم والحج وغيرها من مظاهر التعبد لله من جهة أخرى يعتبران وجهين لقضية واحدة.

وهناك أمـر لا بأس بالإشارة إليه وهو أن الله سبحانه وتعالى في سورة النحل (الآية: ٩٠) يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وفي الآيات التالية من سورة الإسراء يؤكد هذه المعانـي. إذ أن العدل هو: أن تتحرك في الصراط المستقيم فلا تفرِط ولا تُفرِّط، وأن تفي بحقوق الآخرين، أما الإحسان فهو: أن تحسن إلى غيرك في المعاملة، والإحسان أسمى درجة من أداء الحقوق، والبغي هو: القتل، والفحشاء هو: الزنا، والمنكر هو: الكذب، وهكذا

بقية المعاني، ومن أراد التأكيد في مدى تطابق هذه الآيات مع تلك. عليه أن يراجع تفسيرنا لسورة النحل، وهناك ملاحظة: «أن العدل هو إعطاء كامل الحقوق، وأما الإحسان فهو إعطاء الزيادة».

بينات من الآيات:

الشرك جذر الانحراف

[٢٢] ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ جاء النهي عن الشرك في مقدمة الحديث عن قضايا اجتماعية لان الإنسان قد يعبد صنما فيتخذه إلها، سواء كان هذا الصنم رمزا لرئيس القبيلة أو لصاحب المال أو لصاحب الصولجان أو لأية قوة اجتماعية أخرى، وإذا ما فعل ذلك فانه سيندم، و يذمه عقله، وكذلك العقلاء كما سيكون بعيدا عن نصرة الله.

من حقوق الوالدين

[٢٣] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ فالعبادة يجب أن تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للإنسان أن يحسن لمن يشاء.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ والإحسان هو العطاء بنفس راضية، وهو ممدوح عند الله. بعكس العبادة التي هي الخضوع والتسليم وبالتالي العطاء بإكراه.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ فالأب أو الأم عندما يكبران تتغير حالتهما النفسية فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن أن يوفرها لهما، فعندئذ يجب ألا ترد طلباتهما ولا يـؤذيان ولو بكلمة ﴿أُفٍّ ﴾ وهي تعبير عن الضجر، بل على الابن أن يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما وتحفظ لهما كرامتهما.

[٢٤] ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ على المسلم أن يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع أفراخه، وهذا لا يعني خضوع العقل والإرادة وإنما خضوع الرحمة والشفقة وبالتالي فإن على الابن أن يرفع كفيه بالدعاء: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ فكم يتعب الأب والام على الابن، فالأم تنهض في الليالي الظلماء من نومها، وتترك فراش الراحة من أجل أن تغذي طفلها وتهدئه كما يخوض الأب غمار الأخطار من أجل إطعام ولده ويسهر على راحته، فلا بد أن يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله. والآية تدل على: أن الدعاء بحق الآخرين

نافع لهم كما أن الشفاعة -وهي نوع من الدعاء- نافعة بحق المذنبين.

[٢٥] ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ فالله يعلم بما يجري في نفوس الأبناء من تمنيات وطلبات، فقد ترى الابن يُعِقُّ أبويه إذا ما مرضا، ولكن الله يدعونا إلى أبعاد الشيطان ووساوسه عن النفس، بالإحسان والرحمة والاستغفار - وهي التي تنظم علاقة الأبناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات- تعالج عبرها مشكلة صراع الأجيال، إذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي، وبالتالي: ينتقد الجيل الماضي، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه، والسبيل إلى حل المشكلة:

أولاً: بالإحسان، إذ أن جيل الأبناء ذي القوة النامية يجب أن يجعل بعضا من قدراته للجيل الذي تتلاشى الآن قواه. ليمتص كثيرا من تحفظاته النابعة عن فقده لمصالحه.

ثانياً: بالأخلاق الحسنة، كالتشاور والاحترام والتذلل رحمة وليس صغارا.

ثالثاً: بالعفو عن سيئاتهم والاستغفار لهم فَهَبْ إنهم كانوا مخطئين أفلا يستحقون المغفرة من الله؟. بلى، ولعل الآية الأخيرة تشير إلى انه ليس من المعلوم من هو المذنب بل الله أعلم بكم فلا تُخطّئوا الآخرين جزافاً.

الإنفاق زكاة المال

[٢٦] ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ الذي لديه أموال طائلة ولا يعطي حقوقها فإنه لابد أن يكون مسرفا، لأن صاحب الدنيا إنما يمنعه من العطاء السرف او البخل، وما الإسراف إلا استعمال الشيء في غير محله الذي خلقه الله من أجله، وبذلك فإنه انحراف عن مشيئة الله وسننه في الحياة وكل ما خالف أوامر الله وسننه في الخلق فهو نوع من الكفر، والشيطان كافر، يقول تعالى:

[٢٧] ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ والشياطين من الإنس هم الطغاة ومن يبذر ماله لابد أن يفتش عن مصادر غير شرعية لجمع المال ولا يجدها إلا بالتحالف مع الطغاة.

[٢٨] ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ إذا أعرضت عنهم فليكن إعراضك:

أولاً: ابتغاء رحمة من ربك فلا تعرض إلى فراغ وإنما حيث تعرض عن عمل أو عن

شخص فاتجه إلى عمل آخر أقرب إلى الله رضواناً وأوفر منه رحمة.

ثانياً: قابلهم بالكلمة الطيبة إذ قد لا يسع الإنسان الناس بماله، و لكنه يستطيع أن يسعهم بخلقه الجميل و كلمته الطيبة.

كيف ننفق؟

[٢٩] ١- ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ وهنا يشبه القرآن البخلاء بالذين يربطون أيديهم بأعناقهم فيخنقون أنفسهم. ذلك إنما يجمع الإنسان المال من أجل أن يكون حرا في التصرف. وليسهل عليه الصعاب، فإذا بخل وحرص على المال، فان الهدف من امتلاك المال سوف يتلوث ويصبح العكس. إذ سيصبح هو خادما للمال وهكذا يكون البخل هو الفقر الحاضر.

٢- ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ وهناك -على العكس من البخلاء- أناس يبسطون أيديهم بلا تقدير عقلائي إلى درجة إنهم يفقدون كل شيء، فيتحسرون على ما فاتهم ويتأوهون، وبالتالي فإن الناس سوف يذمونهم ويلومونهم على فعلتهم.

وهؤلاء إنما يفقدون توازنهم وحسن التصرف بسبب حبهم المفرط للمساكين، ولهذا الفريق من الناس يقول تعالى:

[٣٠] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ فالله يبسط الرزق بحكمة ويضيق ويقدر بحكمة أيضا. فلا يفكر أحد بأنه سيكون أرحم من الله لعباده. ولعل الآيتين تنظمان سلوك البشر فيما يرتبط بالمال بصفة عامة فعلى الإنسان أن يتوخى القصد في الصرف. فيعطي بقدر، ولا يبذر ولا يبخل.

الثقة بالله مفتاح السعادة

[٣١] ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ كان بعض الأعراب يقتلون أولادهم خشية الفقر والفاقة فطمأنهم الله بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ لأن قتلهم يحرمكم من نعمة الولد من جهة ويحرمهم من نعمة الحياة من جهة ثانية وإنما قدم رزق الأولاد، لأن الفقر متوقع في المستقبل بسبب مجيء الأولاد.

[٣٢] ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ الزنا أسوأ طريق يتخذه الإنسان في إشباع غريزته، لأن الزنا ظلم للنفس وتعدي على القانون، فكما إنه من الظلم أن

يقتل الإنسان نفسا حرمها الله، كذلك حرم الله العبث بمصير الأجيال الناشئة من أجل السرف في الشهوات. ذلك أن الزنا يهدم البناء الأسري وبالتالي ينسف قواعد البناء الاجتماعي القائمة على أسس التربية والتكامل والتعاون، وهكذا نجد المجتمعات الجاهلية التي فقدت الأسرة كيف فقدت أكثر القيم الإنسانية وهكذا هو ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، لكنه أيضاً ﴿فَٰحِشَةً﴾ تخرج الإنسان من رفعته وتهذيبه وذوقه الجمالي الذين يؤطر بهم سلوكه في التعامل مع سائر أموره مما يجعله متميز عن الحيوان في مأكله ومشربه وكذلك في علاقة الذكر بالأنثى.

[٣٣] ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ فالمقتول ظلما يحق لوليه أن يقتص من قاتله، ولكن بشرط ألا يتعدى الحدود، وألا يستبد به غضبه، فهو في كل حال منصور من قبل الله.

الإنسان بين الشرك والهروب من المسؤولية

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا(١) إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ(٢) بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا(٣) فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾.

هدى من الآيات:

هناك تساؤل: إذا كانت سورة الإسراء تتحدث عن المسؤوليات التي يجب على الإنسان أداؤها. فلماذا يتطرق هذا الدرس إلى بيان التوحيد والشرك وأبعادهما؟ وبشكل عام لماذا يحدثنا

(١) مرحاً: فرحا وبطرا واختيالا.
(٢) أفأصفاكم ربكم: أفخصكم ربكم؟.
(٣) صرفنا: كررنا بأساليب مختلفة وطرق متنوعة.

ربنا سبحانه وتعالى عن قضية الشرك والتوحيد كلما تحدث عن المسؤولية؟.

الجواب: إن المسؤولية هي ذات التوحيد، واللامسؤولية هي ذات الشرك، بل إن التهرب من المسؤولية والتبرير إنما هما الهدف من وراء الشرك.

النفس البشرية، قوة نسميها بالقوة المسولة عملها تبرير الكسل والجمود، وتسويل الفحشاء والمنكر، وهذه القوة التي يثيرها الشيطان أيضا تزين الاستسلام للدعة والاسترسال مع الشهوات بطرق أبرزها:

١- الحتميات حيث يخيل للنفس عجزها عن مقاومة ضغوط الطبيعة والمجتمع عليه. فيتملص عن المسؤولية باسم الحتمية التاريخية. أو الاجتماعية أو الطبيعية أو ما أشبه.

وهذا نوع من تأليه الطبيعة أو المجتمع. وجعلها فوق قدرة الله. وفوق قدرة الإرادة التي منحها الله للإنسان.

٢- الفداء حيث يزعم البشر إنه إذا كانت أوامر الرب شاقة، ولا يمكن احتمالها إذا دعنا نتصور وجود أرباب آخرين نهرب من الرب الأعلى إليهم لينقذونا عن صعوبات المسؤولية التي يفرضها ربنا الأعلى سبحانه وتعالى.

وهذه هي فكرة الفداء التي تسربت إلى مذهب النصارى.

وسواء فكرة الحتميات أو الفداء فإن الإيمان بالله الواحد الأحد، ينفيها ويجعل البشر وجها لوجه أمام المسؤوليات الكبيرة.

إن من يؤمن بالله ولا يتخذ بينه وبين عقله حجابا يشعر في أعماق ذاته بأن الله قد جعله مستقلا في قراراته حرا فيما يشاء. فإذا وصل إلى هذه الحقيقة تحمل مسؤولياته اعتقادا منه بأن متغيرات حياته كالصحة أو المرض، والاستغلال أو العبودية والغنى أو الفقر وما إلى ذلك إنما هي من عند نفسه أيضا، والإنسان البسيط غير المعقد والبعيد عن الشهوات يشعر دوما بهذه الحقيقة وهذا الإحساس يدفع به نحو تحمل المسؤولية، لأنه حينما يعترف بواقعه يرسم لنفسه خطة حكيمة لكي يصل بها إلى أهدافه.

في المقابل نجد إنسانا يتصور بأن هناك أشياء أخرى فوق عقله، تلك ما يسمونها اليوم بالحتميات -حتميات التاريخ والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والتربية- فيزعم أحدهم بأن الحتميات هي التي تصنع الإنسان، وليس للإنسان أن يتخذ قرارا نابعا من فكره وإرادته ذلك لأن العقل في نظره ليس إلا صورة متطورة للمادة.

لقد قسم الأطباء قديما الناس حسب أمزجتهم، فهذا مزاجه صفراوي، وذاك بلغمي والآخر سوداوي وهكذا فزعموا أن إرادة الناس تتبع أمزجتهم. أما أحد الفلاسفة الجدد فإنه يقول: بأن إرادة الإنسان نابعة من الغدة الدرقية، فإذا صار أحدهم طبيبا والآخر عاملا بسيطا فإن ذلك يعود إلى مقدار ونوع إفرازات الغدة الدرقية في دم الإنسان، حيث تؤثر هذه الغدة في قراراته.

ويقول الفيلسوف البريطاني المعروف (براندراسل): إنك إنما تتطبع بما تأكل، لأن العناصر الكيمائية الموجودة في أنواع الأغذية، تؤثر في مخ الإنسان وقراراته وهكذا سلبت هذه النظريات الشركية قدرة القرار من البشر وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يقرر لنفسه قرارا، فهو بمنزلة ريشة في مهب الريح، لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية، إذا فهو غير مسؤول عن شيء.

أما الفكر اليوناني القديم فإنه يعتقد بتعدد الآلهة، فللحرب إله وللسلم إله، وللمطر إله وللنور إله وللظلمة إله وهكذا.. وكان اليونانيون ينحتون أصناما ويتخذونها رمزا لتلك القوى التي كانوا يتصورون بأن لها تأثيرا حتميا على أعمالهم ونفسياتهم وهكذا جردوا أنفسهم عن مسؤولية أعمالهم حين نسبوها إلى الآلهة وهكذا تربط آيات هذا الدرس بين المسؤولية والتوحيد فتبدأ بالنهي عن أكل مال اليتيم (إشارة إلى حرمة المال) وتأمر بالوفاء بالعهد (للتذكرة باحترام العهد) وتأمر باحترام المال، واحترام سمعة الناس وتحري الحقائق، ثم تنهى عن الشرك بالله وتأمر بتسبيح الله سبحانه، ولعل محرمات هذا الدرس تسد أبواب الظلم، وتضع قوانين اجتماعية تحافظ على حقوق الناس، ابتداءً من حفظ حقوق الأيتام (وهم حلقة ضعيفة في المجتمع) واحترام الكيل والوزن واحترام سمعة الناس، وضرورة الوفاء بالعهود وما أشبه.

بينات من الآيات:

مسؤوليات اجتماعية

[٣٤] ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ يحق لولي اليتيم أن يأخذ مال اليتيم فيستثمره لصالح اليتيم، ولكنه لا يجوز له التصرف في هذا المال إلا في هذا المجال، حتى يبلغ اشده حينما يصل إلى مرحلة البلوغ فتسلم إليه أمواله، ولأن اليتيم ضعيف فاحترام ماله يدل على ضرورة احترام أموال الأقوياء بالطبع.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ والعهد ركيزة اجتماعية في الإسلام، ومحور للتعاون والتبادل الفكري والسياسي والتجاري، والإسلام يحث على أداء العهود لهذا السبب

أولاً، ولسبب أخلاقي ثانياً، ولأن الوفاء بالعهود يجري عليه حكم الشرع ثالثاً: والعهد واحد من أخطر مسؤوليات البشر في حياته.

[٣٥] ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ القسطاس المستقيم: هو البيع الذي لا غبن فيه ولا غش ولعل احترام الكيل يدل على أكثر من احترام حقوق الناس، حيث يدخل ضمن احترام قوانين البلد وعدم الخروج عليها لمصلحة ذاتية.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ فهذا أمر حسن فطريا واجتماعيا، وأحسن نهايةً وعاقبةً، لأن الغش لو ساد مجتمعا فستحل به كارثة لا يمكن التخلص منها. ثم إنك لو تجاوزت حقوق الناس أفلا تخشى أن تسلب حقوقك ايضا.

[٣٦] ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي تتبع أمرا لا تعلم مبدأه ومنتهاه ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ حيث تؤكد هذه الآية على مسؤولية جوارح الإنسان التي يجب أن تتحرك حسب مقياس صحيح وأن مسؤولية قلب الإنسان عن أفكاره وهواجسه وظنونه وحسده وحقده وجوارح الإنسان عن غمزها ولمزها، والغيبة والنميمة.

إنها لأعظم مسؤولية اجتماعية ولو سما المؤمن إلى مستوى ضبط فؤاده وسمعه وبصره فيما يخص علاقته بالمؤمنين لكان جديرا بأن يدخل جنات عدن..

[٣٧] ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ الإنسان المرح هو الذي يعيش حياة اللامسؤولية وما يتبعها من ظواهر كالفراغ واللهو واللعب والتكبر على الآخرين.

﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ فإنك لن تقهر الطبيعة فتشق الأرض، وتخرقها، أو تبلغ الجبال عظمة.

[٣٨] ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ يبدو أن تفسير هذه الآية إنه ينبغي للإنسان أن يتكبر أحيانا وذلك حينما يقابل الظالم الجائر حتى لا يشعر بأنه ضعيف أمامه، لذلك يؤكد القرآن بأن السيئة (مكروهة) -فيكون ما عدا السيئة غير مكروه- فالتكبر على المتكبر ليس مكروها، بل هو مستحب، وفي الحديث: «التَّكَبُّرُ عَلَى الْمُتَكَبِّرِيْنَ هُوَ التَّوَاضُعُ بِعَيْنِهِ»[1].

[٣٩] ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ والحكمة هي الجانب العملي من العلم، وهنا تعني السلوك الحسن ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ لا تتخذ لنفسك إلها غير الله فتلقى في جهنم. يلومك الناس ولا ينصرك الآلهة، وهذه الآية تشير إلى أن

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٢٠، ص٢٩٨.

الإنسان هو الذي يجعل من الصنم إلها، ومن الطاغوت إلها وحين يحطم المؤمن الأصنام الثقافية والاجتماعية والاقتصادية فانه يشعر باستقلاله وحريته ويتحمل مسؤولياته بعزم راسخ.

[٤٠] ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ كان الكفار يريدون النيل من الله سبحانه وتعالى لأنهم يتصورون الملائكة ضعافا، ولأنهم كانوا يعتبرون الأنثى رمزا للضعف فانهم نسبوا الأنوثة إلى الملائكة، ويرد سبحانه قولهم هذا: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

[٤١] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ فقد ضرب الله الأمثلة في القرآن ليبين لنا آياته ونعرفه بحقائق الإيمان ولكن على العكس من ذلك نرى الكفار لا تزيدهم التذكرة إلا نفورا من الحق.

[٤٢] ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ فلو كانت الآلهة متعددة، إذا لاتخذت طريقها إلى السماء، ولقاومت الإله الكبير كما يدعون وتمردت عليه، ونالت منه واسترجعت حصتها من الألوهية! ولاستطاعت أن تقهر الرب سبحانه علما بأنه لا حول لهم ولا طول فكيف تتخذ آلهة من دون الله.

[٤٣] ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فالله اكبر من هذه الخرافات التافهة وهو الذي.

[٤٤] ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ ذلك أن السماوات على عظمتها وما فيها من شموس وكواكب ومنظومات، والأرض وما فيها من حجر ومدر فإنها جميعا تسبح لله وحده وتشهد على وحدانيته، ويبدو أن الأشياء كلها ذات شعور بنسبة معينة.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فكل يسبح بحمده ولكننا لا نستطيع إدراك ألفاظها وتسبيحاتها لأن لكل شيء لغته الخاصة.

الحجب وضرورة التصحيح

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً [١] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا [٢] أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ [٣] إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

حينما يتخذ الإنسان موقفا تجاه فكرة ما، فإنه لا يستطيع أن يعرف الحقيقة لأنه قد ينظر إليها من وراء حجاب. وهذه صفة الكافرين بالحياة الآخرة، وهذه سمة الكثير من الناس، فلا يتلون آيات القرآن إلا من وراء حجاب، ولا يستمعون إليه إلا عبر مجموعة من الأحكام المسبقة التي أصدرتها أنفسهم.

---

(١) أكنة: أغطية وأغلفة.

(٢) رفاتاً: ما تكسّر وبلي من كل شيء.

(٣) فسينغضون: النغض تحريك الرأس باستهزاء واستخفاف.

ويبقى السؤال: كيف يمكن للإنسان أن ينظر إلى رسالة الله نظرة مجردة عن المواقف المسبقة؟

الإجابة على ذلك: إن قوة العقل محدودة عند الإنسان، فإذا تراكمت الشهوات على قلبه، وتكاثفت غيوم الجهل والضلالة والخرافات عليه، فإنه بحاجة إلى عملية صعبة ومجهدة حتى يتجاوز هذا الركام من الترسبات، كما يحتاج إلى هزة عنيفة ليهدم البناء الفكري الفاسد، ثم يقيم محله بناءً قويا وليس ذلك بالأمر اليسير.

ونتساءل: كيف تتصلب الإرادة، وينمو العقل. وما هي الهزة العنيفة التي تهدم بناء الأفكار الفاسدة، والمتراكمة فوق بعضها في قلب البشر؟.

الجواب: بالإيمان بالحياة الآخرة، حيث أنها قوة التعادل، وثقل السكينة عند الإنسان، فمن آمن بالآخرة سَلا عن الشهوات، وتعالى فوق الضغوط، وتجاوز العقد النفسية، وكل ذلك يحفظ قلبه عن الأفكار التي تمليها الشهوات والضغوط والعقد.

أما الذي لا يؤمن بها، فإن الله تعالى يجعل بينه وبين القرآن حجابا لا يراه، ولا يمكنه إذا اختراقه، كيف؟.

فإذا قلبه مستوراً أن يفقه، وإذا أذنه ثقيلة بالوقر وإذا به يهرب عن حقيقة التوحيد، ويبحث عن الآلهة الكاذبة، وإذا به لا يستمع -وهم يناجون بعضهم- إن هذا الرسول مسحور، وليس بعاقل، وبسبب هذه الأمثال يضلون الطريق ولا يهتدون إلى سبيل الحق.

وجذر مشكلتهم كفرهم بالآخرة إذ يقولون: هل نحن نعود إلى الحياة بعد أن نكون عظاما ورفاتا، دعهم يكونون حجارة أو حديدا، أو أي شيء كبير في نظرهم، فإن الذي خلقهم أول مرة يعيدهم. أما متى؟ فإن علمه عند الله فعسى أن يكون قريبا، يوم يدعوهم الله، فإذا بهم يستجيبون لداعي الله وهم يحمدون ربهم، ويزعمون أنهم ما لبثوا في القبر إلا قليلا.

بينات من الآيات:

[٤٥] ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾
من الطبيعي أن الذين يتذكرون الموت ويؤمنون بالآخرة وما تشتمل عليه من ثواب وعقاب، فإنهم يشعرون بالمسؤولية دائما، وينظرون إلى القرآن نظرة واقعية بعيدا عن الرؤى والخيال، بل نابعة عن موضوعية كاملة وتدبر، ولذا فإن أفئدتهم بصيرة وبصيرتهم نافذة. أما الذين

لايؤمنون بالآخرة فإنهم محجوبون عن الواقع بسبب عدم إيمانهم.

وقد قال المفسرون عن ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ إنه لم يكن أحد من الكفار يمكنه رؤية الرسول حينما يقرأ القرآن حتى لا يصيب رسول الله بأذى.

ويبدو أن التفسير الأقرب القول بأن الحجاب المستور، وهو النظرة السلبية التي يتخذها الكفار إزاء آيات القرآن والآيات التالية تفسر -فيما يبدو لي- معنى الحجاب المستور.

[٤٦] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ لكي لا يفقهوا القرآن، جعل الله قلوبهم في أكنة. ولفظة الأكنة، جمع للفظة كنان وهو الستر وهذا الستر هو ذلك الحجاب المستور الذي ضربه الله بين القرآن وبين قلوب الذين كفروا بالآخرة عقابا لهم على تكذيبهم بالبعث، واستهانتهم بقدرة الله على إعادة الخلق واستجابتهم لشهواتهم وعصبياتهم.

ونتساءل هل هذا الحجاب هو تلك السنة الإلهية التي جرت في خلقه أن من يتعصب لفكرة فاسدة فإنه لن يرى الحقيقة، أم أنه فعل إلهي جديد، حيث يزيد الله الكافرين ضلالة وكفرا، ويدعهم في ظلمات يعمهون؟.

بلى إنه فعل جديد، إنه حجاب يجعله الله بين الكفار والقرآن. وإنه لعقاب عظيم إن يشاء الله ضلالة البشر، بعد أن كفر بالهدى، وإن علينا الحذر أبدا من هذا العقاب العظيم، ونسأل الله دائما الهداية، وإلا يضلنا بعد أن هدانا، إنه مجيب الدعاء.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ الوقر: هو الثقل. والأذن الوقرة هي الثقيلة السمع. وفي هذه الحالة لن يكون باستطاعة الأذن أداء وظيفتها بشكل جيد، كما إنه إذا ما أصيب العقل بضعف فسوف لن يستوعب ما تنقله الأذن ولا سائر الجوارح.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ ولأن الكفار لم يعتقدوا بوحدانية الله فإنهم كانوا ينفرون من سماع القرآن لأن أفكار القرآن تخالفهم وإنما كان فرارهم بسبب خوفهم من صحوة الضمير.

[٤٧] إن جوارح البشر نوافذ قلبه على العالم الخارجي، وإذا كان القلب قد ران عليه الشهوات والتعصب لأفكار باطلة، فإن الجوارح تشل أو تعمل خلاف المطلوب، ذلك أن القلب المريض سوف يفسر كل الحقائق التي تتوارد عليه عبر الجوارح تفسيرا باطلا يتناسب وأمراضه التي رانت عليه وكما أن من يضع على عينيه نظارة ملونة يرى كل شيء بذلك اللون، كذلك من وضع على قلبه سماعة مضللة فانه يسمع كل شيء عبرها، بصورة خاطئة، إنه قد

صنع لنفسه قوالب ثقافية معينة يضع كل معلوماته الجديدة فيها فلا يزداد بالحقائق إلا ضلالا، ربنا يقول: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ ولعل (الباء) هنا للاستعانة وتعبر عن تلك الأحكام المسبقة والقوالب الفكرية الجاهزة التي بها يستمعون إلى الحقائق فيفسرونها حسب أهوائهم والآيات التالية توضح تلك القوالب:

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ كانوا يبررون مواقفهم بحجج واهية يقولون إنه مسحور وليس بساحر يمارس الكذب والدجل بينما كانوا يدعون الرسول ﷺ (بالصادق الأمين) فلم يبق هناك مجال للتهمة سوى القول بأنه مخدوع بسحر الساحرين فهو مسحور. وينسفه القرآن هذه التهمة فيقول:

[٤٨] ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ لأنهم اتهموا رسول الله ﷺ تهما واهية وأضلوا الطريق، وانحرفوا عن الجادة، وبذلك صاروا لا يفقهون آيات القرآن ولا يعرفون مغزاها، ولا يهتدون إلى سبيل الحق.

وكما قلنا سلفا: إن الإيمان بالآخرة ضمان للتفكير السليم في الحياة، وإن الكفار لم يكتفوا بإنكار الآخرة، وإنما كانوا يسعون لتبرير اعتقاداتهم بأفكار سخيفة، وشبهات واهية، ومنها الشبهة التالية:

[٤٩] ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ إذا كان الإنسان مبعوثا يوما ما فلم يصبح رفاتا أي خلقا يتلاشى؟.

هذا ما كان يتساءل الكفار عنه مستنكرين فأجابهم الله:

[٥٠-٥١] ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ فسواء كنتم حجارة أو حديدا أو أي شيء آخر، تتصورونه في أذهانكم كبيرا كالجبال والبحار والصحاري وما إلى ذلك.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وبديهي أن الخلق ثانية أهون من الخلق ابتداء. ولعل الكفار كانوا يزعمون أن الحديد والحجر لا سبيل إلى التحكم فيهما، باعتبارها صلبة، وليس كاللحم والعظم -في نظرهم- أو يزعمون أنهما أبعد عن الخلق باعتبارهما جامدين بخلاف البشر المركب من مواد حية.

وأجاب السياق عن شبهتهم بأن كلامهم يخضع لمقاييس المخلوقين أما الخالق فهو على كل شيء قدير.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي سيهزون رؤوسهم ويمدونها إلى الأمام في هيئة الشخص المتعجب ويتساءلون متى موعدنا إن كان لنا موعد؟.

فمن عادة الإنسان أنه إذا احتمل في أمر احتمالين، فإنه يحتمل وقوع الأيسر منهما ويستبعد وقوع الاحتمال الثاني، ويشير هنا ربنا إلى استبعاد الإنسان وقوع الآخرة، ولكنه تعالى يؤكد له هذا الاحتمال فيقول: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ إذ أن مجرد اعتقاد الإنسان بأنه قد يترك الدنيا في أية لحظة وأن القيامة ستقوم متى أراد الله يجعله متقيا لله في أعماله صغيرها وكبيرها.

[٥٢] ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فليست الدنيا من الآخرة إلا قليل، إذ أن معدل عمر الإنسان في الدنيا هو سبعون سنة أو اكثر من ذلك بقليل، وليس لهذه السنين قيمة أمام الخلود في الآخرة -أما في الجنة وأما في النار-.

العلاقات الاجتماعية البناءة

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ(١) إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا(٢) (٥٧) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾.

هدى من الآيات:

لكي لا يبث الشيطان روح العداء بين عباد الله، عليهم أن يختاروا أفضل القول، ذلك

---

(١) ينزغُ بينهم: يُفسدُ ويهيجُ الشر بينهم.

(٢) محذوراً: يحذر منه ويتقي.

أن الشيطان عدو مبين للإنسان ولا يجوز أن يجعل البشر نفسه وكيلا عن الناس (فيكفرهم حسبما يشاء، ويحكم عليهم بعذاب الله).

والله أعلم بعباده فهو (وليس الداعية) يرحم إن شاء ويعذب إن شاء وقد أحاط علما بمن في السماوات والأرض، وإنما يتفاضل الناس بمشيئة الله، أو ليس قد فضل بين أنبيائه وآتى داود زبورا؟

ويبدو أن هذه الآيات تبين بعض المسؤوليات الواجبة على المؤمنين تجاه بعضهم وتشمل غير المؤمنين، فالقول الحسن، وعدم التسرع بالحكم على الناس، وترك التحاسد جزء من مسؤولية المؤمن تجاه أخيه.

ولعل عوامل الخلاف تنشأ من عدم خلوص التوحيد، من رواسب الشرك فلذلك يعود السياق إلى قضية الشرك وأن الآلهة الباطلة لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا.

بل إن من يدعون من دون الله هم بدورهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة، يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وبالرغم من وجود الآلهة الباطلة فإن الله يهلك جميع القوى قبل يوم القيامة مما يدل على أنهم لا يملكون دفع الضر عن شعوبهم.

ولقد كذب الأولون بآيات الرب فهذه ثمود كذبوا وظلموا بالناقة وهي آية مبصرة، وآيات الله ليست إلا للتخويف.

والهدف من التخويف هو امتحان البشر وقد أحاط الله بالناس قدرة وعلما، ولقد امتحنهم بالرؤيا التي أراها رسوله، كما جعل الشجرة الملعونة في القرآن فتنة (شجرة الزقوم التي يجسدها في الدنيا المجرمون كبني أمية) إلا أن آيات التخويف لا تزيدهم الا طغيانا كبيرا.

بينات من الآيات:

القول الأحسن

[٥٣] هكذا أثار المشركون الشبهات حول الرسول، فما هي مسؤولية الدعاة إلى الله، في مواجهة تلك الشبهات؟ الجواب إن محتوى رسالة الدعاة إلى الله حق وصواب، يبقى الأسلوب، فلو أنهم اتبعوا أحسن الأساليب في الدعوة لأبطلوا تلك الشبهات. لكن إن لم

يتبعوا أفضل نهج للدعوة، فإن الشيطان يستغل الفرصة، ويضخم الأخطاء في عين المشركين، ويزين في قلوبهم العداوة للمؤمنين ومن ثم رسالة الإيمان بوسيلة الأخطاء التي يرتكبها الدعاة في أسلوبهم كأن يفحشوا في القول، أو يتطرفوا ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ يبدو أن العباد هنا هم عباد الله الصالحين ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ فالشيطان يمشي بين العباد بالعداوة، ويبث روح العداء ويستفيد من الكلمات النابية بل من سقطات اللسان والأخطاء التي يتهاون الناس عادة فيها، في بث روح العداء بين المؤمنين.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ فعداوته ليست بجديدة، وليست بخفية، وعلى العاقل أن يحذر العدو العنيد المجاهد بعداوته.

فلماذا نتبع خطوات الشيطان، ونعطيه فرصة التوغل بين صفوفنا وزرع الشقاق بين بعضنا والبعض؟.

كيف تنظر إلى الناس؟

[٥٤] ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ بعض الناس يحكمون على الآخرين أحكاما قاسية دون أن يعرفوا واقع أنفسهم، وهل رضي الله عنهم أم لا، فإذا بهم يكفرون الناس ويفسقونهم ويحصون عيوبهم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»**[1].

والإنسان الذي يدعو إلى الله، ويحمل رسالته إلى الآخرين، هو اقرب الناس إلى هذه الزلة الشيطانية التي ينفذ من خلالها إلى قلبه يدعوه لتكفير الآخرين وإسقاطهم من قائمة المؤمنين.

ويعالج القرآن هذه المشكلة بقوله: لا تحكموا على الناس بالباطل لأنكم قد تحكمون على أحد بالانحراف ثم يتوب فيتوب الله عليه، بينما يبقى الذي حكم بينهم بذلك رهين خطأه الذي قد لا يستغفر منه، فلا يتوب الله عليه، وربما يستغفر ولكن الله لا يتوب عليه لأن ذلك الشخص لم يغفر له، وهذا هو الذنب الذي لا يترك في الآخرة.

جاء في الحديث: **«أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ تَعَالَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾** [النساء: ١١٦]. **وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الهَنَاتِ** (أي الذنوب الصغيرة)، **وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً القِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ** (أي في

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٧٦.

الآخرة) لَيْسَ هُوَ جِرَاحاً بِالْمُدَى وَلَا ضَرْباً بِالسِّيَاطِ وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ»[1].

أذن قد يدخل الجنة ذلك الإنسان الذي نعتقد بأنه منحرف فاسق، بينما ندخل نحن النار. قال الله سبحانه وتعالى: يصف أهل النار: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص] إذا فلا تحكموا على الناس أحكاماً ارتجالية بل ليكن مقياسنا في الحكم عليهم بمدى التزامهم بالقيم.

إذن لا تغتر بحسناتك، ولا تعب على الناس سيئاتهم، ولا تعتبر نفسك أفضل من الناس. ولعل الشخص يعيب على أخيه فعلا وهو يرتكب ما هو أقبح منه، بل قد يكون ذلك الفرد معذورا في تصرفه دونه، فلعل ضغوطا تربوية أو اقتصادية أو اجتماعية تكره الفرد على اقتراف ذلك الفعل القبيح، بينما الذي يعيبه يرتكب ذات الفعل بلا ضغوط فيغفر الله لصاحبه ولا يغفر له.

وما ارسلناك عليهم وكيلا

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ بعث الرسول بالرسالة شاهدا ومبشرا ونذيرا، ولم يبعث وكيلا على الناس يدخل من يشاء منهم في رحمة الله، ويخرج منهم من يريد. إنما هذه المهمة هي مهمة الله وحـده.

فإذا ليس باستطاعتك أنت أن ترتب الناس ضمن خانات تصنعها حسبما تريد، ألم تسمع هذا الحديث: عن أبي ذر رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا قَالَ يَوْماً: وَالله لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي تَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَ الثَّانِي بِقَوْلِهِ: لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ»[2].

[٥٥] ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ربك اعلم بالناس وبأعمالهم ماذا سيفعلون؟ لاحظ وجود (من) الموصولة التي تأتي للعاقل فنستطيع أن نقول: إن ربك أعلم بالذي في السماوات والأرض من الجنس العاقل سواء كان بشرا أم ملائكة.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الأنبياء كسائر البشر خلقوا بتفضيل وأفضل من الأنبياء الرسل فأفضل الرسل خمسة: وهم أولو العزم وأفضل أولي العزم رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٧٦.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٣٣٦.

وقد قال رسول الله في حديث له: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّ لِيَ المَغْنَمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُوراً وَمَسْجِداً وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً وَخَتَمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»[1].

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ يبدو أن زبور داود هو كتاب تربوي على شكل دعاء ومناجاة مع الله سبحانه، وكما هو معلوم فإن عدد كتب الله مائة وأربعة وعشرون كتابا، أنزل كل كتاب ليواكب ذلك الظرف الزمني المعين ولعل ذكر زبور داود دون غيره كان للأسباب التالية:

١- إن الله بشر فيه بالنبي محمد ﷺ وأنه سوف يورث أرضه عباده الصالحين.

٢- إن اليهود زعموا أن الله لم يرسل بعد موسى أحدا وكان داود بعده نبيا مرسلا باعترافهم.

٣- إن تفاضل الأنبياء لم يكن بالملك بل بالرسالات، فبالرغم من أن داود كان ملكا لم يذكر الله هنا ملكه بل ذكر الكتاب الذي أنزل عليه وهو الزبور وهو يتميز بين سائر الكتب بأنه كتاب دعاء وكان هذا أعظم ميزة له بين سائر الكتب.

الآلهة الزائفة

[٥٦] ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ لابد أن نجعل الإيمان بالله محورا لحياتنا وتحركنا، لأن ما دونه من الآلهة لن تستطيع أن تنفعنا أو تضرنا، وهم بالإضافة إلى ذلك اعجز من أن يقوموا بما نريد بل يعجزون عن القيام بما يريدون لأنفسهم، فكيف يقومون بحاجات الناس، وهنا نلاحظ من كلمة (زعمتم) أي ادعيتم وصنعتم، فالإنسان هو الذي يصنع الطاغوت المتسلط، ويصنع الصنم الجامد، ويصبغ عليه القوة ومن بعد ذلك يخافه، وهو يعلم أنه لا يملك كشف الضر عنه عوضا عن تحويله.

[٥٧] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ هؤلاء الأولياء الذين يزعمون بأنهم آلهة إنما هم عباد له ضعفاء يبتغون رضا ربهم، ويريدون الوسيلة إليه، فكلهم فقير محتاج إلى رحمته، ويريد الزلفى إليه بفطرته وربما بإيمانه أيضا في هذه الآية، وفي آيات مشابهة تحير طائفة من المفسرين وتساءلوا من هم أولئك الذين يدعون وكيف أنهم يبتغون الوسيلة إلى الله ربهم؟.

---

(١) الدر المنثور: ج٣، ص٢٠٤.

زعم البعض أنهم الأصنام، بينما قال البعض أنهم الملائكة والعباد الصالحون الذين اتخذهم اتباعهم أربابا من دون الله.

والواقع أن ذاك وهذا بعض معنى الآية، إلا أن المعنى الأشمل هو كل شيء أو شخص يطاع من دون الله، ولأن أغلب أبناء آدم يعبدون من دون الله، ذوي القوة والثروة والجاه، كالملوك والقيادات السياسية والمترفين والأحبار والرهبان.

فإن الآيات فيما يبدو تشمل هؤلاء بل تركز عليهم وتسعى لتحرير البشر من نير عبوديتهم ولعل قراءة سريعة لآيات الشرك توحي إلينا بان الآلهة المعبودة من دون الله هم عادة بشر، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ﴾ [النحل: ٨٦].

وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وهكذا نستوحي من هذه الآيات أن الأرباب والأنداد والشركاء عباد من البشر.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ هؤلاء يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، ومن الملاحظ أن الرجاء ليس بمرتبة الخوف، فالخوف من العذاب يصلح الإنسان أكثر مما يصلحه الرجاء، جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ»[1].

إن الخوف من النار يمنع الإنسان عن المحرمات وبينما رجاء الجنة يبعد الإنسان عن الشهوات.

(١) الكافي: ج٢ ص٥٠.

سنة العذاب

[٥٨] ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ قال بعضهم إنه: عندما يتحدث الله عن بلدة طيبة في القرآن يسميها بلدا أو مصرا، وعندما يتحدث عن بلدة سيئة يسميها قرية مهما بلغت من الضخامة.

وكانت الآية تشير إلى قضية مهمة جدا في حياة القرى التي تشذ عن أمر الله حيث يكتب عليها العذاب منذ بداية انحرافها، ولكن مع وقف التنفيذ، فربما يرسل العذاب في هذه اللحظة وربما لا يعذبهم إلا بعد سنين من المعاناة، ونلمس من هذه الآية: إن الله أعطى الإنسان مهلة، وعليه أن يتحمل تنفيذ الحكم الرباني عليه إن حاد عن طريقه كما أن الآية تشير إلى طبيعة البشر النازعة إلى الانحراف حيث تجلب إليها عذاب الرب.

[٥٩] ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ ليست مشكلة البشر قلة الآيات بل المشكلة هي أن الناس لا يستوعبون الآية ولا يعرفون قيمتها وبالتالي يكذبون وأبرز مثال على ذلك قوم ثمود.

﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ هذه الناقة كانت آية جلية واضحة إذ خرجت إليهم من الجبل الأصم تستقيهم اللبن، ولكن مع الأسف هذه الناقة سببت لهم مصيبة كبرى إذ ظلموا أنفسهم بسببها.

السياق القرآني يحذرنا من طرف خفي من أن نطالب أبدا بالآيات دون أن نكون مستعدين لها، إذ لو نزلت الآيات ثم كفرنا بها فقد استوجبنا عذاب ربنا الشديد فنكون قد ظلمنا أنفسنا بتلك الآية، كما فعلت ثمود.

وقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة: حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام إن محمدا سأله قومه أن يأتيهم بآية، فنزل جبرئيل وقال: إن الله يقول: «﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وَكُنَّا إِذَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَرْيَةٍ آيَةً فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا أَهْلَكْنَاهُمْ فَلِذَلِكَ أَخَّرْنَا عَنْ قَوْمِكَ الآيَاتِ»[1].

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي أن هناك نوعين من الآيات فآية مبصرة مثل ناقة صالح كفروا بها فأتاهم العذاب وآية تخوفهم وتنذرهم بعذاب الآخرة مثل البأساء والضراء.

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢١.

ولأن الله ختم بنبيه محمد ﷺ الرسل فقد أرسل الآيات تخويفا بالقيامة ولم يرسلها بحيث يجلب العذاب لو كفروا بها.

الرؤيا

[٦٠] ما هي الرؤيا؟ يبدو أن لدى كل واحد منا حاسة سادسة ونعني بذلك الحس الذي يلتقط الإرهاصات التي يشعر بها مثل النعمة أو المصيبة، وتلعب هذه الحاسة دورا أساسيا أثناء الظروف الصعبة حيث النفوس ملتهبة ولعل الرؤيا هي جزء من هذه الحاسة ذلك لأن الإنسان في حالة اليقظة يحجبه عن رؤية الحقائق وتفهمها ما يشاهده بعينه وما يبتلى به في حياته اليومية، بينما في النوم حين الأحاسيس الأخرى هامدة تبقى الحاسة السادسة هي الفعالة فيرى الإنسان الأمور، وكثيرا ما يحذر الله الإنسان من المستقبل وأمور عديدة في حالة النوم، إلا أن غالبية بني البشر ولتورطهم بغرور الدنيا ونعم الله فيها، لا يستفيدون من رؤياهم، ولا من إحساسهم بالخطر المحدق بهم، ولعل الآية تشير إلى هذه النعمة نعم رؤيا الأنبياء عليهم السلام من الوحي.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ علما وقدرة ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ يعني تجربة واختبارا لهم ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ أي وجعلنا هذه الرؤيا إشارة للشجرة الملعونة ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ والله تعالى يقول في الآية التي تليها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

إن حالة الغرور والتكبر والاستعلاء على المؤمن وعلى آيات الله المحذرة والنذيرة، كل ذلك نابع من خطا قديم ارتكبه أبونا آدم، دفعه إلى ذلك إبليس الذي تكبر على السجود لله تعالى وهذا لا يزال يزيد الإنسان غرورا وكبرا.

الشجرة الملعونة

ما هي الشجرة الملعونة في القرآن؟.

لقد اختلفت التفاسير في معنى هذه الآية فبين من قال أن الشجرة هذه هي شجرة الزقوم أو اليهود ولكن من بين الأقوال تفسيرا ارتضيته، وقد وردت فيه روايات كثيرة ومن كافة المذاهب الإسلامية وقبل بيان هذا التفسير ورواياته هناك فكرة هامة علينا بيانها لا ريب أن رسالة الإسلام هي أعظم وأكبر ظاهره شهدها كوكبنا الأرضي. ولا ريب أن ما جرى على هذه

الظاهرة الكونية الكبرى من تغيرات هائلة هي الأخرى تتسم بأهمية كبرى ايضا، وأهم تغيير جرى على هذه الظاهرة هو تغيير القيادة الإسلامية من الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض نزا عليه الأمويون، وهذا التغيير هو أكبر انحراف حدث في الأمة الإسلامية. ومن الطبيعي -والإسلام رسالة غيبية-، أن لا يسكت عن هذه الانحرافة الكبرى، وهذا التغيير الخطير في رسالة الله، والله الذي يحب رسالته ورسوله والأمة الإسلامية لم يترك الأمر إلا وقد أشار إليه بطريقة أو بأخرى، ولم تكن هذه الإشارة واضحة كأن يذبح الرسول ﷺ قادة بني أمية جميعا، لأن هذا ليس من شأن الرسالات الإلهية لأن الله يريد اختبار الناس وامتحانهم، وفي نفس الوقت لا يدع الله الأمر من دون حجة بينة بل يشير إلى الحق والباطل، ثم يترك المجال مفتوحا لاختيارهم الحق أو الباطل.

والتفسير المختار هو أن الرؤيا هي رؤيا الرسول ﷺ في منامه أن قردة ينزون على منبره ويتواثبون عليه، والرسول قال هذا الكلام للناس ولكن من الذي عقله؟.

أهل الذكاء والفطنة، وأهل التوسم الإيماني هم فقط الذين عرفوا بأن منبر الرسول ﷺ مركز قيادته، وأن هناك فئات من الأمة سوف تسعى لهذا المركز دون حق، هم بنو أمية أما الآخرون فقالوا إن طيف الرسول كطيفهم لا أثر له. وحقيقة الأمر أنه يختلف تماما، ونبي الله إبراهيم عليه السلام أراد أن يذبح ابنه بسبب رؤيا.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فقال له ابنه نبي الله إسماعيل ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وهكذا كانت رؤيا الأنبياء وحيا.

من هنا جاء في الحديث أن ذلك رؤيا رآها النبي ﷺ في منامه أن قروداً تصعد منبره وتنزل فساءه ذلك واغتم به وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام [١].

وعن سهل ابن سعيد عن أبيه قال: «رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَنِي أُمَيَّةَ يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِهِ نَزْوَ الْقِرَدَةِ فَسَاءَهُ، فَمَا اسْتَجْمَعَ ضَاحِكاً حَتَّى مَاتَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾» [٢].

وقالوا: «على هذا التأويل فإن الشجرة الملعونة بالقرآن هي بني أمية أخبره الله تعالى

(١) بحار الأنوار: ج٩ ص١١٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٣١ ص٥٣٦.

بتغلبهم على مقامه وقتلهم ذريته»[1].

وروي عن المنهال ابن عمر قال: دخلت على علي بن الحسين عليه السلام فقلت له: كيف أصبحت يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال عليه السلام: «**أَصْبَحْتُ فِي قَوْمِنَا بِمَنْزِلَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي آلِ فِرْعَوْنَ، يُذَبِّحُونَ الْأَبْنَاءَ وَيَسْتَحْيُونَ النِّسَاءَ، وَأَصْبَحَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا صلى الله عليه وآله يُلْعَنُ عَلَى الْمَنَابِرِ، وَيُعْطَى الْفَضْلُ وَالْأَمْوَالُ عَلَى شَتْمِهِ، وَأَصْبَحَ مَنْ يُحِبُّنَا مَنْقُوصاً بِحَقِّهِ عَلَى حُبِّهِ إِيَّانَا**»[2].

وقيل للحسن البصري: «يا أبا سعيد قتل الحسين بن علي. فبكى حتى اختلج جنباه (أي تحرك كتفاه) ثم قال: واذلاه لأمة قتل ابن دعيها ابن بنت نبيها»[3].

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص١١٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٣، ص١٦.
(٣) مجمع البيان: ج٦، ص٢٦٦.

الإنسان بين كرامة الله وغرور الشيطان

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ[1] عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى[2] لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا[3] مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) أجلب: الإجلاب السوق، يجلبه من السائق والجلب شدة الصوت.

(٢) يزجي: الازجاء سوق الشيء حالاً بعد حال.

(٣) قاصفاً: القاصف الكاسر بشدة قصفه.

هدى من الآيات:

لماذا يتمرد البشر عن مسؤولياته، وما هو جزاء المتمردين، وما هو جذر الشرك بالله؟.

لنعد إلى قصة الخلق الأول: فمن عرف البداية هدي إلى العاقبة، نتذكر قول الله للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس استكبر وعلا بغير حق فقال أنا نار ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ فلما لعنه الله، قال: سترى كيف أضل ذرية هذا الذي كرمته علي إن أخرتني إلى يوم القيامة، إلا قليلا منهم وأنذره الله ومن تبعه إن جزاءهم جهنم جزاءاً وافيًا.

وبالرغم من أن الشيطان سوف يستفزهم بالتضليل. ويرهبهم بجيشه، ويتداخل معهم فيشاركهم في الأموال والأولاد ويخدرهم بوعود كاذبة، فإن عباد الله سوف يتحدونه بعون الله، وبالتوكل عليه وكفى بالله وكيلا. والله يملك كل شيء ومن يعرفه ويتوكل عليه فهو حسبه.

فهو الذي يزجي السفن في أعالي البحار لمصلحة البشر، رحمة بهم أما إذا أحسوا بالضراء في البحر وغاب عنهم آلهتهم التي كانوا يشركون بهم فإن يد الله تنجيهم من ورطتهم بالرغم من أنهم يعرضون عنه إذا وصلوا إلى الشاطئ آمنين، ويقابلون رحمة الله، بالكفر إن بدل الشكر، دون أن يتذكروا أن الله قادر على أن يخسف بهم جانب البر، أو يرسل عليهم ريحا تقذفهم بالحجارة، فلا يجدون وكيلا يدافع عنهم، أو يخشوا العودة إلى البحر فتحيط بهم عواصف تغرقهم بكفرهم ولا أحد يطالب بثأرهم.

لقد كرم الله بني آدم، واسجد لهم الملائكة وحملهم في البر والبحر، ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ووعدهم بالنصر في مواجهة الشيطان الذي يقف لهم بالمرصاد!.

بينات من الآيات:

إبليس يتحدى سلطان الحق

[٦١] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أشرنا في سورة البقرة أن سجود الملائكة يرمز إلى إخضاع الطبيعة للإنسان، وعللنا ذلك: أن كل طبيعة في الكون لها ملك موكل بها، فهناك ملك للمطر، وهناك ملك للريح، وآخر للبحار وملائكة للنهار وملائكة لليل و.. و.. والمطلوب من الإنسان هو أن يخضع نفسه وقوى الشر في الطبيعة.

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ يبدو أن إبليس كان عنصريا لأنه حيث زعم أن العنصر الناري افضل من العنصر الترابي، ولم يعلم بأن العنصر الترابي ليس بشيء، لولا تكريم الله له

بتلك القدسية التي نفخها الله فيه، منحه العقل والإرادة، وكذلك عنصر النار فقيمته مستمدة من الخلق الإلهي ليس إلا. ولئن رأى في النار مجداً، ففي التعليم الإلهي الذي هو سبيل إخضاع الطبيعة ميزة في هذا المخلوق الترابي.

[٦٢] ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ قالوا: معنى هذه الكلمة أخبرني، ولعل معنى الكلمة هل ظننت انك تغلبني وفيها نبرة التحدي والتمرد وكان أسلوب اللعين بعيدا جدا عن مقام رب العالمين إذ كان أسلوبه أسلوب تحد على من كرم الله وكأنه كان يقول: ستعلم ما أفعل بهذا الذي كرمته علي وأمرتني بالسجود له!!.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي أمهلتني حتى يوم القيامة لترى ماذا اعمل!!.

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ما هي غاية إبليس؟.

هدف إبليس أن يحتنك بني آدم، والاحتناك[1]، كما قال المفسرون له معنيان:

أولاً: الأخذ من العنق أي سوف أقود بني آدم سوق البهائم.

ثانياً: الاستئصال أي لأستولين عليهم بالكامل (إلا قليلا) ممن يتمرد علي ويتبع عقله وهذا قول الشيطان، ويبدو من هذا الحوار أن إبليس يقول: أنا أقوى من آدم، أنت كرمته علي بيد أنى سوف ادخله النار.

[٦٣] ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾ أعطيتك الفرصة والمهلة، ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾.

إن الله خلق الجن والإنس ليعبدوه وكرم بني آدم وأهله لعبادته، أما إذا خرج عن حده ووقع في خط الشيطان، آنئذ يسحب الله الكرامة منه ويدخله جهنم هو وجنود إبليس أجمعين. وهكذا إبليس من أشد الأعداء خطورة على ولد آدم جاء في الدعاء «**إِلَهِي أَشْكُو إِلَيْكَ عَدُوّاً يُضِلُّنِي، وَشَيْطَاناً يُغْوِينِي، قَدْ مَلأَ بِالوَسْوَاسِ صَدْرِي وَأَحَاطَتْ هَوَاجِسُهُ بِقَلْبِي، يُعَاضِدُ لِيَ الهَوَى وَيُزَيِّنُ لِي حُبَّ الدُّنْيَا وَيَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّاعَةِ وَالزُّلْفَى**»[2]، إلا أن الله سبحانه وتعالى زود الإنسان بالإرادة والعقل وأعطاه مزايا عدة كيف؟ تعالوا نستمع إلى هذا الحوار.

عن زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لَمَّا أَعْطَى اللهُ إِبْلِيسَ مَا أَعْطَاهُ مِنَ القُوَّةِ قَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ سَلَّطْتَ إِبْلِيسَ عَلَى وُلْدِي وَ أَجْرَيْتَهُ مِنْهُمْ مَجْرَى الدَّمِ فِي العُرُوقِ، وَأَعْطَيْتَهُ مَا أَعْطَيْتَهُ**

(١) قالوا: احتنك فلان ما عند فلان من مال: استقصاه وأخذه بالكلية، واحتنك الجراد الزرع: أكله بالكلية.
(٢) بحار الأنوار: ج٩١ ص١٤٣، ب٣٢ باب أدعية المناجاة.

فَمَا لِي وَلِوُلْدِي؟.

قَالَ -عزوجل-: لَكَ وَلِوُلْدِكَ السَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا؟.

قَالَ -آدم-: يَا رَبِّ زِدْنِي.

قَالَ: التَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ النَّفْسُ الحُلْقُومَ.

قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي.

قَالَ: أَغْفِرُ وَلَا أُبَالِي»[1].

هكذا يمكر إبليس

وخطورة الشيطان إنه يستخدم أمكر الخطط من أجل إغواء بني آدم ولولا يقظة ابن آدم، وعزمه الراسخ للتخلص منه، فإن إبليس يصرعه بواحدة من خططه العديدة.

وكم يكون عظيما ذلك الإنسان الذي يتحدى كل خطط الشيطان ويصل إلى الجنة بعد تجاوز المواقع والعقبات الشيطانية العديدة ويذكر السياق القرآني بخمسة خطط:

-التضليل الإعلامي.

- الإرهاب.

- إفساد الاقتصاد .

-إفساد التربية.

- الترغيب.

الأولى التضليل الإعلامي

[٦٤] ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾ والاستفزاز بمعنى الاستنهاض، يقال فزت الدابة، أي قامت وتحركت.. أي حرك منهم من تريد واستنهض من شئت بإعلامك المضلل. ويشمل الصوت الدعاية والموسيقى والغناء وكل أساليب الغواية المنطوقة.

ويعتبر التضليل الإعلامي أمضى أسلحة الشيطان، حيث نرى بداية الخلق إن إبليس

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٨٨.

أغوى آدم وزوجته، وأخرجهما من الجنة، بالقسم الكاذب وعلى امتداد التاريخ استخدم الشياطين أبواقهم الدعائية لمحاربة الحق، وكان حول الطغاة أبدا جيش من أدعياء الفكر والدين يؤيدون سلطانهم ويغوون عباد الله.

ولا تزال شبكات المستكبرين التضليلية تقوم بأسوأ دور في مد سيطرتهم الشيطانية على المستضعفين وهكذا ينبغي أن يكون الإنسان على أعلى مستوى من الوعي حتى يقاوم هذا التضليل، وإلا فإن الجزارين سوف يقودونه إلى المذبحة بهدوء بعد أن يخدعوه ويغروه.

الثانية الإرهاب

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ الإرهاب وسيلة شيطانية يستنجد بها أعوان الشيطان متى تحرك الناس تجاه دينهم، أو بدأوا بممارسة حقهم في التفكير، أو بدأوا يستخدمون عقولهم.. ﴿بِخَيْلِكَ﴾ هم الخيالة أو بمعنى آخر هم القوة المحمولة للشيطان و﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ إشارة إلى جيش المشاة.

الثالثة إفساد الاقتصاد

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ وهذا هو الأسلوب الثالث الذي يعتمده الشيطان وهو إفساد النظام الاقتصادي وحين يكون الاقتصاد فاسدا بسيطرة الرأسمال الكافر فان من الصعب جدا عبادة الله، لأن الشيطان يقطع رزق المؤمنين بعد سيطرة أجهزته على المال.

الرابعة إفساد التربية

أما المشاركة في الأولاد فتعني التربية الفاسدة للطفل، فالشيطان يشارك الأب في تربية أبنائه فمنذ نعومة أظفارهم يأخذهم ليرزقهم فكره، ليكونوا حملة لرسالته.

والمعنى العميق لهذه الآية: إن الإنسان لو ترك وفطرته، لاستفاد من حياته، ولكن الشيطان يدخل مع الإنسان في كل شيء ويصير معه شريكا، فيمتص جهوده، فلا يستفيد الإنسان من حياته لحياته الأخرى، بل تكون حكرا للشيطان.

الخامسة الترغيب

﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهذه هي النقطة الأخيرة التي يعتمد

عليها الشيطان وزبانيته وهي أسلوب الترغيب، ولخطورة هذه النقطة سفهها الله سبحانه وتعالى، لأن الإنسان تغريه رنة الدينار حتى يعمى بصره فيصبح لا يرى الحق الأبلج.

الغرور هو التغرير، قال: الراغب في مفرداته: «الغرور هو كل ما يغر الإنسان من جاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغاوين»[1].

عبادة الله عصمة وهداية

[٦٥] ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ إن عبادة الله سبحانه وتعالى، والاتصال به عصمة للإنسان لئلا يقع في حبائل الشيطان إن عبادة الله هدى في البصيرة، وقوة في الإرادة، وغوث في الكربة والذين يكفرون بالله ولا يتمسكون بحبله فإن الشيطان يضلهم بغروره ويرهبهم بجيشه، ويشاركهم في الأموال والأولاد.

وهكذا لا يمكن لأحد أن يتخلص من براثن الشيطان، من دون الاعتصام بحبل الله المتين. وكما أن أمضى أسلحة إبليس الاستفزاز بالصوت، فان أعظم حصن للمؤمن هو الذي يقيه تضليل الناس.

وذلك ببصائر الوحي وضياء العقل، وهكذا تكون الصلاة والصيام وسائر العبادات وسيلة للتفكر السليم ومقاومة عوامل الانحراف الفكرية. ويفسر هذه الآية قوله سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾.

(السلطان) هو القدرة

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ من الطبيعي جدا أن إرادة الشيطان لا تستطيع أن تقف أمام مشيئة الله، لأن وعد الله هو الحق وإن يعد الشيطان إلا غرورا، وقد وعد الله عباده بأنه وكيلهم في صرف الشيطان عنهم، وتقطيع مصائده وهدم مكائده.

إن مقاومة أسباب الانحراف في النفس تسير جنبا إلى جنب مع التيار العام للخلق والفطرة والذي تمثله سنن الله وقوانين الطبيعة. أما الانحراف فهو السير ضد هذا التيار، فلذلك فإن الانحراف يحمل في جوفه عوامل انهياره، حتى لو تذرع بالأساليب الملتوية من

(١) مفردات غريب القرآن: ص٣٥٩.

إرهاب أو إغراء.

[٦٦] ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ﴾ هذه مقارنة بين غرور الشيطان ونعم الله، فإذا كان الشيطان يرمي إلى تلك المقاصد التي ذكرها الله، فإن الله سبحانه وتعالى ينقذ الإنسان من براثن الشيطان ويساعده على تسخير الطبيعة حيث يزجي السفن في البحر لمصلحة البشر.

والإزجاء: هو الدفع والتحريك، ولا يتم الازجاء إلا بخلق عوامل مؤثرة تساعد على هذا الازجاء سواء بالريح التي تحرك المياه وتحدث الأمواج أو بالقمر الذي يصنع المد والجزر، أو بخلق العوامل التي تساعد على تحريك السفن فوق سطح المياه.

﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ فلم تزل السفن أفضل وسيلة للتجارة، ونقل فضل الله المتمثل في ألوان البضائع من بلد إلى بلد وبالرغم من تقدم الوسائل الأخرى للنقل البري، كالطائرات والسيارات والقطار، فإن نسبة نقل البضائع عبر البحار أعظم من غيرها بما لا قياس. وبالإضافة إلى ذلك فإن البحار ستظل أفضل وأعظم مصدر للطعام البشري الطيب.

[٦٧] أسلوب القرآن الحكيم يعتمد على إبلاغ الحقيقة إلى غور الفكر، وعمق القلب، بأن يرفع الحجب التي بينه وبينها حتى يشاهد بذاته الحقائق. فهذا هو العلم الحق أنه كشف وشهود واتصال مباشر بين القلب والحقيقة (عبر جسر المعرفة). وهنا يذكرنا الرب سبحانه: بذاته عبر منهاج وجداني يعتمد على رفع الحجب وشهود الواقع. ولعل الحديث التالي يبلور في نظرنا هذا الأسلوب.

جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال له: يا بن رسول الله دلني على الله ما هو؟ فقد اكثر علي المجادلون وحيروني. فقال له: **يَا عَبْدَ اللهِ هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ**؟. قال: نعم، قال عليه السلام: **فَهَلْ كُسِرَ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ وَ لَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ**؟ قال: نعم. قال: **فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ**؟ قال: نعم. قال الصادق عليه السلام: **فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيَ وَ عَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثَ**»[1].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ في لحظات الخطر يتذكر العبد ربه، ويتعلق قلب الإنسان بالله وليس بذاته التي يعبدها أو بالطاغوت الذي يخضع له.

وهكذا يستدل بها الله على ذاته، فلا أحد منا يخلو من لحظات الحرج والشدة، حيث

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٤١.

تحيط بنا الأخطار ونعرف بفطرتنا أن أولئك الآلهة المزيفة، التي تعبد من دون الله لا تغني عنا شيئا فتتصل القلوب برب الأرباب، وتبدا بالمناجاة الحارة، ويفتح الرب أمامنا أبواب رحمته وتستقبلنا بشائر فضله وتنقذنا يد عونه وغوثه ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ فبدل أن يزداد شكرا تراه يزداد طغيانا وكفرا بنعمة الله، و﴿كَفُورًا﴾ صيغة تدل على الاستمرار.

[٦٨] ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أين تهرب من قدرة الله؟! صحيح أنه نجاك من هذا البحر الغاضب، لكن من الذي يضمن لك أن لا تخسف بك الأرض، أو ينفجر عليك بركان منها، وهذه الآية إشارة إلى إمكان حدوث التغيرات الجيولوجية في أي لحظة.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ الحاصب الريح المحملة بالحصى وذرات الرمل.

عندما كانت قوافل العرب تسير في الصحاري التي تتحرك رمالها كانت الرياح تسوق كثبان الرمل فتبتلع القوافل بما فيها وبمن معها، ولعلهم كانوا يسمونها بالحاصب.

هذه طبيعة الإنسان بدل أن يشكر ربه على النعم أولاً وعلى خلاصه من البلاء ثانياً بدل ذلك يكفر.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ سبق وأن ذكر الله سبحانه بأنه وكيل عن المؤمنين في دفع الشيطان عنهم، ولكن من هو وكيل الكافرين في دفع الموت والضرر هذه الآية تشير إلى ضرورة الرجوع إلى الله لأنه القوي، ولا قوة أعلى من قوته.

عندما ذكر الله أساليب الشيطان صغرها وبين أن عباد الله أقوى منها بفضل الله فإذا كان الشيطان يستطيع إغواء اتباعه فان الله قادر على إهلاكهم رأسا بأن يغرقهم في اليم، أو يخسف بهم الأرض، أو يرسل عليهم ريحا لا تبقي ولا تذر.

بعد البلاء أما العذاب أو الرحمة

[٦٩] ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي يعيدكم في البحر، فيرسل عليكم القاصف (القاصف) هي: الأعاصير البحرية الهائلة، هذه الآية تشير إلى غباء الإنسان، فأنى له أن يهرب من عذاب الله؟! فحتى لو أسكرته الفرصة وأذهله تتابع النعم عن شكر ربه، فهل ينفعه ذلك؟! الله قادر على أن ينسيك ما أصابك، وهذا ليس من صالحك، إذا قد تلدغ من الجحر الذي لدغت منه في المرة السابقة! إنما عليك أن تتذكر ما أصابك من البلاء ليذكرك بالله سبحانه

وتعالى حينها لن تلدغ من جحر مرتين.

إن الله سبحانه وتعالى عندما يبتلي أمة فإنما يبتليهم بما كسبت أيديهم ويهدف إنقاذهم من السيئات التي كانت سبب البلاء كما أن الألم علامة المرض فكذلك البلاء علامة الذنب فإذا كفروا وتمادوا في الغي فإن الله عندما يبتلي أمة فإن ذلك مؤشر إنذار لهم بأنهم مذنبون، وأن الله لا ينجي من هذا البلاء إلا عند خلوص النية.

والخلاصة هي: أن الله سبحانه وتعالى يبتلي الإنسان بالبلاء ليعمق روح الإيمان فيه، ولكنه قد يكفر إذا نجي منه وقد يتحول البلاء إلى عذاب.

قال الله سبحانه وتعالى لعيسى عليه السلام: **«يَا عِيسَى! لَا يَغُرَّنَّكَ الْمُتَمَرِّدُ عَلَيَّ بِالْعِصْيَانِ، يَأْكُلُ رِزْقِي، وَيَعْبُدُ غَيْرِي، ثُمَّ يَدْعُونِي عِنْدَ الْكَرْبِ فَأُجِيبُهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَعَلَيَّ يَتَمَرَّدُ؟ أَمْ بِسَخَطِي يَتَعَرَّضُ؟ فَبِي حَلَفْتُ لَآخُذَنَّهُ أَخْذَةً لَيْسَ لَهُ مِنْهَا مَنْجًى وَلَا دُونِي مَلْجَأٌ»**[1].

إذا البلاء ميزان العبد فقد يهتدي به فيرحمه الله، وقد يطغى فيحول الله البلاء إلى عذاب، لقد رفع الله فوق بني إسرائيل الطور وهددهم بأنه سوف يسقطه عليهم، ولكنهم أخلصوا نيتهم فتاب الله عليهم، وعندما عادوا إلى غيهم عاد الله عليهم العذاب، إذ علينا أن نعرف أبدا أن البلاء جرس إنذار، فنصحح انحرافنا ونتجه إلى الله قبل أن يصبح عذابا شاملا.

[٧٠] ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بالعقل والإرادة وباستواء الخلقة، وقدرة الجسم على الحركة باستقامة ووجود أجهزة دقيقة له تساعده على التحكم في الطبيعة. وهكذا كرمهم بالهدى وبأن الأنبياء والصديقين منهم حيث أنزل لهم رسالاته، وكرمهم بتسخير الطبيعة لهم، وتوطئة ظهور الأشياء لهم.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ حملهم في البر: فالأرض جعلها صلبة يستطيعون التنقل عليها وسخر لهم الخيل والبغال والحمير ليركبوها. وسخر لهم سائر وسائل الانتقال في البر بفضله كما حملهم في البحر فوق السفن التي تمر المحيطات.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الطيبات: الرزق الحلال وكل ما في الأرض حلال إلا ما استثنى، وتفضل الله على الإنسان ليس لذاته وإنما ليتحمل به مسؤولية أكبر، لأن لكل شيء زكاة فزكاة المال بذله، وزكاة العلم نشره وكذلك فإن زكاة التفضيل أن تتحمل مسؤوليتك بحجم هذا التفضيل.

---

(١) الكافي: ج٨، ص١٣١.

كيف نواجه خطط إبليس؟

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ [1] عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ [2] إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ [3] إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾.

---

(١) ليفتنوك: يزلونك ويصرفونك.

(٢) تركن: تميل.

(٣) خلافك: بعدك.

هدى من الآيات:

في درس مضى بين القرآن الكريم مكر الشيطان وكيده، وهاهو يبصرنا كيف نقاومه، ويثبت أفئدة المؤمنين بالحديث عن سنة الله التي اتبعها النبيون فانتصروا.

عندما يدعو الله كل أناس بإمامهم. فهل تريد أن يكون إمامك الشيطان؟ وعندما تتطاير الكتب. فهل تحب أن تستلم كتابك بالشمال؟.

هنالك من يؤتى كتابه بيمينه، ويعطون البصيرة، يقرءون كتابهم دون أن ينقص من أجرهم شيء، فلا يظلمون بقدر فتيل، بينما هنالك من يؤتى كتابه بشماله وهم عمي لا يهتدون سبيلا. بلى إنهم كانوا في الدنيا لا يبصرون، فجزاؤهم أن يكونوا في الآخرة كذلك.

إن العاقبة الحسنى إنما هي من نصيب أولئك الذين يقاومون خداع الشياطين.

والذين ضغطوا على رسول الله ليغيروا بعض ما أوحي إليه، وآنئذ يتخذوه خليلا، وعصمة الله هي التي تحفظ البشر من السقوط في شرك إبليس، ورسول الله معصوم عن الميل إليهم بأذن الله، ولو أنه ركن إليهم شيئا قليلا لأذاقه الله -إذا- ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لا ينصره الله شيئا.

هكذا يستقيم المؤمنون أمام مكر إبليس وشياطينه، الهادف تضليلهم، أما عن قوتهم وإرهابهم فإنهم أرادوا أن يستفزوا رسول الله من أرضه، ويخرجوه منها، ولكنهم إن فعلوا أطبق عليهم العذاب. تلك سنة الله في الماضين، ولا تجد لسنة الله تحويلا.

ولكي نقاوم ضغوط الشياطين علينا أن نقيم الصلاة لدلوك الشمس (وقت الظهيرة والعصر) إلى غسق الليل (المغرب والعشاء) وقرآن الفجر (صلاة الصبح) إن قراءة القرآن تشهده الملائكة، وأن نقوم الليل للتهجد نافلة، إن ذلك وسيلة التقرب إلى الرب ولبلوغ المقام المحمود، وأن ندعو الله لكي يجعل مدخلنا مدخل صدق، ومخرجنا مخرج صدق، وأن يجعل لنا من لدنه سلطانا نصيرا، وأن نحيي الحق ونميت الباطل.

تلك كانت مناهج الرسالة لتحدي خطط إبليس، ونلخصها في خمسة بنود، إقامة الفرائض، والتهجد في الليل، والصدق في جميع المواقف، والتوكل على الله، وأخيرا الثقة بنصره. وهذا هو محتوى رسالة الله التي أوحاها إلى عبده محمد بن عبد الله ﷺ.

ولان سورة الإسراء تبين حقائق الوحي الإلهي تحدثنا عنها في أغلب دروسها، وضمن

بيان حقائق أخرى تتناسب معها كقضية مكر إبليس الذي يريد إغواء بني آدم، فيوفر الله لهم حبل الخلاص برسالاته التي أوحى بها.

بينات من الآيات:

إمامة القرآن هداية وفلاح

[٧١] ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ في ذلك اليوم يدعو الله سبحانه كل أمة بإمامها، والإمام يعكس قيم أمته، وهو تجسيد لكل فرد في الأمة، وهكذا يجب أن تنبع القيادة من صميم الأمة، وتعيش واقعها، وكل قيادة لا تنبع من صميم الأمة فإنها لا تملك مبرر البقاء لأنها تتنافر طبيعيا مع كل فرد في هذه الأمة. والإمام هو القرآن الموحى به، وهو الذي يجسد القرآن ويكون قرآنا ناطقا فالفكرة الرسالية هي القائدة وإنما يمثلها ذلك الإمام الناطق بها، ويجب على الإنسان أن يتبع الفكرة قبل أن يتبع الشخص، وأن يعرف خط القائد قبل شخصه، فإذا أردت اتباع قيادة فلابد أن تعرف خطها أولاً.

جاء في الحديث طويل عن القرآن عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الجَنَّةِ وَ مَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ»[1].

وكيف يمكن أن تجعل القرآن أمامك، من دون أن تختار قيادته حسب موازينه.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ هؤلاء الذين اتبعوا القرآن يدعون بالقرآن، وبذلك الإمام الذي اتبعوه باسم القرآن وصاروا قرآنيين: أما وانهم صاروا قرآنيين، فان الله يعطيهم حقهم غير منقوص، دون أن يظلمهم فتيلا، والفتيل هو الخيط الدقيق في شق نواة التمرة، ولعل نهاية الآية تدل على أن الوهم الذي يبثه الشيطان في روح اتباعه بأن عمل الخير لا جزاء له باطل.

وليس معنى هذه الآية أن الله يظلم من لا يؤتى كتابه بيمينه، بل الله عادل ولو يؤاخذ الناس بعدله لما نجى أحد من البشر، ولكن الله سبحانه لا يتعامل مع الناس الا بفضله، وقد ورد في الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ تَعْفُ عَنَّا فَبِفَضْلِكَ، وإِنْ تَشَأْ تُعَذِّبْنَا فَبِعَدْلِكَ فَسَهِّلْ لَنَا عَفْوَكَ بِمَنِّكَ، وأَجِرْنَا مِنْ عَذَابِكَ بِتَجَاوُزِكَ، فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِعَدْلِكَ، ولَا نَجَاةَ لِأَحَدٍ مِنَّا دُونَ عَفْوِكَ يَا غَنِيَّ الْأَغْنِيَاءِ»[2] والله سبحانه لا يظلم الناس، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فإذا عاقبهم الله

---

(١) الكافي: ج٢ ص٥٩٨.

(٢) الصحيفة السجادية: من دعائه عليه السلام في اللَّجأ إلى الله.

في الآخرة فإنما يعاملهم لقاء ظلمهم لأنفسهم.

[٧٢] ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ غير الله سبحانه مسار الحديث، فبدل أن يقول مثلا: ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ...﴾ [الحاقة: ٢٥]، قال: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ..﴾ ولو انه قال مثل ذلك لما وضحت صفتهم الرئيسية، وعلى كل حال فإن هناك صفة مميزة جعلت بعض الناس أصحاب يمين والبعض الآخر أصحاب شمال، وإن ذكر هذه الصفة في أحدهما يعني وجود عكسها في الآخر، فصفة أصحاب الشمال العمى، فإذا تكون صفة أصحاب اليمين الأبصار، ولعل العمى في القرآن يرادف اللاوعي.

إن الوعي في الحياة الدنيا هو ضمان السلامة في الآخرة، لأن الواعي لا يعمل إلا وفق تقدير وحكمة، فلذلك تقل نسبة أخطائه ومعاصيه، ومن لا يمتلك وعيا في الحياة الدنيا يحجزه عن المعاصي فهو في الآخرة أعمى عن النظر إلى رحمة الله، وكلمة ﴿أَضَلُّ﴾ اسم تفضيل على وزن افعل أي أشد ضلالا.

إن الله وفر الفرصة للإنسان للهداية، فإن هو لم يتقبلها، وكفر بالله، وتغافل عن دواعي الهداية في نفسه، فإنه لن يكون أقل عميا في الآخرة عما هو عليه في الدنيا، بل هو أضل سبيلا، ذلك لأن «الجزاء من جنس العمل» فمن أطفأ شعلة الهداية في نفسه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم، هكذا تكون عاقبته، وهكذا ينبغي أن يسعى البشر نحو الهداية في الدنيا حتى لا يحشر أعمى، ويبدو من الآية أن الشيطان يسعى من أجل حجب بصيرة البشر، وذلك بتضليله الذي عبرت عنه الآيات السابقة بـ ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤]. وعلى الإنسان أن يتحداه ولا يخضع لغروره، وأن يسعى نحو أسباب الهداية، ويتجاوز العقبات التي وضعها إبليس في طريقه. ذلك لأنه مسؤول عن إبقاء بصره سليما. ولا يجوز له أن يسمح لأحد أن يجعله أعمى.

الرسول يتحدى الضغوط

[٧٣] وكل إنسان مسؤول عن بصيرته ألا يحجبها الشيطان، وعن هداه ألا ينحرف عنه تحت وطأة الضغوط، وهكذا كان الرسول يتحدى الضغوط التي يمارسها اتباع الشيطان لتغيير الرسالة. والتعبير القرآني بليغ في بيان مدى كثافة الضغوط التي يتعرض لها صاحب الهداية، حتى أنها تكاد تؤثر في الرجل العظيم الذي يصفه الإمام علي عليه السلام بقوله: «صَلِّ اللهُمَّ عَلَى الدَّلِيلِ إِلَيْكَ فِي اللَّيْلِ الأَلْيَلِ، وَالمَاسِكِ مِنْ أَسْبَابِكَ بِحَبْلِ الشَّرَفِ الأَطْوَلِ، وَالنَّاصِعِ الحَسَبِ فِي ذِرْوَةِ الكَاهِلِ الأَعْبَلِ، وَالثَّابِتِ القَدَمِ عَلَى زَحَالِيفِهَا فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ، وَعَلَى آلِهِ الأَخْيَارِ»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٨٤، ص٣٣٩. من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.

يقول ربنا: وهو يشير إلى تلك الضغوط: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يسعى الكافرون والمشركون أن يفتنوا الرسول، ويبعدوه عما أوحي إليه بالتشكيك، أو بالإرهاب، أو بالضغوط الاجتماعية، والنفسية ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ ليس فقط يريدون أن يبعدوك عن رسالتك، بل يريدون أن تسخر هذه الرسالة لصالحهم، لأنهم يفكرون لو أنهم أبعدوك عن دينك، فإنه من الممكن أن ترجع إليه، ولكن عندما تفتري على رسالتك، وتكذب فيها آنئذ ستفهم هذه الرسالة بشكل مشوه، وبالتالي ستبتعد عن دينك، وهذا ما يفعله الكفار ومن شايعهم اليوم، حين يصيغ الإسلام كما يريد، ويحرفه عن مساره، يحوله إلى دين الطقوس والشكليات المجردة بعد أن يفرغه من جوهره، ويختار لذلك بعض أدعياء الدين.

﴿ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ إذا كيفت رسالتك حسبما يريدون فأنت إذا مخلص لهم وما جزاء المخلص لهم إلا أن ترفع مرتبته عندهم، وهكذا يجب على الداعية أن لا يتنازل عن مبادئه في أي ظرف من الظروف، وأن يضحي من أجل أداء رسالات ربه.

[٧٤] ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ لولا اتصال الرسول بينبوع القوة، لكانت الضغوط تجبره على التنازل عن رسالته، وحاشا الرسول أن يتنازل عن مبادئه، وينقل الرواة إن سبب النزول هو: أن المشركين جاءوا إلى الرسول وقالوا له: «كف عن شتم آلهتنا، وتسفيه أحلامنا»، واطرد هؤلاء العبيد والسقاط الذين رائحتهم الصنان (الصنان: نتن الإبط) حتى نجالسك ونسمع منك، فطمع الرسول في إسلامهم، فنزلت هذه الآية، وجاء في حديث العياش عن الإمام الصادق عليه السلام «انه سئل عن هذه الآية فقال: لما كان يوم الفتح اخرج رسول الله صلى الله عليه وآله أصناما من المسجد وكان منها صنم على المروة، وطلبت إليه قريش أن يتركه وكان مسخا، فلم يتركه، ثم أمر بكسره فنزلت الآية»[1].

ولعل الآية توحي بأن الداعية قد يهم لتغيير بعض بنود رسالته طمعا في إدخال الناس في الدين وهذا بدوره خطأ، وينبغي أن يتجنبه الداعية.

إن عصمة الرسول التي تدل عليها الآية (٧٤) بصراحة تشهد على أن الرسول لم يعزم أبدا على تقديم تنازل للمشركين، وروي عنه انه صلى الله عليه وآله قال بعد نزول الآيات «اللهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَداً»[2].

[٧٥] ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ أي لأذقناك ضعف العذاب

---

(١) تفسير الصافي: ج٣، ص٢٠٨.

(٢) مجمع البيان: ج٦ ص٢٧٩، بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٠٤.

في الدنيا والآخرة، ونظرا لمقام الرسول وعظم مسؤولياته فإنه يحاسب بقدر تلك المسؤوليات فكلما ارتفعت مسؤولية الإنسان، كلما حوسب أكثر بعكس الذين لا يحملون مسؤولية كبيرة، لأن انحراف القيادة يعني انحراف قطاع كبير من الأمة.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ هذه الآية هي جواب على الآيات الأولى ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو انحرفت فقد تجد من ينصرك في الدنيا، ولكن من الذي ينصرك من عذاب الله.

[٧٦] ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الإنسان الذي يحمل الرسالة لابد أن يضع في اعتباره أنه سوف يتعرض للضغوط الاجتماعية، والمادية، ومن ضمن هذه الضغوط (الإخراج والتهجير والمقاطعة الاجتماعية والإيذاء). ومن يقرأ ما عانى رسول الله من الإيذاء لا يمتلك دموعه، وخاصة عندما فقد عمه وزوجته في عام الأحزان، ولم يجد أحدا يمنع المشركين عن أذاه، فاشتد إيذاؤهم له، وتولى أبو لهب سيادة قريش، ويزداد أذىً له وهو عمه واقرب الناس إليه، وإذا كان عمه هكذا فكيف يكون المشركون؟!.

ثم بعدما ضاقت عليه الأرض بما رحبت هاجر إلى الطائف، ولقي من العنت مثلما لقي في مكة، فإذا بصبيانها يدمون رجلي الرسول بالحجارة، وعندما تأزمت الأمور أكثر بين الرسول وأهل مكة حاولوا إخراجه، ومن ثم تآمروا على قتله، فهاجر إلى المدينة ليفتح بذلك صفحة جديدة أطلت على التاريخ ببوارق الأمل.

﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾أي يخرجوك وينفرونك، وهذه ثانية خطط إبليس وشياطينه حيث إنهم حين يفشلون في تغيير الرسالة لتوافق مصالحهم، ولا أقل لكي لا تضرها رغم إغرائهم لصاحب الرسول بأنهم سوف يدخلون في دينه لو فعل ذلك -أقول بعد فشلهم هذا يتوسلون بالإرهاب، ويحاولون طرد صاحب الرسالة- من أرضهم.

ونلاحظ أن القرآن أشار إلى هاتين الخطتين في الآية (٦٣) حيث قال: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ وكأن السياق هنا يذكرنا بفشل إبليس مع نبينا، وأن علينا ألا ندعه ينجح معنا أيضا، أوَلسنا أتباع ذلك الرسول؟!.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لن يستطيعوا أن يواجهوك بعدما يخرجوك. لعل الآية تشير إلى سنة إلهية، قضاها الرب لعباده: إن رسل الله، والذين هم يسيرون على نهجهم، أوتاد الأرض، فمن دونهم تسيخ بأهلها، بهم يحفظ الله العصاة أن يدمرهم شر تدمير، فإذا طغى الناس وأخرجوا هؤلاء من بلادهم فإن العذاب يصب عليهم صبا. ولو لا

أن نبينا ﷺ اختار الهجرة إلى المدينة لكان أهل مكة يتعرضون لعذاب شديد، بل إنك ترى أنهم تعرضوا للقتل والأسر، وفتح بلدهم لأنهم هموا بإخراج الرسول.

[٧٧] ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ سنة الله لن تتغير حتى يوم القيامة، فهذه من الحتميات الإلهية، والتحويل هو تحويل الشيء إلى غيره، وسنة الله المتمثلة بنصر الرسل، سنة أبدية محتومة، كما الظروف الطبيعية تحتمها، لأن الكفر يسير ضد التيار العام للطبيعة، بينما تنتصر رسالات الله، لأنها تتحرك باتجاه التيار الطبيعي للحياة، كما أنها تتوافق مع الفطرة.

الصلاة

[٧٨] كيف يقاوم المرء ضغوط الشيطان؟ يجيب السياق القرآني عن هذا السؤال بعد أن بين خطط إبليس في إغواء بني آدم، وسوقهم إلى النار ويتلخص الجواب في إقامة الصلوات المفروضة، والتهجد بالليل، والصدق في المدخل والمخرج، والتوكل على الله، والثقة بنصره، فهذه خمسة برامج يتحدى بها المؤمن مكر الشيطان وكيده.

[٧٨] ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ دلوك الشمس أي زوالها، وسمي الدلوك دلوكا، لأن الإنسان يدلك عينه عنده لشدة شعاعها آنئذ، وقال البعض إن الدلوك هو الميل، وسمي الزوال دلوكا لأن الشمس تميل عنده إلى جهة المغرب، كما أن المغرب سمي به ايضا لأن الشمس تميل إلى الغروب.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ غسق - دلجة، ظلمة - بمعنى واحد وهو شدة الظلام، وشموله، ولعله يتم عند منتصف الليل.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ قرآن الفجر هو صلاة الصبح، وصلاة الصبح مشهودة من قبل ملائكة الليل وملائكة النهار، لذلك استحب استحبابا مؤكدا صلاة الفجر في أول وقتها.

نلاحظ أن اللـه سبحانه حدد أوقات الصلاة بثلاث أوقات بدل أن تكون خمسة أوقات، نظرا لتقارب وتداخل وقتي الظهر والعصر، والمغرب والعشاء.

[٧٩] ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ نافلة الليل هي الصلاة غير المكتوبة، ولو كتب على المؤمن غير الفرائض الخمس لكان المكتوب صلاة الليـل لما فيها من الثواب،

ومباهات الله ملائكته بمن يصليها.

التهجد: السهر لصلاة الليل، وأخذت الكلمة من الهجود وهو النوم، وكأن المتهجد يغالب نومه.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ هذه فائدة صلاة الليل والمقام المحمود للرسول الشفاعة، وللمؤمنين درجات الكمال، حيث جاءت الأحاديث تؤكد على صلاة الليل، وتوضح فوائدها، فهي تزيد في الرزق، وتزيد في العمر، وترفع عذاب القبر وهي نور في القبر، ونور يوم القيامة، وترفع اسم الإنسان، وتزيد في بهاء وجهه، وتزرع الخشية في قلبه، وتحببه إلى إخوانه وعشرات من الفوائد العظيمة.

شفاعة الرسول في امته

في تفسير آية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ سأل رجل الإمام الصادق عن قول الرسول ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»، قال عليه السلام: «نَعَمْ يَأْخُذُ حَلْقَةَ بَابِ الجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا، فَيَخِرُّ سَاجِداً، فَيَقُولُ: اللهُ ارْفَعْ رَأْسَكَ.. اشْفَعْ تُشَفَّعْ.. اطْلُبْ تُعْطَ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ ثُمَّ يَخِرُّ سَاجِداً، فَيَقُولُ اللهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ.. اشْفَعْ تُشَفَّعْ.. اطْلُبْ تُعْطَ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَشْفَعُ فَيُشَفَّعُ، وَيَطْلُبُ فَيُعْطَى»[1].

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام رواها عنه الإمام الكاظم عليه السلام: «يَقُومُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ عَاماً، وَيُؤْمَرُ الشَّمْسُ فَيَرْكَبُ عَلَى رُؤُوسِ العِبَادِ، وَ يُلْجِمُهُمُ العَرَقُ، وَيُؤْمَرُ الأَرْضُ لَا تَقْبَلُ مِنْ عَرَقِهِمْ شَيْئاً، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَتَشَفَّعُونَ مِنْهُ فَيَدُلُّهُمْ عَلَى نُوحٍ، وَيَدُلُّهُمْ نُوحٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَيَدُلُّهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَى مُوسَى، وَيَدُلُّهُمْ مُوسَى عَلَى عِيسَى وَيَدُلُّهُمْ عِيسَى فَيَقُولُ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ خَاتَمِ البَشَرِ.

فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ: أَنَا لَهَا فَيَنْطَلِقُ حَتَّى يَأْتِيَ بَابَ الجَنَّةِ فَيَدُقُّ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ هَذَا وَاللهُ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيُقَالُ: افْتَحُوا لَهُ، فَإِذَا فُتِحَ البَابُ اسْتَقْبَلَ رَبَّهُ فَيَخِرُّ سَاجِداً فَلَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى يُقَالَ لَهُ: تَكَلَّمْ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَسْتَقْبِلُ رَبَّهُ فَيَخِرُّ سَاجِداً فَيُقَالُ لَهُ مِثْلُهَا، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَشْفَعُ مَنْ قَدْ أُحْرِقَ بِالنَّارِ فَمَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ أَوْجَهَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٤٨.

(٢) تفسير العياشي: ج٢، ص٣١٥، بحار الأنوار: ج٨، ص٤٨.

وبالرغم من أن الآيات تخاطب النبي ﷺ، وفسرت في أكثر النصوص المأثورة عن علماء المسلمين جميعا بالشفاعة التي خص بها الرب حبيبه محمدا ﷺ -بالرغم من ذلك- إلا أن القرآن نزل على لغة «بِإِيَّاكِ أَعْنِي وَ اسْمَعِي يَا جَارَةُ»[1] حسب النصوص المأثورة.

وهكذا نعرف أن نافلة الليل هي معراج المؤمن إلى الكمال، إنها تطهر القلب عن عقده وأحقاده، واهتماماته بصغائر الأمور، وتوسع الصدر لاستقبال المسؤوليات العظام، وتشحذ العزيمة لتحدي العقبات، وتنهض الإرادة الخاملة، وتعطى النفس قوة دفع ذاتية، وكل ذلك بفضل القرب إلى الرب، ولعل كلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ في هذه الآية كما لفظة لعل في آيات أخرى تذكرنا بان هذه الحقائق ليست مثل الحقائق الفيزيائية التي تقضي بحتمية النتائج بعد الأسباب، بل إنها حقائق فوق مادية تتبع مشيئة الله، والله سبحانه لا يتقبل العمل إلا بالتقوى والإخلاص، وهو ينظر إلى روح العمل قبل مظهره، فعلى الإنسان أن يستمر في الاجتهاد، ويرجو رحمة الله، فعسى أن يبلغه الله النتائج وبذلك يحرض القرآن المؤمنين على المزيد من العمل والمزيد من التضرع إلى الله ليبلغوا المقام المحمود بفضله.

نصرة الله

[٨٠] ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ الالتزام بالصدق في المواقف، في كل مدخل ومخرج منها هو أهم واجبات الرسول والرسالي، ولأن الإنسان يحتمل أن يدخل فيما يكرهه الله، أو يخرج عما يحبه الله، فهو بحاجة إلى حاجز يمنعه عن الانحراف، وهذا الحاجز إنما هو من عند الله سبحانه، والمراد من هذه الآية: يا رب أدخلني في الأمور إدخالا صادقا، وأخرجني منها إخراجا صادقا.

﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ إذا التزم الإنسان بالواجبات الشرعية، وجسد الشخصية القرآنية آنئذ يصبح تحت ظلال رحمة الله في الأرض، فيصبح سلطانا من قبل الله، بالطبع ليس سلطانا ماديًا، بل سلطانا ربانيا رحمانيا، ويبعث الله من ينصره من المؤمنين والملائكة. إذا أردت أن تكون قائدا اصلح نفسك وكن مع الله، لأنه من كان مع الله كان الله معه.

جاء في وصية الإمام الحسن عليه السلام لجنادة بن أبي أمية: «..وَإِذَا أَرَدْتَ عِزاً بِلَا عَشِيرَةٍ وَهَيْبَةً بِلَا سُلْطَانٍ فَاخْرُجْ مِنْ ذُلِّ مَعْصِيَةِ الله إِلَى عِزِّ طَاعَةِ الله عَزَّ وَ جَل»[2].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٣٠.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٥٨.

ولو عمل المسلمون بهذه الآية الكريمة لأغنتهم عما في أيدي أعدائهم، وهيأت لهم استقلالا اقتصاديا، وثقافيا، وسياسيا، كيف؟.

لقد أودع الله في الإنسان معادن لا تنفد ولا تحد، وسخر له الطبيعة بما أعطاه من علم وإرادة وقوة. ومن أعظم المواهب التي أتاها الرب للخلق الطموح، فكل واحد يتطلع إلى العظمة، ويحب الكمال وهذا التطلع هو جناح المرء في تحليقه في فضاء التقدم. إلا أن الشيطان يغويه، ويوجه طموحه في الاتجاه الخاطئ، إنه يلوي مقود سيارته عن الشارع المعبد الذي يمهده الجهد الصادق باتجاه الصخور الوعرة، ويهمس في أذنه هذا هو طريق المجد، الكذب، الغش، السرقة، وانتهاب ثروات الآخرين، واستغلالهم، أو استجداء العون منهم، وهكذا يخدعه مرتين حين يسلب عنه عزيمته، وحين يخيل إليه أن الآخرين ينفعونه.

أما المؤمن فأنه يعلم أن قوة ساعده، ونفاذ بصيرته، ومضاء عزمه كل أولئك كفيل بتقدمه، وإن رزقه موجود في الطبيعة، في الأرض التي يزرعها، في المعادن التي يستخرجها ويسخرها، وبالتالي في التعامل الشريف مع الناس.

وهكذا يبني بناءه على الصدق، فإن دخل في عمل، في مشروع، في حركة، في شركة، دخل بنية صادقة لم يدخل ليستغل جهد الآخرين، ولا ليستريح من بذل الجهد، ثم لا يخرج إلا بصدق فيكمل مسيرته حتى النهاية، ويتم عمله بأحسن وجه دون أن يخدعه الشيطان، فيدفعه لترك العمل. متى ما رأى فيه صعوبة.

ولعل صدق العمل في المدخل والمخرج هو التحدي المناسب لخطة إبليس في مشاركة الأموال والأولاد، حيث قال الله سبحانه في آية مضت بينت مكر إبليس في تضليل البشر قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

إذ أن صدق المؤمن لا يدع مجالا لمشاركة إبليس الذي يهدف إفساد الاقتصاد والتربية، وكيف يفسد اقتصاد قوم لا يأكلون الحرام، ولا يسرقون جهد بعضهم، ولا يتعاملون بغش، أو تطفيف، أو تغرير، أو كذب!.

ونستوحي من تواصل بداية الآية وخاتمتها أن الصدق في الدخول والخروج وسيلة لنزول نصر الله، وبلوغ القوة (السلطان) والعزة (النصر).

والصدق في البداية هو خلوص العمل، بينما الدعاء في الخاتمة هو التوكل وهما العمل الصادق والتوكل على الله يتكاملان فلا توكل من دون عمل، ولا ينفع العمل من دون التوكل.

[٨١] ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ سبب ارتفاع الباطل هو خفوت نور الحق وتقوقعه، متى ما وجد الحق غاب الباطل.

وهذه الآية تعطي الثقة بالمستقبل ولعلها تعالج غرور الشيطان الذي أشير إليه، وقول ربنا سبحانه: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

فبينما الشيطان يخدع الإنسان، ويمنيه بالمستقبل كذبا، فإن الله سبحانه يعده صادقا، إذ أنه يبشره بأن العاقبة للمتقين، وأن الحق منتصر وأن الباطل كان زهوقا.

وهكذا يقاوم المؤمن كل مكر شيطاني بخطة رشيدة، وعمل مبارك:

١ - يتحدى صوته المضلل ببصائر الوحي.

٢ -خيله ورجله وبالتالي إرهابه بالصلاة والتهجد.

٣ - مشاركته في الأموال والأولاد بالتصدق والتوكل.

٤ - وعوده وغروره بالثقة بوعد الله والأمل في المستقبل.

أعاذنا الله من شر الشيطان وكيده ومكره.

القرآن بلسم الحياة وشفاء الإنسان

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (1) (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا (2) أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا (3) (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾.

---

(١) ظهيراً: الظهير المعين وأصله من الظهر.

(٢) كسفاً: وهي جمع كسفة بمعنى القطعة.

(٣) قبيلًا: مقابلةً وعياناً.

هدى من الآيات:

يبدو أن آيات هذا الدرس تتركز في بيان الموضوع الرئيسي لسورة الإسراء، وهو الوحي، وتعالج الموقف السلبي الذي اتخذه الكفار من القرآن.

كلما نزلت آية من القرآن كانت شفاءً عن داء، ورحمة للمؤمنين، بينما الظالمون لا تزيدهم إلا خسارا. لماذا؟.

لأن الإنسان يتكل على النعم، ويغتر بها، فإذا أنعم الله عليه بنعمة أعرض عن ربه واستكبر، فلما زالت النعمة عنه استبد به اليأس، ولعل هذا أعظم سبب للجحود والكفر بالقرآن، كما يظهر من خاتمة هذا الدرس.

وكل إنسان يعمل حسب ما بنيت شخصيته عليـه، والله أعلم بمن هو أهدى سبيل، ولعل هذا هو السبب الثاني الذي يجعل الكفار يخسرون نعمة القرآن، ولا يستفيدون منه، لا شفاء ولا رحمة.

والوحي نعمة من الله وليس من الرسول نفسه ولو شاء الله لذهب به دون أن يقدر أحد على المطالبة به، وأنه لرحمة من الله، وفضل عظيم، ولعل زعمهم بأن الوحي من الرسول سبب ثالث لكفرهم وهو معجز لأنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يقدرون على ذلك حتى ولو تعاون بعضهم مع البعض الآخر.

وهو يحتوي على أمثلة الحياة التي لو ساروا عليها لاهتدوا ولكن أكثر الناس يكفرون بهذه النعمة، وتراهم يطالبون الرسول بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا حتى يؤمنوا به، أو تكون له جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيرا.

وقد يطالبونه بالعذاب كأن يسقط السماء عليهم كسفا، أو يأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يقولون له لو كان لك بيت من زخرف، أو رقيت إلى السماء، وأنزلت معك كتابا نقرؤه لآمنا بك وهم يغفلون عن حقيقة هامة هي أن الرسول بشر مثلهم يوحى إليه، وأن القرآن ليس منه إنما هو من الله سبحانه.

بينات من الآيات:

شفاء القرآن

[٨٢] القرآن شفاء ورحمة، شفاء يطهر القلب والبدن والمجتمع من الجرائيم، ورحمة تنمي فيها الخير والفضيلة.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كل القرآن شفاء الأمراض، وبعض القرآن شفاء لذلك المرض الذي جاء من أجل شفائه، ولأن القرآن نزل حسب الظروف تنزيلا فقد كانت آياته شفاء للأمراض التي نزلت لعلاجها، ولعل كلمة﴿مِنَ ﴾تدل على ذلك.

والسؤال هنا هو: كيف يكون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين؟.

اختلف المفسرون حول معنى الشفاء وإبعاده، ولكن الشفاء المقصود به هنا هو: شفاء عام لكل جوانب الحياة.

القرآن شفاء القلب والمجتمع والبدن

أولاً: بين الإنسان ومعرفة الحقائق حجب متراكمة من ضغوط الشهوة، وعقد النفس، وقيود المجتمع، وتخلص الإنسان من هذه الحجب لا يكون إلا بإثارة دفائن عقله، وهزة ضميره، والقرآن يقوم بهذا الدور، إذ أنه كالصاعق الكهربائي الذي يهز ضمير الإنسان ووجدانه من الصميم، فيتحرك العقل من الداخل ليخترق حجب الجهل والضلال، والغرور هو أعظم حاجز بين الإنسان والحقيقة، لذلك تصب هذه الآيات حمم الإنذار من خلال تصوير مشاهد يوم القيامة، وهلاك السابقين، ليقطع الاسترسال في الغفلة وأحلام اليقظة، وفي هذا السبيل يضع شرائع مفصلة لتنمية المواهب الخيرة في القلب بعد تطهيره من أمراض الاستكبار، والحسد، والحقد، والعجب، والغرور و.. و..

إذ القرآن يعالج تفكير الإنسان لئلا يقع في الأخطاء المنهجية لفهم الحقائق، وذلك عبر تقديمه للمنهج الصحيح.

ثانياً: والقرآن الحكيم شفاء للأمراض الاجتماعية حيث يعطينا برنامجا في الاقتصاد، والسياسة والتربية، والأسرة لنحل به جميع المشاكل، ولا يدع شاردة أو واردة بلا حكم واضح.

ثالثاً: ويقدم القرآن لنا نصائح توجيهية للحفاظ على الجسد، فهو يؤكد على ضرورة الطهارة والنظافة، وضرورة العمل، ورفع الكسل والتواني، وينظم للإنسان حياته الاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها ليجنبه الأمراض الروحية والجسدية.

ونحن عند أصابتنا بأي مرض في أي مجال نحتاج إلى التسلح بالإرادة والحيوية، وحينما تخلص نيتك لله، فإنه سيمن عليك بشفائه من حيث تعرف أو لا تعرف.

وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا الشِّفَاءُ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ»

لقوله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ لِأَهْلِهِ لَا شَكَّ فِيهِ وَ لَا مِرْيَةَ وَ أَهْلُهُ الْأَئِمَّةُ الْهُدَى الَّذِينَ قَالَ اللهُ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢]»[1].

وجاء في حديث آخر، مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: «مَا اشْتَكَى أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ شِكَايَةً قَطُّ، فَقَالَ: بِإِخْلَاصِ نِيَّةٍ وَمَسَحَ مَوْضِعَ العِلَّةِ، وَيَقُولُ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ إِلَّا عُوفِيَ مِنْ تِلْكَ العِلَّةِ، أَيَّةِ عِلَّةٍ كَانَتْ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي الآيَةِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.»[2].

السعادة وأبعادها

للسعادة جزءان الأول: (رفع النقمة) وهو الشفاء و(جلب النعمة) وهو الرحمة، ويعني الأول رفع الألم والفقر والمرض، ومنع حدوث الفتن والحروب وما شابه.

أما الجزء الثاني للسعادة فهو: السكينة والاطمئنان ببلوغ الإنسان غاياته. وهكذا كان القرآن شفاء ورحمة.

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ إن في القرآن منهاجك الذي يصل بك إلى أهدافك، ولكن لا يستفيد من هذا المنهج إلا المؤمنون الذين يطبقون القرآن بوعي واستقامة وإخلاص، أما الظالمون الذين يغيرون معاني آيات القرآن حسب مصالحهم فإن القرآن سيكون لهم شقاء في الدنيا، وخسارة في الآخرة، فهو لا يدع مناسبة إلا ذم فيها هؤلاء الظالمين بائعي الحق، وعبدة الشيطان والهوى، ونتساءل: لماذا خصت الآية الظالمين بالذكر والجواب:

أولاً: إن الظلم ظلام القلب، وحجاب وظلمات يوم القيامة.

ثانياً: لأن الظالم يفسق عن حدود الله، ويعبد شهواته فإنه يفسر آيات القرآن حسب أهوائه، وبدل أن تدله آيات الذكر على صراط الجنة تهديه إلى سواء الجحيم، لأنه هو الذي حرفها، وغير معانيها ويكون مثله كمثل الذي يغير علامات الطريق، فتضله عن الجادة، ولو لم يتبع هواه إذا لاهتدى إلى الجادة.

[٨٣] كيف لا ينتفع الظالمون من القرآن إلا خسارا؟.

يبدو أن السياق يجيب عن ذلك في الآيتين التاليتين، حيث أن الآية الأولى تبين طبيعة

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٤، ص١١٢، تفسير العياشي: ج٢ ص٢٦٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٩٢، ص٥٤.

الإنسان والتي لا تقضي استقبال النعم، والانتفاع بها أما الآية الثانية فتوضح اثر العادة في سلوك البشر وحيث أن ما تعود عليه الظالمون وهم سائر الناس غير المؤمنين من الذين انزل عليهم القرآن فلم يستجيبوا له أقول: إن سائر الناس قد جبلوا على الأعراض عند النعم، كما إنهم يعملون على الشاكلة التي ساروا عليها سابقا، فلا يتركونها بسهولة إلى القرآن، بلى المؤمنون وحدهم يتجاوزون هذه الحالة، ويرتفعون إلى مستوى الإيمان.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ قالوا: بأن معنى الآية إنه يعرض عن ذكر ربه عند النعمة، ويبطر بها ويتولى، فالآية حسب قولهم نظير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾.

ولعل الأقرب إلى السياق أن نقول: إن هذه الآية تبين صفة أخرى للإنسان وهي الاستهانة بالنعم، وعدم الاستفادة منها، وعدم تقديرها حق قدرها، والأعراض هنا عن النعم ذاتها وليس عن الله، بلى إن الإعراض عن الله وعن نعمه ينبع من صفة واحدة، ذلك لأن من يعرض عن ربه ولا يشكر نعمه، ويزعم إنما أوتي النعم بعلمه وجهوده، بل يرى أن النعم جزء من ذاته، وأن له طبيعة مميزة عن غيره بدليل إنه خص دون غيره بالنعم فعنصره أفضل من سائر الناس.

أقول: إن مثل هذا الفرد يستهين أيضا بالنعم ويعرض عنها، وبالتالي فإن هاتين الصفتين تنتهيان إلى طبيعة واحدة.

ولأن الإنسان يعرض عن النعمة، ويتعالى عليها، ويتولى بركنه، وينأى بجانبه، فإنه لا ينتفع بالقرآن الحكيم، ولا يكون القرآن بالنسبة إليه شفاء، وهذا أكبر ظلم ذاتي أن يترك المرء الاستفادة من أكبر النعم استهانة بها.

بلى يبذل المؤمن جهدا كبيرا حتى يستفيد من نعمة الوحي، لأنه يتواضع له، ويسمع ويطيع ويقنت لله بخضوعه لكتابه، فيكون الكتاب شفاء له، وهكذا سائر النعم في الحياة.

أوليس العلم نعمة، ولكن من الذي ينتفع به، هل الذي يستهين به أو يتعالى عليه أم الذي يقدره ويكرم مقامه. وحتى الثمرة الناضجة لا ينتفع بها إلا من يقطفها وينظفها ثم يطعمها، أما من يتولى عنها فهل يستفيد منها؟!.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ لأن الإنسان يرى النعم من ذاته فإنه يرى استمرارها، فيتكل عليها، فإذا زالت تصيبه الصدمة وينهار لأنه قد سقط متكأه ومعتمده، وهكذا يستبد به اليأس.

أما المؤمن فيشافيه الله بالقرآن الذي يكمل هذا النقص من طبيعة الإنسان، ويجعله يعتمد على الله، ويلهمه الصبر والأمل.

الشخصية ونهج العمل

[٨٤] ويختلف الناس في مدى انتفاعهم بالوحي، وينبع الاختلاف من شخصياتهم الداخلية، التي تكونت بالصفات والعادات المتباينة.

وبالرغم من أن الله قد وهب للإنسان من القدرة والمعرفة ما يمكنه من صياغة شخصيته حسب ما يشاء، إلا أنه لو لم يفعل ذلك فسوف يقاد بلجام شخصيته، وستكون أعماله في تجاه شخصيته، حتى مواقفه من المعارف الإلهية سوف تتأثر بنوع شخصيته، وصفاته، وعاداته وملكاته.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ الشاكلة مشتقة من كلمة (الشكل). ويبدو أن المعنى المناسب لهذه الكلمة بالنظر إلى أصل معناها اللغوي وسياق ذكرها هنا هو الطريقة والمذهب، أو الطبيعة أو السجية، وبتعبير آخر الملامح والصفات الباطنة للإنسان التي تتحكم في سلوكه وما ينتج عنه من أفعال ومواقف وأقوال، فيكون معنى الآية كل شخص يعمل حسب طريقته وطبيعته، وبالتالي فإن مظهر عمله ينبئ عن مخبر ضميره ونيته، وهكذا تكون أعمال الناس تعبيرا عن طرائقهم، ومذاهبهم، وطبائعهم، وعاداتهم، وعلينا أن نكتشف من خلالها نياتهم، ونصبغ أعمالهم بها.

من هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**وَالنِّيَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ، أَلَا وَإِنَّ النِّيَّةَ هِيَ الْعَمَلُ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ يَعْنِي عَلَى نِيَّتِهِ**»[1].

وقد تكون الأعمال متشابهة إلا أن اختلاف النيات، وشخصيات العاملين، وأهداف العمل يجعلها متناقضة، فالصلاة والصيام والحج قد يقوم بها المخلص فتكون معراجا وجنة وجهادا أكبر، وقد يقوم بها المرائي فتكون وبالا على صاحبها.

والله سبحانه وتعالى هو الحكم الذي يقضي بسلامة النية أو الغل فيها.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ وإذا كنت تحب عملا، أو تهوى طريقة أو تعودت على سلوك ومذهب فلا يعني أن كل ذلك حق، بل مقياس الحق والباطل هو الله الذي أوحي

(١) الكافي: ج٢، ص١٦.

بالكتاب ليكون فرقانا، ويهدينا إلى سبل السلام، فلا تزك نفسك، ولا تجعلها مقياس الحق والباطل.

قل الروح من امر ربي

[٨٥] من أنزل القرآن من عند الله على قلب الرسول؟ ومن يسدد الأنبياء ويؤيدهم بإذن الله؟.

أوليس هو الروح الذي قال عنه ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

فما هو الروح ومن أين يأتي ومن يسوقه؟.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ وهذا الروح ملك من ملائكة الله، مخلوق مدبر، وهو الذي ينزل في ليلة القدر حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٥]. وهو الذي يسدد الله به الأنبياء وهو أعظم من جبرئيل وميكائيل، وكذلك جاء في الأحاديث وأضاف بعضها: «لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ وَجْهٍ لِكُلِّ وَجْهٍ سَبْعُونَ أَلْفَ لِسَانٍ يُسَبِّحُ اللهَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ»[١].

ويرى بعض المفسرين: أن الروح هنا هو روح الإنسان، والكائنات الحية، بيد أن سياق الآية يدل إلى أن المراد منه هو روح القدس، أو ليس الحديث لا يزال عن القرآن وهو الذي نزل به الروح الأمين، بلى لا يمكننا أن نقول روح الإنسان، وجميع الإحياء بل حتى أرواح الملائكة تقتبس الحياة من ذلك الروح، والروح واسطة بين الإنسان والحياة، وهناك العقل هو ظل من ظلال الروح، والعلم الإنساني جزء من علم الروح، ذلك الملك العظيم، وهكذا اختلفت الأحاديث المأثورة عن مصادر الوحي في معنى الروح هنا، فبينما نجد بعضها يؤكد على أنه الملك العظيم، يقول: بعضها بأنه روح الإنسان، والواقع أنهما معا من مشكاة واحد، تعال نقرأ معا بعض تلك النصوص:

١ - يروي حمران عن أبي جعفر (الباقر) وأبي عبد الله (الصادق) عليهما السلام بعد السؤال عن قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾. قَالا: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحَدٌ صَمَدٌ، وَالصَّمَدُ الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ جَوْفٌ، وَإِنَّمَا الرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ لَهُ بَصَرٌ وَقُوَّةٌ وَتَأْيِيدٌ يَجْعَلُهُ فِي قُلُوبِ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ»[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ج ٥٦، ص٢٢٢.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢، ص٣١٦.

٢- وروى أبو بصير عن أحدهما (الباقر أو الصادق عليه السلام) قال: **سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ قَالَ: «الَّتِي فِي الدَّوَابِّ وَ النَّاسِ، قُلْتُ: وَمَا هِيَ -الروح-؟ قَالَ عليه السلام: «هِيَ مِنَ الْمَلَكُوتِ مِنَ الْقُدْرَةِ»**(١).

٣- وروى أبو بصير ايضا قال: **«سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ قَالَ عليه السلام: «خَلْقٌ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ، كَانَ مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله، وَهُوَ مَعَ الأَئِمَّةِ وَهُوَ مِنَ الْمَلَكُوتِ»**(٢).

وهكذا نجد الروح من الملكوت، سواء الذي يؤيد الله به الرسول أو الذي يحيي به الله البشر والإحياء، إلا أن الله يعطي منه لمن يشاء كيف يشاء بقدر ما يشاء، وهو اعلم بحقيقته لذلك قال ربنا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

[٨٦] ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ إن القرآن ليس من صنع الرسول ولا غيره من البشر، إنما أوحي إليه عن طريق الروح، والدليل على ذلك: إن باستطاعة ربنا سبحانه أخذ هذا الوحي من نبيه، ولا يستطيع النبي أن يفعل شيئا، وهذا دليل على قدرة الله.

[٨٧] ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ ومن رحمة الله بعباده تنزيله الوحي عبر الروح على رسوله، وهذه هي أكبر النعم على أمة الرسول حيث يتبعون منهاجه ويستضيئون بقبسات هديه، والعقل والعلم ظلال لتلك الروح ومثل هذه الروح لا تقهر، ومثل هذا القرآن لا يهزم.

القرآن يتحدى

[٨٨] ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ لو قام جميع سكان المعمورة بالاجتماع من أجل صنع آية كآيات القرآن لما استطاعوا ذلك، والقصص التاريخية كثيرة في هذا المجال، فذات مرة اجتمع ثلاثة من كبار بلغاء العرب وزنادقتهم وفيهم ابن أبي العوجاء الملحد المعروف، وقرروا في اجتماعهم تأليف آيات يضاهون بها القرآن، وطال بحثهم لمدة سنة كاملة فما رجعوا إلا بالخيبة والخسران(٣)، وهاهو القرآن بعد أكثر من أربعة عشر قرناً عام يتحدى الغرب والشرق، فهل

(١) بحار الأنوار: ج ٥٨، ص٤٢، تفسير العياشي: ج ٢، ص٣١٧.
(٢)الكافي: ج ١، ص٢٧٣، تفسير العياشي: ج ٢، ص٣١٧.
(٣) راجع الخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي، ج٢، ص٧١٠.

من منافس؟! كلا.

[٨٩] ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ومن معاجز القرآن إنه يحدثنا عن كل شيء، ويضرب لنا الأمثلة في كل ناحية، لذلك كان القرآن واقعي التشريع، صحيح المنهج، فواضعه علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض.

﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ فبدل شكر النعم تراهم يكفرون بها، لماذا؟.

لأن منطلق الناس في تقييم القرآن هو منطلق مادي بحت، وهم يظنون أن القرآن يجب أن يوزن بمقدار الذهب، ومكاييل الفضة، ومساحات العقار، وهذا هو نمط تفكيرهم المنحرف.

حوار العاجزين

[٩٠] ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ يبدأ المعارضون في طرح أفكارهم التبريرية، وشروطهم التعجيزية في محاولة يائسة للتنصل من مسؤوليات الإيمان بالرسالة، فبدل أن يسألوا عن تطلعات الرسالة، وبرامجها في الحياة يطلبون من الرسول أن يفجر لهم ينبوعا من الماء، وما قيمة الينبوع أمام منهج الحياة، وتنظيم السلوك والمجتمع؟!.

[٩١] ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ وهنا تتجلى بوضوح مادية النمط التفكيري للكفار، فهم يطالبون بالماء والنخيل والجنات والأنهار لتكون شواهد على صدق الرسالة، ولكن السؤال الذي يطرح على أمثال هؤلاء هو: ماذا يعني تفجر الينابيع بالنسبة للرسالة؟ وما علاقة مبدأ الرسالة وأحقيتها بهذه المطالب المادية؟ وهل تصلح هذه لكي تكون شواهد صدق على عصمة الرسالة وعظمتها؟.

[٩٢] ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ ويستمر السفه الفكري، والخواء الثقافي النابع من المنطلقات المادية للمجتمعات الكافرة، فهم تارة يطلبون ينابيع الماء، وفي أخرى يطالبون بالجنات والأنهار، ويبلغ بهم السفه حدا يطالبون بحضور الله وملائكته عندهم ليتأكدوا صدق الرسالة (!!) إنهم قوم لا يؤمنون إلا بالمحسوس، وأما غير ذلك فهم به كافرون، والقرآن يدعوهم لإثارة عقولهم، والتخلي عن هذه المنطلقات السخيفة في تقييم الأفكار وأبعاد الحياة.

[٩٣] ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ ومن مقومات الرسالة والرسول عند أمثال هؤلاء: امتلاك الوسائل

المعيشية كالبيت الجميل، والمكانة الاجتماعية الرفيعة، والكلمة النافذة، وأن يكون فوق البشر انطلاقا من نظرتهم المادية القاصرة، وهم يطلبون صعود الرسول للسماء، وأخذ رسالة من الله مكتوبة في ورقة.

إن كل رسالة إن لم تكن مختومة بختم الواقع، ومدموغة بدمغة الحق الإلهي هي باطلة بلا جدال، وهذا هو المعيار الحق لتقييم الرسالات وليست تلك المنطلقات الهزيلة.

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ إن مشكلة الناس هي وقوفهم عند نقطة بشرية الرسول، واختلاط المقدمات بالنتائج في شكل غير صحيح في تقييمهم للرسالة مما يؤدي إلى نشوء معايير ومقاييس غير سليمة، فمصدر الرسالة هو الله وإليه المرجع والمصير، وما الرسول إلا بشير ونذير، يبلغ رسالات الله، وأمره ونواهيه، قد تم اختياره من البشر، ومن مجتمعه بالذات لاعتبارات ذاتية واقعية، وأخرى نفسية، واجتماعية وغيرها مما لا يلم به إلا علم الله الواسع.

التكذيب أسبابه ونتائجه

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (٩٦) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ [١] زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا [٢] (١٠٠) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا [٣] (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا (١٠٣)

(١) خبت: الخبو سكون النار عن الالتهاب.
(٢) قتوراً: القتر التضييق وهي مبالغة في البخل.
(٣) مثبوراً: هالكاً.

وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١) (١٠٤) ﴾.

هدى من الآيات:

ما الذي منع الناس عن الإيمان برسالات الله؟ يجيب القرآن عن هذا السؤال ويعالجه.

أولاً: تساءلوا مستغربين ومنكرين ابعث الله بشراً رسولاً؟ وأجابهم الوحي بلى، أوليس النبي ينبغي أن يكون من جنس من يرسل إليهم، فلو كان سكان الأرض ملائكة إذا كان رسولهم ملكا مثلهم.

ثانياً: إن الله هو الذي يشهد على صدق الرسالة وكفى به شهيدا، وإن عليه الهدى، أما من يضلله فلن تجد لهم أولياء لأنهم سيحشرون على وجوههم عميا، وصما، وبكما، وجزاؤهم جهنم لماذا؟ لأنهم كفروا بآيات الله، وأنكروا البعث والنشور.

نستوحي من السياق أن معالجة الكفر بالرسالات تكون بالتذكرة بالجزاء الموفور الذي ينتظر الكفار في يوم القيامة وهكذا نجد القرآن يدفع هنا شبهة الكفار حول البعث، ويتساءل أو ليس خالق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم؟

وبعد أن يبين طبيعة الشح عند الإنسان (ولعلها سبب من أسباب الكفر بالرسالات) يبين قصة موسى عليه السلام كيف واجه فرعون الذي قال: إني لأظنك يا موسى مسحورا، فأجابه إن الوحي بصائر، وقال له: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الاسراء: ١٠٢] ولخصت هذه القصة كثيرا من حقائق سورة الإسراء حيث أراد فرعون استفزاز موسى وقومه فأغرقه الله ومن معه جميعا، وأورث بني إسرائيل أرضهم إلى أجل محدود.

بينات من الآيات:

[٩٤] من أهم الموانع التي تصد طائفة كبيرة من الناس عن الإيمان بالرسالات شبهة عميقة الجذور تقول: لماذا الرسل بشر، ولعلها تعود إلى إحساسين شاذين:

ألف: استصغار الإنسان نفسه مقارنة مع ما في عالم الطبيعة من عجائب خلق الله، ولذلك يزعم أن الله سبحانه وتعالى أعظم من أن يتصل بالإنسان بصورة مباشرة أو يبعث من

(١) لفيفاً: اللفيف الجماعات، والمعنى قد لفَّ بعضكم في بعض.

البشر رسولا!.

باء: عدم معرفة الوسيلة التي يتم عبرها اتصال الله بأهل الأرض، فهل ينزل من السماء ملك إلى الأرض؟ من هو إذن؟ وكيف يكون؟.

وقبل كل شيء لابد أن نعرف:

إن التعجب نوع من الجهل وإنه سيكون حجابا بين المرء والحقيقة، وإن الكثير من الناس يكذبون بالحقائق لاستغرابهم منها، وعدم إحاطة علمهم بأبعادها، كما يقول ربنا ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]. كذلك يؤكد ربنا بأن سنة الله قضت بأن يرسل الرسل من نفس جنس المرسل إليهم، ولو كان سكان الأرض ملائكة إذا لبعث منهم رسولا إليهم.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ إن الحجاب الذي حجب الناس عن الإيمان برسالات الله هو عدم تصديقهم بهذه الحقيقة: إن يبعث الله بشرا رسولا، وكأن الرسالة مرتبة عالية لا يمكن إن يصل إليها بشر أو كأن اتصال الغيب بالشهود محال.

[٩٥] ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ لو كان سكان الأرض ملائكة لبعثنا إليهم رسولا منهم ومن جنسهم، وهكذا فإن الرسول، أي رسول هو من نفس القوم الذي بعث إليهم قال ربنا سبحانه:

- ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]..
- ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].
- ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥، هود: ٥٠].
- ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٢].

وهناك تفسير آخر لهذه الآية يقول: إن ربنا سبحانه وتعالى يذكر بأن من طبيعة الإنسان حاجته للتذكير، لأن مادته ترابية تجذبه نحو الشهوات، كما أن فيه ومضة روحية ترفعه نحو القيم لذلك فهو بحاجة إلى عامل خارجي يقوي شعوره بالومضة الروحية حتى يعلو، فكانت هذه حاجته إلى الرسالة: ولو خلق الله الملائكة كما خلق الإنسان من طبيعة ترابية تقوم بالفساد كما

قالت الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. إذا لبعث الله إليهم رسولا ملكا منهم، وهذا التفسير يتبناه العلامة الطباطبائي رحمه الله[1]، ويستدل على ذلك بكلمة ﴿يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ﴾، دلالة على جاذبية الأرض للإنسان التي تسبغ على حركته فوق الأرض طمأنينة وتوازنا ولولاها لصعد في الهواء، أو لاضطرب في مشيه وحركته.

شهادة الله

[٩٦] ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾
تلك كانت شبهات تحول بين تصديق الناس للرسالات، ولكن صدق الرسالات يتجلى عبر عدة مظاهر جعلها الله شواهد على صدق الرسالة، وكفى بالله شهيدا.

أولاً: لقد أودع الله في عقل الإنسان مجموعة قيم وتعاليم ترشده إلى الحق، والرسالات السماوية حين تأتي للبشرية تدعو الإنسان إلى ذات القيم والتعاليم وهكذا يطمئن الإنسان إلى صدق تعاليم الرسالة وقيمها، لانطباقها على القيم والتعاليم التي يحملها في نفسه، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً وَلِكُلِّ صَوَابٍ نُوراً»**[2].

وجاء في حديث الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم: **«.. يَا هِشَامُ إِنَّ للهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ حُجَّةً ظَاهِرَةً وَ حُجَّةً بَاطِنَةً فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالأَنْبِيَاءُ وَالأَئِمَّةُ عليهم السلام وَأَمَّا البَاطِنَةُ فَالعُقُول»**[3].

وهذه شهادة بأننا لو تجردنا من الضغوط والأهواء والعادات والأفكار المسبقة، لرأينا بوضوح انطباق تعاليم القرآن مع التعاليم التي تكنها عقولنا وفطرتنا.

ثانياً: رغم كل الصعوبات والعراقيل التي وضعها أعداء الرسالة ولا يزالون نجد أن الإسلام قد اجتاح الأرض كلها، ولولا تأييد الله سبحانه للمسلمين في حروب بدر وحنين والأحزاب وغيرها إذا لاندحر الإسلام والمسلمون منذ البداية. ومن ذلك نصره الله للمسلمين في معاركهم المفصلية مثل عين جالوت، ولولا ذلك لانطفأت شمعة الإسلام، ولولا تأييده للمؤمنين عبر التاريخ في مواجهة التحديات المصيرية لما انتعش الأمل بتحقيق وعد الله ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ

(١) راجع تفسير الميزان: ج١٣، ص٢٠٨.
(٢) مستدرك الوسائل: ج ١٧، ص٣٤٤.
(٣) بحار الأنوار: ج ١، ص١٣٧.

﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. واستمرار التأييد الغيبي لدينه دليل على صدق النبي وصدق رسالته، وما أكثر الشواهد الغيبية، والألطاف الخفية والظاهرة التي أنعم الله بها على عباده المؤمنين في جهادهم.

ثالثاً: عظم درجة رسول الله ﷺ ومنزلته الخصيصة عند الله فقد جرب بعض أصحابه كيف كان يشفع لهم عند الله في تحقيق مسائلهم، فيستجيب الله لهم، بل لا تزال الشفاعة إلى يومنا هذا، فالله يستجيب لكل مؤمن إذا توسل إليه بجاه رسوله، وقد جاء في الحديث فيما روى الطبراني في الأوسط عن علي عليه السلام موقوفا قال: «**كُلُّ دُعَاءٍ مَحْجُوبٌ عَنِ السَّمَاءِ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ**»(١).

وهناك الكثير من الشواهد التي يوجزها الله سبحانه بقوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾. هذا وقد ذهب البعض في تفسيره لهذه الآية ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأنها قطع للجدل والصراع بين الرسول ﷺ وقومه حينما غضب عليهم لعنادهم، فقال: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣]. وهذا تفسير بعيد، بل هذه شهادة من الله على صدق الرسالة كما فعل الله لأنبيائه السابقين عليهم السلام، حيث حول نيران نمرود إلى برد وسلام على إبراهيم، وكانت حجة على صدق إبراهيم عليه السلام، وإغراق فرعون، ونصر موسى، وإحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام وكثير من الحجج التي حدثنا عنها القرآن من هذا القبيل معاجز عاجلة أو آجلة تشهد.

على صدق الرسالات

[٩٧] ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ ثم يبين القرآن إن الله هو الهادي الذي يهدي العباد إلى الرسالة والإيمان بها، وسبق أن أوضحنا أن الهداية مرحلة متقدمة من التكامل البشري، لأن الإنسان لن يبلغ مرحلة الهداية إلا بعد رحلة شاقة، ولن يصل إليها الضال الذي حجبته المعاصي عن رؤية الحق وأولئك لا ينفعهم أحد من أوليائهم شيئا.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ لأنهم لم يستفيدوا من نعم الحواس والعقل، لذلك سوف يسلبهم الله تلك النعم يوم القيامة، وهذا جزاء من عطل وظيفة عينيه وأذنيه ولسانه.

---

(١) وسائل الشيعة: ج ٧، ص٩٦.

﴿مَّأْوَنهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ كلما ضعفت نار جهنم باعتبارها مادة، يزودها الله سبحانه بالوقود لتزداد سعيرا -والعياذ بالله- فالعذاب دائم والنار تتجدد، ولا منقذ لنا من عذابها سوى أخلاق الإيمان، ومحض الطاعة، وانتهاز الفرص واختلاس لحظات العمر، لنقضيها في عبادة الله، وأمامنا فرصة عند كل منعطف في مسيرتنا. فرمضان ربيع المؤمنين، والحج معراج الصالحين، فيجب أن لا نفوت تلك الفرص، والحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «مَنْ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ إِلَى قَابِلٍ إِلَّا أَنْ يَشْهَدَ عَرَفَةَ»[1].

فلننقذ أنفسنا من نار جهنم التي لابد من ورودها كما قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. فمن استطاع إنقاذ نفسه، وتدرع ضد جهنم بلباس التقوى فقد فاز.

[٩٨] ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فعذاب جهنم الدائم جزاء من يكفر بآيات الله، لا شفقة ولا عطف عليهم لأنهم كفروا، إن حجب العصبية وحب الذات واتباع الشهوات تغطي قلوبهم ومن دون التخويف الذي يوقظ القلب، وينشط فيه العقل والإرادة لا يمكن اختراق تلك الحجب المتراكمة، وأي تخويف أعمق أثرا من تخويفهم بعذاب جهنم، هكذا يعالج الكتاب أمراض القلب، ويوفر للإنسان أفضل فرصة للخلاص من حجب قلبه.

البعث من جديد

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وكأنما هذا الإشكال سينقذهم! إن الله قادر على البعث، وسيرون العذاب بعد حين، وحالة الاستغراب والتعجب التي حالت بينهم وبين الإيمان بالآخرة لن تفيدهم.

[٩٩] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾

أو لا تكفي الطبيعة بكل روعتها وبهائها وما بها من جبال، ووديان، وبحار، وأنهار، ومنظومات، ومجرات شهادة على قدرة الله سبحانه! وهل خالق كل هذا يعجزه خلق الإنسان من العدم، وما دام الفرد قد خلق لا من شيء فهل يعجزه أن يعيد خلقه مرة أخرى؟!.

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ للإنسان أجل لا ريب في ذلك، وأموره جميعا بيد الله، بقاؤه، حياته، موته، وحياته من جديد وإذا أخر الله سبحانه عذابهم فإنما رحمة بهم، وتنفيذا لأجل مقدر سلفا، ولعلهم يرجعون، ولكنهم بدل أن يشكروا نعمة الله وينتفعوا بهذه الفرصة

(١) الكافي: ج٤، ص٦٦.

الأخيرة التي منحت لهم تراهم يكفرون بالله، ويكفرون بنعمة الأجل، بل يتخذون من تأخير الأجل دليلا على عدم العقاب، أفلس ذلك منتهى الكفران بالنعمة؟!.

بلى، والسؤال لماذا هذا الكفران؟.

الجواب: لأنهم ظلموا أنفسهم. وظلموا الناس، وتجاوزوا حقوق الله وحقوق الناس.

﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ كلما ازدادت الجرائم حجبت القلوب عن الإيمان فيكفرون، وهذه فكرة طالما تكررت في القرآن الكريم، وهناك تجربة شخصية يمكن لأي شخص أن يلاحظها في نفسه فعندما يدفع الشيطان الإنسان إلى ارتكاب معصية ما تجد قلبه معرضا عن ذكر الله، وخلال صلاته يكون مشغول البال، أما حينما يكون القلب نظيفا فإنك تجده متصلا بنور الله سبحانه حتى في غير الصلاة.

[١٠٠] ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ الحاجز الآخر الذي يحجز الإنسان عن الإيمان هو (البخل) فالإنسان مجبول على الشح سواء كان غنيا أو فقيرا، فلو كان يملك خزائن الله، وخزائن رحمته التي وسعت كل شيء لقبض يده خشية الإنفاق.

لقد تكررت في سورة الإسراء المباركة مثل هذه الآية التي تذكرنا بطبائع الإنسان كقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وقوله ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [المعارج: ٢٠]. ولعل السبب يكمن في أن هذه السورة تبين فوائد الوحي ومن أعظم فوائده: شفاء البشر من طبائعه الضعيفة والمنحرفة، ومن هنا ذكرت السورة ببعض هذه الطباع.

[١٠١] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ لقد كذبوه لأنهم نظروا إليه بمثل نظرتهم إلى نبيكم، فقد كان راعيا، ذا ملابس بسيطة وحين قال: إني رسول رب العالمين إليكم اتهمه فرعون بالجنون.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ يبدو أنه زعم أن موسى قد ابتلي بالسحر لأنه كان شائعا في مجتمعه، ولأن عواقب هذه الدعوة كانت تضر موسى، ولا يقدم على مثلها عاقل.

هكذا كان يزعم فرعون ذلك الجبار الكافر بجبار السماوات والأرض سبحانه.

والواقع أن تحدي أنبياء الله لسلطات عصرهم وفساد مجتمعهم كان عظيما وشاملا

وجذريا، إلى درجة كانوا يتهمون بالجنون لولا أن كل تصرفاتهم وأقوالهم كانت تفيض بالحكمة والمعرفة، فلو لم يكونوا متصلين بالغيب، وواثقين من نصر الله لهم، ومخلصين لقضيتهم فهل كان تحديهم غير الجنون، إذا ذات التحدي كان أعظم شهادة على صدق رسالاتهم، ولعل القرآن ينقل لنا تهم الطغاة للأنبياء بالجنون لنعرف هذه الحقيقة.

ولم يكن موسى مسحورا بل كان رسولا، وعلامة رسالته تحديه لسلطة فرعون، وإرهابه وتضليله لذلك قال:

[١٠٢] ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ إنك هالك يا فرعون فأنت تعلم أن الحق معي، إلا أن فرعون ما كان يعلم عن نبوة موسى علم إيمان، وإنما كان يعلم علم حجة، بمعنى أن الحجة ثبتت عنده، ولكن لم يؤمن، وتلك الآيات العظام لا تجري على يد إنسان غير نبي لذلك قال ربنا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون أن الآيات التسع وهي: خروج اليد بيضاء من غير سوء والعصا -والسنون- ونقص الثمرات - والطوفان - والجراد - والقمل والضفادع - والدم إنما هي من عند الله ولم تجر على يد إنسان عادي.

وقرئ: (لقد عَلِمْتُ) بالضم يعني موسى هو الذي علم كما يؤيد ذلك حديث يروى عن الإمام علي عليه السلام يقول: فيما معناه: «**كَلَّا لَمْ يَعْلَمْ فِرْعَونُ أَنَّ اللهَ بَعَثَ مُوسَى بِتِلْكَ الرِّسَالَةِ، إِنَّمَا مُوسَى هُوَ الَّذِي عَلِمَ فَهُوَ وَاثِقٌ مِنْ أَمْرِهِ**»[١].

والقرآن جعل الكتب السماوية بصائر تساعد الناس على رؤية الحقائق، ولما كذب فرعون بتلك الحقائق كلها بصره موسى عليه السلام بخاتمته ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾!.

[١٠٣] حينئذ ثارت ثائرة فرعون ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ حيث أراد أن يزعج موسى عليه السلام بطرده مع بني إسرائيل، ونفيهم من البلاد إلا أن الله سبحانه وتعالى وقف له بالمرصاد ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾.

[١٠٤] وهذا أحد معاني شهادة الله على صدق رسالات الأنبياء، فقد أخذ الله سبحانه وتعالى فرعون وملأه، ونبذهم في اليم فابتلعهم الماء كما يبتلع النهر الحصاة ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي

---

(١) ذكر الطوسي في التبيان بعد ذكر وجوه قراءة ﴿عَلِمْتَ﴾، أن علمت بضم التاء قراءة الكسائي رويت هذه القراءة عن أمير المؤمنين عليه السلام التبيان ج ٦، ص ٥٢٦. ونسب صاحب تفسير الصافي القول المذكور «كَلَّا لَمْ يَعْلَمْ فِرْعَونُ...إلخ» إلى صاحب مجمع البيان (تفسير الصافي ج ٣، ص ٢٢٥ الفيض الكاشاني).

إِسْرَآءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ قالوا في معنى اللفيف إنه بمعنى متلاحم بحيث يلف بعضه ببعض، فلا يميز البعض عن الآخر لشدة اندكاكهم ببعضهم.

وهكذا ذهب فرعون وبقي منه عبرة للعالمين!.

و بالحق أنزلناه وبالحق نزل

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ [1] وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾

هدى من الآيات:

هذا هو الكتاب، وتلك هي رسالات الله التي فيه، إنه الحق الذي أنزله الله وسوف يحفظه، وأما الرسول فإن هو إلا مبشر ونذير، وإنما نزله على دفعات، لأنه أبلغ أثرا حيث يستوعبه الناس وأن للقرآن فئة من الناس يؤمنون به أيما إيمانا، فهم يخرون للأذقان ساجدين كلما تليت عليهم آياته، ويسبحون الله ويثقون بوعده، ويسجدون له ويبكون ويزيدهم القرآن خشوعا.

إن هؤلاء الذين يصوغهم الوحي مثل حي للقرآن وشهادة مبينة على صدقه، وعلى أنه من الله أوليس القرآن يهدي الناس المؤمنين إلى ربهم ويأمرهم بدعائه وبأسمائه الحسنى، يأمرهم بالصلاة دون الجهر من القول ويختم القرآن سورة الإسراء المباركة بحمد الله، كما بدأها

(١) مكث: مهل وتأنٍ.

بتسبيحه، ذلك الله الواحد الأحد، الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل.

التسبيح والحمد والتكبير هو نسب الله وصلة العبد به سبحانه وتعالى.

بينات من الآيات:

[١٠٥] ما هو محتوى الرسالات؟ إنه الحق الذي أنزل الله به القرآن، وإنه الحق الذي بقي القرآن عليه دون أن تمد إليه يد التحريف، ولكن ما هو الحق؟.

١- وجود الكون والإنسان حق.

٢- قوانين الطبيعة، تلك السنن الإلهية التي أجراها الله في كل شيء حق.

٣- عقل البشر الذي أودعه الله قلب كل إنسان وبه يستوعب واقعيات الأشياء حق.

والقرآن حقيقة واقعة وقد نزل ليعكس الحقائق ويهدي إلى السنن ويثير العقول كمحتواه حق لا ريب فيه.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ لقد قدر الله أن ينزله بالحق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾، وتحقق هذا التقدير ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.

وأن محتواه حق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ وثمراته حق ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.

وأن الحق الذي أنزله الله به ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ سوف يستمر ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.

أو لم يقل ربنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فلم ولن يقدر أحد على تغييره، هكذا ينبغي أن تفهم هاتان الكلمتان.

قال بعض المفسرين: إن نزول القرآن كان مصاحبا للحق، كما أن الحق كان مصاحبا للقرآن، ونتساءل ما هو معنى الباء في قوله بالحق؟.

الباء: حرف جر للاستعانة فإن قلت: اكتب بالقلم، أي استعن بالقلم في الكتابة وهذا المعنى يصح في الآية، إذ أن الحق محتوى القرآن وجوهره بل إن كل آية فيه دليل حق، لأن القرآن جاء لإحقاق الحق كله.

قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ الرسول بالنسبة إلى من أرسل إليهم لا يعدو أن يكون مبشرا لهم بالخير أن هم آمنوا، ونذيرا لهم بالعذاب إن هم كفروا ولم يكن الرسول كفيلا أو وكيلا عليهم ولم يؤت صلاحية تغيير القرآن، وقد عصمه الله من أن يغير فيه شيئا.

[١٠٦] ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ للقرآن عدة أسماء فمرة يقال: إنه كتاب لأنه يكتب، ومرة يقال: إنه فرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل، ومرة يقال: إنه ذكر لأنه يذكر، وهكذا يسمى القرآن قرآنا لأنه يقرأ، وهكذا تختلف المسميات. والمسمى واحد ولعل ذلك من أجل ألا يعتقد الإنسان أن أهمية القرآن تكمن في كتابته أو في قراءته، ولكن أهمية القرآن تكمن في جوهره. وما هذه الأسماء إلا تلخيص لأهداف القرآن وإشارة إليها.

﴿فَرَقْنَـٰهُ ﴾ أي فصلناه وفرقناه ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾: أي بتأن وتؤده، بين فترة وأخرى حتى يستوعبه الناس، ﴿وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴾.

في الآيتين السابقتين قال الله كلمة واحدة باختلاف بسيط، فقال مرة: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾، ومرة ﴿نَزَّلْنَـٰهُ﴾، فما هو الفرق بين الكلمتين؟.

الفرق هو أن كلمة: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ أي أنزلناه جملة واحدة و﴿نَزَّلْنَـٰهُ﴾ أي على أقساط وهذا يؤكد ما قيل: أن القرآن نزل مرتين على قلب الرسول ﷺ مرة في ليلة القدر، والمرة الأخرى خلال ثلاث وعشرين سنة حسب المناسبات والظروف لكي تترسخ آياته وتعاليمه في ضمير المؤمنين وفي واقع الحياة الاجتماعية.

[١٠٧-١٠٨] إن النفس العالمة لا تستطيع أن تصبر أمام النور الباهر المنبعث من القرآن، ويخر صاحبها سجوداً.

ولكن من هم الذين أوتوا العلم؟.

الذين أوتوا العلم هم أحد اثنين:

١- أما أولئك الذين أعطاهم الله العلم من أهل الكتاب عن طريق الرسالات الإلهية السابقة، وعندما سمعوا الآيات القرآنية استوعبوها ورأوا أن هذه الآيات مصدقة لما أتوه، بل هي أعظم فسجدوا للحق وخضعوا له.

٢- وأما أن يكونوا من العرب الذين غمرت نفوسهم بزخات العلم، فكانوا غير أولئك الجهال الذين يبحثون عن الأمور التافهة لذلك فهم عندما يستمعون إلى صوت الحق، ويرون

النور الباهر يؤمنون به، ويستجيبون لندائه.

كان أويس القرني يعيش في الصحراء عيشة العز والشرف، فعندما سمع بالرسول وبقرآنه، آمن به وبقرآنه من دون أن يراه فصار بذلك من المقربين إلى رسول الله ﷺ، وأسلم وأحسن إسلامه فكان يقضي نهاره بالصوم وليله بالعبادة، ومثل أويس أبو ذر والمقداد وكثيرون آخرون.

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ لا يهمنا أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا، فلسنا محتاجين إلى إيمانكم، إذا كان الله يريد أن يضلكم، فهناك من يؤمن بالقرآن إيمانا عميقا، وهم أهل المعرفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي أوتوا العلم من قبل نزول القرآن ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ الخرور: هو الوقوع السريع. خروا بسرعة على وجوههم، ولعلهم نسوا أنفسهم أمام القرآن ووقعوا على أذقانهم ولم يقعوا على جباههم، لأنهم وقعوا من دون اختيار، فوقعوا على أذقانهم ثم سجدوا بوجوههم.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ يبدو من هذه الآية أنهم كانوا يتوقعون شيئا وقد تحقق في القرآن أو أنهم عبروا -بهذه الكلمة- عن غاية إيمانهم، ومنتهى يقينهم حيث نزهوا الله عن خلف الوعد، وأكدوا أن وعده في الكتاب بنصر المؤمنين في الدنيا، وحسن جزائهم في الآخرة حق. وسيتحقق أكيدا. وهذا أحد معاني الحق الذي جاء في الآية السابقة ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾.

إن مخففة وليست شرطية فهي بمعنى (إنه كان وعد ربنا لمفعولا).

[١٠٩] ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ يبدو أن للإنسان أمام الحالات الغريبة، حالتين متدرجتين:

الأولى: الانصعاق والدهشة.

الثانية: الانبهار الواعي.

وقفهنا ولعل الآية التالية تشير إلى هاتين الحالتين حيث يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

في البدء يرتجف الإنسان ويصعق، ثم يستوعب الصعقة وهكذا المؤمنون فهم يخرون أولاً لقوة النور، وما يلبثون أن يتعودوا على قوة النور، فيخرون خشوعا لله سبحانه.

توحيد الله

[١١٠] ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ كتب العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان[1] بحثا مطولًا في هذه الآية فقال ما محتواه: أن البوذيين والمجوس وغيرهم من اتباع الأديان، ومن تأسى بهم يعتقدون أن لله مظهرا وجوهرا، وأن مظهر الله يختلف عن جوهره، فمظهره هي أسماؤه وهي منفصلة عن جوهره، أو بمعنى آخر منفصلة عن ذاته، ويعتقدون بأن الله أجل من أن يسمى بهذه الأسماء، وأسماؤه إنما هي الملائكة، فكل ملك من الملائكة يحمل صفة من صفات الله، فأحد الملائكة يمثل العلم، وآخر يمثل العزة، وآخر يمثل القدرة، فهم يعبدون الملائكة ويجسمونها بتجسيمات مختلفة، وبالتالي فهم لا يعبدونها إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فصنعوا لله ثلاثمائة وستين إلها، كل إله يختلف عن الآخر، فجمال الله يختلف عن عمله وعلمه يختلف عن جلاله، وجلاله يختلف عن قدرته وهكذا..

هذه هي الوثنية، أما عقيدة التوحيد فترفض ذلك وترى أن أسماء الله تشير إلى الحق الواحد فالله رحيم عزيز، وبيد أن العزة والرحمة تشيران إلى ذات واحد، وهكذا جبار وكريم، ورؤوف.. إلخ، وهذه الأسماء مجرد آيات تشير إليه سبحانه فعندما نقول: سميع بصير، فهو سميع بصير بدون آلة سمع أو بصر، وقد قال الشاعر:

عباراتنا شتى وحسنك واحد　　　وكل إلى ذاك الجمال يشير

قال كفار قريش عن الرسول ﷺ مرة: انظروا إلى هذا الصابئي يأمرنا أن نعبد إلها واحدا وهو يعبد إلهين، يقول: الله، الرحمن، فجاءت الآية لتقول: سواء قلت الله أو الرحمن أو الرحيم أو الواحد أو القهار فإن ذلك يدل إلى شيء واحد، وأن الأسماء الحسنى كلها لله وهي ليست بعيدة عنه، فهي صفات له، وهي غير ذاته.

جاء في الحديث عند سؤال هشام بن الحكم الإمام الصادق عليه السلام عن اشتقاق كلمة (الله) فقال له: «**يَا هِشَامُ! (اللهُ) مُشْتَقٌّ مِنْ (إِلَهٍ) وَ (الإِلَهُ) يَقْتَضِي مَأْلُوهاً، وَالِاسْمُ غَيْرُ الْمُسَمَّى فَمَنْ عَبَدَ الِاسْمَ دُونَ الْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ وَلَمْ يَعْبُدْ شَيْئاً، وَمَنْ عَبَدَ الِاسْمَ وَالْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ وَعَبَدَ اثْنَيْنِ، وَمَنْ عَبَدَ الْمَعْنَى دُونَ الِاسْمِ فَذَاكَ التَّوْحِيدُ، أَفَهِمْتَ يَا هِشَامُ؟**) قَالَ: فَقُلْتُ: زِدْنِي، قَالَ عليه السلام:

---

(١) تفسير الميزان: ج٣ ص٢٤١.

إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، فَلَوْ كَانَ الِاسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى لَكَانَ كُلُّ اسْمٍ مِنْهَا إِلَهاً، وَلَكِنَّ اللهَ مَعْنًى يُدَلُّ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الأَسْمَاءِ، وَكُلُّهَا غَيْرُهُ، يَا هِشَامُ! الْخُبْزُ اسْمٌ لِلْمَأْكُولِ، وَالْمَاءُ اسْمٌ لِلْمَشْرُوبِ، وَالثَّوْبُ اسْمٌ لِلْمَلْبُوسِ، وَالنَّارُ اسْمٌ لِلْمُحْرِقِ، أَ فَهِمْتَ يَا هِشَامُ فَهْماً تَدْفَعُ بِهِ وَتُنَاضِلُ بِهِ أَعْدَاءَنَا، وَالْمُتَّخِذِينَ مَعَ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ غَيْرَهُ؟. قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ عليه السلام: نَفَعَكَ اللهُ بِهِ وَثَبَّتَكَ يَا هِشَامُ. قَالَ هِشَامٌ: فَوَ اللهِ مَا قَهَرَنِي أَحَدٌ فِي التَّوْحِيدِ حَتَّى قُمْتُ مَقَامِي هَذَا»[1].

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْجَهْرُ بِهَا رَفْعُ الصَّوْتِ، وَ التَّخَافُتُ مَا لَمْ تُسْمِعْ نَفْسَكَ، وَ اقْرَأْ مَا بَيْنَ ذَلِكَ»[2]. ولعل الآية تشير إلى فكرة هامة هي إنه لا ينبغي الصراخ في الصلاة لأن الصراخ ليس من آداب الدعاء ولا يجوز الإخفات إلى درجة بعيدة صحيح أن الله بعيد عنك بعلوه وجلاله إلا إنه قريب منك بلطفه وعلمه، وكما جاء في الدعاء: «الَّذِي بَعُدَ فَلَا يُرَى وَقَرُبَ فَشَهِدَ النَّجْوَى»[3] ولذلك شرع في الصلوات الإخفات في الصلاة النهارية، والجهر في الصلاة الليلية.

الله يتجلى في كتابه

[١١١] لم تحر البشرية في مسألة كحيرتها في الرب، لأن عقل الإنسان محدود فبالرغم من أن الله علمه الأسماء كلها قَصُرَ عن معرفة كنه وجود الله سبحانه، إذ أن علمه وعقله، وكل وجوده أقل من أن يحيط برب السماوات والأرض، فكيف يحيط بكنهه وهو لم يحط بنفسه علما. بل الإحاطة بكنه الطبيعة من حوله إلا أن الله سبحانه ما ترك الإنسان سادرا في حياته تلك، فقد عرفه نفسه وتجلى له مرتين: مرة في آفاق العالم ومرة في نفسه عبر الذكر الحكيم. وآيات الذكر تذكرنا بآيات الطبيعة.

فنحن إذن أحوج ما نكون إلى القرآن لكي نعرف ربنا، ونعرف أسماءه الحسنى. وإن معرفة الله سبحانه أعظم فائدة يستفيدها الإنسان من خلال قراءته للقرآن، لو قرأها من دون حجاب بينه وبينها، وهي بالتالي أعظم شهادة على صدق رسالات الرب.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَقَدْ تَجَلَّى اللهُ لِخَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ وَ لَكِنَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَ»[4] فهذا القرآن أنزل الله فيه ما لو نزل على جبل لفتّه فتا، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٨٧.
(٢) وسائل الشيعة: ج ٦، ص ٩٨.
(٣) مصباح الكفعمي: ص ٥٧٨، دعاء أول يوم من شهر رمضان.
(٤) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص١٠٧.

هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢٢].

هذا هو حال الجبل الأصم من عبر القرآن ودروسه فكيف بالإنسان.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾؛ الحمد لله على أنه لم يتخذ ولدا!، لعل أحد معاني هذه الكلمة إنه سبحانه لم يفضل عنصرا على عنصر ولا جوهرا على جوهر إلا بالتقوى، مما أعطى للجميع فرصة التعالي إليه، والكمال بفضله، والآية تفضح ما يعتقده الوثنيون من أن لله أولادا هم الملائكة.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَلِدْ فَيُورَثَ وَلَمْ يُولَدْ فَيُشَارَكَ»[1]. وحيث نفي الولد، فإن سبحانه قد نفى عنه الشريك، فإن من لم يلد فإنه لن يكون مولوداً؛ لأنه صمد لا أجزاء له، ومن لم يكن مولودا لا يكون شبيها بشيء، فلا كفو له ولأنه لا شريك له لا ولي له من الذي ينصره لأنه غني بذاته فكيف يستعين بغيره..

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ قيل: «إن هذه الآية جاءت رداً على اليهود والنصارى حين قالوا: اتخذ الله ولدا، وعلى مشركي العرب حيث قالوا: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك، وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لولا أولياء الله لذل الله»[2].

وقد جاء في الدعاء المأثور: «الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً فَيَكُونَ مَوْرُوثاً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ فَيُضَادَّهُ فِيمَا ابْتَدَعَ، وَلَا وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ فَيَرْفِدَهُ فِيمَا صَنَعَ»[3].

لم يكن عند الله شريك فيضاده أو يساعده، لأنه لو كان له شريك يضاده لتزعزع النظام، ولو كان له شريك يساعده فالأول قوي والآخر ضعيف فما هي حاجتنا إلى الضعيف.

في الحديث المأثور عن هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبد الله عليه السلام وكان من قول أبي عبد الله عليه السلام: «لَا يَخْلُو قَوْلُكَ إِنَّهُمَا اثْنَانِ مِنْ أَنْ يَكُونَا قَدِيمَيْنِ قَوِيَّيْنِ، أَوْ يَكُونَا ضَعِيفَيْنِ أَوْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا قَوِيّاً وَالآخَرُ ضَعِيفاً، فَإِنْ كَانَا قَوِيَّيْنِ فَلِمَ لَا يَدْفَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَ يَتَفَرَّدُ بِالتَّدْبِيرِ، وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ أَحَدَهُمَا قَوِيٌّ وَالآخَرَ ضَعِيفٌ، ثَبَتَ أَنَّهُ وَاحِدٌ

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٩١.
(٢) مجمع البيان: ج ٣، ص٤٤٥.
(٣) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢١٨، دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام

كَمَا نَقُولُ لِلْعَجْزِ الظَّاهِرِ فِي الثَّانِي فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهُمَا اثْنَانِ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَكُونَا مُتَّفِقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ أَوْ مُفْتَرِقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَلَمَّا رَأَيْنَا الخَلْقَ مُنْتَظِماً وَالفَلَكَ جَارِياً، وَالتَّدْبِيرَ وَاحِداً، وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ، دَلَّ صِحَّةُ الأَمْرِ وَالتَّدْبِيرِ وَائْتِلَافُ الأَمْرِ عَلَى أَنَّ المُدَبِّرَ وَاحِدٌ ثُمَّ يَلْزَمُكَ إِنِ ادَّعَيْتَ اثْنَيْنِ فُرْجَةٌ مَا بَيْنَهُمَا حَتَّى يَكُونَا اثْنَيْنِ فَصَارَتِ الفُرْجَةُ ثَالِثاً بَيْنَهُمَا قَدِيماً مَعَهُمَا فَيَلْزَمُكَ ثَلَاثَةٌ فَإِنِ ادَّعَيْتَ ثَلَاثَةً لَزِمَكَ مَا قُلْتَ فِي الِاثْنَيْنِ، حَتَّى تَكُونَ بَيْنَهُمْ فُرْجَةٌ فَيَكُونُوا خَمْسَةً ثُمَّ يَتَنَاهَى فِي العَدَدِ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فِي الكَثْرَةِ»[١].

إن ما يتوهمه المتوهمون هو مخلوق لهم، مردود عليهم، فالله لا يوصف بتمثيل ولا يشبه بنظير فبدل أن يفكروا في ذات الله يجب عليهم أن يتفكروا في خلقه الذي يقودهم إليه.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ ليس من الصحيح أن نقول أن الله أكبر من كل شيء، فهل هناك شيء يحتمل أن يكون أكبر منه!؟ وإنما نقول هذا الشيء أكبر من هذا الشيء لوجود تقارن بينهما، ولكن الأصح أن الله أكبر من أن يوصف، لا أن تقول الله أكبر من الشمس فهناك إذ ليست هنالك مقارنة بينهما، كيف تضع الحقير المخلوق بجانب الخالق الكبير؟! ولكن يمكنك أن تقول: إن الشمس أكبر من القمر.

جاء في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال لجميع بن عمير: «**أَيُّ شَيْءٍ اللهُ أَكْبَرُ؟ فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ** عليه السلام: **وَكَانَ ثَمَّ شَيْءٌ فَيَكُونَ أَكْبَرَ مِنْهُ؟. فَقُلْتُ: فَمَا هُوَ؟ قَالَ** عليه السلام: **اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ**»[٢].

وجاء في حديث آخر: عن أبي عبد الله عليه السلام قال رجل عنده: «**اللهُ أَكْبَرُ. فَقَالَ** عليه السلام: **اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِاللهِ** عليه السلام: **حَدَّدْتَهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: كَيْفَ أَقُولُ؟ قَالَ** عليه السلام: **قُلْ اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ**»[٣].

---

(١) الكافي: ج١، ص٨٠.
(٢) الكافي: ج١، ص١١٨.
(٣) المصدر السابق: ص١١٨.

المحتويات

سورة هود ٧
الإطار العام: الاستقامة طريق الجنة ٩
كتاب أحكمت آياته ثم فصلت .... (الآيات ١ - ٤)........................ ١٣
إحاطة علم اللـه.................... (الآيات ٥ - ٨)........................ ١٦
الإنسان بين اليأس والفخر............ (الآيات ٩ - ١٤)........................ ١٩
الإنسان بين الدنيا والآخرة........... (الآيتان ١٥ - ١٦)........................ ٢٣
الخسارة عاقبة الكفار .... (الآيات ١٧ - ٢٢)........................ ٢٥
أنؤمن لك واتبعك الأرذلون............ (الآيات ٢٣ - ٢٨)........................ ٣٠
وما أنا بطارد الذين آمنوا............. (الآيات ٢٩ - ٣١)........................ ٣٤
وما أنتم بمعجزين...................... (الآيات ٣٢ - ٣٩)........................ ٣٧
بُعدا للقوم الظالمين .... (الآيات ٤٠ - ٤٤)........................ ٤١
إن العاقبة للمتقين .... (الآيات ٤٥ - ٤٩)........................ ٤٥
هود: إني توكلت على اللـه .... (الآيات ٥٠ - ٥٧)........................ ٤٩
ألا بُعدا لعاد............................ (الآيات ٥٨ - ٦٠)........................ ٥٣
صالح عليه السلام ينذر قومه............ (الآيات ٦١ - ٦٤)........................ ٥٥
ألا بُعدا لثمود .... (الآيات ٦٥ - ٦٨)........................ ٥٩
أتعجبين من أمر اللـه؟.................. (الآيات ٦٩ - ٧٣)........................ ٦٢
جعلنا عاليها سافلها .... (الآيات ٧٤ - ٨٣)........................ ٦٥
شعيب عليه السلام: أوفوا المكيال والميزان ..... (الآيات ٨٤ - ٨٧)........................ ٧٠
شعيب عليه السلام: لا يجرمنكم شقاقي ...... (الآيات ٨٨ - ٩٥)........................ ٧٤
وما أمر فرعون برشيد .... (الآيات ٩٦ - ١٠٣)........................ ٧٨
عاقبة البشر بين شقاء النار وسعادة الجنة .. (الآيات ١٠٤ - ١٠٩)........................ ٨٢

فاستقم كما امرت .... (الآيات ١١٠ - ١١٢)............... ٨٥
لكي نضمن الأستقامة .... (الآيات ١١٣ - ١١٧)............... ٨٨
وجاءك في هذه الحق .... (الآيات ١١٨ - ١٢٣)............... ٩٢

سورة يوسف ٩٥

الاطار العام: الحاكمية للّـه............... ٩٧
أحسن القصص .... (الآيات ١ - ٣)............... ٩٩
رؤيا تبشر بالمستقبل........ (الآيات ٤ - ١٠)............... ١٠١
مؤامرة الحاسدين .... (الآيات ١١ - ١٨)............... ١٠٦
يوسف يتحدى الفساد........ (الآيات ١٩ - ٢٣)............... ١١٠
مراحل التحدي .... (الآيات ٢٤ - ٢٩)............... ١١٤
وكبرت دائرة التحدي .... (الآيات ٣٠ - ٣٤)............... ١٢٠
رب السجن أحب إليَّ........ (الآيات ٣٥ - ٤١)............... ١٢٤
الكفاءة مقدمة التمكين في الأرض .... (الآيات ٤٢ - ٤٩)............... ١٢٩
الملك من بعد........ (الآيات ٥٠ - ٥٧)............... ١٣٤
فتنة إخوة يوسف عليه السلام........ (الآيات ٥٨ - ٦٦)............... ١٣٩
إني أنا أخوك........ (الآيات ٦٧ - ٧٥)............... ١٤٣
يوسف عليه السلام خطة حكيمة........ (الآيات ٧٦ - ٨٢)............... ١٤٧
ولا تيأسوا من روح اللـه .... (الآيات ٨٣ - ٩٣)............... ١٥٢
من الرؤيا الى الحقيقة........ (الآيات ٩٤ - ١٠٢)............... ١٥٨
في قصصهم عبرة .... (الآيات ١٠٣ - ١١١)............... ١٦٤

سورة الرعد ١٦٩

الإطار العام: آيات الطبيعة سبيل الإيمان ١٧١
أسماء اللـه وتجلياتها........ (الآيتان ١ - ٢)............... ١٧٥
عظمة اللـه تتجلى في الطبيعة .... (الآيات ٣ - ٧)............... ١٧٩
ينابيع الايمان وعوامل الشرك .... (الآيات ٨ - ١٤)............... ١٨٦
هل يستوي الأعمى والبصير........ (الآيات ١٥ - ١٨)............... ١٩٣
المؤمنون.. صفات وتقييم........ (الآيات ١٩ - ٢٤)............... ١٩٧
الكافرون.. صفات وتقييم........ (الآيات ٢٥ - ٢٩)............... ٢٠٣
للـه الأمر جميعا........ (الآيات ٣٠ - ٣٥)............... ٢٠٨

حكما عربيا .... (الآيات ٣٦ – ٣٨) ٢١٥
يمحو اللـه ما يشاء .... (الآيات ٣٩ – ٤٣) ٢١٨
سورة إبراهيم ٢٢٣
الإطار العام: النبي إبراهيم عليه السلام رمز وأسوة ٢٢٥
من الظلمات إلى النور .... (الآيات ١ – ٥)................ ٢٢٧
طاعة الرسل.. هداية ونجاة........................ (الآيات ٦ – ١٢)................ ٢٣١
وخاب كل جبار عنيد........................ (الآيات ١٣ – ٢٠) ٢٣٧
لا تلوموني ولوموا أنفسكم .... (الآيات ٢١ – ٢٧) ٢٤١
الشكر بين الصلاة والزكاة .... (الآيات ٢٨ – ٣٤) ٢٤٧
إبراهيم عليه السلام أسوة في الشكر والدعوة الصالحة (الآيات ٣٥ – ٤١)................ ٢٥١
وبرزوا لله الواحد القهار .... (الآيات ٤٢ – ٥٢) ٢٥٥
سورة الحجر ٢٦١
الإطار العام: البشرية بين المادة والقيم السماوية ٢٦٣
الأمل الذي لم يسعده العمل........................ (الآيات ١ – ٨)................ ٢٦٥
هكذا يحفظ اللـه رسالته .... (الآيات ٩ – ١٨)................ ٢٦٨
قدرة اللـه وحكمته ينبوع العطاء .... (الآيات ١٩ – ٢٥) ٢٧٢
كيف يتحدى المؤمن غواية الشيطان .... (الآيات ٢٦ – ٤٤) ٢٧٥
النهاية بين المتقين والمجرمين .... (الآيات ٤٥ – ٦٠) ٢٨١
العذاب حصاد الظالمين .... (الآيات ٦١ – ٨٤) ٢٨٥
فاصدع بما تؤمر........................ (الآيات ٨٥ – ٩٩) ٢٩١
سورة النحل ٢٩٧
الإطار العام: آفاق التعامل مع النعم الإلهية................................ ٢٩٩
وعلى اللـه قصد السبيل........................ (الآيات ١ – ٩)................ ٣٠٥
لعلكم تهتدون........................ (الآيات ١٠ – ١٨) ٣١٠
التكبر أسبابه وجزاؤه........................ (الآيات ١٩ – ٢٩) ٣١٦
والعاقبة للمتقين........................ (الآيات ٣٠ – ٣٧) ٣٢٢
آثار الإيمان بالآخرة........................ (الآيات ٣٨ – ٤٤) ٣٢٧
إنما هو إله واحد .... (الآيات ٤٥ – ٥٥) ٣٣٣

لله المثل الأعلى .... (الآيات ٥٦ - ٦٣) ٣٣٩
القرآن مقياس الحق ومظهر الرحمة........ (الآيات ٦٤ - ٧٤) ٣٤٤
يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها .... (الآيات ٧٥ - ٨٣) ٣٥٢
لا يؤذن لهم ولا هم يستعتبون ٣٥٨
العلاقات المثا ٣٦١
كيف ٣٦٨
.... (الآيات ١٠٦ - ١١٣)............. ٣٧٤
حر النعم............ (الآيات ١١٤ - ١١٩)............. ٣٨١
حر النعمة وبرامج الوحي............ (الآيات ١٢٠ - ١٢٨)............. ٣٨٥

سورة الإسراء ٣٩١

الإطار العام: الإنسان ذلك المسؤول عن مصيره ٣٩٣
قصة الإسراء .... (الآية ١)........................... ٤٠١
إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم .... (الآيات ٢ - ٨)..................... ٤١٦
الإنسان ذلك المسؤول .... (الآيات ٩ - ٢١)................. ٤٢٢
المسؤولية الاجتماعية للإنسان المؤمن ..... (الآيات ٢٢ - ٣٣) ٤٢٨
الإنسان بين الشرك والهروب من المسؤولية (الآيات ٢٢ - ٣٣) ٤٣٤
الحجب وضرورة التصحيح .... (الآيات ٤٥ - ٥٢) ٤٣٩
العلاقات الاجتماعية البناءة .... (الآيات ٥٣ - ٦٠) ٤٤٤
الإنسان بين كرامة الله وغرور الشيطان . (الآيات ٦١ - ٧٠) ٤٥٤
كيف نواجه خطط إبليس؟............ (الآيات ٧١ - ٨١) ٤٦٣
القرآن بلسم الحياة وشفاء الإنسان .... (الآيات ٨٢ - ٩٣) ٤٧٤
التكذيب أسبابه ونتائجه .... (الآيات ٩٤ - ١٠٤) ٤٨٤
و بالحق أنزلناه وبالحق نزل.......... (الآيات ١٠٥ - ١١١)............ ٤٩٣
المحتويات... ٥٠١